

الدرر والاسباب النجاة

وَالْبُؤْسَاءُ الْبَاقِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً

الجزء الثاني

الدكتور

عبدالقادر محمد المعتصم دهّمان

دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع

المصوّرة - مصر

الدرساو الى سبب النفاة

والبسائلك الناجعة حيا طبتنا فعترا

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك النسخ أو التصوير وغير ذلك دون حصول علي إذن خطي من المؤلف والناشر

الطبعة الأولى : ١٤٤٥ هـ ، ٢٠٢٣ م

رقم الإيداع : ٢٣١٦٦٦١

الرقم الدولي : ٥ - ٦٥٢ - ٩٩٧ - ٩٧٧ - ٩٧٨

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

@DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

01050144505 - 0225117747

المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .

01007868983 - 0502357979

الدُّرْسَاتُ وَالسَّبَبُ فِي الْفِتَاةِ

وَالْبُيِّنَاتُ لِلْبَنَاتِ جِنَاةٌ طَيِّبَةٌ نَافِعَةٌ

الجزء الثاني

الدكتور

عبدالقادر محمد المعتصم دهمان

دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع

المنصورة - مصر

الدرر والاسباب النجاة
الجزء الثاني

وَالْوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ حِينَا لِطَبِئَتِنَا فَعْتَرِ



فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُجِي
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

خامساً: شروط التوبة:

قال الجنيد رَحِمَهُ اللهُ: التوبة على ثلاثة معان:

أولها: الندم.

والثاني: العزم على ترك المعاودة إلى ما نهى الله عَزَّجَلَّ عنه.

والثالث: السعي في أداء المظالم^(١).

وقال القشيري رَحِمَهُ اللهُ: "فأرباب الأصول من أهل السنة قالوا: شرط التوبة حتى

تصح ثلاثة أشياء: الندم على ما عمل من المخالفات، وترك الزلة في الحال، والعزم

على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي فهذه الأركان لا بدَّ منها حتى تصح

توبته. قال هؤلاء: وما في الخبر: «إن الندم توبة» إنما نص على معظمه، كما قال

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحج عرفة»^(٢)، أي: ركنه الأكبر.

فلا يحصل الندم حتى يتقدمه الركن الأول، وهو العلم بضرر الذنوب، وإذا حصل

الندم تبعه الركن الثالث، وهو العمل في الإصلاح. قاله الشيخ عبد العزيز الدريني

رَحِمَهُ اللهُ^(٣).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ في (شرحه لصحيح مسلم): "قال أصحابنا وغيرهم

من العلماء: للتوبة ثلاثة شروط:

(١) انظر: الأعمال الكاملة للجنيد البغدادي، طبعة دار الشروق (ص: ٩٤-٩٦)، وانظر: الرسالة القشيرية

(٢/١)، التعريفات (ص: ٧٠).

(٢) الرسالة القشيرية (١/٢٠٧-٢٠٨). وقد تقدم تخريج الحديث.

(٣) انظر: طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب (ص: ٧٨).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني



- ١ - أن يقلع عن المعصية.
 - ٢ - وأن يندم على فعلها.
 - ٣ - وأن يعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود إلى مثلها أبدًا.
 - ٤ - فإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فلها شرط رابع، وهو رد الظلامة إلى صاحبها، أو تحصيل البراءة منه، يعني: التحلل من صاحب ذلك الحق. والتوبة أهم قواعد الإسلام، وهي أول مقامات سالكي طريق الآخرة^(١).
 - ٥ - ولا بد من زيادة قيد أن تكون توبته لأجل الله عَزَّجَلَّ، كما تقرر في كلام كل من الفخر الرازي، وأبي العباس القرطبي رَحِمَهُمَا اللهُ فيما حرَّرَا من تعريف التوبة. إلا إذا قلنا: إن كلاً من الإقلاع عن المعصية والندم على فعلها، والعزم على عدم العود لمثلها مما يتضمنه معنى التوبة، فأغنى عن التصريح بقيد: أن يكون ذلك لأجل الله عَزَّجَلَّ.
- كما يقال جاء الحديث الأنف الذكر: «الندم توبة»، ولا يخفى أن مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة. وفي الحديث: «.. إن العبد إذا اعترف بذنب، ثم تاب تاب الله عليه» الحديث^(٢). فدلَّ أن مجرد الاعتراف لا يغني عن التوبة - كما سيأتي -.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٥/١٧).

(٢) صحيح مسلم [٢٧٧٠].

الإرشاد إلى سبب النجاة

والوسايل الناجعة لحياتنا طيبة نافعته

الجزء الثاني

ويضاف إلى الشروط:

٦ - أن تكون التوبة في زمن الإمكان، فلا تصح بعد فوات الأوان:
وفوات الأوان خاص وعام، فالخاص: حضور الموت، والعام: طلوع الشمس من
مغربها.

و"حكى عن عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ في شروط التوبة زيادة، فقال: الندم،
والعزم على عدم العود، ورد المظلمة، وأداء ما ضيع من الفرائض، وأن يعمد إلى البدن
الذي رَبَّاهُ بِالسُّحْتِ، فَيُذِيئُهُ بِأَهْمِّ وَالْحَزْنِ، حتى ينشأ له لحم طيب، وأن يذيق نفسه
ألم الطاعة، كما أذاقها لذة المعصية"^(١).

وقال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "والتوبة فرض على المؤمنين باتفاق المسلمين؛
لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقوله
جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

ولها شروط أربعة: الندم بالقلب، وترك المعصية في الحال، والعزم على أن لا يعود
إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياءً من الله عَزَّ وَجَلَّ، وخوفاً منه لا من غَيْرِهِ، فإذا اختل
شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة.

وقد قيل: من شروطها: الاعتراف بالذنب، وكثرة الاستغفار الذي يَحُلُّ عُقْدَ
الإصرارِ وَيَثْبُتُ معناه في الجَنَانِ، لا التَّلَفُظُ بِاللِّسَانِ. فأما من قال بلسانه: أستغفر

(١) فتح الباري، لابن حجر (١٠٣/١١)، إرشاد الساري (١٧٧/٩).

الدرر السبيل إلى السبيل النجاة والوسائد الناجية حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

الله، وقلبه مُصِرٌّ على مَعْصِيَتِهِ فَاسْتَعْفَاؤُهُ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِعْفَارٍ، وَصَغِيرَتُهُ لِاحِقَةٌ بِالْكَبَائِرِ.

فأما من قال بلسانه: أستغفر الله جَلَّ وَعَلَا، وقلبه مصر على معصيته فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرته لاحقة بالكبائر.

وروي عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ: اسْتَغْفَرْنَا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِعْفَارٍ. قَالَ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا مَقُولُهُ فِي زَمَانِهِ فَكَيْفَ فِي زَمَانِنَا هَذَا الَّذِي يَرَى فِيهِ الْإِنْسَانَ مَكْبًا عَلَى الظلم، حَرِيصًا عَلَيْهِ، لَا يَقْلَعُ، وَالسُّبْحَةَ فِي يَدِهِ فِي يَدِهِ، زَاعِمًا أَنَّهُ يَسْتَغْفِرُ مِنْ ذَنْبِهِ، وَذَلِكَ اسْتِهْزَاءٌ مِنْهُ وَاسْتِخْفَافٌ. وَهُوَ مِنْ اتَّخَذَ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ هُزُؤًا. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا﴾ [البقرة: ٢٣١] ^(١).

مسألة: هل الاعتراف بالذنب يكون توبة أم لا؟

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَعَاخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَعَاخِرَ سَيِّئًا عَمَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢]: فَإِنْ قِيلَ: الاعتراف بالذنب هل يكون توبة أم لا؟

قلنا: مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة، فأما إذا اقترن به الندم على الماضي، والعزم على تركه في المستقبل، وكان هذا الندم والتوبة لأجل كونه منهياً عنه من قبل

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص: ٢١٤-٢١٥)، وانظر: تفسير القرطبي (٤/٢١٠-٢١١)، (٩١/٥)، وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي (٧/٨٥-٨٦).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

الله عَزَّوَجَلَّ، كان هذا المجموع توبة، إلا أنه دلَّ الدليل على أن هؤلاء قد تابوا بدليل قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ والمفسرون قالوا: إن (عسى) من الله عَزَّوَجَلَّ يدل على الوجوب (١).

وقال الشيخ أحمد بن علي الجصاص رَحِمَهُ اللهُ: "وإنما ذكر الاعتراف بالخطيئة عند التوبة؛ لأن تذكر قبح الذنب أدعى إلى إخلاص التوبة منه، وأبعد من حال ما يُدعى إلى التوبة ممن لا يدري ما هو، ولا يعرف موقعه من الضرر، فأصح ما يكون من التوبة: أن تقع مع الاعتراف بالذنب؛ ولذلك حكى الله عَزَّوَجَلَّ عن آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عند توبتهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]" (٢).

وفي الحديث: «.. إن العبد إذا اعترف بذنب، ثم تاب تاب الله عليه» الحديث (٣). قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "دليل على أن مجرد الاعتراف لا يغني عن التوبة، بل إذا اعترف به متصلًا نادماً" (٤).

(١) مفاتيح الغيب (١٣٢/١٦)، وانظر: غرائب القرآن (٥٢٥/٣).

(٢) أحكام القرآن (٣٥٤/٤).

(٣) صحيح مسلم [٢٧٧٠]، وقد تقدم.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣٧٣/٧).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

وقال الحافظ العراقي رَحِمَهُ اللهُ: "فيه: قبول التوبة، والحث عليها، وفيه: أن مجرد الاعتراف لا يغني عن التوبة، بل إذا اعترف به متفصلاً نادماً، وليس المراد: الاعتراف بذلك للناس، بل الاعتراف لله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الإنسان مأمور بالستر"^(١).

وقال أبو هلال العسكري في (الفروق): "الفرق بين الندم والتوبة: أن التوبة أخص من الندم وذلك أنك قد تندم على الشيء ولا تعتقد قبحه، ولا تكون التوبة من غير قبح، فكل توبة ندم وليس كل ندم توبة"^(٢).

وقد فصل العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ القول في تعريف التوبة، وبيان شروطها، وأحكامها، في كتابه الحافل: (مدارج السالكين).

سادساً: علامات قبول التوبة والأسباب التي تعين عليها:

ومن علامات قبول التوبة: استقامة حال التائب، بأن يتحقق بشروط التوبة، وأن يكون الباعث إليها: ما استقرَّ في قلبه من: (المحبة، والخوف، والرجاء)، وأن رأس الأمر: المحبة، مع اعتدال جانبي الخوف والرجاء في حال الصحة والقوة - كما تقرر في أركان العبادات القلبية، فالتائب محبُّ لما يقربُه من الله عَزَّوَجَلَّ، وهو يرجو قبول التوبة، ويخاف من عقاب الله عَزَّوَجَلَّ، فذلك أدعى لأن يغفر له.

ومنها: أن يكون كارهاً للمعاصي، نائياً بنفسه عن مواطنها ومسبباتها.

(١) طرح التثريب في شرح التقريب (٦٦/٨).

(٢) الفرق اللغوية (٢٣٥/١).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

ومنها: تجريد التوبة لله عَزَّجَلَّ من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فإن الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب، يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره، وفي الدعاء المشهور: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»^(١)، فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب، وليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بغى عليه وأوذى وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح من الذنوب التي كانت سببًا لتسلط عدوه عليه.

ومنها: أن يدرك العبد أنه لن يطيع الله عَزَّجَلَّ إلا بفضلته وتوفيقه، ولن يحجم عن المعصية إلا بإعانتة.

ومنها: مجاهدة النفس والهوى والشيطان.

ومنها: أن يحذر السالك خطوات الشيطان وتزينه للمعاصي.

ومنها: الاستقامة على طاعة الله عَزَّجَلَّ، والحرص على أداء الفرائض والإكثار

من النوافل.

ومنها: الإكثار من ذكر الله عَزَّجَلَّ، وتوحيده وشكره على نعمه، ومن الدعاء

والاستغفار.

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٧١٦]، عن معقل بن يسار.

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

وإن كثرة ذكر الله عزَّجَلَّ من أعظم أسباب الحفظ من المعصية؛ لأن الذكر يُدَكِّرُ العبدَ بالله عزَّجَلَّ وصفاته، وعظمته، فيكون حاضرًا مع الله جلَّ وعَلَا، ومستحضرًا لما يعتقده عن الله، فيحجزه ذلك عن المعصية.

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُذُوا جُنَّتَكُمْ» قالوا: يا رسول الله، أَمِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟ قال: «لا، وَلَكِنْ جُنَّتَكُمْ مِنَ النَّارِ قَوْلُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُجَنَّبَاتٍ وَمُعَقَّبَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ»^(١).

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "«خُذُوا جُنَّتَكُمْ» - بضم الجيم-، أي: وقايتكم من نار جهنم، ومنه قيل للترس: جنة ومجنة؛ لأن صاحبه يتستر به. وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» المشار إليهن في القرآن الكريم^(٢)، سميت معقبات؛ لأنها عادت

(١) أخرجه النسائي في (الكبرى) [١٠٦١٧]، واللفظ له، وفي (عمل اليوم والليلة) [٨٤٨]، والطبراني في (الأوسط) [٤٠٢٧]، وفي (الصغير) [٤٠٧]، والحاكم [١٩٨٥]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، وأقره الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٥٩٨]، وفي (الدعوات الكبرى) [١٣١]، والدليمي [٢٨٢٩]. قال المنذري (٢/٢٨١): "إسناده جيد قوي". وقال الهيثمي (١٠/٨٩): "رجاله في الصغير رجال الصحيح، غير داود بن بلال وهو ثقة" وللحديث شواهد. انظر: الدر المنثور (٣٩٧/٥).

(٢) قال الله عزَّجَلَّ: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦]، وقال جلَّ وعَلَا: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [مرم:٧٦]، فالإكثار من ذكر الله عزَّجَلَّ من خير الأعمال الباقية التي تنفع العبد في ماله.

الدرر والاسرار في السبيل النجاة والسائل الناجع حيا طيبنا فاعتنا

الجزء الثاني

مرة بعد أخرى وكل من عمل عملاً ثم عاد إليه فقد عقب. وقيل: المعقب من كل شيء ما خلف لعقب ما قبله^(١).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ فِي (جواهر القرآن): "لا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب، أعني: طهارته من أدناس الدنيا؛ وأنسه بذكر الله عَزَّجَلَّ، وحبه لله جَلَّ وَعَلَا. وطهارة القلب لا تحصل إلا بالكفِّ عن شهوات الدنيا. والأنس لا يحصل إلا بكثرة الذكر، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة، ولا تحصل معرفة الله عَزَّجَلَّ إلا بدوام الفكر"^(٢).

وإن الإكثار من ذكر الله عَزَّجَلَّ من خير الأعمال النافعة للعبد، والباقية.

ومن جوامع دعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّي عَلَيَّ، وَأَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَأَمْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ لِي الْهُدَى لِي، وَأَنْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَرًا، لَكَ ذِكْرًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مَطْوَعًا، لَكَ مُخْتَبًا، إِلَيْكَ أَوَاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَاسْأَلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي»^(٣).

(١) فيض القدير (٣/٤٣٥).

(٢) جواهر القرآن (ص: ١٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٣٩٠]، وأحمد [١٩٩٧]، وعبد بن حميد [٧١٧]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٦٥]، وابن ماجه [٣٨٣٠]، وأبو داود [١٥١٠]، والترمذي [٣٥٥١]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه: النسائي في (الكبرى) [١٠٣٦٨]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٦٠٧]، وابن حبان [٩٤٧]، والطبراني في (الدعاء) [١٤١١]، والحاكم [١٩١٠]، وقال: "صحيح الإسناد"، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (الدعوات) [١٩٥]، والبعوي في (شرح السنة) [١٣٧٥]، والضياء =

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

فتأمل ما جمع هذا الدعاء من المعاني الجليلة، وما فيه من خيري: الدنيا والآخرة. ومنها: التأمل في عاقبة كل فعل يقدم عليه، والآثار المترتبة عليه، ومن ذلك: أن يتفكر في آثار المعصية، وما يترتب عليها من العقاب في الآخرة، ومن الآثار غير المرضية في السلوك والعلاقات الاجتماعية.

ومنها: أن يتخير العلاج المناسب لكل ما يعتلج في نفسه من محفزات الشهوة، والبواعث على المعصية.

ومنها: الإكثار من ذكر الموت، ومن سماع المواعظ التي ترغب في الآخرة، والتزود من الحياة الدنيا للآخرة.

ومنها: أن يعقد العزم على ترك المعاصي، وأن يمسي على نية صالحة، وأن يصبح على نية صالحة.

ومنها: مراقبة الله عَزَّجَلَّ في السر والعلن، والمحافظة على قراءة القرآن، ونوافل الصلوات، والصَّوم، وغيرهما، والتعويل على الله عَزَّجَلَّ في كلِّ أمر، والتفويض إليه في كل حال.

وإنما تضعف المراقبة في قلب العبد إذا لم يوقِّر الله عَزَّجَلَّ، ولم يعظمه كما يجب، ولذا قيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه^(١)، فعلى المسلم إذا

= [٦٥]. وقوله: «حويتي»: الحوبة: الإثم. و«اسلل»: أخرج. و«سخيمة»: ما يسكن في القلب من مساوئ الأخلاق.

(١) قاله أبو العباس بن مسروق. انظر: ذم الهوى، لابن الجوزي (ص: ١٤٥)، صفة الصفوة (٢/٣١٩)، مدارج السالكين (٢/٦٥).

الدراسة السبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

حدثته نفسه بمعصية أن يتقي الله، وأن يشعر أن الله ينظر إليه، ويطلع على حاله، فلا يجعل الله أهون الناظرين إليه، وكيف يستحي من الناس ولا يستحي من الله؟! ويخشى الناس ولا يخاف من الله!؟

فمن راقب الله عَزَّجَلَّ حسن عمله. وقد قيل: "شجرة المعرفة تُسقى بماء الفكرة وشجرة الغفلة تسقى بماء الجهل، وشجرة التوبة تسقى بماء الندامة، وشجرة المحبة تسقى بماء الإنفاق والموافقة والإيثار، ومتى طَمَعَتْ في المعرفة ولم تُحْكَمْ قبلها مدارج الإرادة فأنت في جهل، ومتى ما طلبت الإرادة قبل تصحيح مقام التوبة فأنت في غفلة مما تطلبه" (١).

ومنها: صحبة أهل الفضل والخير والصلاح، وأرباب الهمم العالية، الذين يذكرُونَ الإنسانَ كلما غَفَلَ، ويعينونه على طاعة الله جَلَّ وَعَلَا، والتفقه في دينه، وعلى تحري الحلال، واجتناب الحرام، والبيئة الصالحة في البيت، والحي، والمدرسة، والمسجد.

ومنها: البعد عن أصدقاء السوء، وأئمة الضلال، ودعاة الفتنة، والابتعاد عن مواطن الفتن والشبهات، وأسباب الشرِّ، ودواعي المعصية، وعن المفسدين والغلاة. وقد وردت الأحاديث التي تحثُّ المسلم على مفارقة الأرض التي يعمل فيها بالمعاصي إلى أرض يطاع الله عَزَّجَلَّ فيها؛ لأنه إذا بقي في أرض السوء ربما فعل ما يفعله أهلها، لأن الغالب أن الإنسان يتأثر بمن حوله وبما عليه أهل البلد من عقائد وأخلاق وعادات.

(١) قاله أبو العباس بن مسروق كما في (حلية الأولياء)، لأبي نعيم (٢١٤/١٣).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

والوسائل التي تجعل حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

ومع ازدياد الفساد والطغيان في بعض البلاد العربية والإسلامية اضطر كثير من الناس إلى الهجرة إلى بلاد غير مسلمة ترعى حقوق الإنسان، وتعنى بالمهاجرين، وسافر آخرون من غير اضطرار.

وقد أصابت آثار الهجرة الكثيرين، فمنهم من خسر نفسه، ومنهم من خسر أولاده أو بعضهم.

والأصل في دخول المسلم بلدًا غير مسلم التحريم، ويقع الاستثناء في حالات تبرز الهجرة والإقامة في تلك الديار، فإذا زال المبرر الشرعي وجب الخروج إن أمكن، ولم تكن حاجة أو ضرورة للبقاء.

وحيث إن اللاجئ مستضعف، ومحتاج إلى الإقامة، فهو يحرص على الاندماج، ويخضع في الغالب لإرادة الآخرين، وإلى السير على وفق ما هو مقرر له، وعلى النحو الذي يحقق له الحصول الإقامة في تلك البلاد، ورضا أهلها عنه.

والأولاد هم الجانب الأضعف حيث يتشربون في المدارس وأماكن العمل والتنزه: العادات والتقاليد والمعتقدات بعيدًا رقابة الأهل.

وقد تسري إلى عقولهم مفاهيم وأغاليط ومعتقدات يعسر اتقاء آثارها، أو الاستدراك بالعلاج؛ قد يخرج الأمر شيئًا فشيئًا عن زمام الوالدين.

قال الشاعر:

متى يبلغ البنيان يومًا تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟!

وتبقى ثلة من المهاجرين محترزة عن مخاطر الهجرة، ومنتفعة من محاسن في تلك البلاد تذكر، وإيجابيات لا تنكر، فلم تصبها تلك الآثار، وكانت ثابتة على الحق،

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وملتزمة بالأخلاق الكريمة، ودعاة خير وعدل وإصلاح، فكانوا هادين مهديين، ونافعين ومنفعين، لا يضرهم من خالفهم، ولا تغريهم زينة الحياة الدنيا.

وقد وردت أحاديث تحثُ المسلم على مفارقة الأرض التي يعمل فيها بالمعاصي إلى أرض يطاع الله عزَّجَلَّ فيها؛ لأنه إذا بقي في أرض السوء ربما فعل ما يفعله أهلها، لأن الغالب أن الإنسان يتأثر بمن حوله وبما عليه أهل البلد من عقائد وأخلاق وعادات، وقد فصلت القول في ذلك في كل من كتاب: (عقبات في طريق الهداية)، وكتاب: (التربية الوقائية من آفات التفكك الأسري).

وسياتيك في (توبة القاتل) حديث: الرجل الذي قتل قتل تسعة وتسعين نفسًا، وأراد التوبة.. وفيه: «انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء» الحديث (١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "وفيه فضل التحول من الأرض التي يصيب الإنسان فيها المعصية لما يغلب بحكم العادة على مثل ذلك إما لِتَذَكُّرِهِ لِأَفْعَالِهِ الصادرة قبل ذلك والفتنة بها وإما لوجود من كان يعينه على ذلك وَيُخَضُّهُ عَلَيْهِ؛ ولهذا قال له الأخير: «ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء» ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية والتحول منها كلها" (٢).

وقد أوجب الحق عزَّجَلَّ الهجرة -على القادر- من البلد الذي يفتن فيه المسلم في دينه، ولا يَتَسَنَّيَ له إقامة الشعائر الإسلامية. قال الله عزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ

(١) صحيح البخاري [٣٤٧٠]، مسلم، [٢٧٦٦]، واللفظ له

(٢) فتح الباري (٦/٥١٨).

الدراسات والأساليب النحوية والسبائلك الناجمة حياطة طيبة نافعة

الجزء الثاني

أَلَمْ تَكُنْ أَفْسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ [النساء: ٩٧].

قال البيضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "في الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن فيه الرجل من إقامة دينه" (١).

فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾، يعني: من أرض الكفر إلى بلد أخرى كما فعل غيركم من المهاجرين إلى المدينة والحبشة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأُولَئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾، أي: لتركهم هذا الواجب مع تمكنهم منه. وفي الآية: دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة دينه - كما تقدم-. ثم استثني أهل العذر منهم فقال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ [النساء: ٩٨]، أي: لا قوَّة لهم على الهجرة ولا نفقة لهم. ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء: ٩٨]، أي: طريقًا إلى أرض الهجرة.

قال الإمام السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في (الإكليل): "استدل بالآية على وجوب الهجرة من دار الكفر، إلا على من لم يطبقها. وعن مالك: الآية تقتضي أن كل من كان في بلد تغير فيه السنن، فينبغي أن يخرج منه" (٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "في هذه الآيات دليل على هجران الأرض التي يعمل فيها بالمعاصي.

(١) تفسير البيضاوي (٩٢/٢)، وانظر: السراج المنير، للخطيب الشريبي (٣٢٦/١)، تفسير النسفي

(٣٨٨/١)، البحر المحيط في التفسير (٤١/٤).

(٢) الإكليل في استنباط التنزيل (ص: ٩٩).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقال سعيد بن جبیر رَحِمَهُ اللهُ: إذا عمل بالمعاصي في أرض فاخرج منها. وتلا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾. وقال مالك رَحِمَهُ اللهُ: هذه الآيات دالة على أنه ليس لأحد المقام في أرض يُسبُّ فيها السلف، ويعمل فيها بغير الحق^(١).
وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "واستنبط سعيد بن جبیر رَحِمَهُ اللهُ من هذه الآية: وجوب الهجرة من الأرض التي يعمل فيها بالمعصية"^(٢).

"ولذلك كان من مسائل الإجماع: وجوب الهجرة على المسلم من المكان الذي يخاف فيه من إظهار دينه، ويضطر فيه إلى التقية، ومن علامة المؤمن الكامل ألا يخاف في الله جَلَّ وَعَلَا لومة لائم. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يتحملون الأذى في ذات الله عَزَّجَلَّ ويصبرون. وأما المدارة فيما لا يهدم حقًا، ولا يبني باطلاً فهي كِيَاسَةٌ^(٣) مستحبة، يقتضيها: أدب المجالسة، ما لم تنته إلى حدِّ النفاق، ويُستَجْرُ فيها: الدهان والاختلاق، وتكون مؤكدة في خطاب السفهاء؛ تَصَوُّتًا من سفههم، واتقاءً لفحشهم"^(٤).

(١) تفسير القرطبي (٣٤٦/٥).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٢٦٣/٨).

(٣) (الكَيْس) - بوزن الكيل - ضد الحمق، والرجل (كَيْسٌ مُكَيْسٌ)، أي: ظريف، وبابه: باع. و(كِيَاسَةٌ) أيضا: بالكسر. انظر: مختار الصحاح، مادة: (كيس) (ص: ٢٧٦)، الصحاح، للجوهري (٩٧٢/٣).

(٤) تفسير المنار (٢٣١/٣).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فِي (الفتح): "الهجرة: الترك. والهجرة إلى الشيء: الانتقال إليه عن غيره. وفي الشرع: ترك ما نهى الله عنه"^(١). قال الشيخ جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: "وقد وقعت في الإسلام على وجهين:
الأول: الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن. كما في هجري: الحبشة، وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة.

الثاني: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان. وذلك بعد أن استقر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة، وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين. وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالمدينة إلى أن فتحت مكة، فانقطع الاختصاص، وبقي عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه باقياً"^(٢).

وقد ذكر القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الهجرة تنقسم إلى ستة أقسام:
"الأول: الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام.

الثاني: الخروج من أرض البدعة، قال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: لا يحل لأحد أن يقيم ببلد يُسب فيها السلف.

وهذا صحيح؛ فإن المنكر إذا لم يُقدر على تغييره نزل عنه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨].

(١) فتح الباري (١/١٦٦)، وانظر: عمدة القاري (١/٢٣)، نيل الأوطار، للشوكاني (١/١٧٠).

(٢) تفسير القاسمي (محاسن التأويل) (٣/٢٩٢).

الدُّرَرُ وَالرَّسَائِلُ إِلَى سَبِيلِ النِّجَاةِ وَالرَّسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً

الجزء الثاني

الثالث: الخروج عن أرض غلب عليها الحرام؛ فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم.

الرابع: الفرار من الأذية في البدن، وذلك فضلٌ من الله عزَّ وجلَّ أرخصَ فيه، فإذا خشي المرء على نفسه في موضع فقد أذن الله عزَّ وجلَّ له في الخروج عنه والفرار بنفسه؛ ليُخَلِّصَهَا من ذلك المحذور.

وأول من حَفِظْنَاهُ فيه الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما خاف من قومه قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّهَدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩]، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الله عزَّ وجلَّ فيه: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

الخامس: خوف المرض في البلاد الوُخْمَةِ، والخروج منها إلى الأرض النَّزْهَةِ، وقد أذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلرِّعَاءِ حين اسْتَوْخَمُوا الْمَدِينَةَ أَنْ يَتَنَزَّهُوا إِلَى الْمَسْرَحِ، فيكونوا فيه حتى يَصِحُّوا^(١). وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون؛ فمَنع الله جَلَّ وَعَلَا منه بالحديث الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢). بيد أني رأيت علماءنا قالوا: هو مكروه.

(١) يعني: حديث: عكل وعرينة لما قدموا المدينة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكلموا بالإسلام، فقالوا يا نبي الله: إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها. الحديث. صحيح البخاري [٤١٩٢، ٥٧٢٧]، أي: أن يخرجوا خارج البلد مع الإبل فيشربوا من ألبانها وأبوالها حتى يصحوا.

(٢) يعني: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها» صحيح البخاري [٣٤٧٣، ٥٧٢٨، ٥٧٢٩، ٥٧٣٠، ٦٩٧٣]، مسلم [٢٢١٨، ٢٢١٩].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

السادس: الفرار خوف الأذية في المال؛ فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، والأهل مثله أو أكد^(١).

*وأخيراً ينبغي على من أراد السلامة والعافية والنجاة: أن يبادر إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة - كما سيأتي بيان ذلك في (الفتن) -.

سابعاً: حكم التوبة:

١ - التوبة واجبة على الفور:

التوبة من جميع المعاصي واجبة على الفور، ولا يجوز تأخيرها سواء، كانت المعصية صغيرة أو كبيرة بالاتفاق؛ لما في تأخيرها من الإصرار المحرم، ولأن العاصي لا يضمن أجلاً، فقد يعاجله الموت قبل التوبة، فإن أخرها عصي بالتأخير فيحتاج إلى توبتين، أو إلى توبة عامة مما علم ومما لم يعلم، كما حرّر ذلك كلٌّ من الإمام عز الدين بن عبد السلام، وابن القيم رَحِمَهُمَا اللهُ.

قال الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ: "والتوبة واجبة على الفور، فمن أخرها زماناً صار عاصياً بتأخيرها، وكذلك يتكرر عصيانه بتكرر الأزمنة المتسعة لها، فيحتاج إلى توبة من تأخيرها، وهذا جارٍ في تأخير كل ما يجب تقديمه من

(١) بتصرف واختصار عن (أحكام القرآن)، لابن العربي (٦١١/١) ونقل قوله القرطبي في (تفسيره) (٣٥٠/٥).

الدرر السبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

الطاعات" (١). وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "إن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة، وقل أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة، ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة، مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم، فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخظة بها جهله إذا كان متمكنا من العلم، فإنه عاص بترك العلم والعمل، فالمعصية في حقه أشد" (٢).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته، وشرح الله عَزَّجَلَّ بنور الإيمان صدره"، وقال: "التوبة على الفور، أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه؛ إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور، والعلم بضرر الذنوب إنما أريد؛ ليكون باعثًا على تركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» (٣)؛ وذلك لكون الزنا مبعدًا عن الله عَزَّجَلَّ، موجبًا للمقت، كسائر المعاصي؛ لأنها للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان، فكما أنها تغير مزاج الإنسان، ولا تزال تجتمع حتى

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/٢٢١).

(٢) مدارج السالكين (١/٢٨٣).

(٣) صحيح البخاري [٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٧٨٢، ٦٨١٠]، مسلم [٥٧].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

تفسده، فيموت دفعة، كذلك تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً تحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين..^(١).

وقال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ اللهُ: "التوبة واجبة على الفور عند عامة العلماء؛ أما الوجوب؛ فلقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]. وأما الفورية؛ فلما في تأخيرها من الإصرار المحرم، والإنابة قريبة من التوبة لغَةً وشرعاً"^(٢).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "التوبة من أصول الإسلام المهمة، وقواعد الدين، وأول منازل السالكين، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]. فالتوبة من المعصية واجبة على الفور بالاتفاق"^(٣). و"أصلها: الندم، وهو ركنها الأعظم. واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة، وأنها واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها سواء، كانت المعصية صغيرة أو كبيرة"^(٤).

وقال الإمام الألويسي رَحِمَهُ اللهُ: "التوبة واجبة في نفسها على الفور، ومن أخرها تكرر عصيانه بتكرر الأزمنة، كما صرح به الشيخ عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ"^(٥). وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: "التوبة فرض لازم على كل من علم من نفسه مخالفة لله عَزَّجَلَّ، صغرت أو كبرت، وهي من جملة أمهات الفرائض اللازمة. ووجوبها

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٤/٤-٧).

(٢) التعريفات (ص: ٧٠).

(٣) انظر: روضة الطالبين وعمدة المفتين (١١/٢٤٩-٢٥٠).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/٥٩)، وانظر: حاشية البجيرمي على الخطيب (٢/٢٣٦).

(٥) روح المعاني (٦/٣٥٣).

الدراسة والسبيل إلى النجاة والسؤال والتأجيل طيبة نافعته



الجزء الثاني



عند أهل السنة شرعاً لا عقلاً، خلافاً للمعتزلة، وليس بواجب قبولها على الله عزَّ وجلَّ عقلاً، وإنما علمنا ذلك بالشرع والإجماع، خلافاً للمعتزلة في حتمهم ذلك على الله عزَّ وجلَّ عقلاً، على أصلهم الفاسد في التحسين والتقيح، وإيجاب العقل ما يوجب من ذلك.

والتوبة نعمة أنعم الله عزَّ وجلَّ بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم، قاله سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللهُ: وكانت توبة بني إسرائيل قتل أنفسهم، كما نص الله عزَّ وجلَّ عليه^(١). وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "التوبة من مهمات الإسلام، وقواعده المتأكدة، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع، وعند المعتزلة بالعقل. ولا يجب على الله عزَّ وجلَّ قبولها إذا وجدت بشروطها عقلاً عند أهل السنة، لكنه جَلَّ وَعَلَا يقبلها كرمًا وفضلًا. وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع، خلافاً لهم"^(٢).

وإذا تقرر أن التوبة واجبة على الفور فإن تسويق التوبة وتأخيرها يعد مذمومًا، ويزترتب عليه آثار خطيرة، وقد لا يدرك العبد التوبة؛ إذ إنه لا يضمن أجلًا - كما تقدم-. قال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: الإصرار: التسويق، أي: يقول: أتوب غدًا، وهذا دعوى النفس، كيف يتوب غدًا وغدًا لا يملكه؟!^(٣).

وقد بين الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ علاج تسويق التوبة، حيث قال: "وأما تسويق التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويق؛ لأن المسوف يبني

(١) إكمال المعلم (٢٤٢/٨).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٥٩/١٧).

(٣) انظر: الفتوحات الربانية، لابن علان (٢٧٣/٧)، وقد تقدم قول: سهل بن عبد الله.

الدراسة والأسباب النجاة

الجزء الثاني

الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقي فلا يقدر على الترك غداً، كما لا يقدر عليه اليوم، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لعلبة الشهوة؟! والشهوة ليست تفارقه غداً، بل تتضاعف؛ إذ تتأكد بالاعتیاد، فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتی لم يؤكدها، وعن هذا هلك المسوفون؛ لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق، وما مثال المسوف إلا كمثل من احتاج إلى قلع شجرة، فرأها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أواخرها سنة ثم أعود إليها، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته؛ إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف، فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه، وقوي الضعيف" (١).

٢ - التوبة من الذنب وإن تكرر:

جاء في (صحيح مسلم)، باب: (قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة): عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيما يحكي عن ربه عزَّ وجلَّ، قال: «أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عبدي أذنب ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ

(١) إحياء علوم الدين (٤/٥٨).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك»، قال عبد الأعلى: لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة: «اعمل ما شئت». وفي رواية: يقول: «إن عبدًا أذنب ذنبًا» وذكر ثلاث مرات: «أذنب ذنبًا»، وفي الثالثة: «قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء»^(١).

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الله عزَّ وجلَّ يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "والأحاديث ظاهرة في الدلالة على أنه لو تكرر الذنب مائة مرة، أو ألف مرة، أو أكثر، وتاب في كلِّ مرة قبلت توبته، وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة صحت توبته. وقوله جَلَّ وَجَلَّ للذي تكرر ذنبه: «اعمل ما شئت فقد غفرت لك» معناه: ما دمت تذنَّب ثم تتوب غفرت لك"^(٣).

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: «أذنب عبد ذنبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أذنب عبدي ذنبًا، علم أن له ربًّا يغفر الذنب،

(١) صحيح مسلم [٢٧٥٨].

(٢) صحيح مسلم [٢٧٥٩]، وقد تقدم.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٧٥/١٧-٧٦)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٤٧٢/١٣)، عمدة القاري (١٦٣/٢٥).

الدرر السابغ إلى سبيل النجاة

والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

ويأخذ بالذنب» يدلُّ على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله عزَّ وجلَّ، وسعة رحمته، وحلمه وكرمه، ولا شك في أن هذا الاستغفار ليس هو الذي ينطق به اللسان، بل الذي يثبت معناه في الجنان، فيحل به عقد الإصرار، ويندم معه على ما سلف من الأوزار.

قال: وأما من قال بلسانه: أستغفر الله، وقلبه مصر على معصيته، فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرته لاحقة بالكبار؛ إذ لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار. وفائدة هذا الحديث: أن العود إلى الذنب، وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه انضاف إلى الذنب نقض التوبة، فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنها انضاف إليها: ملازمة الإلحاح بباب الكريم، وأنه لا غافر للذنوب سواه.

وقوله: «اعمل ما شئت فقد غفرت لك» قد تقدّم القول فيه، ونزيد هنا نكتة، وهي: أن هذا الأمر يحتمل أن يكون معناه: الإكرام، فيكون من باب قوله جلَّ وعلا: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]. وآخر الكلام خبر عن حال المخاطب؛ لأنه مغفور له ما سلف من ذنبه، ومحفوظ - إن شاء الله - فيما يستقبل من شأنه^(١).

وقال ابن بطال رحمه الله: "وأما حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الرجل الذي واقع الذنب مرة بعد مرة، ثم استغفر ربه جلَّ وعلا، فغفر له، ففيه: دليل على أن المصر في مشيئة الله عزَّ وجلَّ، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له؛ لحسنه التي جاء بها، وهي اعتقاده أن له ربًّا خالقًا يعذِّبه ويغفر له، واستغفاره إيَّاه على ذلك، يدلُّ عليه قوله جلَّ وعلا:

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٨٥-٨٦).

الإرشاد إلى سبب النجاة والوسائد التي اجتمعت حياطة طيبتنا نافعنا

الجزء الثاني

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأُنعام: ١٦٠]، ولا حسنة أعظم من توحيد الله عزَّوجلَّ، والإقرار بوجوده، والتضرع إليه في المغفرة.

فإن قيل: فإن استغفاره ربه جَلَّوَعَلَا توبةً منه. قيل له: ليس الاستغفار أكثر من طلب غفرانه، وقد يطلب الغفران: المصْرُ والتائب، ولا دليل في الحديث على أنه تاب ممَّا سأل الغفران منه؛ لأنَّ حدَّ التَّوبَةِ: الرَّجُوعُ عَنِ الذَّنْبِ، والعزم على أن لا يعودَ إليه، والإقلاع عنه، والاستغفار بمجردَه لا يفهم منه ذلك" (١).

وقال السبكي رَحِمَهُ اللهُ فِي (الحلبيات): "الاستغفار: طلب المغفرة إما باللسان، أو بالقلب، أو بهما، فالأول فيه نفع؛ لأنه خير من السكوت، ولأنه يعتاد قول الخير، والثاني: نافع جدًّا، والثالث: أبلغ منه لكن لا يمحسان الذنب حتى توجد التوبة منه؛ فإن العاصي المصّر يطلب المغفرة، ولا يستلزم ذلك وجود التوبة.. إلى أن قال: والذي ذكرته من أن معنى الاستغفار غير معنى التوبة هو بحسب وضع اللفظ، لكنه غلب عند كثير من الناس أن لفظ: (استغفر الله) معناه: التوبة، فمن كان ذلك معتقده فهو يريد التوبة لا محالة، ثم قال: وذكر بعضهم أن التوبة لا تتم إلا بالاستغفار؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]، والمشهور أنه لا يشترط" (٢).

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٥٠٣-٥٠٤).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١٣/٤٧٢)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠/٤٣٩).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وفي الحديث: عن الزبير بن العوام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسْرَهُ صَحِيفَتُهُ فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ»^(١).

٣ - الفرق بين التوبة والاسْتِغْفَارِ:

بناء على ما تقدم فقد قيل في الفرق بين التوبة والاسْتِغْفَارِ: إِنَّ الِاسْتِغْفَارَ إِذَا كَانَ عَنْ ذَنْبٍ مَضَى، وَالتَّوْبَةَ لِمَا يَسْتَقْبَلُ، فَالِاسْتِغْفَارُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ مُقَدَّمٌ عَلَى التَّوْبَةِ، وَهُوَ بِمَثَابَةِ الْمَقْدَمَةِ لِلتَّوْبَةِ.

وقيل: إن الِاسْتِغْفَارَ عِبَارَةٌ عَنْ طَلْبِ الْمَغْفِرَةِ بَعْدَ رُؤْيَةِ قَبِيحِ الْمَعْصِيَةِ، وَالِإِعْرَاضَ عَنْهَا، فَالتَّوْبَةُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ مُقَدَّمَةٌ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ؛ فَإِنَّ الِاسْتِغْفَارَ لَا يَكُونُ تَوْبَةً بِالِاجْتِمَاعِ مَا لَمْ يَقْلُ مَعَهُ: تَبْتُ، وَاسَأْتُ، وَلَا أَعُودُ إِلَيْهِ أَبَدًا فَاغْفِرْ لِي يَا رَبَّ.

فإن قيل: كيف قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود:٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَقُومُوا أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود:٥٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود:٩٠].. مع أن التوبة مقدمة على الِاسْتِغْفَارِ؟

(١) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٨٣٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٣٩]، والضياء في (المختارة) [٨٩٢]. قال الهيثمي (٢٠٨/١٠) "رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله ثقات".

الدراسة والسبيل للحياة والوسائد التي جعلت حيا طيبترنا فعترا

الجزء الثاني

وقد قيل في الجواب:

أ. معناه: استغفروا من الشرك والمعاصي، ثم ارجعوا إليه بالطاعة، وتوبوا من الأعمال الباطلة:

فعلى هذا فإن: ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتراخي في الحال، وليس معناها: التراخي في الوقت، كما تقول في قوله جَلَّوَعَلَا في أول (سورة هود): ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ حَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١]؛ فإن: ﴿ثُمَّ﴾ ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال، كما تقول: هي محكمة أحسن الأحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل. كذا في (الكشاف) (١).

وقيل: إن قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]: من قبيل ما يسمى: بالترتيب الرتي، وبترتب الإخبار.

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "قال صاحب: (الفرائد): يمكن أن يقال: ﴿أَسْتَغْفِرُوا﴾ [هود: ٣]، مما قدمتم من الشرك، والاستغفار لا يتحقق إلا بعد التوبة، لأن الاستغفار باللسان توبة الكذابين. ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]، أي: داوموا على التوبة، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَمَنْ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، والتراخي في التوبة.

(١) انظر: الكشاف (٣٧٧/٢)، (٣٧٨/٢)، حاشية الطيبي على الكشاف (١١/٨)، أنموذج جليل (ص: ١٩٦). وقد حرَّر هذه المسألة تحريراً دقيقاً: العلامة الألوسي في تفسيره: (روح المعاني) (١٩١/٦-١٩٢).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: هذا معنى الوجه الثاني^(١)، يعني: من قول الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ - كما سيأتيك -.

وقال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: "إن (ثم) للترتيب الرتبي؛ لأن الاعتراف بفساد ما هم فيه من عبادة الأصنام أهم من طلب المغفرة؛ فإن تصحيح العزم على عدم العودة إليها هو مسمى: (التوبة)، وهذا ترغيب في نبذ عبادة الأصنام، وبيان لما في ذلك من الفوائد في الدنيا والآخرة"^(٢). وعلى هذا فإنه تدرج في الارتقاء، فهذا التراخي يفيد أن مضمون الجملة المعطوفة بحرف: (ثم) أهم من مضمون الجملة المعطوف عليها أهمية الغرض على المقدمة، والنتيجة على الدليل، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا أَقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۗ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۗ فَكُ رَقَبَةً ۗ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ ۗ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۗ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۗ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۗ﴾ [البلد: ١١-١٧].

والقول بأن (ثم) للترتيب الرتبي في هذه المواضع أظهر وأبين في بيان الحكمة، ونظائره في القرآن كثيرة.

ب. وقيل: استغفروا، والاستغفار توبة، ثم أخلصوا التوبة، واستقيموا عليها:

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (١٢/٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣١٧/١١).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وقيل: إن (ثم) هنا بمعنى: الواو، أي: وتوبوا إليه؛ لأن الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي الاستغفار^(١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "هذا معنى الوجه الثاني: [يعني: من قول الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ]: (أو استغفروا، فالاستغفار توبة، ثم أخلصوا التوبة، واستقيموا عليها)^(٢)، ومعنى الاستقامة: الدوام على التوبة، ولا شك أن الاستقامة على التوبة أعلى من التوبة نفسها"^(٣)، يعني: أن (ثم) على هذا الوجه كذلك للترتيب الرتبي.

ج. وقيل: إن معنى قوله: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ [هود:٣]، أي: اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم. ثم بين الشيء الذي يطلب به ذلك، وهو التوبة، فقال: ﴿ثُمَّ تُوْبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود:٣]؛ لأن الداعي إلى التوبة، والمحرض عليها هو الاستغفار، الذي هو عبارة عن طلب المغفرة وهذا يدل على أنه لا سبيل إلى طلب المغفرة من عند الله عَزَّوَجَلَّ إلا بإظهار التوبة، والأمر في الحقيقة كذلك؛ لأن المذنب معرض عن طريق الحق، والمعرض والمتمادي في التباعد ما لم يرجع عن ذلك الإعراض لا يمكنه التوجه إلى المقصود بالذات، فالمقصود بالذات هو التوجه إلى المطلوب، إلا أن ذلك لا يمكن إلا بالإعراض

(١) انظر: التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٣٤٥/١١)، تفسير البغوي (٤/١٥٦)، تفسير القرطبي (٣/٩). قال الألويسي: "وقيل: لا نسلم أن الاستغفار هو التوبة، بل هو ترك المعصية، والتوبة هي: الرجوع إلى الطاعة. ولئن سلم أنهما بمعنى - ف: (ثم) للتراخي في الرتبة، والمراد بالتوبة: الإخلاص فيها، والاستمرار عليها، وإلى هذا ذهب صاحب: (الفرائد)" انظر ذلك في (روح المعاني) (١٩٤/٦).

(٢) الكشف (٣٧٨/٢).

(٣) حاشية الطيبي على الكشف (١٢/٨).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

عما يصاده، فثبت أن الاستغفار مطلوب بالذات، وأن التوبة مطلوبة؛ لكونها من متممات الاستغفار، وما كان آخرًا في الحصول كان أولًا في الطلب؛ فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة.

وقال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ اللهُ: "ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ: ثم توصلوا إلى مطلوبكم بالتوبة؛ فإن المعرض عن طريق الحق لا بدَّ له من الرجوع. وقيل: استغفروا من الشرك، ثم توبوا إلى الله عَزَّجَلَّ بالطاعة"^(١).

د. وقيل: إن المراد: استغفروا من سالف الذنوب، ثم توبوا إليه في المستأنف.

هـ. الاستغفار: طلب من الله عَزَّجَلَّ؛ لإزالة ما لا ينبغي. والتوبة: سعي من الإنسان في إزالة ما لا ينبغي، فقدَّم الاستغفار؛ ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشيء إلا من مولاه جَلَّ وَعَلَا؛ فإنه هو الذي يقدر على تحصيله، ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة؛ لأنها عمل يأتي به الإنسان، ويتوسل به إلى دفع المكروه، والاستعانة بفضل الله عَزَّجَلَّ مقدمة على الاستعانة بسعي النفس. قاله الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ^(٢).

و. قيل: إنما قدم ذكر الاستغفار؛ لأن المغفرة هي الغرض المطلوب، والتوبة هي السبب إليها، فالمغفرة أول في المطلوب وآخر في السبب^(٣).

(١) تفسير البيضاوي (١٢٧/٣)، وانظر: حاشية الشهاب الحفاجي على البيضاوي (٦٨/٥)، حاشيتنا

القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (١١/١٠)، التفسير البسيط (١١/٣٤٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١٥/١٧)، وانظر: غرائب القرآن (٦/٤).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٣/٩).

الرسائل والأسباب النجاة

الجزء الثاني

قال الألويسي رَحِمَهُ اللهُ: "قال بعض المحققين: الاستغفار هو التوبة إلا أن المراد بالتوبة في جانب المعطوف: التوصل إلى المطلوب مجازًا من إطلاق السبب على المسبب، و(ثم) على ظاهرها، وهي قرينة على ذلك"^(١).

ز. قيل: ويحتمل أن يكون المعنى استغفروه من الصغائر، وتوبوا إليه من الكبائر. وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: "الاستغفار يردُّ مجرَّدًا، ويردُّ مقرونًا بالتوبة، فإن ورد مجرَّدًا دخل فيه: طلب وقاية شرِّ الذنب الماضي بالدعاء، والندم عليه، ووقاية شرِّ الذنب المتوقع بالعزم على الإقلاع عنه، وهذا الذي يمنع الإصرار.

والمقرون بالتوبة مختص بالنوع الأول، فإن لم يصحبه الندم على الذنب الماضي فهو دعاء محض، وإن صحبه ندم فهو توبة"^(٢).

وفي كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ إيضاح وتحرير، حيث قال: "وأما الاستغفار فهو نوعان: مفرد، ومقرون بالتوبة، فالمفرد: كقول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿أَسْتَغْفِرُكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾^(١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا^(١١) ﴿[نوح: ١٠-١١]، وكقول صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١٦) ﴿[النمل: ٤٦]، وكقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٩٩) ﴿[البقرة: ١٩٩]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٣٣) ﴿[الأنفال: ٣٣].

(١) انظر ذلك في (روح المعاني) (١٩٤/٦).

(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (٥٢٣/٢-٥٢٤)، وانظر: روح المعاني، للألويسي (٤٩٥/١٥).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

والمقرون كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]، وقول هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢]، وقول صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، وقول شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، فالاستغفار المفرد كالنوبة، بل هو التوبة بعينها، مع تضمنه طلب المغفرة من الله عَزَّجَلَّ، وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس أنها الستر؛ فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له، ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه، فدالتهما عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب، ومنه: (المغفر)، لما بقي الرأس من الأذى، والستر لازم لهذا المعنى، وإلا فالعمامة لا تسمى مغفراً، ولا القبع ونحوه مع ستره، فلا بد في لفظ المغفر من الوقاية، وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]؛ فإن الله عَزَّجَلَّ لا يعذب مستغفراً، وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله عَزَّجَلَّ مغفرته، فهذا ليس باستغفار مطلق؛ ولهذا لا يمنع العذاب، فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى، فالاستغفار منه: طلب وقاية شره، وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله، والرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ يتناول النوعين: رجوع إليه؛ ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه؛ ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضاً فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقاً تؤديه إلى هلاكه، ولا توصله إلى المقصود، فهو مأمور أن يوليها ظهره، ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته، والتي توصله إلى مقصوده، وفيها فلاحه.

فهاهنا أمران لا بد منهما: مفارقة شيء، والرجوع إلى غيره، فخصت التوبة بالرجوع، والاستغفار بالمفارقة، وعند أفراد أحدهما يتناول الأمرين؛ ولهذا جاء -والله أعلم- الأمر بهما مرتباً بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]؛ فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضاً فالاستغفار من باب: إزالة الضرر، والتوبة: طلب جلب المنفعة، فالمغفرة: أن يقيه شر الذنب، والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده -والله أعلم-^(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "إن الاستغفار هو طلب المغفرة، وهو من جنس الدعاء والسؤال، وهو مقرون بالتوبة في الغالب، ومأمور به، لكن قد يتوب الإنسان ولا يدعو، وقد يدعو ولا يتوب"^(٢).

(١) مدارج السالكين (١/٣١٤-٣١٥).

(٢) منهاج السنة النبوية (٦/٢١٠-٢١١).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

فعلى هذا القول فبين التوبة والاستغفار عموم وخصوص من وجه، وبين الاستغفار والدعاء عموم وخصوص مطلق.

وقال أبو هلال العسكري في (الفروق): "الفرق بين الاستغفار والتوبة: أن الاستغفار طلب المغفرة بالدعاء والتوبة، أو بغيرهما من الطاعة. والتوبة: الندم على الخطيئة مع العزم على ترك المعاودة، فلا يجوز الاستغفار مع الإصرار؛ لأنه مسلبة لله عَزَّجَلَّ ما ليس من حكمه ومشئته ما لا تفعله مما قد نصب الدليل فيه، وهو تحكم عليه، كما يتحكم المتأمر المتعظم على غيره، بأن يأمره بفعل ما أخره أنه لا يفعله"^(١).

٤ - الفرق بين الدعاء والاستغفار:

إن الدعاء أعم من الاستغفار، فالمؤمن يدعو لنفسه بالرزق، ويدعو لنفسه بالعافية، ويدعو بالمغفرة.. وغير ذلك.

وهو يستغفر الله عَزَّجَلَّ من الذنوب والتقصير. فالاستغفار: كلُّ دعاء فيه سؤال الغفران.

فعلى هذا فإن بين الاستغفار والدعاء عمومًا وخصوصًا من وجه، يجتمعان في طلب المغفرة، وينفرد الاستغفار بأنه قد يكون بالفعل كما يكون بالقول، كذا قيل. وينفرد الدعاء إن كان بطلب غير المغفرة.

(١) الفرق اللغوية (١/٢٣٥).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

وعلى القول بأن الاستغفار من جنس الدعاء والسؤال فإنه يكون بينه وبين الدعاء عموم وخصوص مطلق - كما تقدم -.

ومحل الخلاف في الاستغفار بالفعل على قول من قال به، والتحقيق أن الاستغفار هو طلب المغفرة، وهو من جنس الدعاء والسؤال - على ما تقدم - وأن الاستغفار هو طلب المغفرة، وهو لا يخلو إما أن يكون باللسان، أو بالقلب. فإن أطلق على الفعل فهو باعتبار القصد منه وما تضمنه من الاستغفار، فيقال عن صلاة التوبة: إنها استغفار بهذا الاعتبار، وهو لا يخرجها عن مسماتها الحقيقي.

٥ - صلاة التوبة والاستغفار:

إن صلاة التوبة هي فعل يتضمن الاستغفار؛ ولذلك تسمى: صلاة الاستغفار، يتوسل بها العبد المذنب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ رجاء قبول توبته.

وقد أجمع أهل العلم على مشروعية صلاة التوبة، ويدل على مشروعيتها: حديث: أسماء بن الحكم الفزاري، قال: سمعت علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثاً نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلقتة، فإذا حلف لي صدقته، قال: وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ما من عبد يذنب ذنباً، فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له»،

الدرء إلى السبب النجاة

الجزء الثاني

ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] إلى آخر الآية (١)

وعند أحمد رَحْمَةُ اللَّهِ: عن يوسف بن عبد الله بن سلام، قال: أتيت أبا الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مرضه الذي قبض فيه فقال لي: يا ابن أخي ما أعمدك في هذا البلد -أو ما جاء بك-؟ قال: قلت: لا إلا صلة ما كان بينك وبين والدي عبد الله بن سلام فقال: أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بئس ساعة الكذب هذه سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من توضأ فأحسن وضوءه، ثم قام فصلى ركعتين، أو أربعاً -شك سهل- يحسن فيهما الذكر، والخشوع، ثم استغفر الله عَزَّجَلَّ غفر له» (٢).

وصلاة التوبة ركعتان، كما جاء في حديث: أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -الأنف الذكر-.

(١) أخرجه الطيالسي [١]، والحميدي [١]، وابن أبي شيبة [٧٦٤٢]، وأحمد [٤٧]، وابن ماجه [١٣٩٥]، وأبو داود [١٥٢١]، والترمذي [٤٠٦]، وقال: "حسن"، كما أخرجه: النسائي في (الكبرى) [١٠١٧٥]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٤١٤]، وأبو يعلى [١٣]، وابن حبان [٦٢٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٦٧٥]، والضياء [٩] وقال: "إسناده صحيح".

(٢) أخرجه أحمد [٢٧٥٤٦]، والطبراني في (الأوسط) [٥٠٢٦]، وفي (الدعاء) [١٨٤٨]. قال الهيثمي (٢/٢٧٨-٢٧٩): "رواه أحمد والطبراني في (الكبير) إلا أنه قال: «ثم قام فصلى ركعتين أو أربعاً مكتوبة أو غير مكتوبة، يحسن فيها الركوع والسجود» وإسناده حسن". وقال الحافظ ابن حجر في (نتائج الأفكار) (٢/٣١٦): "أخرجه أحمد والطبراني، وسنده حسن". وقوله: (بئس ساعة الكذب هذه)، أي: لا يمكن أن أكذب هذه الساعة، وأنا على فراش الموت.

الدراسة والسبب النجاة

والوسائد الناجعة لحياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

وتشرع عند توبة المسلم من أي ذنب، سواء كان من الكبائر أم من الصغائر، وسواء كانت هذه التوبة بعد اقرار المعصية مباشرة، أم بعد مضي زمن. وهل تؤدي في جميع الأوقات، بما في ذلك أوقات النهي؟ قولان. والقول بأنها تؤدي في أوقات النهي على اعتبار أنها من الصلوات ذوات السبب. ولم يرد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يستحب تخصيص هاتين الركعتين بقراءة معينة، فيقرأ المصلي فيهما ما شاء، ويصليها منفردًا. ويندب له بعدها أن يستغفر الله عَزَّجَلَّ. ويستحب للتائب مع هذه الصلاة فعل بعض القربات، كالصدقة وغيرها. فالصدقة إن كانت خالصة لله عَزَّجَلَّ فهي من خير الأعمال التي يقوم بها التائب، فهي من أسباب تكفير الذنوب التي تتأكد فيها التوبة. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وفي الحديث: عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله عَزَّجَلَّ، وإلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخير^(١). وصلاة التوبة ركعتان قبلها - أي: قبل التوبة - ينوي بهما سنة التوبة.

(١) صحيح البخاري [٢٧٥٧، ٤٤١٨، ٤٦٧٦، ٤٦٦٩٠]، مسلم [٢٧٦٩].

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

وقيل: تصحان بعدها^(١).

وقيل: يصح أن يصلّيها قبل التوبة أو بعدها.

والراجح أنها قبل التوبة؛ لما يفيد ذكر الصلاة، ثم عطف الاستغفار عليها بحرف: (ثم) الذي يدل على الترتيب، في كلٍّ من حديث: أبي بكر، وحديث: أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقد حقق هذه المسألة الشيخ سليمان البجيرمي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (حاشيته على الخطيب)، حيث جاء فيها: "قوله: (وركعتا التوبة)^(٢) أي: من الذنب -ولو صغيره- كما هو ظاهر، ثم يستغفر الله عَزَّجَلَّ عقبها، والمراد بقوله: (وركعتا التوبة)، أي: من يريدّها، فهو على حذف مضاف، كما قاله ق ل على التحرير. ويؤخذ منه: أن الصلاة هذه تكون قبل التوبة؟ ويسن أيضاً: ركعتان بعدها؛ لما ذكره ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه يسن لمن أذنب ذنباً، وتاب منه أن يصلّي عقب توبته ركعتين؛ شكراً على حصولها، وطلباً لقبولها ودوامها. نقله م د على التحرير. وعبارة العناني رَحِمَهُ اللَّهُ: الصلاة قبل التوبة بدليل قوله: «ثم يستغفر الله». وأيضاً: فإن الصلاة وسيلة لقبول التوبة، والوسيلة مقدمة على المقصد، فاندفع ما يقال: إن المبادرة إلى التوبة واجبة فكيف يقدم الصلاة عليها؟!!

وحاصل الجواب: أن الصلاة لما كانت وسيلة كان المصلي شارعاً فيها اه. قلت:

فالحاصل أن صلاة التوبة ركعتان قبلها، أما الركعتان اللتان بعدها وإن سنت، فلا يقال

(١) انظر: نهاية الزين (ص: ١٠٦).

(٢) انظر: الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (١/١١٨)، مغني المحتاج (١/٤٥٨).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

لها: صلاة التوبة. وفائدة التوبة: أنها حيث صحت كفرت الذنب قطعاً في الكفر، وظناً في غيره -ولو كبيرة-، نعم الصغيرة يكفرها غير التوبة من فعل نحو: وضوء، وهي واجبة -ولو من صغيرة- ومن تأخيرها، أي: التوبة فتأخير التوبة يجب فيه التوبة..^(١).
وتكفي صلاة واحدة عن جملة الذنوب مع صدق النية وتحقق شروط التوبة.

٦ - تجديد الندم عند ذكر الذنب:

وإذا تاب من ذنب ثم ذكره، هل يجب تجديد الندم؟
قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: "وقد اختلف أئمتنا هل من شرطه متى ذكر الذنب تجديد الندم؟ أو لا يلزمه تكرار ذلك؟"^(٢).
وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: فيه خلاف لأصحابنا وغيرهم من أهل السنة. قال ابن الأنباري رَحِمَهُ اللهُ يجب. وقال إمام الحرمين رَحِمَهُ اللهُ: لا يجب"^(٣). "ولو تكررت التوبة، ومعاودة الذنب، صحت، هذا مذهب الحق في المسلمين، خلافاً للمعتزلة"^(٤).
قال إمام الحرمين رَحِمَهُ اللهُ في (الإرشاد): "القتل الموجب للقتل، فيصح الندم عليه، من غير تسليم القاتل نفسه؛ ليستفاد منه. فإذا ندم صحت توبته في حق الله عَزَّوَجَلَّ،

(١) حاشية البجيرمي على الخطيب (١/٤٢٨-٤٢٩).

(٢) إكمال المعلم (٨/٢٤٢).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/٥٩).

(٤) روضة الطالبين وعمدة المفتين (١١/٢٥٠).

الإرشاد إلى سبب النجاة والوسائل التي اجتمعت لحياتها طيبة نافعة

الجزء الثاني

وكان منعه من القصاص من مستحقه معصيه متجددة لا تقدر في التوبة، بل تستدعي في نفسها خروجًا عنها، وتوبة منها.

وربما تتعلق التوبة بحق الأدميين، ولا تصح دون الخروج منها، وذلك كاعتصاب شيء من مال الغير، فلا يصح الندم عليه، مع إدامة شدِّ اليد عليه، فلا تتمسكوا بالصور، وارعوا الندم لحق الله عزَّجَل نفيًا وإثباتًا^(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "ومن تاب عن معصية ثم ذكرها قال الإمام القاضي أبو بكر بن الباقلاني رَحِمَهُ اللهُ: يجب عليه تجديد الندم عليها كلما ذكرها؛ إذ لو لم يندم، لكان مستهينًا بها، وذلك ينافي الندم. واختار إمام الحرمين رَحِمَهُ اللهُ أنه لا يجب، ولا يلزم من ذكرها بلا ندم الاستهانة، بل قد يذكر، ويعرض عنها.

قال القاضي: وإذا لم يجدد التوبة كان ذلك معصية جديدة، والتوبة الأولى صحيحة؛ لأن العبادة الماضية لا ينقضها شيء بعد فراغها، قال: فيجب تجديد توبة عن تلك المعصية، وتجب توبة من ترك التوبة إذا حكمنا بوجودها. قال الإمام: وإذا أسلم الكافر، فليس إسلامه توبة عن كفره، وإنما توبته ندمه على كفره، ولا يتصور أن يؤمن ولا يندم على كفره، بل تجب مقارنة الإيمان للندم على الكفر، ثم وزر الكفر يسقط بالإيمان، والندم على الكفر بالإجماع، هذا مقطوع، وما سواه من ضروب التوبة، فقبوله مضمون غير مقطوع به. وقد أجمعت الأمة على أن الكافر إذا أسلم

(١) الإرشاد إلى قواطع الأدلة (ص: ٤٢٤).

الإرشاد إلى سبب النجاة والوسائد التي اجتمعت لحياتها طيبة نافعة

الجزء الثاني

وتاب عن كفره، صحت توبته، وإن استدام معاصي آخر. هذا كلام الإمام، وهذا الذي قاله أن القبول مظنون هو الصحيح.

وقال جماعة من متكلمي أصحابنا: هو مقطوع - والله أعلم -^(١).

وقال إمام الحرمين رَحِمَهُ اللهُ فِي (في توبة العائد للذنب): "من تاب وصحت توبته، ثم عاود الذنب فالتوبة الماضية صحيحة، والغرض مما ذكرناه: أن تعلموا أن التوبة عبادة من العبادات يقضى بصحتها وفسادها، فإذا سيقت على شرائطها، لم يقدر في صحتها ما يقع بعد مُضِيِّهَا، وعلى معاود الذنب: تجديد التوبة؛ ثم هذه التوبة عبادة أخرى سوى التي ذكرناها"^(٢).

٧ - التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره:

تصح التوبة من ذنب وإن كان مصرًا على ذنب آخر؛ لأنَّ الأعمال تتبعض، والإيمان يتفاضل. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "ووجوب التوبة عند أهل السنة بالشرع، وعند المعتزلة بالعقل، ولا يجب على الله عَزَّوَجَلَّ قبولها إذا وجدت بشروطها عقلاً عند أهل السنة، لكنه جَلَّوَجَلَّ يقبلها كرمًا وفضلًا، وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع، خلافًا

(١) روضة الطالبين وعمدة المفتين (١١/٢٥٠)، وانظر: الإرشاد إلى قواطع الأدلة، لإمام الحرمين (ص: ٤٢٦)، الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/٨٥)، غذاء الألباب، للسفاريني (٢/٥٦٩)، أسنى المطالب في شرح روض الطالب (٤/٣٥٩)، تحفة المحتاج في شرح المنهاج (١٠/٢٤٥)، الزواج عن اقتراح الكبار (٢/٣٦٠-٣٦١).

(٢) الإرشاد إلى قواطع الأدلة (ص: ٤٢٨).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

لهم. وإذا تاب من ذنب ثم ذكره هل يجب تجديد الندم فيه؟ خلاف لأصحابنا وغيرهم من أهل السنة، قال ابن الأنباري رَحِمَهُ اللهُ: يجب، وقال إمام الحرمين رَحِمَهُ اللهُ: لا يجب، وتصح التوبة من ذنب وإن كان ملابسًا ذنبًا آخر، مصرًا عليه، ولو تاب من ذنب، ثم فعله مرة أخرى، لم تبطل التوبة^(١). وقال في (شرحه لصحيح مسلم): "وتصح التوبة من ذنب وإن كان مصرًا على ذنب آخر، وإذا تاب توبة صحيحة بشروطها، ثم عاود ذلك الذنب كتب عليه ذلك الذنب الثاني، ولم تبطل توبته. هذا مذهب أهل السنة في المسألتين. وخالفت المعتزلة فيهما.."^(٢).

وقال القاضي أبو محمد ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: "والتوبة من ذنب تصح مع الإقامة على غيره، وهي توبة مقيدة، وإذا تاب المرء ثم عاود الذنب بعد مدة فيحتمل عند حذاق أهل السنة أن لا يعيد الله عَزَّوَجَلَّ عليه الذنب الأول؛ لأن التوبة قد كانت مجبة، ويحتمل أن يعيده؛ لأنها توبة لم يواف بها"^(٣).

وقال عبد الله بن سميطة رَحِمَهُ اللهُ: ما دام قلب العبد مصرًا على ذنب واحد، فعمله معلق في الهواء، فإن تاب من ذلك الذنب وإلا بقي عمله أبدًا معلقًا"^(٤).

قال إمام الحرمين رَحِمَهُ اللهُ: "من احتقب أوزارًا، وقارف ذنوبًا صحت توبته عن بعضها، مع الإصرار على بعضها، وذهب أبو هاشم ومتبعوه إلى أن التوبة لا تصح

(١) انظر: روضة الطالبين وعمدة المفتين (١١/٢٤٩-٢٥٠).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/٥٩-٦٠).

(٣) المحرر الوجيز (٤/٥٦)، وانظر: تفسير القرطبي (٥/٩٠).

(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٨١).

الإرشاد إلى سبب النجاة والوسايل الناجعة لحياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

دون الانكفاف عن جميع الذنوب. وهذا الذي ذكره خروج عن المعقول، وموجب الشرع المنقول..^(١).

وللعلماء في هذا ثلاثة أقوال:

الأول: تجوز التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؛ وإلى هذا ذهب جمهور أهل السنة والجماعة.

الثاني: لا تجوز التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره.

وقد نقل ابن القيم رحمه الله قولاً بعدم قبول التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره، وهو رواية عن الإمام أحمد رحمه الله.

الثالث: أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على غيره من نوعه، وأما التوبة من ذنب، مع مباشرة آخر لا تعلق له به، ولا هو من نوعه فتصح، كما إذا تاب من الربا، ولم يتب من شرب الخمر -مثلاً-؛ فإن توبته من الربا صحيحة، وأما إذا تاب من ربا الفضل، ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه، أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر، أو بالعكس فهذا لا تصح توبته، وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة، وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها، أو تاب من شرب عصير العنب المسكر، وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة، فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب، وإنما عدل عن نوع منه إلى نوع آخر، بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها في الجنس، إما لأن وزرها أخف، وإما لغلبة دواعي الطبع

(١) انظر: الإرشاد إلى قواطع الأدلة (ص: ٤٢٤-٤٢٥).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

إليها، وقهر سلطان شهوتها له، وإما لأن أسبابها حاضرة لديه عتيده، لا يحتاج إلى استدعائها، بخلاف معصية يحتاج إلى استدعاء أسبابها، وإما لاستحواذ قرئانه وخلطائه عليه، فلا يدعونه يتوب منها، وله بينهم حظوة بها وجاه، فلا تطاوعه نفسه على إفساد جاهه بالتوبة..^(١).

٨ - مسألة: من تاب من ذنب ثم عاد إليه، هل يعود عليه إثم الذنب الأول؟ وهل يشترط في صحة التوبة: أن لا يعود إلى الذنب أبداً؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: شرط بعض الناس عدم معاودة الذنب. والأكثر على أن ذلك ليس بشرط، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته. فإذا عاوده، مع عزمه حال التوبة على أن لا يعاوده، صار كمن ابتداء المعصية، ولم تبطل توبته المتقدمة.

والمسألة مبنية على أصل، وهو أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده، فهل يعود إليه إثم الذنب الذي قد تاب منه ثم عاوده، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر إن مات مصرّاً؟ أو أن ذلك قد بطل بالكلية، فلا يعود إليه إثم، وإنما يعاقب على هذا الأخير؟

وفي هذا الأصل قولان:

(١) مدارج السالكين (١/٢٨٥-٢٨٦)، وانظر: الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/٥٦-٥٧).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

فقالت طائفة: يعود إليه إثم الذنب الأول، لفساد التوبة، وبطلانها بالمعاودة. قالوا: لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر، والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه، فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة.. وقالوا: والتوبة واجبة وجوباً مضيئاً مدى العمر، فوقتها مدة العمر؛ إذ يجب عليه استصحاب حكمها في مدة عمره، فهي بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات في صوم اليوم، فإذا أمسك معظم النهار، ثم نقض إمساكه بالمفطرات بطل ما تقدم من صيامه، ولم يعتد به، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئاً من يومه. واحتج الفريق الآخر - وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثم الذنب الذي تاب منه بنقض التوبة - بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة، وصار بمنزلة ما لم يعمله، وكأنه لم يكن، فلا يعود إليه بعد ذلك، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضي. قالوا: ولا يشترط في صحة التوبة العصمة إلى الممات، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك محي عنه إثم الذنب بمجرد ذلك، فإذا استأنفه استأنف إثمه. قالوا: فليس هذا كالكفر الذي يجبط الأعمال، فإن الكفر له شأن آخر، ولهذا يجبط جميع الحسنات، ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات. قالوا: والتوبة من أكبر الحسنات، فلو أبطلتها معاودة الذنب لأبطلت غيرها من الحسنات، وهذا باطل قطعاً.

قالوا: وقد علق الله عَزَّوَجَلَّ قبول التوبة بالاستغفار، وعدم الإصرار، دون المعاودة، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

يَعْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٥]. والإصرار عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به، فهذا الذي يمنع مغفرته.

قالوا: وأما استمرار التوبة فشرط في صحة كمالها ونفعها، لا شرط في صحة ما مضى منها، وليس كذلك العبادات، كصيام اليوم، وعدد ركعات الصلاة؛ فإن تلك عبادة واحدة، لا تكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها، وأما التوبة فهي عبادات متعددة بتعدد الذنوب، فكل ذنب له توبة تخصه، فإذا أتى بعبادة وترك أخرى لم يكن ما ترك موجبا لبطلان ما فعل.

بل نظير هذا: أن يصوم من رمضان ويفطر منه بلا عذر، فهل يكون ما أفطره منه مبطلاً لأجر ما صامه منه؟ بل نظير من صلى ولم يصم، أو زكى ولم يحج. ونكتة المسألة: أن التوبة المتقدمة حسنة، ومعاودة الذنب سيئة، فلا تبطل معاودته هذه الحسنة، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات.

قالوا: وهذا على أصول أهل السنة أظهر، فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين، ويكون محبوباً لله عَزَّجَلَّ، مبغوضاً له من وجهين أيضاً، بل يكون فيه إيمان ونفاق، وإيمان وكفر، ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر، فيكون من أهله، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُمُ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] أثبت لهم الإيمان به مع مقارنة الشرك، فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله عَزَّجَلَّ، وإن كان معه

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

تصديق لرسله عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ وباليوم الآخر، فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر. وشركهم قسمان: شرك خفي، وشرك جلي، فالخفي قد يغفر، وأما الجلي فلا يغفره الله عَزَّوَجَلَّ إلا بالتوبة منه؛ فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة، لما قام بهم من السببين^(١).

وفي (الفواكه الدواني): "إذا أذنب التائب هل تعود عليه ذنوبه أم لا؟ الصحيح: لا تعود، وظاهره: ولو عاد بمجلس التوبة، ولكن يجدد توبة لما اقتترف، وإذا تاب من بعض الذنوب دون بعضها فصحح بعض الشيوخ قبول توبته مع الإصرار على البعض الآخر، بدليل صحة إيمان الكافر مع إدامته شرب الخمر أو الزنا.

ولا يشترط في صحة التوبة: تعيين الذنب إذا تاب من البعض، وتصح التوبة من الذنوب إجمالاً، ولو لم يشق عليه التعيين، خلافاً للبعض، وما قدمناه من وجوب تعيين ما اغتابه به إذا بلغه على وجه أفحش منه، وإن ذكره بعض الشراح ليس مذهباً للمالكية، بل عندهم لا يجب التفصيل مع الإبراء مطلقاً، كما أن مذهبهم أن التوبة لا تسقط الحدود ولا التعازير، إلا حد الحرابة من حيث هو حدها. ويستحب التفصيل للمعتاب من غير وجوب عليه، وليس في ذلك: تحليل حرام، بل إسقاط لحق المبرئ^(٢).

(١) مدارج السالكين (١/٢٩١-٢٩٣).

(٢) انظر: الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١/٧٦).

الدُّرَرُ وَالسُّبُلُ إِلَى سُبُلِ النِّجَاتِ وَالرَّسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً

الجزء الثاني

٩ - توبة الكافر:

وتقبل توبة الكافر؛ لقوله جَلَّوَعًا: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال جَلَّوَعًا عن المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [١٤٥] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

وقد روى (مسلم): عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: ابسط يمينك فلأبأبعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «ما لك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشتري، قال: «تشتري بماذا؟»، قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟»^(١).
قوله: «إن الإسلام يهدم ما كان قبله» أي: يسقطه، ويمحو أثره^(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ثم توبة الكافر من كفره مقطوع بقبولها، وما سواها من أنواع التوبة هل قبولها مقطوع به أم مظنون فيه؟ خلاف لأهل السنة، واختار إمام الحرمين رَحِمَهُ اللَّهُ أنه مظنون، هو الأصح - والله أعلم -"^(٣). قال إمام الحرمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "الكافر إذا آمن بالله عَزَّوَجَلَّ، فليس إيمانه توبة عن كفره، وإنما ندم على كفره.

(١) صحيح مسلم [١٢١].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/١٣٨).

(٣) المصدر السابق (٦٠/١٧)، وانظر: طرح الشريب في شرح التقريب (٨/٢٣٩-٢٤٠).

الإرشاد إلى سبب النجاة والوسائد التي اجتمعت حياطة طيبتنا فاعتزنا

الجزء الثاني

فإن قيل: فلو آمن ولم يندم على كفره؟ قلنا: ذلك عندنا غير ممكن، بل يجب مقارنة الإيمان الندم على الكفر. ثم وزر الكفر ينحط بالإيمان والندم على الكفر إجماعاً، وهذا موضع قطع؛ وما عداه، من ضروب التوبة، فقبوله مظنون غير مقطوع به - كما ذكرناه -^(١).

١٠ - توبة العاصي:

وأما توبة المؤمن العاصي، فقيل: تقبل قطعاً، وقيل: ظناً، مع الاتفاق على قبولها شرعاً؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]. قال الألويسي رَحِمَهُ اللهُ: "المنقول عن السبكي رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: إن قبول التوبة عن الكفر مقطوع به تفضلاً، وفي القطع بقبول توبة العاصي قولان لأهل السنة، والمختار عند إمام الحرمين رَحِمَهُ اللهُ أن تكفير التوبة للذنب مظنون، وادعى النووي رَحِمَهُ اللهُ أنه الأصح. وفي (شرح البرهان): الصحيح عندنا القطع بالتكفير، وقال الحلبي رَحِمَهُ اللهُ: لا يجب على الله عَزَّوَجَلَّ قبول التوبة، لكنه لما أخبر عن نفسه أنه يقبل التوبة عن عباده ولم يجز أن يخلف وعده علمنا أنه جَلَّوَعَلَا لا يرد التوبة الصحيحة فضلاً منه جَلَّوَعَلَا"^(٢). وقال القاضي أبو محمد ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: "والعقيدة: أنه لا يجب على الله عَزَّوَجَلَّ شيء عقلاً، لكن إخباره جَلَّوَعَلَا عن أشياء أوجبها على نفسه يقتضي وجوب تلك

(١) الإرشاد إلى قواطع الأدلة (ص: ٤٢٧-٤٢٨).

(٢) روح المعاني (٣٥٢/٦)، المنهاج في شعب الإيمان، لأبي عبد الله الحلبي (١٣٣/٣)، وانظر: تشنيف المسامع بجمع الجوامع (٩٥٠/٤)، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (٧٦/١).

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

الأشياء سمعًا، فمن ذلك: تخليد الكفار في النار، ومن ذلك قبول إيمان الكافر. والتوبة لا يجب قبولها على الله عَزَّوَجَلَّ عقلاً، فأما السمع فظاهره قبول توبة التائب. قال أبو المعالي رَحِمَهُ اللهُ وغيره: فهذه الظواهر إنما تعطي غلبة ظن، لا قطعاً على الله عَزَّوَجَلَّ بقبول التوبة. قال القاضي أبو محمد رَحِمَهُ اللهُ: وقد خولف أبو المعالي رَحِمَهُ اللهُ وغيره في هذا المعنى، فإذا فرضنا رجلاً قد تاب توبة نصوحاً تامة الشروط، فقول أبي المعالي يغلب على الظن قبول توبته، وقال غيره: يقطع على الله عَزَّوَجَلَّ بقبول توبته، كما أخبر عن نفسه جَلَّوَعَلَا.

قال القاضي أبو محمد: وكان أبي رَحِمَهُ اللهُ عليه يميل إلى هذا القول ويرجح، وبه أقول، والله جَلَّوَعَلَا أرحم بعباده من أن ينخرم في هذا التائب المفروض معنى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقوله: ﴿وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَعَآمَنَ﴾ [طه: ٨٢]. والسوء في هذه الآية (١)، يعم الكفر والمعاصي (٢).

قال أبو القاسم القشيري رَحِمَهُ اللهُ: "التائب من الذنب على يقين، ومن قبول التوبة على خطر فينبغي أن يكون دائم الحذر" (٣).

وقال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "إن الذنوب إما كفر، وإما غيره، فتوبة الكافر عند موته مقطوع بعدم قبولها، وما عداها فمقبولة إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ، بوعد الصدق،

(١) يعني: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧].

(٢) المحرر الوجيز (٢/٢٤).

(٣) الرسالة القشيرية (١/٢١٣)، وانظر: طرح الشريب في شرح التقريب (٨/٢٤٠).

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

وقوله الحق. وأعني بالقبول: الخلاص من ضرر الذنوب، حتى يرجع كمن لم يعمل ذنبًا، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(١)...^(٢). وقد تقدم قوله.

١١ - توبة القاتل:

جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتَسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتَسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةَ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنْ بَهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ؛ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ، فَانْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ^(٣) أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ. فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مَقْبَلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ [أَي: حَكَمًا]، فَقَالَ: قَيَسُوا مَا بَيْنَ

(١) تقدم.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٧١)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١٠٣/١١).

(٣) أي: بلغ نصفه.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاوسا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة»، والحديث متفق عليه^(١).

وفي رواية في (الصحيح): «فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر، فجعل من أهلها».

وفي رواية في (الصحيح): «فأوحى الله إلى هذه أن تقربي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدني، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له». وفي رواية: «فناى» أو «فناء بصدرة نحوها».

و«نأى بصدرة» أي: نهض به مع ثقل ما أصابه من الموت، وذلك دليل على صحة توبته وصدق رغبته^(٢).

وقوله: «فناء» على وزن: (قال) بمعنى: نهض بجهد ومشقة، أو على وزن (رمى) بمعنى: بُعد. وقد روي في (المصابيح) بهما، والأول أوجه. وقيل: هما بمعنى، كقولهم: رأى وراء، كذا قال الثوريثي رحمه الله^(٣).

(١) صحيح البخاري [٣٤٧٠]، مسلم [٢٧٦٦].

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٩١/٧). وقيل: قوله فناء بصدرة مدرج، والدليل عليه أنه قال في آخر الحديث: قال قتادة: قال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه الموت ناء بصدرة. انظر: عمدة القاري (٥٦/١٦)، فتح الباري، لابن حجر (٥١٧/٦)، نجاح القاري (ص: ١٢٨٨٣).

(٣) انظر: الميسر في شرح مصابيح السنة، للثوريثي (٥٤١/٢)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٨٤٠/٦)، لمعات التنقيح (١٥١/٥).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

والمراد من الحديث: "أنه لما صدق في التوبة اجتهد في القرب إلى أهل الخير، فأعين على اجتهاده بالوحي إلى الأرض الصالحة: «أن تقربي»، وإلى الخبيثة: «أن تباعدي»، وهذا من جنس قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]"^(١).

قال شمس الدين الكرمانى رَحِمَهُ اللهُ: "فإن قلت حقوق الآدميين لا تسقط بالتوبة، بل لا بد من الاسترضاء، قلت: إن الله عَزَّجَلَّ إذا قبل توبته أرضى خصمه"^(٢).

وقال العلامة المظهري رَحِمَهُ اللهُ: "وهذا تحريض للمذنبين على التوبة، وَمَنْعُهُمْ عن اليأس عن رحمة الله عَزَّجَلَّ، بل لا مرجع ولا مآب للمطيعين والعاصين إلا باب مولاهم الكريم؛ فإنه لا مولى سواه، ولا نصير ولا محلّص من العذاب سواه، ولا مجير سواه، ولا تظننّ أن الله عَزَّجَلَّ إذا غفر له أضعاف ما عليه من حقوق الآدميين، بل سيُرضي يوم القيامة خصمائه بفضله ورحمته"^(٣).

وقال الحافظ في (الفتح): "وفي الحديث: مشروعية التوبة من جميع الكبائر، حتى من قتل الأنفس، ويحمل على أن الله عَزَّجَلَّ إذا قبل توبة القاتل تكفل برضا خصمه. وفيه: أن المفتي قد يجب بالخطأ.." ^(٤).

(١) كشف المشكل (١٥٩/٣).

(٢) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (١٠١/١٤-١٠٢).

(٣) المفاتيح في شرح المصايح (١٧٦/٣)، وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٨٤٠/٦).

(٤) فتح الباري، لابن حجر (٥١٧/٦).

الدرر والاسباب النجاة والسبائل الناجحة حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: "مذهب أهل السنة والجماعة: أنَّ التوبة تكفِّر القتل، كسائر الذُّنوب، وهو قول كافة السلف. وما روى عن بعضهم من خلاف ذلك فشديد في الزجر، وتورية في القول؛ لئلا يجترئ الناس على الدماء. وقد اختلف في تأويل قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]. قيل: معناه: قتله مستحلاً، أي: فيخلد؛ لاستحلاله القتل؛ لأنه يكفر بذلك. ويقوي هذا: أنها إنما نزلت في حقِّ مسلم ارتد عن الإسلام، وقتل مسلمًا. قيل: نزلت في هذا الرجل بعينه.

وقيل معناه: جزاؤه جهنم إن جازاه، فيكون الخلود: طول الإقامة، لا التأييد" (١). وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١]. وقد جاء في الحديث: عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف،

(١) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٢٦٩/٨)، كشف المشكل (٣٥٩/٢).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له،
ومن أصاب منها شيئاً من ذلك فستره الله، فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء
غفر له» (١).

وقد تقرر في النصوص أنه لا يخلد في النار من مات موحدًا لله عَزَّجَلَّ، ولكن قد
يعني عنه فلا يدخل النار أصلاً، وقد لا يعني عنه، بل يعذب كسائر العصاة
الموحدين، ثم يخرج معهم إلى الجنة، ولا يلزم من كونه يستحق أن يجازى بعقوبة
مخصوصة: أن يتحتم ذلك الجزاء -والله أعلم-، والله عَزَّجَلَّ حكيم عليم، لا يظلم أحداً
من الخلق مثقال ذرة.

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: "وأما قياسه إلى إحدى القريتين والحكم بذلك له
بعد اختصاص ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فيه فذلك -والله أعلم- علامة جعلها
الله عَزَّجَلَّ لهم عند اختلافهم مع عدم معرفة حقيقة باطنه التي اطع الله عَزَّجَلَّ عليها؛
لأنه عليم بذات الصدور، ولو تحققوا توبته لم يختلفوا ولا احتاجوا للمقايسة بالأرض،
ألا ترى كيف قال: «فأوحى الله إلى هذه الأرض أن تباعدى، وإلى هذه أن تقرى»؛
إذ كان جَلَّوَعَلَا قد عَلِمَ ما لم تعلم الملائكة (٢).

وقد تعقبه القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في (المفهم) بقوله: "وهذه غفلة منه عن قول ملائكة
الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله عَزَّجَلَّ. وهذا نص في أن ملائكة الرحمة علمت ما
في قلبه، فلو علمت ملائكة العذاب ما في قلبه لما تنازعوا؛ لأن الملائكة كلهم لا يخفى

(١) صحيح البخاري [١٨، ٣٨٩٢، ٦٨٠١، ٧٢١٣، ٧٤٦٨]، مسلم [١٧٠٩].

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/٢٦٩-٢٧٠).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

عليهم أن التوبة إذا صحت في القلب، وعمل على مقتضاها بالجوارح بالقدر الممكن، مقبولة بفضل الله عَزَّجَلَّ، ووعد الصادق، والأحسن ما ذكرناه - إن شاء الله عَزَّجَلَّ -، وإنما جعل الله عَزَّجَلَّ قرب تلك الأرض سببًا مرجحًا لحجة ملائكة الرحمة، ومصداقًا لصحة التوبة، وفيه دليل على أن أعمال الظاهر عنوان على الباطن.

وقوله: «فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي». إنما كان ذلك لما حكم الحاكم بقياس الأرض. ويفهم منه: أن الرجل كان أقرب إلى الأرض التي خرج منها، فلو ترك الله عَزَّجَلَّ الأرض على حالها لقبضته ملائكة العذاب، لكن غمرته الألفاظ الإلهية، وسبقت له العناية الأزلية، فقربت البعيد، وألانت الحديد. ويستفاد منه: أن الذنوب وإن عظمت، فغفر الله عَزَّجَلَّ أعظم منها، وأن من ألهم صدق التوبة فقد سلك به طريق اللطف والقربة^(١).

١٢ - توبة السارق:

إن السرقة الذنوب العظيمة التي حرّمها الله عَزَّجَلَّ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورتب عليها الحد في الدنيا، والعقوبة في الآخرة. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٩١-٩٣).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لعن الله السارق، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده»^(١).

ولا يخفى أن السرقة تتفاوت، ويختلف الحكم فيها باختلاف المقدار والأحوال، وللحدود الشرعية موانع تمنع من إقامتها، فليس كل سرقة يكون فيها القطع، كمن سرق في حال المجاعة والاضطرار، فهي شبهة تدرأ الحد، والحدود لم تشرع إلا لصيانة الضرورات الخمس: (الدِّين، والنَّفْس، والنَّسب، والعقل، والمال)، وحماية هذه الحقوق الإنسانية كلها، كما هو مقرر في أصول التشريع الإسلامي.

وقد علم أن السارق في حال المجاعة مضطر إلى ما يحفظ به نفسه، وأن من الواجب على المسلمين إطعامه.

وقد رُوِيَ عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه لم يقيم حد السرقة عام الرمادة؛ لأنه جعل من المجاعة العامة قرينة على الاضطرار، والاضطرار شبهة في السرقة تمنع الحد عن السارق، بل تبيح له السرقة في حدود الضرورة.

وقد ذكر الأئمة أن من أخذ من مال أبيه خفية ظناً منه أنه يباح له ذلك لا حد عليه.. إلى غير ذلك مما أفاض الفقهاء في بيانه.

والإسلام لا يقيم حد السرقة إلا بعد إقامة البينة القاطعة، والتثبت من وقوعها.

وقد ذكر الفقهاء شروطاً وضوابط لإقامة حد السرقة تتناول: (السارق،

والمسروق، والموضع المسروق منه، وكيفية السرقة).

(١) صحيح البخاري [٦٧٨٣، ٦٧٩٩]، مسلم [١٦٨٧].

الدرر السابغ إلى السبب النجاة

الجزء الثاني

فلا بد أن يستجمع السارق، والمسروق منه، والمال المسروق، وكيفية السرقة أوصافاً محددة ذكرها الفقهاء متى اختل وصف منها؛ انتفى القطع. وقد بيت ذلك في كل من كتاب: (نهج الأبرار في اجتناب ما توعده عليه بالنار)، وكتاب: (الإفساد في الأرض، صورته، وأسبابه، وسبل الوقاية منه). أما توبة السارق فقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

وجاء في (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ)، باب: (توبة السارق): عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَطَعَ يَدَ امْرَأَةٍ»، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وكانت تأتي بعد ذلك، فأرفع حاجتها إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتابت، وحسنت توبتها^(١). وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بايعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رهط، فقال: «أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فأخذ به في الدنيا فهو كفارته له وطهور، ومن ستره الله، فذلك إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له»، قال أبو عبد الله: إذا تاب السارق بعد ما قطع يده قبلت شهادته، وكل محدود كذلك إذا تاب قبلت شهادته^(٢).

(١) صحيح البخاري [٦٨٠٠].

(٢) صحيح البخاري [٦٨٠١].

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

وتوبة السارق هي: أن يندم على ما مضى، ويُقْلِعَ فيما يستقبل، ويردَّ ما سرق إلى مَنْ يستحقُّه.

وقد اختلف إذا تاب قبل أن يصل إلى الحاكم، هل يسقط عنه القَطْعُ أو لا يسقط، كما اختلف في قبول شهادته.

فذهب الحنفية، والمالكية، والشافعية في أحد القولين، والحنابلة في إحدى الروايتين، وجماعة: إلى أن التوبة لا تسقط حد السرقة.

وذهب الشافعية - في أصح القولين - والحنابلة - في الرواية الأخرى - إلى أن التوبة تسقط حد السرقة.

وقد ذهب جمهور العلماء على أن توبة السارق - ولو جاء تائبًا قبل القدرة عليه - لا تسقط عنه القطع، وقد دلَّ على ذلك: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطع يد المخزومية ولا شك أنها تائبة.

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: إذا تاب السارق قبل أن يتلبس الحاكم بأخذه فتوبته ترفع عنه حكم القطع، قياسًا على توبة المحارب (١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "وقد نص الله عَزَّجَلَّ على سقوط الحد عن المحاربين بالتوبة التي وقعت قبل القدرة عليهم مع عظيم جرمهم، وذلك تنبيه على سقوط ما دون الحراب بالتوبة الصحيحة بطريق الأولى.."(٢).

(١) انظر: المحرر الوجيز (٢/١٩٠)، أحكام القرآن، لابن الفرس (٢/٤٢٣)، الجواهر الحسان (٢/٣٨٢).

(٢) انظر في ذلك: ما حرره العلامة ابن القيم في كتابه: (إعلام الموقعين عن رب العالمين) (٣/١٥-١٧).

الدراسة السبب النجاة والسائل الناجع حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

وقال عطاء رَحِمَهُ اللهُ وجماعة: يسقط بالتوبة قبل القدرة على السارق. وقاله بعض الشافعية وعزاه إلى الشافعي رَحِمَهُ اللهُ قولاً، وتعلقوا بقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤]، وذلك استثناء من الوجوب، فوجب حمل جميع الحدود عليه. وقال علماؤنا: هذا بعينه هو دليلنا؛ لأن الله عَزَّجَلَّ لما ذكر حد المحارب قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤]، وعطف عليه حد السارق، وقال فيه: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٣٩]، فلو كان ظلمه في الحكم ما غاير الحكم بينهما.

قال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللهُ: ويا معشر الشافعية سبحان الله! أين الدقائق الفقهية، والحكم الشرعية، التي تستنبطونها من غوامض المسائل؟! ألم تروا إلى المحارب المستبد بنفسه، المعتدي بسلاحه، الذي يفتقر الإمام معه إلى الإيجاف بالخيال والركاب كيف أسقط جزاءه بالتوبة؛ استنزلاً عن تلك الحالة، كما فعل بالكافر في مغفرة جميع ما سلف؛ استئلاً على الإسلام؛ فأما السارق والزاني وهما في قبضة المسلمين، وتحت حكم الإمام، فما الذي يسقط عنهم حكم ما وجب عليهم؟ أو كيف يجوز أن يقال: يقاس على المحارب، وقد فرقت بينهما الحكمة والحالة! هذا ما لا يليق بمثلكم يا معشر المحققين. وإذا ثبت أن الحد لا يسقط بالتوبة فالتوبة مقبولة والقطع كفارة له. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: كما تاب عن السرقة تاب عن كل ذنب. وقيل: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المعصية بالكلية، فأما من ترك السرقة بالزني أو التهود بالتنصر

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

فهذا ليس بتوبة، وتوبة الله عَزَّجَلَّ على العبد أن يوفقه للتوبة. وقيل: أن تقبل منه التوبة^(١).

وحيث إن المسألة قد قوي فيها الخلاف، فالأولى أن تدرأ الحدود بالشبهات. وقد بينت السنة أنه إن عفي عنه قبل الرفع إلى الإمام، سقط القطع. وقد جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أن قريشاً أهدمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدِّ مَنْ حُدِّ مِنْ حَدودِ اللهِ، ثم قام فَاخْتَطَبَ، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ: "ذهب جماعة العلماء إلى أن الحد إذا بلغ الإمام أنه يجب عليه إقامته؛ لأنه قد تعلق بذلك حق الله عَزَّجَلَّ، ولا تجوز الشفاعة فيه؛ لإنكاره ذلك على أسامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وذلك من أبلغ النهي"^(٣)، ولحديث صفوان بن أمية أن رجلاً سرق بُرْدَةً فرفعه إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر بقطعه فقال: يا رسول الله، قد تجاوزت عنه.

(١) أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي (١١٥/٢)، تفسير القرطبي (١٧٤/٦-١٧٥).

(٢) صحيح البخاري [٣٤٧٥، ٤٣٠٤، ٦٧٨٧، ٦٧٨٨]، مسلم [١٦٨٨].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٤٠٨/٨).

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

قال: «فلولا كان هذا قبل أن تأتيني به يا أبا وهب»، فقطعه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

وفي رواية: عن صفوان بن أمية، قال: كنت نائمًا في المسجد عليَّ خِمِصَةٌ لِي ثَمَنُهَا ثَلَاثُونَ دَرْهَمًا، فجاء رجل فَاخْتَلَسَهَا مِنِّي، فَأَخَذَ الرَّجُلُ، فَأَتَى بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَ بِهِ لِيُقَطَعَ، قال: فَأَتَيْتُهُ، فقلت: أَتَقَطَعُهُ مِنْ أَجْلِ ثَلَاثِينَ دَرْهَمًا، أَنَا أبيعُهُ وَأُنْسِيئُهُ ثَمَنُهَا؟ قال: «فَهَلَّا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ»^(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "ذكر مسلم رَحِمَهُ اللهُ في الباب الأحاديث في النهي عن الشفاعة في الحدود، وأن ذلك هو سبب هلاك بني إسرائيل، وقد أجمع العلماء على تحريم الشفاعة في الحد بعد بلوغه إلى الإمام لهذه الأحاديث. وعلى أنه يحرم التَّشْفِيعَ فِيهِ، فأما قبل بلوغه إلى الإمام فقد أجاز الشفاعة فيه أكثر العلماء إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب شَرٍّ وَأَذَى لِلنَّاسِ، فإن كان لم يُشْفَعْ فِيهِ. وأما المعاصي التي لا حَدَّ فِيهَا وواجبها التعزير فتجوز الشفاعة والتشفيع فيها سواء بلغت الإمام أم لا؛ لأنها أهون، ثم الشفاعة فيها مستحبة إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب أذى ونحوه"^(٣).

(١) أخرجه أحمد [١٥٣٠٥]، والنسائي في (السنن) [٤٨٧٩]، وفي (الكبرى) [٧٣٢٤]، والطبراني [٧٣٣٧]، والضياء [٧]. وهو صحيح بالمتابعة.

(٢) أخرجه أبو داود [٤٣٩٤]، والنسائي في (السنن) [٤٨٨٣]، وفي (الكبرى) [٧٣٢٨]، وابن الجارود [٨٢٨]، والدارقطني [٣٤٦٥]، والحاكم [٨١٤٩]، والبيهقي [١٧٢١٨].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/١٨٦)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٣٦٧).

الدرر السادة إلى السبل النجاة

الجزء الثاني

وقال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللهُ: "وفي هذا الحديث: دليل على امتناع الشفاعة في الحدِّ بعد بلوغه السلطان، وفيه: تعظيم أمر المحابة للأشراف في حقوق الله جَلَّ وَعَلَا" (١).
وقال أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: "قالوا: فقد دل هذا على أنه لو وهبه منه أو أبرأه من ذلك قبل أن يرفعه إلى الإمام سقط عنه القطع. واختلف الفقهاء في هذا فقال مالك والشافعي وأحمد بن حنبل رَحِمَهُمُ اللهُ: لا يسقط عنه القطع، وإن وهب منه المتاع أو باعه منه أو أبرأه.

وقال أبو حنيفة وأصحابه رَحِمَهُمُ اللهُ: إذا رد السرقة إلى أهلها قبل أن يرفع إلى الإمام، ثم أتى به الإمام فشهد عليه الشهود لم يقطع.
وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ: إذا وهب له السرقة لم يقطع. وأحسبه لا يفرق بين ذلك كان قبل رفعه إلى الإمام أو بعده" (٢).

١٣ - توبة المحاربين وقطاع الطريق:

إن من أعظم صور (الإفساد في الأرض) المنكرة: قطع الطريق، وسلب الأموال، وانتهاك الأعراض، وإتلاف النفوس محرِّم، وعقوبة ذلك الإفساد منصوص عليها في القرآن الكريم، ومتوعد عليها بالعذاب في الآخرة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ

(١) إحكام الأحكام (٢/٢٤٨).

(٢) معالم السنن (٣/٣٠٧-٣٠٨).

الدرر السبل إلى السبل النجاة

الجزء الثاني

عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤].

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فمجرد إخافته السبيل هو مرتكب الكبيرة، فكيف إذا أخذ المال؟! وكيف إذا جرح أو قتل أو فعل عدة كبائر؟! مع ما غالبهم عليه من ترك الصلاة، وإنفاق ما يأخذونه في الخمر والزنا؟!"^(١).

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا بيان من الله عز ذكره عن حكم (الفساد في الأرض)، الذي ذكره في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٢]. أعلم عباده: ما الذي يستحق المفسد في الأرض من العقوبة والنكال، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: لا جزاء له في الدنيا إلا القتل، والصلب، وقطع اليد والرّجل من خلاف، أو النفي من الأرض، خزيًا لهم. وأما في الآخرة إن لم يتب في الدنيا، فعذاب عظيم"^(٢).

(١) الكبائر، للذهبي (ص: ٢٢٧)، بتحقيق: مشهور بن حسن.

(٢) المصدر السابق (١٠/٢٤٣).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

و(الحرابة): البروز لأخذ مال أو لقتل أو لإرعاب على سبيل المجاهرة^(١) مكابرة اعتمادًا على الشوكة^(٢)، مع البعد عن الغوث^(٣)، من كل مكلف ملتزم للأحكام، ولو كان ذميًّا أو مرتدًّا^(٤).

وتسمى: قطع الطريق، والسرقعة الكبرى.

ويدخل في التعريف: العبد، والمرأة، والسكران المتعدي بسكره؛ لأنهم جميعًا مكلفون.

ويدخل في ذلك أيضًا: الواحد والجماعة، إذا تحققت بهم بقية الصفات.

(١) يسمى: الأخذ على سبيل المجاهرة مغالبة أو نهب، أو خلسة، أو غصبًا، أو انتهابًا واختلاسًا لا سرقة؛ لأن ركن السرقة الأخذ على سبيل الاستخفاء. انظر: بدائع الصنائع، للكاساني (٦٥/٧)، والإغارة في باب السرقة غير لائقة؛ لأن السرقة أخذ مال في خفاء وحيلة فلذلك سمي السارق به؛ لأنه يسارق عين المسروق منه، أو عين أعوانه على الحفظ، والإغارة أخذ في المجاهرة مكابرة ومغالبة. انظر: المبسوط (١٣٣/٩)، وانظر: البناية شرح الهداية (٤٣/٧)، العناية (٣٨٧/٥)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٥٤/٥).

(٢) خرج بقيد: (اعتمادًا على الشوكة): ما لو كان الاعتماد على المغالبة والمهرب، أو على ضعف المجني عليه، فلا يسمى ذلك في الاصطلاح الشرعي حرابة، وإنما هو من قبيل النهبة ونحوها، وله حكمه الخاص به.

(٣) خرج بقيد: (البعد عن مسافة الغوث) وهي المسافة القريبة من المدينة أو القرية، بحيث لو استغاث الإنسان منها لبلغ صوته أهلها: ما لو كانت المسافة داخلية في حدود الغوث، فلا يسمى العدوان حينئذ حرابة.

(٤) خرج بقيد: (ملتزم للأحكام): الكافر الحربي، فهو وإن قتل وأخذ المال، لا يدخل في هذا الباب، وإنما هو كافر حربي مهدر الدم على كل حال، فإن دخل في الإسلام لم يؤخذ بجناية جناها من قبل؛ لأن الإسلام يجب ما قبله.

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

ويطلق على أرباب هذا الشأن: قطاع الطريق، وسموا بذلك؛ لأن الناس يمتنعون من سلوك الطريق التي يكون بها هؤلاء، فكأنهم قد قطعوها حقيقة^(١).
ويفرق بينها وبين السرقة بأن الحرابة هي البروز لأخذ مال أو لقتل أو إرعاب مكابرة اعتماداً على الشوكة مع البعد عن الغوث، أما السرقة فهي أخذ المال خفية. فالحرابة تكتمل بالخروج على سبيل المغالبة وإن لم يؤخذ مال، أما السرقة فلا بد فيها من أخذ المال على وجه الخفية^(٢).

والحرابة مأخوذة من حارب يحارب محاربة وحرابة.

وعبر الحنفية والشافعية والحنابلة عن الحرابة: بقطع الطريق، وقالوا: إنه الخروج على المارة لأخذ المال على سبيل المغالبة، على وجه يمنع المارة من المرور، فينقطع الطريق، سواء أكان القطع من جماعة أم واحد، بعد أن يكون له قوة القطع، وسواء أكان القطع بسلاح أم بغيره من العصا والحجر ونحو ذلك. وتسمى الحرابة بالسرقة الكبرى.

(١) انظر: الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي (٨/٨٢-٨٣).

(٢) انظر: أسنى المطالب في شرح روض الطالب (٤/١٥٤)، الغرر البهية (٥/١٠١)، فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب (٢/١٩٩)، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (٢/٥٤١)، مغني المحتاج (٥/٤٩٨)، غاية البيان شرح زيد ابن رسلان (ص: ٣٠٢)، نهاية المحتاج (٣/٨)، حاشيتا قليوبي وعميرة (٤/٢٠٠)، فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب (٥/١٥٢)، حاشية البجيرمي على الخطيب (٤/٢١١-٢١٢)، إعانة الطالبين (٤/١٨٦)، السراج الوهاج على متن المنهاج (ص: ٥٣١).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

أما كونها سرقة؛ فباعتبار أن قاطع الطريق يأخذ المال خفية عن عين الإمام الذي عليه حفظ الأمن. وأما كونها كبرى؛ فلأن ضرره يعم، حيث يقطع الطريق على الجماعة بزوال الأمن^(١). فالسرقة التي عقوبتها الحد نوعان:

الأول: سرقة صغرى: وهي التي يجب فيها قطع اليد.

الثاني: سرقة كبرى: وهي أخذ المال على سبيل المغالبة.

ويسمى: الحراية.

والفرق بين الحراية والبغي هو أن البغي يستلزم وجود تأويل، أما الحراية فالغرض منها: الإفساد في الأرض.

ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء؛ لقوله **جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾**. وهذا مذهب مالك، والأوزاعي، والليث بن سعد، والشافعي، أحمد بن حنبل **رَحِمَهُمُ اللَّهُ**، حتى قال مالك **رَحِمَهُمُ اللَّهُ** - في الذي يغتال الرجل فيخدعه حتى يدخله بيتا فيقتله، ويأخذ ما معه-: إن هذا محاربة، ودمه إلى السلطان، لا إلى ولي المقتول، ولا اعتبار بعفوه عنه في إنفاذ القتل.

(١) انظر: بدائع الصنائع (٩٠/٧)، حاشية الشلبي على تبين الحقائق (٢٣٥/٣)، البناية شرح الهداية (٨٠/٧)، مواهب الجليل (٩١٤/٦)، الشرح الصغير (٤٩١/٤).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقال أبو حنيفة وأصحابه رَحِمَهُمُ اللهُ: لا تكون المحاربة إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا؛ لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، بخلاف الطريق؛ لبعده ممن يغيثه ويعينه -والله أعلم- (١).

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ في قوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾، يعني: شرٌّ وعار وذلةٌ، ونكال وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة. ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾، أي: إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا في الآخرة، مع الخزي الذي جازيتهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها. ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، يعني: عذاب جهنم (٢).

(١) تفسير ابن كثير (٩٩/٣). قال شمس الأئمة السرخسي: "لو كابر إنساناً ليلاً حتى سرق متاعه ليلاً فعليه القطع؛ لأن سرقة قد تمت حين كابر ليلاً؛ فإن الغوث بالليل قل ما يلحق صاحب البيت، وهو عاجز عن دفعه بنفسه، فيكون تمكنه من ذلك بالناس والسارق قد استخفى فعله من الناس بخلاف ما إذا كابر في المصر نهاراً حتى أخذ منه مالا فإنه لا يلزمه القطع استحساناً؛ لأن الغوث في المصر بالنهار يلحقه عادة، فالأخذ مجاهر بفعله غير مستخف له، وذلك يمكن نقصاناً في السرقة". المبسوط (١٥١/٩). فمن شروط الحراية: المجاهرة بأن يأخذوا المال جهراً، فإن أخذوه مختمين فهم سارق، وإن اختطفوه وهربوا، فهم منتهبون، لا قطع عليهم، وكذلك إن خرج الواحد والاثنان على آخر قافلة، فسلبوا منها شيئاً؛ لأنه لا يرجعون إلى منعة وقوة، وإن خرجوا على عدد يسير فقهرتهم، فهم قطاع طريق. وهذا مذهب الحنفية والشافعية والحنابلة. وخالف في ذلك المالكية والظاهرية. قال ابن العربي المالكي: والذي نختاره أن الحراية عامة في المصر والقفر، وإن كان بعضها أفحش من بعض، ولكن اسم الحراية يتناولها، ومعنى الحراية موجود فيها. انظر: المغني، لابن قدامة (١٤٥/٩)، تحفة المحتاج (٢٣٣/٩)، الشرح الكبير على متن المقنع (٣٠٤/١٠)، الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (٢٨٧/٤)، كشف القناع عن متن الإقناع (١٥٠/٦)، أحكام القرآن، للقاضي أبي بكر بن العربي (٩٥/٢)، فقه السنة (٤٦٨/٢ - ٤٦٩).

(٢) تفسير الطبري (٢٧٦/١٠ - ٢٧٧)، تفسير ابن كثير (١٠١/٣).

الدراسة والسبيل للحياة والوسائد التي اجتمعت حينا طيبتنا فاعتنا

الجزء الثاني

قال الواحدي رَحِمَهُ اللهُ: "معنى يحاربون الله عَزَّجَلَّ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يعصونهما ولا يطيعونهما. كل من عصاك فهو محارب لك. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾، أي: بالقتل والسرقة وأخذ الأموال، فكل من أخذ السلاح على المسلمين فهو محارب لله ورسوله، وإن كان في بلد كالمكابر في البلاد^(١)، وهذا قول مالك، والأوزاعي، ومذهب الشافعي رَحِمَهُ اللهُ"^(٢).

وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في الآية: من شهر السلاح في فئة الإسلام، وأخاف السبيل، ثم ظفر به وقدر عليه، فإمام المسلمين فيه بالخيار إن شاء قتله وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله^(٣)، وكذا قال سعيد بن المسيب ومجاهد والضحاك رَحِمَهُ اللهُ، ومستند هذا القول أن ظاهر (أو) للتخيير كما في نظائر ذلك في القرآن، كقوله في كفارة الفدية: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وكقوله في كفارة اليمين: ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِّنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]. وهذه كلها على التخيير، فكذلك فلتكن هذه الآية.

وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال، كما قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قطاع الطريق:

(١) تأخذ المكابرة حكم الحراية باعتبارها وصفاً من أوصاف الحراية.

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١٨١/٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٦٣/١٠)، تفسير ابن كثير (١٠٠/٣)، الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النحاس

(ص: ٣٩٢). قال السيوطي: "أخرجه: ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في (ناسخه) عن

ابن عباس " الدر المنثور (٦٨/٣).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني



أ. إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا.
ب. وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا.
ج. وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف.
د. وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض. وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة. واختلفوا، هل يصلب حيًا ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب، أو يقتله برمح أو نحوه، أو يقتل أولًا ثم يصلب، تنكيلاً وتشديدًا لغيره من المفسدين؟ في ذلك كله خلاف محرر في موضعه، وبالله عز وجل الثقة، وعليه التكلان. وأما قوله **جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾** فقد قال بعضهم: هو أن يطلب حتى يقدر عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام^(١).
وقال آخرون: هو أن ينفي من بلده إلى بلد آخر، أو يخرج السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية.

وقال عطاء الخراساني **رَحِمَهُ اللَّهُ**: ينفي من جند إلى جند سنين ولا يخرج من دار الإسلام، وكذا قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان **رَحِمَهُمَا اللَّهُ**: إنه ينفي ولا يخرج من أرض الإسلام. وقال آخرون: المراد بالنفي ههنا السجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه **رَحِمَهُمَا اللَّهُ**، واختار ابن جرير **رَحِمَهُ اللَّهُ**: أن المراد بالنفي ههنا: أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه^(٢). وقد بسط الفقهاء الأحكام ذات الصلة في مصنفاتهم.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٦٨/١٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١٠٠/٣-١٠١).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

ويسقط حد الحرابة عن المحاربين بالتوبة قبل القدرة عليهم، وذلك في شأن ما وجب عليهم حقاً لله جَلَّ وَعَلَا، وهو تحتم القتل، والصلب، والقطع من خلاف، والنفي، وهذا محل اتفاق بين أصحاب المذاهب الأربعة.

واستدلوا بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾، فالله عَزَّجَلَّ قد أوجب عليهم الحد، ثم استثنى التائبين قبل القدرة عليهم.

أما حقوق الأدميين فلا تسقط بالتوبة. فيغرمون ما أخذوه من المال عند الجمهور. قالوا: فأما المسلم إذا حارب المسلمين أو المعاهدين، وأتى بعض ما يجب عليه العقوبة، فلن تضع توبته عنه عقوبة ذنبه، بل توبته فيما بينه وبين الله عَزَّجَلَّ، وعلى الإمام إقامة الحد الذي أوجبه الله عَزَّجَلَّ عليه، وأخذه بحقوق الناس^(١).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "أما القصاص وحقوق الأدميين فلا تسقط"^(٢).

وقال شيخ الإسلام أبو السعود رَحِمَهُ اللهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ استثناء مخصوص بما هو من حقوق الله عَزَّجَلَّ، كما ينبىء عنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. أما ما هو من من حقوق العباد - كحقوق الأولياء من القصاص ونحوه - فيسقط بالتوبة وجوبه على الإمام من حيث كونه حدًّا، ولا يسقط جوازه بالنظر إلى الأولياء من حيث كونه قصاصًا؛ فإنهم إن شاءوا عفوا، وإن أحبوا استوفوا"^(٣).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧٧/١٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٥٨/٦).

(٣) تفسير أبي السعود (٣٢/٣)، روح المعاني (٢٩٠/٣).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

ويرى ابن جرير وابن كثير رَحِمَهُمَا اللهُ أن توبة المحاربين قبل القدرة عليهم تسقط عنهم جميع الحدود.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: "وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب عندي، قول من قال: توبة المحارب الممتنع بنفسه أو بجماعة معه قبل القدرة عليه، تضع عنه تبعات الدنيا التي كانت لزمته في أيام حربه وحربته، من حدود الله عَزَّوَجَلَّ، وغُرم لازم، وقودٍ وقصاص، إلا ما كان قائماً في يده من أموال المسلمين والمعاهدين بعينه، فيردّ على أهله؛ لإجماع الجميع على أن ذلك حكم الجماعة الممتنعة، المحاربة لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الساعية في الأرض فساداً على وجه الردة عن الإسلام. فكذلك حكم كل ممتنع سعى في الأرض فساداً، جماعة كانوا أو واحداً"^(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أما على قول من قال: إنها في أهل الشرك فظاهر، أي: إذا آمنوا قبل القدرة عليهم سقطت عنهم جميع الحدود المذكورة-: وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم الحَتَامُ القتل والصلب وقطع الرِّجْلِ.

وهل يسقط قطع اليد؟ فيه قولان للعلماء. وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ"^(٢).

(١) تفسير الطبري (١٠/٢٨٧-٢٨٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/١٠٢).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

١٤ - التوبة الباطنة والظاهرة:

صرح بعض فقهاء الشافعية والحنابلة أن التوبة نوعان: توبة في الباطن، وتوبة في الظاهر.

فأما التوبة في الباطن: فهي ما بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، فينظر في المعصية، فإن لم تتعلق بها مظلمة لآدمي، ولا حد لله جَلَّوَعَلَا، كالاتمئاع بالأجنبية فيما دون الفرج، فالتوبة منها: أن يقلع عنها، ويندم على فعل ما فعل، ويعزم على أن لا يعود إلى مثلها. والدليل على ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

وإن تعلق بها حق آدمي، فالتوبة منها: أن يقلع عنها، ويندم على ما فعل، ويعزم على أن لا يعود إلى مثلها، وأن يبرأ من حقِّ الآدمي، إما بأن يؤديه، أو يسأله حتى يبرئه منه.

وإن لم يقدر على صاحب الحق نوى أنه إن قدر أوفاه حقه.

وإن تعلق بالمعصية حد لله عَزَّوَجَلَّ، كحد: الزنى، والشرب، فإن لم يظهر ذلك، فالأولى أن يستتره على نفسه؛ لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله؛ فإن من أبدى لنا صفحته أقمنا عليه حد الله». وإن أظهره لم يأثم؛ لأن ماعزاً والغامدية اعترفا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالزنا، فرجمهما، ولم ينكر عليهما.

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

وأما التوبة في الظاهر - وهي: التي تعود بها العدالة، والولاية، وقبول الشهادة - فإن كانت المعصية فعلاً كالزنى، والسرقة، لم يحكم بصحة التوبة عند الشافعية حتى يصلح عمله مدة؛ لقوله جَدَّوَعَلَا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ [آل عمران: ٨٩]، وقدروها بسنة أو ستة أشهر، أو حتى ظهور علامات الإصلاح على اختلاف أقوالهم، خلافاً لجمهور الفقهاء؛ فإنهم لم يشترطوا إصلاح العمل بعد التوبة، وإن كانت المعصية بالقول، فإن كانت ردة فالتوبة منها: أن يظهر الشهادتين، وإن كانت المعصية قذفاً، أو شهادة زور فلا بدَّ من إكذاب نفسه، والتوبة واجبة على الفور من الغضب، وهي لا تحصل إلا برد المغصوب.. إلى غير ذلك مما هو مفصل في مظانه من كتب الفقه^(١). وإن كانت توجب عليه حقاً لله عَزَّوَجَلَّ، أو لآدمي؛ كمنع الزكاة والغضب، فالتوبة منه بما ذكرنا، وترك المظلمة حسب إمكانه، بأن يؤدي الزكاة، ويرد المغصوب، أو مثله إن كان مثلياً، وإلا قيمته. وإن عجز عن ذلك، نوى رده متى قدر عليه.

فإن كان عليه فيها حق في البدن، فإن كان حقاً لآدمي، كالقصاص، وحق القذف، اشترط في التوبة: التمكن من نفسه، وبذلها للمستحق، وإن كان حقاً لله عَزَّوَجَلَّ، كحد الزنى، وشرب الخمر، فتوبته أيضاً بالندم، والعزم على ترك العود، ولا

(١) المذهب في فقه الإمام الشافعي، لأبي إسحاق الشيرازي (٤٤٨/٣-٤٤٩)، وانظر: المجموع شرح المذهب (٢٠/٢٣٦-٢٣٧)، الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، لأبي الحسن الماوردي (١٧/٣١-٣٢)، البيان في مذهب الإمام الشافعي، لأبي الحسين العمري (١٣/٣١٨-٣١٩)، المغني، لابن قدامة (١٠/١٨٠-١٨١)، الشرح الكبير على متن المقنع (١٢/٥٨)، (١٢/٦٤)، شرح الزركشي على مختصر الخرق (٧/٣٥٦-٣٥٧).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

يشترط الإقرار به، فإن كان ذلك لم يشتهر عنه، فالأولى له ستر نفسه. والتوبة فيما بينه وبين الله عَزَّجَلَّ؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اجتنبوا هذه القاذورة^(١) التي نهي الله عنها، فمن ألم فليستتر بستر الله، وليتب إلى الله، فإنه من يُبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله عَزَّجَلَّ»^(٢).

فإن الغامدية حين أقرت بالزنى، لم ينكر عليها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك^(٣). وإن كانت معصية مشهورة، فذكر القاضي أن الأولى الإقرار به، ليقام عليه الحد؛ لأنه إذا كان مشهوراً، فلا فائدة في ترك إقامة الحد عليه. والصحيح أن ترك الإقرار أولى؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرض للمقر عنده بالرجوع عن الإقرار؛ فعرض لماعز، وللمقر عنده بالسرقة بالرجوع، مع اشتهاه عنه بإقراره، وكره الإقرار، حتى إنه قيل: لما قطع السارق: كأنما أسفَّ وجهه رماداً^(٤).

(١) «القاذورة» هي: الفاحشة، يعني: الزنا؛ لأن حقها أن تتقدر، فوصفت بما يوصف به صاحبها. الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري (١٦٩/٣)، وانظر: الكليات (ص: ٧٠٢).

(٢) أخرجه الحاكم [٧٦١٥]، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي. قال العراقي (ص: ١٠٣٠): «إسناده حسن». وأخرجه أيضاً: البيهقي [١٧٦٠١].

(٣) حديث الغامدية أخرجه مسلم في (صحيحه) [١٦٩٥].

(٤) جاء في الحديث: أن أول رجل قطع في الإسلام - أو من المسلمين - رجل أتى به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقيل: يا رسول الله، إن هذا سرق، فكأنما أسفَّ وجهه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رماداً، فقال بعضهم: يا رسول الله، أي يقول: ما لك؟ فقال: «وما يمنعني؟ وأنتم أعوان الشيطان على صاحبكم، والله عَزَّجَلَّ عَمُّو يُحِبُّ الْعَفْوَ، ولا ينبغي لوالي أمر أن يؤتى بخيلاً إلا أقامه»، ثم قرأ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، قال يحيى: أملاه علينا سفيان، إملاء. والحديث =

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

ولم يرد الأمر بالإقرار، ولا الحث عليه في كتاب ولا سنة، ولا يصح له قياس، إنما ورد الشرع بالستر، والاستتار، والتعريض للمقر بالرجوع عن الإقرار. وقال لهزال، وكان هو الذي أمر ماعزًا بالإقرار: «يا هزأل، لو سترته بثوبك، كان خيرًا لك»^(١).

=أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) [١٣٥١٩]، وأحمد [٣٩٧٧]، واللفظ له، وأبو يعلى [٥١٥٥]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٤٤٤]، والشاشي [٧٨١]، والطبراني [٨٥٧٢]، والحاكم [٨١٥٥]، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه" وسكت عنه الذهبي في (التلخيص). كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [١٧٦١٢]. قال الهيثمي (٢٤٧/٦): "رجاله ثقات، إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه". وقال في (٢٧٥/٦): "رواه كله أحمد، وأبو يعلى باختصار المرأة، وأبو ماجد الحنفي ضعيف".

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٦٤٨]، وأحمد [٢١٨٩٢]، وأبو داود [٤٣٧٧]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢٣٩٣]، والنسائي في (الكبرى) [٧٢٣٤]، والطبراني [٥٣٠، ٥٣١]، والحاكم [٨٠٨٠]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (الكبرى) [١٦٩٥٨]، وفي (شعب الإيمان) [٩٢٠٨]. قال الحافظ العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص: ٦٦٠): "رواه أبو داود، والنسائي من حديث: نعيم بن هزال، والحاكم من حديث: هزال نفسه، وقال: "صحيح الإسناد" و(نعيم) مختلف في صحبته". قال الحافظ المنذري: "و(نعيم) هو ابن هزال وقيل: لا صحبة له، وإنما الصحبة لأبيه هزال. وسبب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهزال: «لو سترته بثوبك»: ما رواه أبو داود وغيره عن محمد بن المنكدر أن هزالًا أمر ماعزًا أن يأتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وروى في موضع آخر: عن يزيد بن نعيم بن هزال عن أبيه، قال: كان ماعز بن مالك يتيماً في حجر أبي، فأصاب جارية من الحي، فقال له أبي: ائت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره بما صنعت؛ لعله يستغفر لك، وذكر الحديث في قصة رجمه، واسم المرأة التي وقع عليها ماعز: فاطمة. وقيل غير ذلك، وكانت أمة لهزال" الترغيب والترهيب [٣٥٢٤].

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافعته

الجزء الثاني

وقال أصحاب الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: توبة هذا إقراره؛ ليقام عليه الحد، وليس بصحيح؛ لما ذكرنا، ولأن التوبة توجد حقيقتها بدون الإقرار، وهي تجب ما قبلها، كما ورد في الأخبار، مع ما دلت عليه الآيات في مغفرة الذنوب بالاستغفار، وترك الإصرار. وأما البدعة، فالتوبة منها بالاعتراف بها، والرجوع عنها، واعتقاد ضد ما كان يعتقد منها^(١).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجتنبوا هذه القاذورة التي نهي الله عنها، فمن ألم فليستتر بستر الله، وليتب إلى الله عَزَّوَجَلَّ» الحديث: "وفي هذا الحديث من الفقه: أن ستر المسلم على نفسه ما وقع فيه من الكبائر الموجبة للحدود، والتوبة منها، والندم عليها، والإقلاع عنها أولى به من الإقرار بذلك على نفسه. ألا ترى أن أبا بكر أشار بذلك على الرجل الذي اعترف عنده بالزنى، وكذلك فعل عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وهو ماعز الأسلمي. لا خلاف في ذلك بين أهل العلم وذلك مشهور في الآثار.

وكذلك إعراض رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه حين أقر على نفسه بالزنى حتى أكثر عليه كان -والله أعلم- رجاء ألا يتمادى في الإقرار، وأن ينتبه ويرعوي، ثم ينصرف فيعقد التوبة مما وقع فيه"^(٢).

"ويدل الحديث على أن ارتكاب المعصية مع سترها أهون وأخف من المجاهرة بها؛ لأن المعصية مع الستر تقبل العفو الإلهي، أما مع المجاهرة فإنه لا يعفى عنها،

(١) المغني، لابن قدامة (١٠/١٨١-١٨٢).

(٢) الاستذكار (٧/٤٦٦).

المرشد إلى السبب النجاة

والوسائد التي اجتمعت حينا طيبتنا فاعتنا

الجزء الثاني

لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا الْمُجَاهِرُونَ»؛ وذلك لأن المجاهرة وقاحة، وجرأة، وانتهاك لحدود الله عَزَّجَلَّ، واستخفاف بالشريعة^(١).

وفي (سبل السلام): "وفي الحديث دليل على أنه يجب على من ألم بمعصية أن يستتر ولا يفضح نفسه بالإقرار، ويبادر إلى التوبة، فإن أبدى صفحته للإمام - والمراد بها هنا حقيقة أمره - وجب على الإمام إقامة الحد.

وقد أخرج أبو داود رَحِمَهُ اللهُ مرفوعاً: «تَعَافُوا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَمَا بَلَغِي مِنْ حَدِّ فَقَدْ وَجِبَ»^(٢).

قال ابن بطل رَحِمَهُ اللهُ: "وفي المجاهرة بالمعاصي استخفاف بحق الله عَزَّجَلَّ، وحق رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وضرب من العناد لهما؛ فلذلك قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا الْمُجَاهِرُونَ»^(٣).

(١) منار القاري (٢٥٢/٥).

(٢) سبل السلام (٤٢٣/٢). والحديث أخرجه عبد الرزاق [١٨٩٣٧]، وأبو داود [٤٣٧٦]، والنسائي في (السنن) [٤٨٨٥]، وفي (الكبرى) [٧٣٣١]، والطبراني في (الأوسط) [٦٢١٢]، والدارقطني [٣١٩٦]، والحاكم [٨١٥٦]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضاً: البيهقي [١٧٦١١]، قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (٨٧/١٢): "صححه الحاكم، وسنده إلى عمرو بن شعيب صحيح".

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطل (٢٦٣/٩). قوله: «إلا المجاهرين» كذا للأكثر بالنصب، وفي رواية مسلم: «المجاهرين» - بالنصب -، ويجوز الرفع فيه على مذهب الكوفيين، وتكون (إلا) في هذه الحالة بمعنى: (لكن) كما قال ابن مالك. قال الحافظ: والمعنى، لكن المجاهرين بالمعاصي لا يعافون، والمجاهر الفاسق المعلن بفسقه الذي يأتي بالفاحشة ثم يشيعها بين الناس تفاخراً وتهوراً وقاحة. منار القاري =

الدراسة السبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

"وفي الستر بها السلامة من الاستخفاف؛ لأن المعاصي فاعلها، من إقامة الحد عليه إن كان فيه حد، ومن التعزير إن لم يوجب حدًا. وإذا تَمَحَّضَ حَقُّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فهو أكرم الأكرمين، ورحمته سبقت غضبه؛ فلذلك إذا ستره في الدنيا لم يفضحه في الآخرة، والذي يجاهر يفوته جميع ذلك" (١).

ثامنًا: إجمال ذكر فرائض التوبة، وآدابها، ومراتبها، والبواعث عليها:

وقد أجمل ذلك: أبو القاسم ابن جزري رَحِمَهُ اللهُ فِي (التسهيل)، حيث قال: "التوبة واجبة على كل مؤمن مكلف، بدليل: الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة.

وفرائضها ثلاثة:

١ - الندم على الذنب من حيث عصي به ذو الجلال، لا من حيث أضر ببدن أو مال.

٢ - والإقلاع عن الذنب في أول أوقات الإمكان من غير تأخير ولا توان.

٣ - والعزم أن لا يعود إليها أبدًا، ومهما قضى عليه بالعود أحدث عزمًا مجددًا.

وآدابها ثلاثة:

١ - الاعتراف بالذنب مقرونًا بالانكسار.

٢ - والإكثار من التضرع والاستغفار.

= (٢٥١/٥)، انظر: فتح الباري (٤٨٦/١٠-٤٨٧)، عمدة القاري (١٧٣/١٠)، شرح الطيبي على

مشكاة المصابيح (٢٠٣٤/٦)، مرقاة المفاتيح (٣٠٣٤/٧).

(١) فتح الباري، لابن حجر (٤٨٧/١٠)، وانظر: دليل الفالحين (٣٤/٣).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

٣ - والإكثار من الحسنات لمحو ما تقدم من السيئات.

ومراتبها سبع:

- ١ - فتوبة الكفار من الكفر.
- ٢ - وتوبة المخلطين من الذنوب الكبائر^(١).
- ٣ - وتوبة العدول من الصغائر.
- ٤ - وتوبة العابدين من الفترات.
- ٥ - وتوبة السالكين من علل القلوب والآفات.
- ٦ - وتوبة أهل الورع من الشبهات.
- ٧ - وتوبة أهل المشاهدة من الغفلات.

والبواعث على التوبة سبعة:

- ١ - خوف العقاب.
- ٢ - ورجاء الثواب.

(١) قال الله عز وجل: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ

عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣٦﴾ [التوبة: ١٠٢]. قال ابن كثير: "هذه الآية، وإن كانت نزلت في أناس معينين، إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين" تفسير ابن كثير (٤/٢٠٦). وقد نبه غير واحد على أن المخلط ينبغي أن يكون على حذر ووجل؛ فذ: «إنما الأعمال بالخواتيم» صحيح البخاري [٦٦٠٧]. قال القاضي أبو محمد ابن عطية: "أما المخلط فينبغي أن يكون أبدًا تحت خوف من أن يكون ينفذ عليه الوعيد بتخليطه. وأما التقى والنائب فخوفه أمر الخاتمة وما يطلع عليه بعد الموت. قال أصحاب الخواطر: وجل العارف من طاعته أكثر من وجله من مخالفته؛ لأن المخالفة تمحوها التوبة، والطاعة تطلب بتصحيح الغرض" المحرر الوجيز (٤/١٤٨)، تفسير القرطبي (١٢/١٣٣).

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني



- ٣ - والحجل من الحساب.
- ٤ - ومحبة الحبيب.
- ٥ - ومراقبة الرقيب القريب.
- ٦ - وتعظيم بالمقام.
- ٧ - وشكر الإنعام^(١).

تاسعاً: وقت التوبة:

إنما وقت ممتد طوال العمر، يبدأ من بداية التكليف، وينتهي عند رفعه وحضور الموت، أو عند طلوع الشمس من المغرب - كما سيأتي -.

قال الله عزَّ وجلَّ مبيناً وقت التوبة النافعة: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

﴿٧﴾ [النساء: ١٧].

وأخبر المولى جلَّ وعلا عن الوقت الذي لا تنفع فيه التوبة في قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْعَنَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

﴿١٨﴾ [النساء: ١٨].

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٦٨/٢).

الدراسة والسبب النجاة

والوسائد الناجعة حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والعبد بحاجة في كل يوم إلى أن يجدد التوبة؛ لأنه لا يدري متى يأتيه الأجل. فمن أنفع الأسباب التي تقي الإنسان الذي ينشد النجاة والعافية من سوء العاقبة: أن يجدد التوبة في كل وقت مما عسى أن يكون قد اجترح من الذنوب والهفوات؛ فإن كل ابن آدم خطأ، وخير الخطائين: التوابون^(١)، وأن يعقد العزم على ترك المعاصي، وأن يمسي على نية صالحة، وأن يصبح على نية صالحة، وأن يقف المرء في كل يوم مع نفسه وقفة محاسبة، ولا سيما عندما يريد النوم، يستحضر ما مضى منه من قول أو فعل، فيتدرك ما قصر، ويعزم بنية صادقة على الوفاء لمن كان له عليه حق، ويستغفر ويسامح، وينقي قلبه من أدران الحقد والحسد، والصفات الذميمة، مجدداً توبةً بينه وبين الله عَزَّجَلَّ، فينام على تلك التوبة، ويعزم أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة، فإذا مات من ليلته مات على توبة، وإن استيقظ استقبل يومه بنية صالحة. وليس للعبد أنفع من هذه النوم، ولا سيما إذا أكثر من ذكر الله عَزَّجَلَّ، واستعمل السنن الواردة قبل النوم، فمن أراد الله عَزَّجَلَّ به خيراً وفقه لذلك.

(١) سيأتي تحريج حديث: «كل ابن آدم خطأ، وخير الخطائين: التوابون».

الدرر السنية إلى سبيل النجاة

الجزء الثاني

وفي المأثور عن قتادة رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: "أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضَيْعَمٍ أو ضَمْضَمٍ - شك ابن عبيد-، كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد تَصَدَّقْتُ بعرضي على عبادك" (١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "الذنب بمنزلة شرب السم، والتوبة ترياقه ودواؤه، والطاعة هي الصحة والعافية" (٢).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ» (٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "وأما قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ» فظاهر، وقد أجمع العلماء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ على قبول التوبة ما لم يغرغر، كما جاء في الحديث" (٤): عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرُغِرْ» (٥).

(١) أخرجه أبو داود [٤٨٨٦] بسند صحيح مقطوع إلى قتادة، وقد روي مرفوعًا بسند ضعيف. انظر: نتائج الأفكار، لابن حجر (٤١٦/٢-٤١٧)، الإصابة في تمييز الصحابة (١٩١/٧-١٩٢)، المغني عن حمل الأسفار (ص: ١٠٤٧).

(٢) مدارج السالكين (٣٠٤/١).

(٣) صحيح البخاري [٦٨١٠]، مسلم [٥٧].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٤٥/٢).

(٥) أخرجه ابن الجعد في (مسنده) [٣٤٠٤]، وأحمد [٦١٦٠]، وعبد بن حميد [٨٤٧]، وابن ماجه [٤٢٥٣]، والترمذي [٣٥٣٧]، وحسنه، كما أخرجه: أبو يعلى [٥٦٠٩]، وابن حبان [٦٢٨]، =

الإرشاد إلى سبب النجاة والسبب الثاني

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "قوله: «والتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ» هذا منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إرشادٌ لمن وَقَعَ في كبيرة، أو كبائر، إلى الطريق التي بها يتخلَّص، وهي: التوبة. ومعنى كونها معروضةً، أي: عَرَضَهَا اللهُ عَزَّجَلَّ على العباد، حيث أمرهم بها، وأوجِبَهَا عليهم، وأخْبَرَ عن نفسه أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا يَقْبَلُهَا؛ كُلُّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللهِ عَزَّجَلَّ، ولُطْفٌ بِالْعَبْدِ؛ لِمَا عَلِمَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا مِنْ ضَعْفِهِ عَنْ مَقَاوِمِ الْحَوَالِمِ عَلَى الْمَخَالَفَاتِ، التي هي: النفسُ والهوى، والشيطانُ الإنسيُّ والجِنِّيُّ، فَلَمَّا عَلِمَ اللهُ عَزَّجَلَّ أَنَّهُ يَقَعُ فِي الْمَخَالَفَاتِ، رَحِمَهُ بِأَن أَرشَدَهُ إِلَى التَّوْبَةِ، فَعَرَضَهَا عَلَيْهِ وَأَوْجَبَهَا، وَأخْبَرَ بِقَبُولِهَا. وَأَيْضًا: فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى النَّصَحَاءِ أَنْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أَهْلِ الْمَعَاصِي وَيُعْرِفُوهُمْ بِهَا، وَيُوجِبُوهَا عَلَيْهِمْ، وَبِعَقُوبَةِ اللهِ عَزَّجَلَّ لِمَنْ تَرَكَهَا، وَذَلِكَ كُلُّهُ لَطْفٌ مُتَّصِلٌ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوْ إِلَى أَنْ يُعْرِغَرَ الْعَبْدُ.

و(بعْدُ): ظَرْفٌ مَبْنِيٌّ عَلَى الضَّمِّ؛ لِقَطْعِهِ عَنِ الْإِضَافَةِ لِفُظًّا، وَإِرَادَةِ الْمُضَافِ ضِمْنًا، وَيَقَابِلُهَا (قَبْلُ)، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّجَلَّ: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]"^(١).
وحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» الحديث^(٢). قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه، فالقول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه: لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على

=والطبراني [١٤١٠٧]، والحاكم [٧٦٥٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا:

أبو نعيم في (الحلية) (١٩٠/٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٦٦١]، والضياء [٢٤٠].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٤٨/١).

(٢) أخرجه البخاري [٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢]، ومسلم [٥٧].

الدرر السابغ إلى السبب النجاة

الجزء الثاني

نفي الشيء، ويراد نفي كماله، كما يقال: لا علم إلا ما نفع، ولا مال إلا الإبل، ولا عيش إلا عيش الآخرة. وإنما تأولناه على ما ذكرناه لحديث: أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره: «من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق»^(١)، وحديث: عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحيح المشهور أنهم بايعوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن لا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يعصوا.. إلى آخره. ثم قال: لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن فعل شيئاً من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارته، ومن فعل ولم يعاقب فهو إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه»^(٢)، فهذان الحديثان مع نظائهما في (الصحيح) مع قوله الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، مع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصوا الإيمان إن تابوا سقطت عقوبتهم، وإن ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة، فإن شاء الله عَزَّجَلَّ عفا عنهم وأدخلهم الجنة أولاً، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة"^(٣).

(١) صحيح البخاري [٥٨٢٧]، مسلم [٩٤]. وفي لفظ: «من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً دخل

الجنة»، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» وهو في (الصحيحين).

(٢) حديث عبادة أخرجه البخاري [١٨، ٣٨٩٢، ٤٨٩٤، ٦٧٨٤، ٦٨٠١، ٧٢١٣، ٧٤٦٨]، ومسلم

[١٧٠٩]. و«وفى»: ثبت على العهد.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٤١/٢-٤٢)، وانظر: فتح الباري (٦٠/١٢)، عمدة القاري

(٢٧/١٣)، طرح التثريب (٢٦٠/٧).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

ونحوه: قول ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ فِي (التمهيد) أنه يريد من قوله: «وهو مؤمن»: "مستكمل الإيمان، ولم يرد به نفي جميع الإيمان عن فاعل ذلك، بدليل الإجماع على توريث الزاني والسارق وشارب الخمر إذا صلوا للقبلة، وانتحلوا دعوة الإسلام من قرابتهم المؤمنين الذين آمنوا بتلك الأحوال. وفي إجماعهم على ذلك مع إجماعهم على أن الكافر لا يرث المسلم أوضح الدلائل على صحة قولنا: إن مرتكب الذنوب ناقص الإيمان بفعله ذلك، وليس بكافر كما زعمت الخوارج في تكفيرهم المذنبين. وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ فِي ارتكاب الكبائر حدودًا جعلها كفارة وتطهيراً"^(١).

وقال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ: "وأولى الأقوال بالصواب في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ مُجْهَلَةً ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]: قول من قال: تأويله: ثم يتوبون قبل مما تم، في الحال التي يفهمون فيها أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَهَيْه، وقبل أن يُغلبوا على أنفسهم وعقولهم، وقبل حال اشتغالهم بكرب الحشرجة وغمم الغرغرة، فلا يعرفوا أمر الله وهيه، ولا يعقلوا التوبة؛ لأن التوبة لا تكون توبة إلا ممن ندم على ما سلف منه، وعزم منه على ترك المعاودة، وهو يعقل الندم، ويختار ترك المعاودة: فأما إذا كان بكرب الموت مشغولاً وبعغم الحشرجة مغموراً، فلا إخاله إلا عن الندم على ذنوبه مغلوباً. ولذلك قال من قال: إن التوبة مقبولة، ما لم يغرغر العبد بنفسه^(٢)، فإن كان المرء في تلك الحال يعقل عقل الصحيح، ويفهم فهم العاقل الأريب، فأحدث إنابة من ذنوبه، ورجعاً من شروده عن ربه جَلَّ وَعَلَا إِلَى طاعته، كان

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٩/ ٢٤٣-٢٤٤).

(٢) تقدم حديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافع

الجزء الثاني

إن شاء الله عَزَّجَلَّ ممن دخل في وعد الله عَزَّجَلَّ، الذي وعد التائبين إليه من إجرامهم ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ بقوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ و"سماه: قريباً؛ لأن أمد الحياة قريب؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ مَتَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]. أو قبل أن يشرب في قلوبهم حبه، فيطبع عليها، فيتعذر عليهم الرجوع.

و﴿مِنْ﴾ للتبعض، أي: ﴿يَتُوبُونَ﴾ في أي جزء من الزمان القريب الذي هو ما قبل أن ينزل بهم سلطان الموت، أو يزين السوء. ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وعد بالوفاء بما وعد به، وكتب على نفسه بقوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم بإخلاصهم في التوبة. ﴿حَكِيمًا﴾ والحكيم لا يعاقب التائب" (١). وعد الله عَزَّجَلَّ المخلصين في التوبة والإنابة إليه بأنه سيتوب عليهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويغفر لهم ما قد سلف من ذنوبهم، فقال: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧]، وقال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

فهؤلاء ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾، ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ يتوب الله عَزَّجَلَّ عليهم، دون من لم يتب حتى غلب على عقله، وغمرته حشرجة ميته، فقال وهو لا يفقه ما يقول: ﴿إِنِّي تُبْتُ أَلَعَنَ﴾ [النساء: ١٨]، خداعاً لربه جَلَّوَعَلَا، ونفاقاً في دينه. فليست التوبة للذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على معاصي الله عَزَّجَلَّ ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ

(١) تفسير البيضاوي (٦٥/٢).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ، يقول: إذا حشرج أحدهم بنفسه، وعاین ملائكة ربه جَلَّ وَعَلَا قد أقبلوا إليه لقبض روحه، ﴿قَالَ﴾ وقد غلب على نفسه، وحيل بينه وبين فهمه، بشغله بكرب حشرجته وغرغرتة: ﴿إِنِّي تُبْتُ أَلْتَنَ﴾، يقول: فليس لهذا عند الله عَزَّجَلَّ توبة؛ لأنه قال ما قال في غير حال توبة" (١).

فبين أن وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة، فبقي ما وراء ذلك في حكم القريب.. (٢). فلا يقبل من كافر إيمان، ولا من عاص توبة، إذا تيقن الموت، وذلك حين تساق روحه (٣).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا﴾ [النساء: ١٨] عطف على الذين ﴿يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، وهذا يحتمل وجهين: أحدهما: أن المراد بهم الذين قرب موتهم، فبين بهذا أن الإيمان لا يقبل من الكافر عند حضور الموت.

والثاني: أن يكون المراد أن الكفار إذا ماتوا على الكفر لا تقبل توبتهم. ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٨) الإشارة بـ: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الفريقين. قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "وحضور الموت: معاينة ملك الموت. بيّن الله عَزَّجَلَّ أن التوبة تفوت إذا أُخِّرَتْ إلى ذلك؛ ولذلك لم ينفَع إيمان من آمن عند رؤية العذاب" (٤).

(١) تفسير الطبري (٩٦/٨-٩٩).

(٢) انظر: الكشاف (٤٨٩/١)، تفسير أبي السعود (١٥٦/٢)،

(٣) انظر: معالم التنزيل (١٨٥/٢)، المفاتيح في شرح المصايح (١٨٧/٣-١٨٨).

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني (١١٤٨/٢-١١٤٩).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال القاضي أبو محمد ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: واختلف المتأولون في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ فقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا والسدي رَحِمَهُ اللهُ: معنى ذلك: قبل المرض والموت. وقال أبو مَجْلَز، ومحمد بن قيس، والضحاك، وعكرمة، وابن زيد رَحِمَهُ اللهُ وغيرهم: معنى ذلك: قبل المعاينة للملائكة والسُّوق، و[قبل] أن يُغْلَبَ المرءُ على نَفْسِهِ. وروى أبو قلابة رَحِمَهُ اللهُ: أن الله عَزَّجَلَّ لما خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فرآه إبليس أجوف، ثم جرى له ما جرى ولعن وأنظر، قال: وعزتك لا برحت من قلبه ما دام فيه الروح، فقال الله عَزَّجَلَّ: وعزتي لا أحجب عنه التوبة ما دام فيه الروح. قال القاضي أبو محمد: فابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ذكر أحسن أوقات التوبة، والجمهور حددوا آخر وقتها. وقال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللهُ: كان يقال: التوبة مبسوطة لأحدكم ما لم يؤخذ بكظمه.

وروى بشير بن كعب والحسن رَحِمَهُمَا اللهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرُغْ وَيُغْلَبْ عَلَى عَقْلِهِ»^(١).

قال القاضي أبو محمد: لأن الرجاء فيه باق، ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل في المستأنف، فإذا غلب تعذرت التوبة؛ لعدم الندم والعزم على الترك، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ إنما معناه: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ إلى وقت الذنب، ومدة الحياة كلها

(١) تقدم حديث: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرُغْ».

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قريب، والمبادر في الصحة أفضل، وألحق لأمله من العمل الصالح، والبعد كل البعد الموت (١).

ومنه قول مالك بن الريب: [الطويل]:

*** وأين مكان البعد إلا مكانيا (٢).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٧) أي: بمن يتوب ويسره هو للتوبة،

﴿حَكِيمًا﴾ (٧) فيما ينفذه من ذلك، وفي تأخير من يؤخر حتى يهلك.

ثم نفى بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾ الآية: أن يدخل في حكم التائبين من

حضره موته وصار في حيز اليأس، وحضور الموت هو غاية قربه، كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق، فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان، وبهذا قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وابن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ، وجماعة المفسرين.. (٣).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ

﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتْ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]،

(١) فالعمر كله قريب، والدنيا كلها قريب، فمن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، ومن مات ولم يتب فقد بعد كل البعد.. كذا قال غير واحد من المفسرين. انظر: لطائف المعارف، لابن رجب (ص: ٣٣٥).

(٢) هذا عجز بيت لمالك بن الريب المازني. وصدرة: (يقولون لا تبعد وهم يدفنونني***). ديوان مالك بن الريب [٣٨]، (ص: ٩٣)، مستل من مجلة معهد المخطوطات العربية. وانظر: شرح شواهد المغني، للسيوطي (٢/٦٣٠)، الحماسة البصرية (١/٢٨٠)، التذكرة الحمدونية (٨/١٢٩)، جمهرة أشعار العرب (ص: ٦١٢).

(٣) المحرر الوجيز (٢/٢٤-٢٥)، وانظر: تفسير القرطبي (٥/٩٢-٩٣).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

أي: فلم يدهم إيمانهم وتصديقهم عند معاينة عقاب الله عَزَّجَلَّ، وحين نزل بهم العذاب؛ لأنهم صدقوا حين لا ينفع التصديق مصداقًا، وقد مضى حكم الله عَزَّجَلَّ فيهم، كما قال الله عَزَّجَلَّ عن فرعون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلَكُنَّ وَقَدِ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بَدَنِكَ لِيَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ ءَايَاتِنَا لَعَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّن نُّقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ وَأَوْلِيَّتِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ [آل عمران: ٩٠]، أي: إيمانهم عند إشرافهم على الهلاك؛ لأنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "وقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله عَزَّجَلَّ وهو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة منه؛ ولهذا قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ^ط وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء: ١٧]، فأما متى وقع الإياس من الحياة، وعاین الملك، وحشرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم - فلا توبة متقبلة حينئذ" (١).

فلا تقبل عند حضور الموت من العاصين توبة، وليس للكفار رجوع إلى الدنيا، وقد أخبر الله عَزَّجَلَّ عن تحسرهم على التفريط وفوات التوبة، فقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٣٨).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٦﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٩٧﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

وقال جلَّ وعَلَا: ﴿وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٩٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتَنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٩٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٩٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٨﴾ [الزمر: ٥٤-٥٨].

وقال الله عَزَّجَلَّ مخبراً عن حال المجرمين الذين كانوا يستعجلون العذاب: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُمْ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَادَّا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥١﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ عَامَنْتُمْ بِهِمْ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِمْ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٢﴾ [يونس: ٥٠-٥١]، فقد كانوا يطلبون في الدنيا: تعجيل العذاب؛ استهزاء، وإمعاناً في العناد؛ إذ إن العذاب الذي يستعجلونه أمر مكروه، لا يلائم الاستعجال، ومحدور لا يطلب إلا على سبيل العناد، ولكنه إذا حلَّ بهم، وعاینوه، آمنوا، وندموا، وتحسروا، في وقت لا ينفع فيه الإيمان، ولا الندم، ولا تقبل فيه التوبة.

وقال جلَّ وعَلَا: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ [مريم: ٣٨-٣٩]، أي: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر، فأخبر جلَّ وعَلَا أنهم سمعوا حين لم ينفعهم السمع، وأبصروا حين لم ينفعهم البصر.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا
يَحْسُرَتْنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ
﴿٣١﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٥٠﴾ فَمَا كَانَ
دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٤-٥]، أي: فما كان قولهم
عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا. قال ابن جرير الطبري
رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول
الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله: «ما هلك قوم حتى يُعذِّروا من أنفسهم»^(١).

(١) تفسير الطبري (٣٠٤/١٢). والحديث: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٢٨]، وابن الجعد في (مسنده) [١٢٨]، وأحمد [١٨٢٨٩] بإسناد حسن، وأبو داود [٤٣٤٧]، والشهاب القضاعي [٨٨٦].
وقوله: «حتى يعذروا». قيل إنه من (أعذر فلان): إذا كثرت ذنبه، فكأنه سلب عذره بكثرة إقراره
الذنوب، أو من (أعذر غيره) إذا جعله معذورا، فكأنهم أعذروا من يعاقبهم بكثرة ذنوبهم، أو من
(أعذر) أي: صار ذا عذر. والمعنى: حتى يذنبوا فيعذرون أنفسهم بتأويلات زائغة، وأعدار فاسدة من
قبل أنفسهم، ومحسبون أنهم يحسنون صنعا. قال العلامة الطيبي: والوجه الثالث أنسب بباب الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر، كأن الناهي ينكر عليه ذنبه، وهو يتبرأ من الذنب، ويعذر لنفسه وإقدامه
عليه. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٢٦٧/١٠). وقال ابن الملك: "هو من (أعذر الرجل):
إذا صار ذا ذنب كثير، أي: حتى تكثرت ذنوبهم وغيوبهم، فيستوجبوا العقوبة، ويقوموا لمن عاقبهم العذر
في ذلك..". مرقاة المفاتيح (٣٢١٩/٨)، وانظر: فيض القدير (٣٠٤/٥).

الدراسات والأساليب الفخية

الجزء الثاني

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١١)
فَلَمَّا أَحْسُوا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ
وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَبُوءُونَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ
حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَلْمِيْنَ ﴿١٥﴾ [الأنبياء: ١١-١٥]. قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ
دَعْوَاهُمْ﴾، أي: فما زالوا يرددون تلك الكلمة، وهي قولهم: ﴿يَبُوءُونَ إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ﴾ (١٤).

﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ أي: حتى أخذتهم السيوف وحصدتهم كما يحصد
الزراع بالمنجل، فصاورا ﴿خَلْمِيْنَ﴾ (١٥)، أي: ميتين، فخدمت حركاتهم وأصواتهم، فلم
يك ينفعهم ذلك مع مجيء وعيد الله عَزَّوَجَلَّ، ومعابنتهم العذاب.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَوَلَّات حِينَ مَنَاصٍ﴾ (١٦) [ص: ٣]،
أي: كم أهلك الله عَزَّوَجَلَّ من أمم كانوا ينادون عند معابنة العذاب، ولكن ذلك الوقت
ليس وقت توبة، فلا ينفع فيه النداء، فلا ملجأ لهم فيه، ولا مفر، ولا مناص من وقوع
أمر الله عَزَّوَجَلَّ بهم، كما حكم الله عَزَّوَجَلَّ بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة
من مغربها، فقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ
رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ
فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَبُوءُونَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (١٧) [الأنبياء: ٩٧].

المرشد إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، أي: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئاً، ولو كان هذا في الحياة الدنيا قبل معاينة العذاب، لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وتبشر الملائكة في وقت الاحتضار، المجرمين والفجار، بغضب الجبار، وبعذاب النار، كما جاء في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢]، أي: هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرون الملائكة لا بشري يومئذ لهم. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، وغضب الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم، وظل من يحموم. فتأبى الخروج وتتفرق في البدن، فيضربونه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال: ٥٠]. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴿١٠٠﴾﴾، أي: بالضرب، ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾، وهذا بخلاف حال المؤمنين في وقت احتضارهم، فإنهم يبشرون بالخيرات، وحصول المسرات. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ نَحْنُ

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

أُولِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَلًا مِّنْ عَفْوَِرٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢] (١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح، قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح، وريحان، ورب غير غضبان»، قال: «فلا يزال يقال ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقولون: مرحبًا بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح، وريحان، ورب غير غضبان» قال: «فلا يزال يقال لها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا كان الرجل السوء، قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا تزال تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء، فترسل من السماء، ثم تصير إلى القبر» (٢).

(١) تفسير ابن كثير (١٠١/٦-١٠٢).

(٢) أخرجه أحمد [٨٧٦٩]، وابن ماجه [٤٢٦٢]، وفي (الزوائد) (٤/٢٥٠): "إسناده صحيح رجاله ثقات"، كما أخرجه: البزار [٨٢١٩]، والنسائي في (الكبرى) [١١٣٧٨]. وقد روى ما يقرب منه: الطيالسي [٧٨٩] بسنده، قال: حدثنا أبو عوانة، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب، قال أبو داود: وحدثناه: عمرو بن ثابت، سمعه من المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن =

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

"وقال آخرون: بل المراد جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، يعني: يوم القيامة. قاله مجاهد، والضحاك رَحِمَهُمَا اللَّهُ، وغيرهما.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم؛ فإن الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرى يومئذ للمجرمين" (١).
وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقد جاء في الحديث: عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، تاب الله عليه» (٢).

=البراء بن عازب، وحديث: أبي عوانة، أتمهما قال البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

في جنازة رجل من الأنصار... الحديث. وقد أخرجه أيضاً: الروياني [٣٩٢]، والحاكم [١٠٧].

(١) تفسير ابن كثير (١٠٢/٦).

(٢) صحيح مسلم [٢٧٠٣].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: "هذا حد للتوبة جعله الله عَزَّجَلَّ، ولها باب يسد عند هذه الآية، كما جاء في الحديث (١)، وقد جاء في (التفسير) أنه معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨]" (٢).

وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الله عزَّجَلَّ يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها» (٣).

وعن أبي حازم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض» (٤).

وعن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم أو أمر العامة» (٥).

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: اطلع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذاكرون؟»، قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى ترون

(١) انظر: ما جاء في باب: (بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان) من شرحه ل: (صحيح مسلم).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١٩٨/٨).

(٣) صحيح مسلم [٢٧٥٩] وقد تقدم.

(٤) صحيح مسلم [١٥٨].

(٥) صحيح مسلم [٢٩٤٧].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قبلها عشر آيات» - فذكر-: «الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم»^(١).

وفي (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَأَاهَا النَّاسُ آمَنَ مِنْ عَلَيْهَا، فَذَاكَ حِينٌ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]»^(٢).
وقد دلت الأحاديث أن المراد ببعض آيات الله عَزَّوَجَلَّ: طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويُغلق حينئذ بابُ التوبة.
وقيل: إنها إحدى ثلاث: إما طلوع الشمس من مغربها، وإما خروج الدابة، وإما خروج يأجوج ومأجوج.

قال القاضي أبو محمد ابن عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "وهذا فيه نظر؛ لأن الأحاديث تردده، وتخصص الشمس"^(٣)، يعني: باعتبار أنها أول الآيات المؤذنة برفع التوبة، والدالة على قيام الساعة، وتغير نظام العالم، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجَ

(١) صحيح مسلم [٢٩٠١].

(٢) صحيح البخاري [٤٦٣٥، ٤٦٣٦، ٦٥٠٦، ٧١٢١]، مسلم [١٥٧].

(٣) المحرر الوجيز (٣٦٧/٢).

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتهما، فالأخرى على إثرها قريباً» (١).

والآيات إما أمارات دالة على قرب الساعة، فأولها: بعث نبينا صلى الله عليه وسلم، أو أمارات متوالية دالة على وقوعها، والكلام هنا فيها؛ فإن الكفار يؤمنون في زمن عيسى عليه السلام.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "أي: أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، ويأجوج قبلها؛ لأنها أمور مألوفة؛ إذ هم مثلهم بشر، مشاهدتهم وأمثالهم معروفة مألوفة، فأما خروج الدابة على شكل غير مألوف، ومخاطبتها الناس، ووسمها إياهم بالإيمان والكفر، فأمر خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها أول الآيات السماوية؛ فإنها تطلع على خلاف عاداتها المألوفة" (٢).

وقال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "فإن قيل: طلوع الشمس ليس بأول الآيات: لأن الدخان، والدجال قبله؟

أجيب: بأن الآيات إما أمارات دالة على قرب قيام الساعة، وإما أمارات دالة على وجود قيام الساعة وحصولها.

ومن الأول: الدخان، وخروج الدجال، ونحوهما.

(١) صحيح مسلم [٢٩٤١].

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير (٢٥٤/١٩).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

ومن الثاني: ما نحن فيه من طلوع الشمس من مغربها، والرجفة، وبس الجبال، وخروج النار وطردها الناس إلى المحشر. وإنما سمي أولًا؛ لأنه مبدأ القسم الثاني، ويؤيده حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعده: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها» حيث جعل طلوع الشمس من مغربها غاية لعدم قيام الساعة. قال: وذلك أن الكفار يسلمون في زمان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى تكون الدعوة واحدة، ولو كان طلوع الشمس من مغربها قبل خروج الدجال ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لم ينفع الكفار إيمانهم أيام عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولو لم ينفعهم لما صار الدين واحدًا^(١).

وقال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: «إن أول الآيات خروجا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى» يعني -والله أعلم-: أول الآيات الكائنة في زمان ارتفاع التوبة والطبع على كل قلب بما فيه؛ لأنَّ ما قبل طلوع الشمس من مغربها التوبة فيه مقبولة، وإيمان الكافر يصح فيه

قال: وإنما كان طلوع الشمس مخصوصًا بذلك؛ لأنه أول تغيير هذا العالم العلوي الذي لم يشاهد فيه تغيير منذ خلقه الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى ذلك الوقت، وأما ما قبله من الآيات فقد شوهد ما يقرب من نوعه، فإذا كان ذلك وطبع على كل قلب بما فيه من كفر أو إيمان، أخرج الله عَزَّوَجَلَّ الدابة معرفة لما في بواطن الناس من إيمان أو كفر، فتكلمهم بذلك. أي: تعرف المؤمن من الكافر بالكلام، وتسم وجوه الفريقين بالنفح، فينتقش وصفه في جبهته مؤمن أو كافر، حتى يتعارف الناس بذلك، فيقول المؤمن

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١١/٣٤٤٩).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

للكافر: بكم سلعتك يا كافر؟ ويقول الكافر: بكذا يا مؤمن، ثم يبقى الناس على ذلك ما شاء الله، ثم يرسل الله عَزَّوَجَلَّ ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد على وجه الأرض في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته..^(١).

قيل: وحكمة جعل طلوعها من مغربها آية مقارنة لقيام الساعة: الإيماء إلى قرب طلوع جميع الأرواح من الأبدان. ذكره الحُرَّالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، فقد قال في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي: إن الله عَزَّوَجَلَّ بما له من صفات العظمة، والجلال باستجماع صفات الكمال. ﴿يَأْتِي بِالشَّمْسِ﴾، أي: وهو الذي أوجدها ﴿مِنَ الْمَشْرِقِ﴾، أي: في كل يوم من قبل أن توجد أنت بدهور. ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ ولو يومًا واحدًا. قال الحُرَّالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: إظهارًا لمرجع العالم بكليته إلى واحد، وأن قيوم الإنسان في الإحياء والإماتة هو قيوم الآفاق في طلوع الشمس وغروبها، وفي لحنه إشعار بأن الله عَزَّوَجَلَّ، لا بدَّ وأن يأتي بالشمس من المغرب؛ ليكون في ذلك إظهار تصريفه لها حيث شاء، حتى يطلعها من حيث غربت، كما يطلع الروح من حيث قبضت؛ ليكون طلوع الشمس من مغربها آية مقارنة قيام الساعة وطلوع الأرواح من أبدانها^(٢).

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٤٢/٧-٢٤٣).

(٢) تراث أبي الحسن الحُرَّالِيِّ المراكشي في التفسير (ص: ٤٤٨-٤٤٩)، وانظر: فيض القدير (٤٤٢/٢)، نظم

الدرر في تناسب الآيات والسور (٥١/٤-٥٢).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

ولا ينبغي للعبد المذنب أن يؤخر التوبة؛ فإنه لا يأمن صحة ولا أجلاً، فإذا أخرجها فإن كان يؤمل حياة فإن توبته مقبولة - وإن كان قريباً من الموت - عند جمهور الفقهاء.

وإن كان في حالة يأس من الحياة، قد قطع الأمل عند حضور الموت، وظهر دلائله فقد اختلف في حاله:

وفي المسألة خلاف فقد قيل: إن توبة اليأس مقبولة دون إيمانه، وهو المختار عند الحنفية؛ لأن الرجاء باق ويصح معه الندم، والعزم على الترك^(١).

وأيضاً: التوبة تجدد عهد مع الرب **جَلَّ وَعَلَا**، والإيمان إنشاء عهد لم يكن وفرق بين الأمرين. وفي (البزازية): أن الصحيح أنها تقبل بخلاف إيمان اليأس، وإذا قبلت الشفاعة في القيامة وهي حالة يأس، فهذا أولى^(٢).

(١) المحرر الوجيز (٢٥/٢)، وقد تقدم قول القاضي ابن عطية، وانظر: روح المعاني (٤٤٩/٢)، تفسير القرطبي (٩٢/٥)، وانظر: البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٢٠٥/٨)، لسان الحكام في معرفة الأحكام (ص: ٤١٤).

(٢) روح المعاني (٤٤٩/٢). قال الشهاب الخفاجي: "لكن هذه الآية صريحة في خلافه" حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (١١٦/٣). إلا أن ذلك باعتبار ما قيل في تفسير قوله **جَلَّ وَعَلَا**: ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ١٨]، فقد قيل: ما لم يعاين الملك، أو أيس من الحياة - كما تقرر -.

الدرر السابغة إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

وقالوا: المختار قبول توبة اليائس دون إيمانه؛ لإطلاق قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، بخلاف الكافر؛ لعدم الإيمان بالغيب؛ لأنه قد شاهد ملائكة العذاب، فيكون الإيمان منه قهرياً بسبب المعاينة^(١).

قال في (جامع الفتاوى): وذكر في بعض كتب الكلام أن توبة اليائس هل تعتبر؟ اختلف فيه، والأصح أنها تعتبر، حتى إن من تاب عن شيء لا يقدر عليه، كالمجبوب يتوب عن الزنا؛ فإنه يعتبر، فليتأمل فيها"^(٢).

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ: لا تقبل؛ فإن الآية دالة على أن من حضره الموت، وشاهد أهواله فإن توبته غير مقبولة، واستدل على ذلك من وجوه.

إلا أنه قال عقب ذلك: قال المحققون: قرب الموت لا يمنع من قبول التوبة، بل المانع من قبول التوبة مشاهدة الأحوال التي عندها يحصل العلم بالله عَزَّجَلَّ على سبيل الاضطرار، واستدل على ذلك من وجوه"^(٣).

وقد ذهب الحنفية في المختار - كما تقدم - والحنابلة في المذهب، وبعض المالكية إلى أن المؤمن العاصي تقبل توبته - ولو في حال الغرغرة -، بخلاف إيمان اليائس، فإنه لا يقبل لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

(١) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح (١/٥٦٠).

(٢) غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر (١/٩٥-٩٦).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب (١٠/٨-٩).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني



وقال الحنابلة في قول آخر: تقبل توبته ما دام مكلفًا.
قال في (الفروع): ولنا خلاف هل تقبل التوبة ما لم يعاين الملك أو ما دام مكلفًا
أو ما لم يغرغر، أي تبلغ روحه حلقومه؟ قال في (تصحيح الفروع): والأقوال الثلاثة
متقاربة، والصواب: تقبل ما دام عقله ثابتًا^(١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال:
يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح صحيح شحيح
تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تُمهّل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا،
ولفلان كذا، وقد كان لفلان»^(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومعنى: «بلغت الحلقوم»: بلغت الروح، والمراد:
قاربت بلوغ الحلقوم؛ إذ لو بلغت حقيقة لم تصح وصيته، ولا صدقته ولا شيء من
تصرفاته باتفاق الفقهاء"^(٣).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في (اللطائف): "فمن تاب قبل أن يغرغر قبلت توبته؛
لأن الروح تفارق القلب عند الغرغرة فلا يبقى له نية ولا قصد"^(٤).

(١) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٤/٤٤٣)، الفروع ومعه تصحيح الفروع (٧/٤٢٩)، دقائق

أولي النهى (٢/٤٥٣-٤٥٤)، منار السبيل في شرح الدليل (٢/٣٥).

(٢) صحيح البخاري [١٤١٩]، مسلم [١٠٣٢].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٧/١٢٣).

(٤) كذا في (التصحيح).

الدراسة السبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

قال: وأفضل أوقات التوبة: أن يبادر الإنسان بالتوبة في صحته قبل نزول المرض به؛ حتى يتمكن حينئذ من العمل الصالح؛ ولذلك قرن الله عزَّجَلَّ التوبة بالعمل الصالح في مواضع كثيرة من القرآن الكريم. وأيضًا فالتوبة في الصِّحَّة ورجاء الحياة تشبه الصدقة بالمال في الصحة، ورجاء البقاء.

والتوبة في المرض عند حضور إمارات الموت يشبه الصدقة بالمال عند الموت، فكأن من لا يتوب إلا في مرضه قد استفرغ صحته وقوته في شهوات نفسه وهواه، ولذة دنياه، فإذا أيس من الدنيا والحياة فيها تاب حينئذ، وترك ما كان عليه، فأين توبة هذا من توبة من يتوب من قريب، وهو صحيح قوي قادر على عمل المعاصي فيتركها؛ خوفًا من الله عزَّجَلَّ، ورجاء لثوابه، وإيثارًا لطاعته على معصيته؟! (١). قال في (التصحيح): "والقول الثاني: تقبل التوبة ما لم يعاين الملك، وهو قول الحسن ومجاهد رَحِمَهُمَا اللهُ وغيرهما" (٢).

وعن صفوان بن عسال رَحِمَهُ اللهُ عَنهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ جعل بالمغرب بابًا عرضه مسيرة سبعين عامًا للتوبة، لا يغلق ما لم تطلع عليه

(١) لطائف المعارف، لابن رجب (٣٣٥/١-٣٣٦)، وانظر: كتاب الفروع ومعه تصحيح الفروع (٤٢٩/٧)، الآداب الشرعية والمنح المرعية (١١١/١)، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٥٨٦/٢).
(٢) تصحيح الفروع (٤٢٩/٧).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

الشمس من قبله وذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨] (١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "المعنى أن باب التوبة مفتوح على الناس، وهم في فسحة وسعة منها، ما لم تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت انسد عليهم، فلم يقبل منهم إيمان ولا توبة؛ لأنهم إذا عاينوا ذلك، واضطروا إلى الإيمان والتوبة، فلا ينفعهم ذلك، كما لا ينفع المحتضر. ولعله لما رأى أن سد الباب إنما هو من قبل المغرب، جعل فتح الباب أيضًا من ذلك الجانب. وقوله: «مسيرة سبعين عامًا» مبالغة في التوسعة، أو تقدير لعرض الباب بمقدار ما يسده من جرم الشمس الطالع من الغرب" (٢).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: "هذا حد للتوبة جعله الله عَزَّوَجَلَّ، ولها باب يسد عند هذه الآية، كما جاء في الحديث (٣)، وقد جاء في (التفسير) أنه معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨] (٤).

(١) أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) [٧٩٣]، والحميدي في (مسنده) [٩٠٥]، وسعيد بن منصور في (التفسير) [٩٤٠]، وأحمد [١٨٠٩٣]، والترمذي [٣٥٣٦]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه: ابن خزيمة [١٩٣]، وابن الأعرابي [١٤٠٧]، وابن حبان [١٣٢١]، والطبراني في (الكبير) [٧٣٥٢]، و(الأوسط) [٣٤٤٦]، والدارقطني [٧٦١]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٨٥/٦)، والبيهقي في (الكبرى) [١٣٤١]، والضياء في (المختارة) [٢٤] بإسناده حسن.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٨٥٠/٦).

(٣) انظر: ما جاء في باب: (بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان) من شرحه ل: (صحيح مسلم).

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١٩٨/٨).

الدُّرَرُ وَالسَّبَبُ إِلَى النَّجَاةِ وَالْوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً

الجزء الثاني

و"ليس معنى هذا الدعوة إلى التسوية بالتوبة، بل هو إخبار عن الواقع في شأن العباد، وأن باب التوبة مفتوح حتى تظهر هذه العلامة التي لا ندري متى تظهر"^(١). فباب التوبة مفتوح لكل استيقظ ضميره، وراجع نفسه، فاستلها من تيه الضلال، بعد الزيف والشroud، فعمل صالحًا، وندم على ما فات، وعقد مع الله عَزَّجَلَّ عهدًا أن لا يحيد عن صراطه المستقيم، وهذا إن كان لا يزال في فسحة الحياة قبل يأتي يوم: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فمتى آيس من الحياة، وعاین ملك الموت، وحشرجت الروح في الحلق، فقد فات أوان التوبة - كما تقدم-.

عاشراً: ثمرات الاستغفار:

إن الاستغفار مفتاح من مفاتيح الرزق والخير والبركة، وهو من أسباب الفرج والمغفرة، فهو يجلب النعم، ويدفع النقم، فإذا نزلت بك نازلة، وتزاحمت عليك الهموم والأحزان، وخذلك صديق أو قريب، أو ظلمك إنسان، فضاقت عليك السبل، وسُدَّتْ في وجهك الأبواب، فأكثر من الاستغفار؛ فإنه من أسباب الفرج، والله عَزَّجَلَّ قريب من عباده الصالحين، الذين يجأرون إليه بالدعاء والاستغفار، فيكشف عنهم الهم، ويرفع البلاء، ويجزيهم في أخراهم بأحسن الجزاء.

(١) مكفرات الذنوب وموجبات الجنة (ص: ٢٣).

الرسالة السببية للحياة

الجزء الثاني

إن الاستغفار مَفْرَع الصالحين، وزاد الأبرار، به تنجلي الهموم، وتثقل الموازين، وتُرفع الدرجات، وتُحط الخطيئات، وتُفَرِّج الكُرْبَات، فكم جلب الاستغفار لأهله من الخيرات، وكم صرف عنهم من البليات والملمات!

والاعتراف بالتقصير، وإدامة الاستغفار هو خلق من أخلاق الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين.

ولكونه مستجمعاً لعظيم الخصال، ومثمراً لتلك الثمار اليانعة، من خيري الدنيا والآخرة فقد حرص الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على الدعوة إليه، والتذكير به.

قال الله عَزَّجَلَّ عن آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بعد أن أكلا من الشجرة: ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

وذكر لنا عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٧]، وقال: ﴿رَبِّ أَعْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ٢٨].

ومن ذلك: ما تضمنته دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه من الحرص على تذكيرهم بالتوبة والاستغفار مرات ومرات، مبيناً لهم أن الاستغفار من أسباب الفرج والخير، كما أخبر المولى جَلَّ وَعَلَا حكاية عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٢﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينُ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهْرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ٥-١٢]، "أي:

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

إذا تبتم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، واستغفرتموه وأطعتموه، كَثُرَ الرِّزْقُ عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدَّرَ لكم الضَّرْعَ، وأمَدَّكُمْ بأموالٍ وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وحلَّلَهَا بالأَنْهَارِ الجارية بينها^(١). فكلُّ هذه النِّعَمِ تُسْتَجْلَبُ بالاستغفار.

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ ذكره مخبراً عن قيل هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].
والمدرار: الكثير الدرور، كالمغزار. وإنما قصد استمالتهم إلى الإيمان، وترغيبهم فيه، بكثرة المطر وزيادة القوَّة؛ لأنَّ القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، حَرَّاصًا عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مدلين^(٢) بما أوتوا من شدة القوة والبطش، والبأس والنجدة، ممنوعين بها من العدو، مهيبين في كلِّ ناحية^(٣).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ إشارة إلى تكثير النعم؛ لأن مادة حصول النعم هي الأمطار النافعة الموافقة.

وقوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ إشارة إلى كمال حال القوى التي بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة. ولا شك أن هذه الكلمة جامعة في البشارة بتحصيل السعادات.

(١) تفسير ابن كثير (٢٣٣/٨).

(٢) قوله: (وكانوا مدلين) من الدَّل. قال أبو عبيد: (الدَّل) قريب المعنى من الهُدَى، وهما من السكنينة والوقار في الهيئة، والمنظر، والشمائل، وغير ذلك. الصحاح، للجوهري، مادة: (دلل) (٤/١٦٩٩).

(٣) انظر: الكشاف (٤٠٢/٢)، حاشية الطيبي على الكشاف (١٠٢/٨-١٠٤).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وقد قيل: إنهم كانوا مخصوصين في الدنيا بنوعين من الكمال:

أحدهما: أن بساتينهم ومزارعهم كانت في غاية الطيب والبهجة، والدليل عليه

قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ أَلَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٧-٨].

والثاني: أنهم كانوا في غاية القوة والبطش؛ ولذلك قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا

قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ولما كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الأمرين وعدهم هود

عَلَيْهِ السَّلَامُ أنهم لو تركوا عبادة الأصنام، واشتغلوا بالاستغفار والتوبة، فإن الله عَزَّجَلَّ يقوي

حالمهم في هذين المطلوبين، ويزيدهم فيها درجات كثيرة.

وقيل: إن الله عَزَّجَلَّ لما بعث هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إليهم، وكذبوه حسب الله عَزَّجَلَّ عنهم

المطر سنين، وأعقم أرحام نسائهم فقال لهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن آمنتُم بالله عَزَّجَلَّ أحيا الله

بلادكم، ورزقكم المال والولد، فذلك قوله: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢].

و(المدرار): الكثير الدر، وهو من أبنية المبالغة. وقوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى

قُوَّتِكُمْ﴾ ففسروا هذه القوة بالمال والولد، والشدة في الأعضاء؛ لأن كل ذلكم ما

يتقوى به الإنسان" (١).

وقد جاء عن الشعبي رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ: خرج عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يستسقي،

فما زاد على الاستغفار، ثم رجع فقالوا: يا أمير المؤمنين ما رأيناك استسقيت! فقال:

«لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر»، ثم قرأ: ﴿أَسْتَغْفِرُوا

رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢]، وقرأ الآية التي في (سورة

(١) مفاتيح الغيب (١٨/٣٦٣-٣٦٤).

الدرر السابغ إلى سبب النجاة

الجزء الثاني

هود) حتى بلغ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢] (١). وقوله: «بمجاديح السماء» بجيم ثم دال مهملة، ثم حاء مهملة أيضاً، جمع: مجدح كمنبر، وهو نجم من النجوم، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مشبهاً بالأنواء، مخاطبة لهم بما يعرفونه، لا قولاً بالأنواء. وجاء بلفظ الجمع؛ لأنه أراد: الأنواء جميعها التي يزعمون أن من شأنها المطر (٢).

وفيه: استحباب الاستكثار من الاستغفار؛ لأن منع القطر متسبب عن المعاصي، والاستغفار يحوها، فيزول بزوالها المانع من القطر. وقد استدل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالآيتين على أن الاستغفار من أعظم الأسباب التي يحصل عندها المطر والخصب؛ لأن الله عَزَّجَلَّ قد وعد عباده بذلك، وهو لا يخلف الوعد، ولكن إذا كان الاستغفار واقعاً من صميم القلب، وتطابق عليه الظاهر والباطن، وذلك مما يقل وقوعه، ولذلك شرع الاستغفار في الاستسقاء، والإخلاص فيه.

ويروى عن الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه وفد على معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما خرج تبعه بعض حبابه فقال: إني رجل ذو مال، ولا يولد لي، فعلمني شيئاً لعل الله عَزَّجَلَّ يرزقني

(١) أخرجه عبد الرزاق [٤٩٠٢]، وسعيد بن منصور [١٠٩٥]، وابن أبي شيبة [٨٣٤٣]، وابن جرير (٦٣٣/٢٣)، وابن أبي حاتم [١٠٩٦٠]، والطبراني في (الدعاء) [٩٦٤]، والبيهقي في (الكبرى) [٦٤٢٣]. قال الإمام النووي في (خلاصة الأحكام) (١٨٨٠/٢): "رواه سعيد بن منصور، والبيهقي بإسناد صحيح، لكنه مرسل، لم يدرك الشعبي عمر"، وانظر: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، للزيلعي (٩٣/٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (جدح) (٢٤٣/١).

الإرشاد إلى سبيل النجاة والسؤال الناجع حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

ولداً، فقال: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة، فولد له عشرة بنين، فبلغ ذلك معاوية، فقال: هلاً سألته مم قال ذلك؟ فوفد وفدة أخرى، فسأله الرجل فقال: ألم تسمع قول هود عليه السلام: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]، وقول نوح عليه السلام: ﴿وَيُمِدِّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٢] (١).

وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كثيراً ما يقول: الحمد لله، وأستغفر الله، ف قيل له في ذلك، فقال: إنما هي نعمة فأحمد الله عَزَّجَلَّ عليها، أو خطيئة فأستغفر الله منها (٢). وشكا رجل إلى الحسن رَضِيَ اللَّهُ الْجُدُوبَةَ فقال له: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ. وشكا آخر إليه الفقر فقال له: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ. وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولداً، فقال له: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ. وشكا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ. فقلنا له في ذلك؟ فقال: ما قلت من عندي شيئاً، إن الله جَلَّ وَعَلَا يقول في (سورة نوح): ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدِّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢] (٣).

ويقول الله عَزَّجَلَّ ذكره مخبراً عن قيل صالح عليه السلام لقومه: ﴿يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تُوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١]، ﴿قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٤٦].

(١) الكشاف (٤٠٢/٢).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٧٨/١٠).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٣٠٢/١٨)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٧٤/٩).

الدراسات والأساليب النحوية والسبائلك الناجمة عنها طيبة نافعته

الجزء الثاني

ويقول الله عزَّ وجلَّ ذكره مخبراً عن قيل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه: ﴿قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

ويقول: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [المنحنة: ٤].

ويقول: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [١١٣] وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣-١١٤].

وقال أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيهم: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧]، فقال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

ويقول الله عزَّ وجلَّ ذكره مخبراً عن قيل شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، أي: استغفروه من سالف الذنوب، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة. ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ لمن تاب وأناب.

وقال حكاية عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن قتل القبطي خطأً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

وقال حكاية عن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿فَأَسْتَغْفِرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [٢٤] [ص: ٢٤].

الدرر السنية إلى سبيل النجاة

الجزء الثاني

وذكر عن نبيه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

وقال عن توبة بلقيس: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥].

وقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

وبعد أن فتحت مكة، وتم أمر الله عَزَّوَجَلَّ، ودخل الناس في دين الله عَزَّوَجَلَّ أفواجًا، أمره الله بحمد الله عَزَّوَجَلَّ واستغفاره، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣]. فهو أمر بالدوام على الاستغفار؛ هضمًا للنفس، وتقربًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وشكرًا على جليل نعمه.

الدرر السابغ إلى السبب النجاة

الجزء الثاني

وفي (الصحيح): عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن»^(١).

فقولها: «يتأول القرآن»، يعني: أنه يمثل ما أمره الله عَزَّوَجَلَّ به بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣].

ورواه أحمد بلفظ: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله، وأتوب إليه»، قالت: فقلت يا رسول الله: ما لي أراك تكثر من قول: سبحان الله، وبحمده أستغفر الله، وأتوب إليه؟ قال: «إن ربي عَزَّوَجَلَّ كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان توابًا، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۗ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۗ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣]"^(٢).

وأمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يأمر الناس بالاستقامة والاستغفار، فما أعظمها وأنفعها من وصية جامعة نافعة، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

(١) صحيح البخاري [٧٩٤، ٨١٧، ٤٢٩٣، ٤٩٦٨]، مسلم [٤٨٤].

(٢) أخرجه ابن المبارك في (الزهدي) [١١٣٠]، وأحمد [٢٤٠٦٥]، وأبو عوانة في (مستخرجه) [١٨٨٥].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَلُو اسْتَقْلَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦]. فلا بد من ملازمة الاستغفار، ومن الإخلاص، والصدق، والاستقامة حتى يكون الاستغفار نافعاً للبعد، ومثمرًا للخير.

وقد حثَّ الله عَزَّوَجَلَّ العباد على التوبة والاستغفار، فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ٣].

وقد فتح الله عَزَّوَجَلَّ باب التوبة للمذنبين المستغفرين، المعترفين بالذنب، والصادقين في الإنابة فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٦٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمل: ٢٠].

وقال جَلَّوَعَلَا في بيان وصف المؤمنين الذين يساعون إلى الخير، وما يؤهلهم لمغفرة الله عَزَّوَجَلَّ، فيستحقون على عملهم، وعلى تلك الصفات جنة عرضها السموات والأرض: ﴿* وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ

الدرر والاسرار في سبب النجاة والوسائد التي اجتمعت حياطة طيبة نافعة



الجزء الثاني



لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٦﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٧﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٨﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

وقد تقدّم ذكر استغفار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»، وقوله: «إِنَّهُ لِيُغَانِ عَلَيَّ قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ».

وقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ المستغفر بالمغفرة إذا كان مخلصاً في إنايته إلى الله عَزَّوَجَلَّ، كما جاء في الحديث: عن أَبِي دَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما روى عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يا عبادي إني حَرَمْتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تَظَلَمُوا، يا عبادي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إِلَّا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إِلَّا من كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم..» الحديث (١).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا

(١) صحيح مسلم [٢٥٧٧].

الرسالة السبب النجاة

الجزء الثاني

أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تَشْرِكُ بِي شَيْئًا لِأَتَيْتَكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»^(١).

وقد تقدم حديث: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم»، كما تقدم بيان المعاني المحتقة به.

حادي عشر: إجمال ذكر ثمرات الاستغفار:

وهاك إجمال ذكر ثمرات الاستغفار:

١ - المستغفر مستجيب لله عَزَّجَلَّ ومتبع لنهج الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين.

٢ - الاستغفار من أسباب محبة الله عَزَّجَلَّ للعبد:

ومن النصوص الدالة على محبة الله عَزَّجَلَّ لمن أناب إليه: قوله جَلَّ وَعَلَا مُخْبِرًا عَنْ قَبْلِ شَعِيبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]. قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ: (ودود): "ذو محبة لمن أناب وتاب إليه، يوده ويحبه"^(٢).

٣ - الاستغفار مفتاح من مفاتيح الرزق، والخير، والبركة - كما تقدم -.

(١) أخرجه الترمذي [٣٥٤٠]، وقال: "حسن غريب"، كما أخرجه: الضياء [١٥٧١]، وقال: "إسناده

صحيح" وقد روي كذلك عن ابن عباس، كما روي عن أبي ذر، وأبي هريرة.

(٢) تفسير الطبري (٤٥٦/١٠)، وانظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، لمكي بن أبي طالب (٣٤٥٥/٥)، وانظر

ذلك في (المحبة: صورها وأحكامها)، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص: ٤٧).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

٤ - الاستغفار من أسباب زيادة القوّة - كما تقدم-، وهو من أسباب النصر على الأعداء:

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

٥ - الاستغفار من أسباب الفرج، وجلب النعم، ودفع النقم، وبه يتيسر العسير، ويرفع البلاء والعذاب - كما تقدم-، وهو من أسباب الحياة الطيبة في الدنيا، والنجاة من النار، والجزاء الحسن في الآخرة، ومضاعفة الأجور، ورفع الدرجات.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣]. دلت الآية على الاستغفار سبباً لدفع العذاب، أي: وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر، وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المستضعفين.

قال أهل المعاني: دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان فيهم أمانان: نبي الله، والاستغفار، أما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد مضى، وأما الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة (١).

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٤٨٠/١٥)، تفسير الطبري (٥١١/١٣-٥١٢)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١٦٩١/٥)، السنن الكبرى، للبيهقي [٩٠٣٧]. قال السيوطي: "حديث: ابن عباس أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في (سننه)" الدر المنثور (٥٥/٤).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

ومن لَزِمَ الاستغفار جعل الله عَزَّجَلَّ له من كُلِّ همٍّ فرجًا، ومن كُلِّ ضيقٍ مخرجًا، وورزقه من حيث لا يحتسب.

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]. قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُمَتِّعْكُمْ﴾، "أي: يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية، من عيشة واسعة، ونعمة متتابعة. ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أن يتوفاكم، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].
﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾: ويعطى في الآخرة كل من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاء فضله لا يخس منه. أو فضله في الثواب، والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات" (١).

وقيل: إن ثمرة الاستغفار والتوبة: أن يمتعكم الله عَزَّجَلَّ بالمنافع في الدنيا، من سعة الرزق، ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب، كما فعل بمن قبلكم.
والمتاع الحسن: قيل: هو ترك الخلق، والإقبال على الخالق جَلَّ وَعَلَا.
وقيل: هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود.
وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾:
قيل: هو الموت.
وقيل: القيامة.

(١) الكشاف (٢/٣٧٨).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

وقيل: دخول الجنة، والمتاع الحسن على هذا وقاية كل مكروه، وأمن كل مخوف مما يكون في القبر وغيره من أهوال يوم القيامة وكرها.

قال في (الفتوحات): والأول أظهر؛ لقوله في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُومُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ الآية [هود: ٥٢]، وهذا منقطع بالموت، وهو الأجل المسمى "(١)".

والاستغفار سبب لدخول الجنة: قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

والاستغفار سبب لرفعة الدرجات، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الرجل لترفع درجته في الجنة فيقول: أنى هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك» (٢).

(١) الفتوحات الربانية (٢٧٥/٧-٢٧٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [١٢٠٨١]، وأحمد [١٠٦١٠]، وابن ماجه [٣٦٦٠]، وفي (الزوائد) (٩٨/٤): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات" كما أخرجه: الطبراني في (الأوسط) [٥١٠٨]، أبو نعيم في (الحلية) (٢٥٥/٦)، والأصبهاني في (الترغيب) [٤٣٨]. قال العراقي: "رواه أحمد بإسناد حسن" المغني عن حمل الأسفار (ص: ٣٧٠)، وقال الهيثمي (٢١٠/١٠): "رواه أحمد، والطبراني في (الأوسط)، ورجالهما رجال الصحيح غير عاصم بن مهذبه، وقد وثق".

الدرر والاسباب النجاة والسبائل الناجحة حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

وعند الطبراني رَحِمَهُ اللهُ: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يتبع الرجل من الحسنات يوم القيامة أمثال الجبال، فيقول: أنى هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك»^(١).

والمستغفر مبشّر بالمغفرة، وعظيم الفضل، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن بُسْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً»^(٢).

وعن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من أحب أن تسره صحيفته؛ فليكثر فيها من الاستغفار»^(٣).

ومن الأحاديث التي تدل على أن الاستغفار من أسباب النجاة من عذاب النار: ما جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [١٨٩٤]، قال الهيثمي (٢١٠/١٠): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وفيه ضعفاء قد وثقوا" مجمع الزوائد (٢١٠/١٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه [٣٨١٨]، قال البوصيري في (الزوائد) (١٣٥/٤): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات". وأخرجه أيضاً: البزار [٣٥٠٨]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٢١٦]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٤٥٥]، والطبراني في (الدعاء) [٣٥٠٨]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٣٨]، والضياء [٧٩].

(٣) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٨٣٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٣٩]، والضياء في (المختارة) [٨٩٢]، وقال: "إسناده حسن". قال الهيثمي (٢٠٨/١٠): "رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله ثقات".

الرسائل والأساليب النجاة

الجزء الثاني

أنه قال: «يا معشر النساء، تصدقن، وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار»^(١).

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت رجلاً ذَرَبَ اللسان على أهلي، فقلت: يا رسول الله، قد خشيت أن يدخلني لساني النار، قال: «فأين أنت من الاستغفار؟ إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»، قال أبو إسحاق: فذكرته لأبي بردة فقال: «وأتوب إليه»^(٢).

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب تاب الله عليه»^(٣).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قلت: يا رسول الله، ابنُ جُدَعَانَ كان في الجاهلية يصلُّ الرَّحْمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فهل ذاك نافع؟ قال: «لا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لم يقل يوماً: رَبِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين»^(٤).

(١) صحيح مسلم [٧٩].

(٢) أخرجه أحمد [٢٣٣٧١]، والبزار [٣١٢٠]، والنسائي في الكبرى [١٠٢١٢]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٤٥١]، وابن حبان [٩٢٦]، والحاكم [١٨٨٢، ٣٧٠٦]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٣٤]، وفي (الدعوات) [١٦٧]. يقال: ذرب الرجل ذرباً وذرابة: إذا صار حاد اللسان.

(٣) صحيح البخاري [٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٦٩٠، ٤٧٥٠]، مسلم [٢٧٧٠].

(٤) صحيح مسلم [٢١٤]، وقد تقدم.

الدرر السابغ إلى السبيل النجاة والوسائد الناجعة لحياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

وعن أبي العالية رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: إني لأرجو ألا يهلك عبدٌ بين نعمتين: نعمة يحمَدُ الله عليها، وذنوب يستغفرُ الله عَزَّجَلَّ منه (١).

وعن بكر بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ لِحَقِّ حَمَّالٍ عَلَيْهِ حَمْلُهُ وَهُوَ يَقُولُ: الحمد لله، أستغفر الله قال: فانتظرت حتى وضع ما على ظهره، وقلت له: أما تحسن غير هذا؟ قال: بلى، أحسن خيراً كثيراً، أقرأ كتاب الله عَزَّجَلَّ، غير أن العبد بين نعمة وذنوب، فأحمد الله عَزَّجَلَّ على نعمائه السابعة وأستغفره لذنوبي، فقلت: الحمال فيها أفقه من بكر (٢).

٦ - الاستغفار من أسباب قبول الطاعات.

٧ - الاستغفار من أسباب رحمة الله عَزَّجَلَّ، ومغفرته:

قال الله عَزَّجَلَّ حكاية عن قيل صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿قَالَ يَنْقُومُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

وقد وعد الله عَزَّجَلَّ المستغفر بالمغفرة إذا كان مخلصاً في إنابته إلى الله عَزَّجَلَّ - كما تقدم -.

٨ - الاستغفار من أسباب إجابة الدعاء:

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرْهُ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]. ودل كذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعَمَ

(١) انظر: الشكر، لابن أبي الدنيا [٨٨]، حلية الأولياء (٢/٢١٩)، شعب الإيمان [٤١٩٥]، تاريخ دمشق

(١٨/١٨٤-١٨٥)، تهذيب الكمال (٩/٢١٧)، سير أعلام النبلاء (٤/٢١٠).

(٢) شعب الإيمان [٤١٩٦].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ [الصفات: ٧٥-٧٦]، ونوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يكثر من الاستغفار، ومن تذكير قومه به - كما تقدم -.

٩ - الاستغفار من أسباب التغلب على نزعات النفس إلى الشر والمعاصي، ويعين على دفع وساوس الشيطان ونزغته:

وقد جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال له الله: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني»، وفي لفظ: «لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»^(١).

١٠ - الاستغفار من أسباب السكينة والاطمئنان، وانسراح الصدر:

ويدل عليه: ما تقدم من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لِيُبَغَّانُ عَلَيَّ قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»، وقد تقدم بيانه مفصلاً.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما تأثير الاستغفار في دفع الهمِّ وَالْغَمِّ وَالضِّيقِ، فلما اشترك في العلم به أهل الملل، وعقلاء كلِّ أمة أَنَّ المعاصي والفسادَ توجب الهمَّ، والغمَّ، والخوفَ، والحُزْنَ، وضيق الصدر، وأمراض القلب، حتى إن أهلها إذا قضوا منها

(١) أخرجه أحمد [١١٢٤٤]، وعبد بن حميد [٩٣٢]، ونحوه عند أبي يعلى [١٢٧٣]، كما أخرجه: أبو نعيم في (الحلية) (٣٣٢/٨)، والطبراني في (الأوسط) [٨٧٨٨]، والحاكم، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي. قال الهيثمي (٢٠٧/١٠): "رواه أحمد، وأبو يعلى بنحوه، وقال: «لا أبرح أغوي عبادك». والطبراني في (الأوسط)، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي أبي يعلى".

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

أوطارهم، وسئمتها نفوسهم، ارتكبوها؛ دفعًا لما يجدونه في صدورهم من الضيقِ والهَمِّ والغَمِّ، كما قال شيخُ الفُسُوقِ:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا
وَإِذَا كَانَ هَذَا تَأْتِيرُ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ فِي الْقُلُوبِ، فَلَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا التَّوْبَةُ
وَالِاسْتِغْفَارُ^(١).

١١ - الاستغفار من أسباب صفاء القلوب ونقائها:

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذِنَ كَانَتْ نَكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صَقَلَ قَلْبَهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبُهُ ذَاكَ الرَّانِ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي الْقُرْآنِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»^(٢).

١٢ - الاستغفار خير دواء للذنوب:

وقد بين ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كَلَامِهِ الْآنْفِ الذِّكْرُ. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ كَوْنِ الْاسْتِغْفَارِ سَبَبًا فِي مَغْفَرَةِ الذُّنُوبِ.

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/١٩١)، الطب النبوي (ص: ١٥٥).

(٢) أخرجه أحمد [٧٩٥٢]، وابن ماجه [٤٢٤٤]، والترمذي [٣٣٣٤]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه: النسائي في (الكبرى) [١٠١٧٩]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٤١٨]، وابن حبان [٩٣٠]، والحاكم [٦]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٨٠٨]. وقوله: (صقل) جاء في نسخة: (سقل) بسين مهملة، أي: رفع الله عَزَّجَلَّ تلك النكته، فينجلي قلبه بنوره كشمس خرجت عن كسوفها، فتجلت. «وإن عاد» إلى ذلك الذنب أو غيره. فيض القدير (٢/٣٧١).

الدرر والاسباب النجاة والسائل الناجع حيا طيبته نافعته

الجزء الثاني

قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: إن هذا القرآن يدلکم على دَائِكُمْ ودَوَائِكُمْ، فأما دَاوُكُمْ: فالذنوب، وأما دَوَاوُكُمْ: فالاستغفار (١). وقال بعضهم: إنما معول المذنبين البكاء والاستغفار، فمن أهمته ذنوبه، أكثر لها من الاستغفار (٢).

وفي الحديث: عن أسماء بن الحكم الفزاري، قال: سمعت علياً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثاً نفعتني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلقتني، فإذا حلف لي صدقته، قال: وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ما من عبد يذنب ذنباً، فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] إلى آخر الآية (٣).

(١) رواه البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٧٤٥]، من قول قتادة، قال: "وقد روي هذا بإسناد مجهول مرفوعاً". وقد ذكره كذلك مرفوعاً في (شعب الإيمان) [٦٧٤٦]، كما رواه: الديلمي [٤٧٨]. قال المنذري (٢٠٩/٢): "رواه البيهقي، وقد روي عن قتادة من قوله، وهو أشبه بالصواب".
(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (٤١٥/٢)، إحياء علوم الدين (٣١٣/١).
(٣) أخرجه الطيالسي [١]، والحميدي [١]، وابن أبي شيبة [٧٦٤٢]، وأحمد [٤٧]، وابن ماجه [١٣٩٥]، وأبو داود [١٥٢١]، والترمذي [٤٠٦]، وقال: "حسن"، كما أخرجه: النسائي في (الكبرى) [١٠١٧٥]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٤١٤]، وأبو يعلى [١٣]، وابن حبان [٦٢٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٦٧٥]، والضياء [٩] وقال: "إسناده صحيح".

الدرر السابغة إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "قلت لابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يوماً: سئل بعض أهل العلم أيهما أنفع للعبد التسييح أو الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقياً فالبخور وماء الورد أنفع له، وإذا كان دنساً فالصابون والماء الحار أنفع له (١)." .

ثاني عشر: أفضل أنواع الاستغفار:

وأفضل أنواع الاستغفار: أن يبدأ العبد بالثناء على ربه جَلَّ وَعَلَا، ثم يثني بالاعتراف بذنبه، ثم يسأل الله عَزَّوَجَلَّ المغفرة، كما في حديث: شداد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، قال: «ومن قالها من النهار موقفاً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة» (٢).

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٩٢).

(٢) صحيح البخاري [٦٣٠٦، ٦٣٢٣].

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "لما كان هذا الدعاء جامعاً لمعاني التوبة كلها استعير له اسم: (السيد)، وهو في الأصل الرئيس الذي يقصد في الحوائج ويرجع إليه في الأمور، وقد سبق أن التوبة غاية الاعتذار"^(١)، وتبعه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ^(٢).
وتُعبّر عن الشيخ ملا علي القاري رَحِمَهُ اللهُ في (المرقاة): "بأن كلام العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ ومن وافقه إنما يفيد أن المراد بالاستغفار إنما هو التوبة، والظاهر من الحديث الإطلاق، مع أن جامعته لمعاني التوبة ممنوعة - كما لا يخفى -؛ إذ ليس فيه إلا الاعتراف بالذنب الناشئ عن الندامة، وأما العزم على أن لا يعود وأداء الحقوق لله عَزَّجَلَّ والعباد، فلا يفهم منه أصلاً"^(٣).

ويجاء بأن الحديث متضمن لشروط التوبة؛ إذ إن التزام العبد بالدخول تحت عهد الله عَزَّجَلَّ إلى عباده بقدر استطاعته، وعهد الله عَزَّجَلَّ هو الاستقامة على صراطه المستقيم، والتزام أمره ونهيهِ، وقد أمر الله عَزَّجَلَّ بأداء الحقوق، ورد الأمانات، كما أمر بالصدق والوفاء، ومن صدق في توبته فلا ريب أن في نيته أن لا يعود إلى ما تاب منه، وأن يرد الحقوق؛ ولذلك قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "تضمن هذا الاستغفار: الاعتراف من العبد بربوبية الله عَزَّجَلَّ، وإلهيته وتوحيده، والاعتراف بأنه خالقه، العالم به؛ إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيته بيده وفي قبضته، لا مهرب له منه، ولا ولي به سواه، ثم التزام الدخول

(١) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٦/١٨٤٤).

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر (١١/٩٩).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/١٦١٩).

المرشد إلى السبيل النجاة والوسائد التي تجتنب حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

تحت عهده - وهو أمره ونهيهِ - الذي عهده إليه على لسان رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن ذلك بحسب استطاعتي، لا بحسب أداء حقلك؛ فإنه غير مقدور للبشر، وإنما هو جهد المقل، وقدر الطاقة، ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك بالعقاب، فأنا مقيم على عهدك، مصدق بوعدك، ثم أفرع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما فرطت فيه من أمرك ونهيك.. قال: فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار، وهو متضمن لمحض العبودية، فأبي حسنة تبقى للبصير الصادق، مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله، ومنة الله عَزَّجَلَّ عليه؟ فهذا الذي يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه" (١).

وقال ابن أبي جمرة رَحِمَهُ اللهُ: "جمع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث من بديع المعاني، وحسن الألفاظ ما يحق له أنه يسمى: (سيد الاستغفار) ففيه: الإقرار لله عَزَّجَلَّ وحده بالإلهية، والعبودية، والاعتراف بأنه الخالق، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاء بما وعده به، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه، وإضافة النعماء إلى موجدتها، وإضافة الذنب إلى نفسه، ورغبته في المغفرة، واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو..

وقال أيضاً: من شروط الاستغفار: صحة النية، والتوجه، والأدب، فلو أن أحداً حصل الشروط واستغفر بغير هذا اللفظ الوارد، واستغفر آخر بهذا اللفظ الوارد لكن

(١) مدارج السالكين (١/٢٣٦-٢٣٧).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

أخلاً بالشروط هل يستويان؟ فالجواب: أن الذي يظهر أن اللفظ المذكور إنما يكون سيد الاستغفار إذا جمع الشروط المذكورة - والله اعلم-^(١).

ومن أفضل أنواع الاستغفار قول العبد: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، كما جاء في الحديث: عن بلال بن يسار بن زيد عن أبيه عن جده أنه سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه، غفر له، وإن كان قد فرَّ من الرَّحْفِ»^(٢).

وعن أبي الأحوص، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه، ثلاثاً غفرت ذنوبه، وإن كان فاراً من الرَّحْفِ»^(٣).

(١) فتح الباري، لابن حجر (١٠٠/١١)، بحجة النفوس شرح مختصر البخاري، لابن أبي جمرة (١٩٨/٢).
(٢) أخرجه أبو داود [١٥١٧]، والترمذي [٣٥٧٧]، والطبراني [٤٦٧٠]. قال الحافظ المنذري: "وإسناده جيد متصل، فقد ذكر البخاري في (تاريخه) الكبير أن بلال سمع من أبيه يسار، وأن يساراً سمع من أبيه زيد مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقد اختلف في يسار والد بلال، هل هو بالياء الموحدة، أو بالياء المثناة تحت، وذكر البخاري في (تاريخه) أنه بالموحدة - والله أعلم- الترغيب والترهيب (٣١١/٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٤٥٠]، والطبراني في (الدعوات الكبير) [١٦١]، والحاكم [١٨٨٤]، [٢٥٥٠]، وقال: "صحيح على شرط مسلم" ووافقه الذهبي.

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافعته

الجزء الثاني

ثالث عشر: الأوقات التي يشرع فيها الاستغفار:

إن الاستغفار مشروع في كل وقت، ومن أكثر من الاستغفار في جُلِّ أوقاته، ومختلف حالاته، فقد وفق للخير، وهُدِيَ للرشاد، ولكن الأوقات تتفاضل، فقد خصَّ بعض الأزمنة وشرفها بمزايا وفضائل دائمة، وخصَّها بقرب تؤدي فيها، وضاعف لعباده الأجر فيها، وهي التي ينبغي أن يوليها العبد بمزيد اهتمام، ويحرص على اغتنام الفضل فيها، وأن لا يغفل عنها.

روي عن الحسن رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: أَكْثَرُوا مِنَ اسْتَغْفَارِ فِي بَيْوتِكُمْ، وَعَلَى مَوَائِدِكُمْ، وَفِي طَرِيقِكُمْ، وَفِي أَسْوَاقِكُمْ، وَفِي مَجَالِسِكُمْ، وَأَيْنَمَا كُنْتُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَتَى تَنْزِلُ الْمَغْفِرَةُ (١).

إنَّ أخطرَ شيءٍ في حياة الإنسان هو الغفلة، والغفلة عن ماذا؟ الغفلة عن أعظم شيءٍ في الوجود، ألا وهو الصلوة بالله عَزَّجَلَّ، وطاعته والتقرب إليه، فالغفلة عن الله عَزَّجَلَّ مُهلكةٌ للإنسان، فكم من غافلٍ عن مولاه لم يستنق إلا وهو صريعٌ بين الأموات، فما ينفعه وقتها الندم، ولا تنفعه الحسرات!

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتَنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ٥٨﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨].

(١) انظر: سير السلف الصالحين، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني (ص: ٧٣٩)، جامع العلوم والحكم (٤٠٨/٢).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

إن الغفلة تورد صاحبها المهالك، فإذا دهم الغافل الموت فإنه يتحسر على التفريط في الطاعة، ثم يتمنى الرجعة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فاته، فيأتيه الجواب: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].
وقد خصَّ الشارع بعض أوقات الاستغفار بمزيد فضل، وهاك بيان أوقات الاستغفار الفاضلة:

١ - الاستغفار عند وقوع الذنب:

يكون الاستغفار واجباً عند وقوع الذنب من العبد إذا أريد منه: التوبة:
وقد تقدّم أن التوبة واجبة من جميع المعاصي واجبة على الفور، أما إذا أريد منه: سؤال الغفران فإنه يكون مندوباً -على ما تقدم-.

٢ - الاستغفار عقب الصلوات وفيها، وعقب سائر العبادات:

يستحب الاستغفار عقب الصلوات وفيها، وعقب سائر العبادات.
إن الاستغفار كما يكون للعصاة، فكذلك يكون لأصحاب الطاعات، فيحرص عليه الموفقون من أصحاب الطاعات؛ خوفاً من نقص، أو زلل، أو رياء، وهضمًا للنفس، وزيادة في رجاء القبول.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

أ. الاستغفار عقب الصلاة:

وقد كان من هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ختمُ الأعمال الصالحة بالاستغفار، فكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا انصرف من صلاته يدعو ويستغفر، كما جاء في الحديث: عن ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام»، قال الوليد: فقلت للأوزاعي: كيف الاستغفار؟ قال: تقول: أستغفر الله، أستغفر الله (١).

فيستحب الاستغفار عقب الصلوات والعبادات؛ ليكون كفارة لما قد يقع فيها من خللٍ أو تقصير، وإن لم يكن هناك تقصيرٌ ولا خلل، كان هذا الاستغفار كالحتم والطابع لتلك الأعمال.

وقد تقدم حديث: «ما من عبد يذنب ذنباً، فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له» (٢).

ب. الاستغفار في الصلاة وغيرها من العبادات:

تقدم أن الاستغفار: كلُّ دعاء فيه سؤال الغفران، فيدخل في هذا: كل دعاء في الصلاة فيه سؤال الغفران، كالدعاء في الركوع والسجود، والقنوت، وعند الأذان، وبينه وبين الإقامة، وقيل: في افتتاح الصلاة، وقيل: في الجلوس بين السجدين، ويندب بعد

(١) صحيح مسلم [٥٩١].

(٢) تقدم.

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

التشهد الأخير، وفي وقت الإفطار من الصيام، وعند دخول المسجد، والخروج منه، وعند النوم، وإذا مضى شطر الليل، وفي وقت الأسحار، وعقب كل عبادة، ويسن للعاطس أن يدعو بالمغفرة لمن شمته، ويندب الاستغفار بعد قضاء الحاجة، وعند الخروج من الخلاء، كما يندب الإكثار منه في الاستسقاء. وعند اقتراب الأجل، كما هو مفصل في مظانه. فهذه أوقات مخصوصة يتأكد فيها الاستغفار، ويعظم فيها الأجر، مع مشروعيته في كل وقت.

وقد تقدم ما يدل على ذلك من حديث: أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه قال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١)، وقد أورده الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في باب: (الدعاء قبل السلام)، وباب: (الدعاء في الصلاة).

وفي رواية: «أدعو به في صلاتي، وفي بيتي»^(٢).

وفي (الصحيح): عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن»^(٣).

(١) صحيح البخاري [٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٧]، مسلم [٢٧٠٥]، وقد تقدم.

(٢) صحيح مسلم [٢٧٠٥].

(٣) صحيح البخاري [٧٩٤، ٨١٧، ٤٢٩٣، ٤٩٦٨]، مسلم [٤٨٤]، وقد تقدم.

الدرر والاسرار النجاة والسائل الناجع حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في سجوده: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دِقَّةً، وَجِلَّةً، وأوله وآخره، وعلايته وسره» (١).

قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «دِقَّةً»: - بالكسر - أي: دقيقه وصغيره. «وَجِلَّةً»: - بكسر الجيم -، وقد تضم، أي: جليله وكبيره. وفسرها الإمام النووي بالقليل والكثير (٢). قيل: إنما قُدِّمَ الدَّقُّ على الجِلِّ؛ لأن السائل يتصاعد في مسألته، أي: يَتَرَقَّى؛ ولأن الكبائر تنشأ غالبًا من الإصرار على الصغائر وعدم المبالاة بها، فكأنها وسائل إلى الكبائر، ومن حقِّ الوسيلة أن تُقَدَّمَ إثباتًا ورفعًا (٣).

والأحاديث في ذلك كثيرة.

ج. الاستغفار بعد الفراغ من الوضوء:

جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من تَوَضَّأَ فَقَالَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، وبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، كُتِبَ فِي رِقِّي ثُمَّ طُبِعَ بِطَابَعٍ فَلَمْ يُكْسَرْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٤).

(١) صحيح مسلم [٤٨٣].

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢٠١/٤).

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح مصابيح (٧٢١/٢)، مرعاة المفاتيح (٢١٠/٣)، عون المعبود (٩٣/٣).

(٤) أخرجه النسائي في (الكبرى) [٩٨٢٩]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٨١]، قال الحافظ ابن حجر: "واختلف في وقفه ورفعه، وصحح النسائي الموقوف، وضعف الحازمي الرواية المرفوعة؛ لأن الطبراني قال في (الأوسط): لم يرفعه عن شعبة؛ إلا يحيى بن كثير، قلت: رواه أبو إسحاق المزكي في الجزء الثاني تخريج الدارقطني له، من طريق روح بن القاسم، عن شعبة، وقال: تفرد به عيسى بن شعيب، عن =

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

د. الاستغفار في الحج وعقب إكمال أعماله:

إن الحج ركن عظيم من أركان الإسلام، ورحلة الحج ما أعظمها من رحلة، يحرص المؤمن أن تكون خالصة لله عزَّ وجلَّ، ويستغفر الله عزَّ وجلَّ من أيِّ تقصير أو نقص، وهو ما أرشد الله عزَّ وجلَّ العباد إليه في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

=روح بن القاسم، قلت: ورجح الدارقطني في (العلل): الرواية الموقوفة أيضاً...". انظر: التلخيص الحبير (١٧٦/١-١٧٧). ورواية الطبراني في (الأوسط) [١٤٥٥] بلفظ: «من قرأ سورة الكهف كانت له نوراً يوم القيامة من مقامه إلى مكة، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره، ومن توضأ فقال: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، كتب في رق، ثم جعل في طابع فلم يكسر إلى يوم القيامة». قال المنذري في (الترغيب والترهيب) (١٠٥/١): "رواه الطبراني في (الأوسط) ورواه رواة الصحيح واللفظ له، ورواه النسائي، وقال في آخره: «ختم عليها بخاتم فوضعت تحت العرش فلم تكسر إلى يوم القيامة»، وصوب وقفه على أبي سعيد". وقال الهيثمي: (٢٣٩/١) "رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله رجال الصحيح، إلا أن النسائي قال بعد تخرجه في (اليوم والليلة): هذا خطأ، والصواب موقوفاً. ثم رواه من رواية الثوري وغندر عن شعبة موقوفاً". وقال ابن الملقن: "رواه النسائي في (اليوم والليلة) هكذا من حديث: يحيى بن كثير أبي غسان عن شعبة عن أبي هاشم، عن أبي مجلز، عن قيس بن عباد، عن أبي سعيد. ثم رواه عن محمد بن بشار عن محمد عن شعبة عن أبي هاشم قال: سمعت أبا مجلز يحدث عن قيس بن عباد، عن أبي سعيد قال: «ما من مسلم يتوضأ ويقول: سبحانك وبحمدك...» ذكره موقوفاً. وإسناد هاتين الروایتين -أعني: المرفوعة والموقوفة- صحيح على شرط البخاري ومسلم لا نعلم طعنًا في واحد من رجاله، بل هم أئمة أعلام ثقات" البدر المنير (٢٨٩/٢).

الدرر والاسرار في سبيل النجاة

الجزء الثاني

قال أهل التفسير: كانت قريش وحلفاؤها ومن دان بدينها، وهم الخمس، يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن أهل الله، وقطان حرمه، فلا نُخَلِّفُ الحَرَمَ، ولا نخرج منه، ويتعظمون أن يقفوا مع سائر العرب بعرفات، وسائر الناس كانوا يقفون بعرفات، فإذا أفاض الناس من عرفات أفاض الخمس من المزدلفة، فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات ويفيضوا منها إلى جمع مع سائر الناس، وأخبرهم أنه سنة إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وقال بعضهم: خاطب به جميع المسلمين.

وقيل: المراد بالإفاضة هنا، أي: من (المزدلفة) إلى (منى) بعد الإفاضة من عرفات، وقالوا: لأن الإفاضة من (عرفات) قبل الإفاضة من (المزدلفة) فكيف يسوغ أن يقول: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨]، ثم أفيضوا من عرفات؟ والأول قول أكثر أهل التفسير، كذا قال: محيي السنة رَحْمَةُ اللَّهِ^(١).

٣ - الاستغفار في نصف الليل وفي وقت الأسحار:

قال جَلَّ وَعَلَا في وصف المؤمنين المسارعين إلى الخيرات، وفي بيان فضل الاستغفار في وقت الأسحار: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَعْمَاءٌ فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَوَقْنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ^(١٧) [آل عمران: ١٦-١٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(١٨) [الذاريات: ١٨].

(١) انظر: معالم التنزيل (١/٢٣٠).

الدرر السابغة إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ينزل ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني، فأستجيب له من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»^(١).

وفي رواية: «إذا مضى شطر الليل، أو ثلثاه، ينزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل يعطى؟ هل من داع يستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ حتى ينفجر الصبح»^(٢).

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من تَعَارَّ^(٣) من الليل، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على

(١) صحيح البخاري [١١٤٥، ٧٤٩٤]، مسلم [٧٥٨].

(٢) صحيح مسلم [٧٥٨].

(٣) «تعارَّ»: بمهملة وراء مشددة. و«تعار من الليل»: إذا هب من نومه. ولعله مأخوذ من (عرار الظليم)، وهو صوته. و(عرار الظليم) صوت ذكر النعام، ويقال لصوت الأنتى زمار. قال أبو عبيد: ولا أدري أهو من ذلك أم لا. قال ابن التَّيْن: ظاهر الحديث أنَّ تعارَّ معناه: استيقظ؛ لأنه قال: «مَنْ تعارَّ فقال»، فعطف القول بالفاء على «تعارَّ». ويحتمل أن تكون الفاء تفسيريَّة لما يصوت به المستيقظ؛ لأنه قد يصوت بغير ذكر، فخصَّ الفضل المذكور في الحديث بمن صوّت بما ذكر من ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ. وهذا هو السرُّ في اختيار لفظ: «تعارَّ» دون استيقظ أو انتبه، وإمَّا يتفق ذلك لمن تعود الذكر، واستأنس به وغلب عليه حتَّى صار حديث نفسه في نومه ويقظته، فأكرم من أنصف بذلك بإجابة دعوته وقبول صلاته. وقيل: تعارَّ تقلَّب في فراشه، ولا يكون إلَّا يقظةً مع كلام يرفع به صوته عند انتباهه وتمطُّيه، وقيل غير ذلك. انظر: فتح الباري، لابن حجر (٤٠/٣)، معالم السنن (١٤٣/٤)، غريب الحديث، لأبي عبيد، مادة: (عرر) (١٣٤/٤-١٣٥)، تهذيب اللغة (٧٦/١)، مقاييس اللغة (٣٥/٤)، مشارق الأنوار (٧٢/٢).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا، استجيب له، فإن توفياً وصلى قبلت صلاته»^(١).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ: "حديث: عبادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شريف عظيم القدر، وفيه: ما وعد الله عَزَّجَلَّ عباده على التيقظ من نومهم، لهجة ألسنتهم بشهادة التوحيد له والربوبية، والإذعان له بالملك، والاعتراف له بالحمد على جزيل نعمه التي لا تحصى، رتبة أفواههم بالإقرار له بالقدرة التي لا تتناهى، مطمئنة قلوبهم بحمده وتسبيحه، وتنزيهه عما لا يليق بالإلهية من صفات النقص، والتسليم له بالعجز عن القدرة عن نيل شيء إلا به جَلَّ وَعَلَا؛ فإنه وعد بإجابة دعاء من بهذا دعاه، وقبول صلاة من بعد ذلك صلى، وهو جَلَّ وَعَلَا لا يخلف الميعاد، وهو الكريم الوهاب، فينبغي لكل مؤمن بلغه هذا الحديث: أن يغتتم العمل به، ويخلص نيته لربه العظيم جَلَّ وَعَلَا أن يرزقه حظاً من قيام الليل، فلا عون إلا به، ويسأله فكاك رقبتة من النار، وأن يوفقه لعمل الأبرار، ويتوفاه على الإسلام. قد سأل ذلك الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين هم خيرة الله عَزَّجَلَّ، وصفوه من خلقه، فمن رزقه الله عَزَّجَلَّ حظاً من قيام الليل فليكثر شكره على ذلك، ويسأله أن يديم له ما رزقه، وأن يختم له بفوز العاقبة، وجميل الخاتمة"^(٢).

(١) صحيح البخاري [١١٥٤].

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣/١٤٧-١٤٨).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

وأخرج ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه كان يحيي الليل صلاةً، ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فيقول: لا، فيعاود الصلاة، فإذا قلت: نعم قعد يستغفر ويدعو حتى يُصبح (١).

وقد قيل: حُصَّ السحر، وهو آخر الليل بالذكر؛ لأنه وقت الغفلة، ولذة النوم، ولأنه أرجى في القبول، فهو وقت إجابة الدعاء لمن توجه إلى الله عَزَّجَلَّ بالدعاء بصدق وإخلاص.

وقد قيل: إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما قال لبيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] أنه أخرجهم إلى وقت السحر؛ ولذلك فإن الذكر والدعاء في هذا الوقت من أفضل الأعمال.

وقيل: إلى ليلة الجمعة؛ ليتعمد به وقت الإجابة. وقيل: ليتعرّف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها. وقيل: أراد الدوام على الاستغفار لهم.

ومن دأب الصالحين أنهم لا يغفلون عن الأوقات الفاضلة، وقد جاء: عن يحيى بن أيوب المقابري، قال: حدثني بعض أصحاب وكيع رَحِمَهُ اللهُ الذين كانوا يلزمونه، قال: كان لا ينام -يعني: وكيعاً- حتى يقرأ جزءه في كل ليلة ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر، فيصلّي الركعتين (٢).

(١) تفسير الطبري (٢٦٦/٦)، وانظر: مختصر قيام الليل، لأبي عبد الله محمد بن نصر المروزي (ص: ٩٦).
(٢) انظر: تاريخ بغداد (٦٤٧/١٥)، تاريخ دمشق (٧٧/٦٣)، صفة الصفوة (٩٩/٢)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٤٨١/٣٠)، سير أعلام النبلاء (١٤٨/٩).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

٤ - الاستغفار في ختم المجالس:

يشرع الاستغفار في ختم المجالس، فإن كان مجلس خير كان كالطابع عليه، وإن كان غير ذلك كان كفارة له، كما جاء في الحديث: عن نافع بن جبير، عن أبيه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قال: سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، فقالها في مجلس ذكر كانت كالطابع يطبع عليه، ومن قالها في مجلس لغو كانت كفارته»^(١).

وعن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر، قال: بلغني أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما من إنسان يكون في مجلس فيقول حين يريد أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في ذلك المجلس»^(٢).

وعن رافع بن خديج رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقوم من مجلس حتى يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك»، ثم يقول: «إنها كفارة لما يكون في المجلس»^(٣).

(١) أخرجه النسائي في (الكبرى) [١٠١٨٥]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٤٢٤]، والطبراني في (الكبير) [١٥٨٦]، قال الهيثمي (٤٢٣/١٠): "رجاله رجال الصحيح"، كما أخرجه: الحاكم [١٩٧٠]، وقال: "صحيح على شرط مسلم".

(٢) أخرجه أحمد [١٥٧٢٩]، والطحاوي في (معاني الآثار) [٦٩٥٨]، والطبراني في (الكبير) [٦٦٧٣] قال الهيثمي (١٤١/١٠): "رواه أحمد والطبراني، ورجاهما رجال الصحيح".

(٣) أخرجه الطبراني، واللفظ له، في (الكبير) [٤٤٤٥]، و(الأوسط) [٤٤٦٧]، و(الصغير) [٦٢٠]. قال الهيثمي (١٤١/١٠): "رواه الطبراني في (الثلاثة)، ورجاله ثقات"، وقال الحافظ العراقي: "أخرجه =

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وعن أبي بَرزَةَ الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول بِأَحْرَةٍ (١) إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولاً ما كنت تقولهُ فيما مضى، فقال: «كفارة لما يكون في المجلس» (٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من جلس في مجلسٍ كثير فيه لغطه فقال قبل أن يقوم: سبحانك ربنا وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك ثم أتوب إليك، إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك» (٣).

=النسائي من حديث: رافع بن خديج بإسناد حسن". وقال المنذري: "رواه النسائي، والحاكم وصححه، ورواه الطبراني في (الثلاثة) باختصار بإسناد جيد" الترغيب والترهيب (٢/٢٦٥).

(١) بفتح الهمزة والحاء المعجمة، أي: في آخر جلوسه، ويجوز أن يكون في آخر عمره، قاله في (النهاية) (٢٩/١)، وانظر: الأذكار، للنووي (ص: ٢٩٨-٢٩٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٣٢٥]، وأبو داود [٤٨٥٩]، واللفظ له، وأبو يعلى [٧٤٢٦]، والطبراني في (الدعاء) [١٩١٧]، والحاكم [١٩٧١]، ورواه الحاكم [١٨٢٧] من رواية: عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقال: "صحيح الإسناد".

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٠٤١٥]، والترمذي [٣٤٣٣]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه: النسائي في (الكبرى) [١٠١٥٧]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٣٩٧]، والطحاوي في (معاني الآثار) [٦٩٥٦]، وابن حبان [٥٩٤]، والطبراني في (الأوسط) [٧٧]، وابن السني في (عمل اليوم والليلة) [٤٤٧]، وتمام [١٧١٥].

الدرر السنية إلى سبيل النجاة

الجزء الثاني

٥ - كثرة الاستغفار في ختام العمر وفي حالة الكبر والشيخوخة:

ومن الأوقات التي يتأكد فيها الاستغفار: عند اقتراب الأجل، وفي حالة الكبر والشيخوخة، ويدل على ذلك: ما جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول قبل أن يموت: «سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك»، قالت: قلت يا رسول الله، ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها تقولها؟ قال: «جُعِلَتْ لِي عَلَامَةٌ فِي أُمَّتِي إِذَا رَأَيْتُهَا قُلْتُهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾» [النصر: ١] إلى آخر السورة (١).

ورواه الطبراني رحمه الله عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بلفظ: عن أم سلمة، قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يموت يكثر أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك»، قلت: يا رسول الله، إني أراك تكثر قول: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك»، قال: «إني أمرت بأمر»، فقراً: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] (٢).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ما صلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] إلا يقول فيها: «سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» (٣).

(١) صحيح مسلم [٤٨٤].

(٢) قال الهيثمي (٢٣/٩) (١٠٤٢/١٠): "رواه الطبراني في (الصغير) [٦٧٧]، و(الأوسط) [٤٧٣٤]، ورجاله رجال الصحيح".

(٣) صحيح البخاري [٤٩٦٧]، مسلم [٤٨٤].

الدرر السابغ إلى السبب النجاة

الجزء الثاني

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: «إنه ممن قد علمتم»، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال: وما ربيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾ [النصر: ١-٢]، حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس أكذلك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلمه الله له: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ﴾ [النصر: ١] فتح مكة، فذاك علامة أجلك. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ [النصر: ٣]، قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما أعلم منها إلا ما تعلم» (١).

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن» (٢). و«يتأول القرآن»، يعني: أنه يمثل ما أمره الله عَزَّوَجَلَّ به بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ [النصر: ٣].

ورواه أحمد بلفظ: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله، وأتوب إليه»، قالت: فقلت يا رسول الله: ما لي

(١) صحيح البخاري [٤٢٩٤، ٤٩٧٠].

(٢) صحيح البخاري [٧٩٤، ٨١٧، ٤٢٩٣، ٤٩٦٨]، مسلم [٤٨٤]، وقد تقدم.

الدرر السابغ إلى سبب النجاة

الجزء الثاني

أراك تكثر من قول: سبحان الله، وبحمده أستغفر الله، وأتوب إليه؟ قال: «إن ربي عزَّ وجلَّ كان أخبرني أني سأرى علامة في أممي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان تواباً، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۗ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣]"^(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصغت إليه قبل أن يموت، وهو مسند إلي ظهره يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق»^(٢). وفي رواية: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا اشتكى منا إنسان، مسح بيمينه، ثم قال: «أذهب الباس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً»، فلما مرض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثقل، أخذت بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع، فانتزع يده من يدي، ثم قال: «اللهم اغفر لي واجعلي مع الرفيق الأعلى» قالت: فذهبت أنظر، فإذا هو قد قضى^(٣).

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهدي) [١١٣٠]، وأحمد [٢٤٠٦٥]، وأبو عوانة في (مستخرجه) [١٨٨٥]،

وقد تقدم

(٢) صحيح البخاري [٤٤٤٠، ٥٦٧٤]، مسلم [٢٤٤٤].

(٣) صحيح مسلم [٢١٩١].

الدُّرَرُ وَالرَّسَائِلُ إِلَى سَبِيلِ النِّجَاةِ وَالرَّسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً

الجزء الثاني

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "إن التوبة نهاية كل عارف، وغاية كل سالك، وكما أنها بداية فهي نهاية، والحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية، بل هي في النهاية في محل الضرورة"^(١).

٦ - الاستغفار للأموات:

قال الله عَزَّجَلَّ في بيان مشروعية الدعاء للأموات، والاستغفار لهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

ويشرع للمسلم أن يستغفر لنفسه وإخوانه المؤمنين، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: نعى لنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النجاشي -صاحب الحبشة-، في اليوم الذي مات فيه، فقال: «استغفروا لأخيكم»^(٢).

وعن عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: «استغفروا لأخيكم، وسلوا له بالثبوت؛ فإنه الآن يسأل»^(٣).

(١) مدارج السالكين (٤٠٢/٣).

(٢) صحيح البخاري [١٣٢٧، ٣٨٨٠]، مسلم [٩٥١].

(٣) أخرجه أبو داود [٣٢٢١]، والبخاري [٤٤٥]، وقال: "لا نعلم لهذا إسناداً عن عثمان إلا هذا الإسناد"، كما أخرجه: ابن السني في (عمل اليوم والليلة) [٥٨٥]، والحاكم [١٣٧٢]، وقال: "صحيح =

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وهذا الحديث يدل على انتفاع الميت باستغفار الحي له، وعلى أنه يُستحبُّ للأحياء أن يدعوا للأموات، وعلى أن سائر المسلمين بعضهم أخو بعض^(١).
والميت أحوج ما يكون إلى الدعاء والاستغفار في هذا الموقف الذي يسأل فيه. ويستحسن طلب المسامحة والصفح من كل يعرفه، فإن كان قد أساء إلى أحدهم أو قصر معه فاعل ذلك ينفعه في هذا الموقف، كما يستحسن التصديق عنه. ومن أفضل القربات التي ينتفع بها الميت: الحج والعمرة عنه^(٢).

=الإسناد". وأخرجه أيضًا: والبيهقي في (الدعوات الكبير) [٦٣٦]، والضياء [٣٨٨] وقال: "إسناد حسن".

(١) انظر: المفاتيح في شرح المصاييح (٢٣٥/١)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٥٩٨/٢)، سبل السلام (٥٠٠/١).

(٢) وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لبيك عن شبرمة، قال: «من شبرمة؟» قال: أخ لي - أو قريب لي - قال: «حججت عن نفسك؟» قال: لا، قال: «حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة». أخرجه ابن ماجه [٢٩٠٣]، وأبو داود [١٨١١]، وأبو يعلى [٢٤٤٠]، وابن الجارود [٤٩٩]، وابن خزيمة [٣٠٣٩]، وابن حبان [٣٩٨٨]، والطبراني [٣٩٨٨]، والدارقطني [٢٦٥٨]، والبيهقي [٨٦٧٥]، والضياء [٢٦١]. قال ابن الملقن في (خلاصة البدر المنير) (٣٤٥/١): "رواه أو داود وابن ماجه بإسناد على شرط مسلم، والدارقطني، وابن حبان، والبيهقي. قال البيهقي: إسناد صحيح ليس في الباب أصح منه". وللحديث طرق تنظر في مظانها، وقد روي نحوه عن عائشة بإسناد فيه ضعف، وكذا عن جابر.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة»^(١).

وعن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال: «ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه»، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ويحك، ارجع فاستغفر الله، وتب إليه»، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة، قال له رسول الله: «فيم أطهرك؟»، فقال: من الزنى، فسأل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أبه جنون؟»، فأخبر أنه ليس بمجنون، فقال: «أشرب خمراً؟» فقام رجل فاستنكأه، فلم يجد منه ريح خمر، قال، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أزيت؟»، فقال: نعم، فأمر به فرجم، فكان الناس فيه فرقتين، قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، إنه جاء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم جلوس، فسلم ثم جلس، فقال: «استغفروا لماعز بن مالك»، قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك، قال، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»، قال: ثم جاءت امرأة من غامد من الأزد، فقالت: يا

(١) أخرجه الطبراني في (مسند الشاميين) [٢١٥٥]، قال الهيثمي (٢١٠/١٠): "رواه الطبراني، وإسناده جيد".

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

رسول الله، طهرني، فقال: «ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه»، فقالت: أراك تريد أن تُرَدِّدَنِي كما رَدَّدْتَ معز بن مالك، قال: «وما ذاك؟»، قالت: إنها حبلى من الزنى، فقال: «أنتِ؟»، قالت: نعم، فقال لها: «حتى تضعي ما في بطنك»، قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، قال: فأتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «قد وضعت الغامدية»، فقال: «إِذَا لَا نَرَجْمُهَا وَنَدَعُ وَلَدَهَا صَغِيرًا لَيْسَ لَهُ مِنْ يَرْضَعُهُ»، فقام رجل من الأنصار، فقال: إلي رضاعه يا نبي الله، قال: فرجمها^(١).
وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٢).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "هذه الثلاثُ الخصالُ إنما جرى عملها بعد الموت على من نسبت إليه؛ لأنه تسبب في ذلك، وحرص عليه، ونواه. ثم إن فوائدها متجددة بعده دائماً، فصار كأنه باشرها بالفعل، وكذلك حكم كل ما سنَّه الإنسان من الخير، فتكرر بعده.." ^(٣).

(١) صحيح مسلم [١٦٩٥].

(٢) صحيح مسلم [١٦٣١].

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٤/ ٥٥٤).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وقال القاضي عياض رَحْمَةُ اللَّهِ: "وذلك لأن عمل الميت منقطع بموته، لكن هذه الأشياء لما كان هو سببها؛ من اكتسابه الولد، وبثه العلم عند من حمله فيه، أو إيداعه تاليًا بقي بعده، وإيقافه هذه الصدقة بقيت له أجورها ما بقيت ووجدت" (١).

وقال الإمام النووي رَحْمَةُ اللَّهِ: "وفيه: أن الدعاء يصل ثوابه إلى الميت، وكذلك الصدقة، وهما مجمع عليهما، وكذلك قضاء الدين، وأما الحج فيجزى عن الميت عند الشافعي رَحْمَةُ اللَّهِ وموافقيه. وهذا داخل في قضاء الدين، إن كان حجًا واجبًا وإن كان تطوعًا وصَّى به فهو من باب: (الوصايا).. " (٢).

وينظر الخلاف في مظانه.

وقد تقدم حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الرجل لترفع درجته في الجنة فيقول: أنى هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك» (٣).

ويتبين مما تقدم أن الميت كما ينتفع بدعاء الولد، فهو كذلك ينتفع بدعاء أخ، أو قريب، أو صديق، أو مسلم - على ما تقدم -.

أما الاستغفار للمشركين فهو محرم؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ أَسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣-١١٤].

(١) إكمال المعلم (٣٧٣/٥).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٨٥/١١).

(٣) تقدم.

الدرر والاسرار في سبب النجاة والوسائد التي اجتمعت حياطة طيبتنا فاعتدنا

الجزء الثاني

ومهما استغفر له فلن يغفر الله عز وجل له مع شركه، قال جل وعلا: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٨٠].

فإن قيل: كيف خفي على إبراهيم عليه السلام أن الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده؟ فالجواب: أنه يجوز أن يظن أنه ما دام يرجى منه الإيمان جاز الاستغفار له، فلما تبين له من جهة الوحي أنه لن يؤمن، وأنه يموت كافراً وانقطع رجاءه عنه، قطع استغفاره، فهو كقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. قاله في (الكشاف) (١).

قال الفخر الرازي رحمه الله: "والدليل على وقوع هذا الاحتمال قوله جل وعلا: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، فبين أن المنع من الاستغفار إنما يحصل بعد أن يعرفوا أنهم من أصحاب الجحيم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]. فدللت الآية على أنه وعده بالاستغفار لو آمن، فلما لم يؤمن لم يستغفر له بل تبرأ منه.. (٢).

(١) الكشاف (٢/٣١٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/١٥٧).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

وقال: "اعلم أنه جَلَّ وَعَلَا لما بين من أول هذه السورة إلى هذا الموضع: وجوب إظهار البراءة عن الكفار والمنافقين من جميع الوجوه، بين في هذه الآية: أنه تجب البراءة عن أمواتهم، وإن كانوا في غاية القرب من الإنسان كالأب والأم، كما أوجبت البراءة عن أحيائهم، والمقصود منه: بيان وجوب مقاطعتهم على أقصى الغايات، والمنع من مواصلتهم"^(١).

وقد صرح الحنفية بإجازة الاستغفار للكافر الحي؛ رجاء أن يؤمن فيغفر له. وجوز الحنابلة الدعاء بالهداية، ولا يستبعد ذلك من غيرهم، كذلك استظهر بعضهم جواز الدعاء لأطفال الكفار بالمغفرة؛ لأن هذا من أحكام الآخرة - والمسألة مبسطة في مظاهرها -.

(١) المصدر السابق (٢١/٥٤٧).

الدرر والاسباب النجاة وَالْوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً



الجزء الثاني



المبحث التاسع:

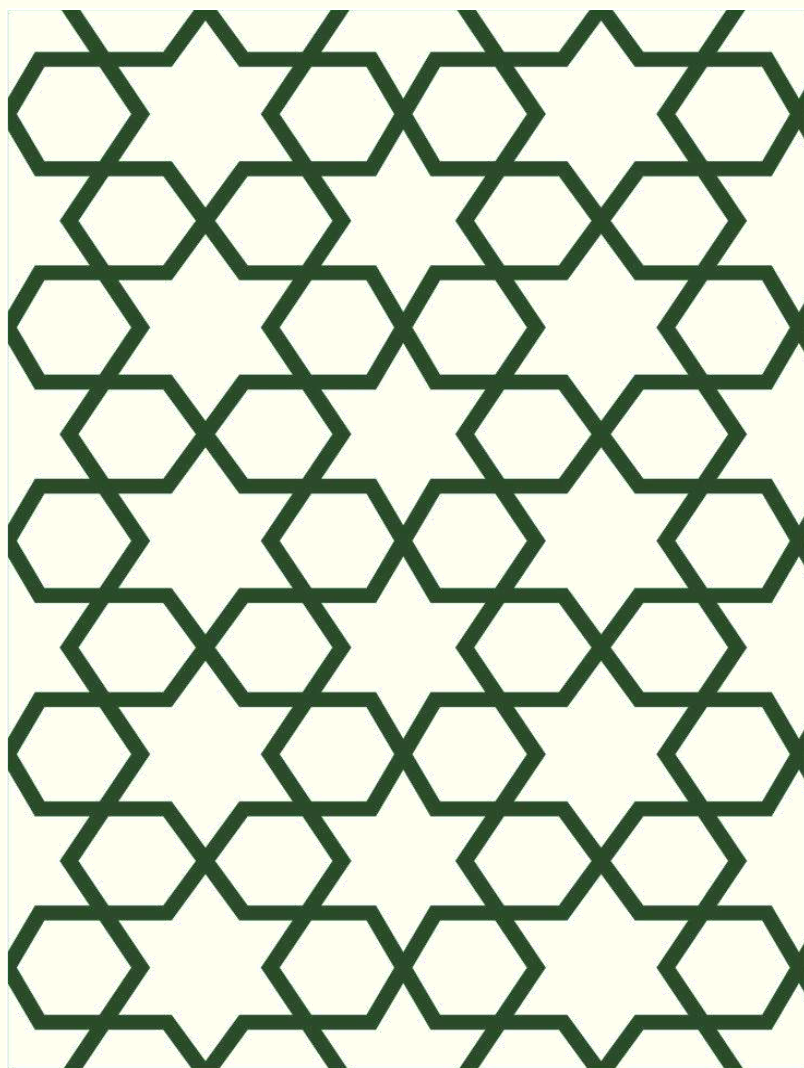
الصبر والشكر

الدراسة إلى أسباب النجاة
والوسائد التي جعلت حياة طيبة نافعة



الجزء الثاني

الإرشاد إلى أسباب النجاة



الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

أولاً: تعريف الصبر وبيان أركانه وأقسامه:

١ - تعريف الصبر:

قال أبو عبيد رَحِمَهُ اللهُ: "وأصل الصَّبْر: الحبس، وكل من حبس شيئاً فقد صبره" (١).
وقال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "الصَّبْر: حبس النفس عن الجزع. وقد صبر فلان عند المصيبة يصبر صبراً. وصبرته أنا: حبسته. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨].. " (٢).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "الصَّبْرُ: الإمساك في ضيق، يقال: صَبَرْتُ الدَّابَّةَ: حبستها بلا علف، وصَبَرْتُ فلاناً: خلفته خلفه لا خروج له منها.

والصَّبْرُ: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عملاً يقتضيان حبسها عنه، فالصَّبْر لفظ عامٌّ، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سُمِّي صبراً لا غير، ويضادُّه: الجزع، وإن كان في محاربة سُمِّي: شجاعة، ويضادُّه: الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سُمِّي: رحب الصدر، ويضادُّه: الضَّجْر، وإن كان في إمساك الكلام سُمِّي: كتماناً، ويضادُّه: المذل، وقد سَمَّى اللهُ عَزَّجَلَّ كلَّ ذلك: صبراً، ونَبَّه عليه بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: ٣٥]، ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وسُمِّي الصَّوْم: صبراً؛ لكونه كالنوع له.. " (٣).

(١) غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام، مادة: (صبر) (٢٥٤/١).

(٢) الصحاح، مادة: (صبر) (٧٠٦/٢).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (صبر) (ص: ٤٧٤)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٣٠٣/١١).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وفي أسماء الله عَزَّجَلَّ: " (الصبور) هو الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام، وهو من أبنية المبالغة، ومعناه: قريب من معنى: (الحليم)، والفرق بينهما أن المذنب لا يأمن العقوبة في صفة: (الصبور)، كما يأمنها في صفة: (الحليم).

ومنه الحديث: « لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عَزَّجَلَّ »^(١)، أي: أشد حلمًا عن فاعل ذلك، وترك المعاقبة عليه"^(٢). والمعنى: أن الله عَزَّجَلَّ واسع الحلم حتى على الكافر الذي ينسب إليه الولد والند، يمهل، ولا يعاجل عقوبته.

وقال أبو عبد الله المازري رَحِمَهُ اللهُ: " المراد بهذا أن الله جَلَّوَعَلَا واسع الحلم عن الكافر الذي يضيف إليه الولد. و(الصبور): منع النفس من التَّشَقُّي والانتقام، أو منعها من غير ذلك، فلما كان الامتناع نتيجة الصَّبْر عبر عن ترك الباري جَلَّوَعَلَا الانتقام بهذه العبارة.."^(٣).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: " و(الصبور) من أسماء الله عَزَّجَلَّ، وهو الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام، وهو بمعنى: (الحليم) في أسمائه أيضًا جَلَّوَعَلَا، إلا أن الفرق بينهما أن (الصبور) يخشى عاقبة أخذه^(٤)، و(الحليم) هو العفو الصفوح مع القدرة

(١) وقامه: « لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عَزَّجَلَّ؛ إنه يشرك به، ويجعل له الولد، ثم هو يعافهم ويرزقهم»، والحديث أخرجه البخاري [٦٠٩٩، ٧٣٧٨]، ومسلم [٢٨٠٤]، بالفاظ متقاربة.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (صبر) (٧/٣).

(٣) المعلم بفوائد مسلم (٣/٣٤٨).

(٤) أي: أخذه للعبد، بمعنى: تعجيل العقوبة، كما تقدم في كلام ابن الأثير: أن الفرق بينهما أن المذنب لا يأمن العقوبة في صفة: (الصبور)، كما يأمنها في صفة: (الحليم).

الدُّرَرُ وَالرُّسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً

الجزء الثاني

على الانتقام. قالوا: و(الصبور) قريب من معنى: (الحليم)، والحليم أبلغ في السلامة من العقوبة^(١).

قال ابن الأنباري رَحِمَهُ اللهُ: "إنما سمي الصوم صبراً؛ لأنه حَبَسَ للنفس عن المطاعم والمشارب والمناكح والشهوات"^(٢).

قال أبو عمر ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: "من الدليل على أن الصوم يسمى: (صبراً): قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من صام شهر الصبر، وثلاثة أيام من كل شهر فكأنه صام الدهر»^(٣)، يعني بشهر الصبر: شهر رمضان^(٤).

قال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللهُ: "الصبر: حبس النفس عن مكروهاها المختص بها. والمصابرة: حمل مكروه يكون بها وبغيرها؛ الأول كالمرض، والثاني كالجهاد"^(٥).

(١) انظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣٣٦/٨)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٤٦/١٧)، فتح الباري، لابن حجر (٣٦١/١٣)، الديباج (١٥٩/٦).

(٢) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (٢٠١/٢)، وانظر: معالم السنن، للخطابي (١٣٠/٢).

(٣) حديث: «صوم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر» أخرجه الطيالسي [٢٥١٥]، وإسحاق بن راهويه [١٢]، أخرجه أحمد [٧٥٧٧]، والبخاري [٩٥٢٢]، والنسائي في (السنن) [٢٤٠٨]، وفي (الكبرى) [٢٧٢٩]، والبيهقي في (الكبرى) [٨٤٣٧]، وفي (شعب الإيمان) [٣٢٩٦].

(٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر (٦٠/١٩-٦١)، وانظر: الاستذكار، (٣٧٦/٣).

(٥) أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي (٣٩٩/١).

الدرر السبيل إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

وقال ابن بطلال رَحِمَهُ اللهُ: "الصبر في لسان العرب: حبس النفس عن المطلوب حتى يدرك، ومنه نهيهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن صبر البهائم، يعني: أنه نهي عن حبسها على التمثيل بها، ورميها كما ترمى الأغراض، ومنه قولهم: صبر الحاكم يمين فلان، يعني: حبسه على حلفه"^(١).

وسئل عنه الجنيد رَحِمَهُ اللهُ عن الصبر فقال: هو تجرع المرارة من غير تعبس^(٢).

وقيل: الصبر: حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها^(٣).

وقيل: الصبر هو حبس النفس عما تتمنى من الشهوات، وعلى ما يشق عليها

من العبادات، وفيما يصعب عليها من النائبات.

وقيل: المراد به الصبر عن الدنيا ولذاتها الدنية، وعن المعاصي، وعلى التكليف

الشرعية، وفي المصيبات والمحن الكونية، فيخرج العبد عن عهدتها فتكون ضياء؛ لأن

بترك الصبر عليها يدخل في ظلمة المعاصي^(٤).

وقال إبراهيم الخواص رَحِمَهُ اللهُ: الصبر هو الثبات على الكتاب والسنة.

وقال ذو النون رَحِمَهُ اللهُ: الصبر التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع

غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة.

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطلال (٢٨٥/٩).

(٢) انظر: الأعمال الكاملة، للجنيد البغدادي (ص: ١٤٢)، وانظر: تسليية أهل المصائب (ص: ١٤٠).

(٣) ذكره ابن فورق في غير موضع من (تفسيره)، وانظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٥٧/٣)،

(١٠٤/٣)، الكشاف (٣٥٩/٤).

(٤) انظر: مرآة المفاتيح (٣٤٢/١).

الرسالة السببية للحياة

الجزء الثاني



وقال ابن عطاء رَحِمَهُ اللهُ: الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب^(١).
وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رَحِمَهُ اللهُ: "حقيقة الصبر أن لا يعترض على المقدور.
قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: فأما إظهار البلاء لا على وجه الشكوى فلا ينافي الصبر،
قال الله عَزَّجَلَّ في أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ [ص: ٤٤] مع أنه قال:
﴿أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] - والله أعلم-"^(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "الصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس
اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش"^(٣).
وفي (تفسير المنار): "قال الأستاذ الإمام رَحِمَهُ اللهُ: أمر بالصبر، وهو كما قال
المفسر: حبس النفس على ما تكره.

ونقول بعبارة أوضح: هو احتمال المكروه بنوع من الرضى والاختيار والتسليم؛
لأنه لو لم يكن كذلك لكان كما يقول العامة في أمثالهم... وذكر مثلاً بمعنى قول
الشاعر:

صبرت ولا والله ما لي طاقة على الصبر، ولكني صبرت على الرغم
والصبر الحقيقي المبني على التسليم يحصل بتذكر وعد الله عَزَّجَلَّ بالجزاء الحسن
للصابرين على أعمال البر التي تشق على النفس، وعن الشهوات المحرمة التي تصبو

(١) انظر: الرسالة القشيرية (١/٣٢٣)، شرح النووي على صحيح مسلم (٣/١٠١-١٠٢)، بصائر ذوي
التمييز (٣/٣٧٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/١٠٢).

(٣) انظر: مدارج السالكين (٢/١٥٥-١٥٦).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

إليها، وتذكر أن المصائب من فعل الله عَزَّوَجَلَّ، وتصرفه في خلقه؛ فيجب الخضوع له والتسليم لأمره، ومن عجيب أمر هذا الصبر أنه يقي الإنسان من الخسران متى حسن في كل شيء كما تفيد سورة (العصر)، ويؤيده الاختبار، وقد اشتهر أن (من صبر ظفر)^(١).

وقال المحاسبي رَحِمَهُ اللهُ: "وعلاوة الصبر: ألا تشكو من جميع المصائب إلى أحد من المخلوقين شيئاً"^(٢).

٢ - أركان الصبر:

لا يكون الصبر مثمرًا للخير إلا إذا كان قائمًا على أركان، منها: أن يكون الباعث على الصبر: الوصول إلى مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، من امتثال الأمر، وتحصيل الأجر، والرضا بما قضى وقدر.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أن أركان الصبر ثلاثة:

الأول: حبس النفس عن التسخط بالمقدور.

والثاني: حبس اللسان عن الشكوى.

والثالث: حبس الجوارح عن المعصية، كاللطم، وشق الثياب، وتنف الشعر، ونحوه.

(١) المنار (١/٢٤٨).

(٢) آداب النفوس (ص: ١٥١).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

قال: فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة، فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوبًا. فإن الله جَلَّ وَعَلَا لم يبتله؛ ليهلكه، وإنما ابتلاه؛ ليمتحن صبره وعبوديته؛ فإن الله عَزَّجَلَّ على العبد عبودية الضراء، وله عبودية عليه فيما يكره، كما له عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون.

والشأن في إعطاء العبودية في المكاره، ففيه تفاوت مراتب العباد، وبحسبه كانت منازلهم عند الله عَزَّجَلَّ، فالوضوء بالماء البارد في شدة الحر عبودية، ومباشرة زوجته الحسنة التي يحبها عبودية، ونفقته عليها وعلى عياله ونفسه عبودية. هذا والوضوء بالماء البارد في شدة البرد عبودية، وتركه المعصية التي اشتدت دواعي نفسه إليها من غير خوف من الناس عبودية، ونفقته في الضراء عبودية، ولكن فرق عظيم بين العبودتين.

فمن كان عبدًا لله في الحالتين، قائمًا بحقه في المكروه والمحبوب فذلك الذي تناول قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]..^(١).

٣ - أقسام الصبر ومقاماته:

الصبر أقسام - كما ذكر الحارث المحاسبي رَحِمَهُ اللهُ وغيره-، وهي:
الأول: الصبر على الطاعة.

(١) الوايل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٥-٦).

الرسالة السبب النجاة

الجزء الثاني



والثاني: الصبر عن المعصية.

والثالث: الصبر على كتمان المصيبة، قال: وهو من كنوز البر.

والرابع: الصبر على كتمان الطاعة.

قال: والصبر حبس النفس عن ذلك كله (١).

وذكر الشيخ القشيري رَحِمَهُ اللهُ أَنْ الصبر على أقسام:

"الأول: صبر على ما هو كسب للعبد.

والثاني: صبر على ما ليس بكسب.

فالصبر على المكتسب على قسمين:

الأول: صبر على ما أمر الله عَزَّجَلَّ به.

والثاني: صبر على ما نهى عنه.

وأما الصبر على ما ليس بمكتسب للعبد، فصبره على مقاساة ما يتصل به من

حكم الله عَزَّجَلَّ فيما يناله فيه مشقة... (٢).

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ): "باب الصبر عن محارم الله رَحِمَهُ اللهُ، وقوله

عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

«وجدنا خير عيشنا بالصبر».

(١) انظر: آداب النفوس (ص: ١٥١).

(٢) الرسالة القشيرية (ص: ٣٢٢).

الدرر السنية إلى سبيل النجاة

الجزء الثاني

وذكر حديث: «ما يكن عندي من خير لا أدخره عنكم، وإنه من يستعف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، ومن يستغن يغنه الله، ولن تعطوا عطاء خيراً وأوسع من الصبر»^(١).

وحديث: المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَصَلِّي حَتَّى تَرْمَ، أَوْ تَنْتَفِخَ قَدَمَاهُ، فَيَقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^(٢).

قال ابن بطلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أرفع الصابرين منزلة عند الله عَزَّ وَجَلَّ: من صبر عن محارم الله جَلَّ وَعَلَا، وصبر على العمل بطاعة الله جَلَّ وَعَلَا، ومن فعل ذلك فهو من خالص عباد الله عَزَّ وَجَلَّ وصفوته»^(٣).

قال ابن رجب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والصبر المحمود أنواع: منه: صبر على طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، ومنه: صبر عن معاصي الله عَزَّ وَجَلَّ، ومنه: صبر على أقدار الله عَزَّ وَجَلَّ. والصبر على الطاعات، وعن المحرمات أفضل من الصبر على الأقدار المؤلمة، صرَّح بذلك السلف، منهم: سعيد بن جبير، وميمون بن مهران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما»^(٤). وقال ميمون بن مهران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية.

(١) صحيح البخاري [١٤٦٩، ٦٤٧٠]، مسلم [١٠٥٣].

(٢) صحيح البخاري (٩٩/٨) [٦٤٧٠، ٦٤٧١].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطلال (١٨٢/١٠).

(٤) جامع العلوم والحكم (٢٥/٢).

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافعته

الجزء الثاني

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]. ثم قال: صبروا على ما أمروا به، وصبروا عما نھوا عنه. انتهى كلامه، فكأنه رَحِمَهُ اللهُ جعل الصبر عن المعصية داخلاً في قسم المأمور به (١).

وقد قيل في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، أي: الصابرين على الطاعة، والصابرين عن المعصية، وكذلك معنى: الصابرات. قال بعض أهل العلم: الصبر عن المعصية أفضل من الصبر على الطاعة، قال السمعاني رَحِمَهُ اللهُ: وعليه الأكثرون (٢).

وأخرج ابن أبي حاتم: "عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه: الصبر عن محارم الله عزَّ وجلَّ. وروي عن الحسن رَحِمَهُ اللهُ نحو: قول عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ" (٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "ورجحت طائفة الصبر على الطاعة؛ بناءً منها على أن فعل المأمور أفضل من ترك المنهيات، واحتجت على ذلك بنحو من عشرين حجة. ولا ريب أن فعل المأمورات إنما يتم بالصبر عليها، فإذا كان فعلها أفضل كان الصبر عليها أفضل، وفصل النزاع في ذلك: أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية: فالصبر على الطاعة العظيمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية،

(١) تسلية أهل المصائب (ص: ١٤٠)، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ٧١).

(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤/٢٨٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١/١٠٢)، (٥/١٥٣٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/٢٥١)،

الدر المنثور (١/١٥٩)، المجالسة وجواهر العلم (٣/٥٣٥).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة، وصبر العبد على الجهاد -مثلاً- أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الضحى.

وصوم يوم تطوعاً ونحوه، فهذا فصل النزاع في المسألة -والله أعلم-^(١).

وذكر الشيخ عبد الله الأنصاري الهروي رَحِمَهُ اللهُ أن الصبر على ثلاث درجات:

"الدرجة الأولى: الصبر عن المعصية: بمطاعة الوعيد؛ إبقاء على الإيمان، وحثراً

من الجزاء. وأحسن منها الصبر عن المعصية؛ حياء.

والدرجة الثانية: الصبر على الطاعة: بالمحافظة عليها دوماً، وبرعايتها إخلاصاً،

وبتحسينها علماً.

والدرجة الثالثة: الصبر في البلاء: بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج،

وتهوين البلية بعد أيادي المنن، وتذكر سوائف النعم.

وفي هذه الدرجات الثلاث من الصبر نزلت: ﴿أَصْبِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، يعني: في

البلاء ﴿وَصَابِرُوا﴾، يعني: عن المعصية، ﴿وَرَاطِبُوا﴾، يعني: على الطاعة...^(٢).

وقد فصل القول في ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في (المدارج)، وقال في بيان (الدرجة

الثانية): "هذا يدل على أن عنده: أن فعل الطاعة أكد من ترك المعصية، فيكون

الصبر عليها فوق الصبر عن ترك المعصية في الدرجة.

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٧٦)، وانظر: مدارج السالكين (٢/١٦٥).

(٢) منازل السائرين (ص: ٤٩-٥٠).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

وهذا هو الصواب - كما تقدم-؛ فإن ترك المعصية إنما كان لتكميل الطاعة. والنهي مقصود للأمر. فالمنهي عنه لما كان يضعف المأمور به وينقصه: نهي عنه؛ حماية، وصيانة لجانب الأمر، فجانب الأمر أقوى وأكد، وهو بمنزلة الصحة والحياة، والنهي بمنزلة الحمية التي تراد لحفظ الصحة وأسباب الحياة^(١).

فعلى هذا فالصبر على الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية، والصبر عن المعصية أفضل من الصبر على أقدار الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه لا اختيار للإنسان في دفع أقدار الله جَلَّوَعَلَا. ولكن اختلاف شدة الصبر في أنواع المعاصي وآحادها يكون باختلاف داعيه إلى تلك المعصية في قوتها وضعفها - كما حرَّر ذلك العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ -^(٢). وقد أوجز الإمام ابن جزى رَحِمَهُ اللهُ في (التفسير) ما تقدم ذكره، حيث قال: "والصابرون على أربعة أوجه:

أ. صبر على البلاء: وهو منع النفس من التسخيط، والهلع، والجزع.
ب. وصبر على النعم: وهو تقييدها بالشكر، وعدم الطغيان، وعدم التكبر بها.

ج. وصبر على الطاعة: بالمحافظة والدوام عليها.

د. وصبر عن المعاصي: بكف النفس عنها.

(١) مدارج السالكين (١٦٥/٢)، وانظر: بصائر ذوي التمييز (٣٨١/٣)، نجاح القاري لصحيح البخاري (٢٢٢٨١/١).

(٢) انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ٧١).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال: وفوق الصبر: التسليم، وهو ترك الاعتراض والتسخيظ ظاهراً، وترك الكراهة باطناً، وفوق التسليم: الرضا بالقضاء، وهو سرور النفس بفعل الله عَزَّوَجَلَّ، وهو صادر عن المحبة، وكل ما يفعل المحبوب محبوب^(١) وهو إيجاز من النفاسة بمكان.

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) في بيان مقامات الصبر: "قال بعضهم: الصبر تارة يكون لله عَزَّوَجَلَّ، وتارة يكون بالله:

فالأول: الصابر لأمر الله جَلَّوَعَلَا؛ طلباً لمرضاته، فيصبر على الطاعة، ويصبر عن المعصية.

والثاني: المفوض لله عَزَّوَجَلَّ، بأن يبرأ من الحول والقوة ويضيف ذلك إلى ربه جَلَّوَعَلَا. وزاد بعضهم: الصبر على الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الرضا بالمقدور.

فالصبر لله عَزَّوَجَلَّ يتعلق بإلهيته، ومحبته.

والصبر به يتعلق بمشيئته وإرادته.

والثالث: يرجع إلى القسمين الأولين عند التحقيق؛ فإنه لا يخرج عن الصبر على أحكامه الدينية، وهي أوامره ونواهيه، والصبر على ابتلائه وهو أحكامه الكونية -والله اعلم-^(٢).

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (١/١٠٣).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٠٥).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وقال بعض أهل العلم: إن الصبر يكون لله عَزَّوَجَلَّ، وفي الله، ومع الله، وعن الله، وباللله، وينظر ذلك في مظانه (١).

والصبر يكون من حيث الابتلاء به عند النعمة، وعند المصيبة.

والصبر على البلاء من حيث وقوعه على العبد والتأثر به صبران: صبر عند الغضب، وصبر عند المصيبة، كما قيل: ما تجرع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب، وجرعة صبر عند المصيبة؛ قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم. وهذا هو الشجاع الشديد الذي يصبر على المؤلم. والمؤلم إن كان مما يمكن دفعه أثار الغضب وإن كان مما لا يمكن دفعه أثار الحزن؛ ولهذا يحمر الوجه عند الغضب؛ لثوران الدم عند استشعار القدرة، ويصفر عند الحزن؛ لغور الدم عند استشعار العجز؛ ولهذا جمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث (الصحيح) الذي رواه مسلم: عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما تَعَدُّونَ الرَّقُوبَ فيكم؟» قال قلنا: الذي لا يولد له، قال: «ليس ذاك بِالرَّقُوبِ، ولكنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يُقَدِّمَ مِنْ وَلَدِهِ شيئاً» قال: «فما تعدون الصُّرْعَةَ فيكم؟»، قال قلنا: الذي لا يَصْرَعُهُ الرجال، قال: «ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب» (٢). فذكر ما يتضمن الصبر

(١) انظر: روح المعاني، للألوسي (٤٩٤/٧-٤٩٥)، وانظر: منازل السائرين (ص: ٥٠-٥١)، مدارج السالكين (١٦٧/٢)، بصائر ذوي التمييز (٣٨٢/٣).

(٢) صحيح مسلم [٢٦٠٨]. قال الإمام النووي: "أما (الرقوب) فبفتح الراء، وتخفيف القاف. و(الصرعة) بضم الصاد، وفتح الراء، وأصله في كلام العرب: الذي يصرع الناس كثيراً. وأصل الرقوب في كلام العرب: الذي لا يعييش له ولد. ومعنى الحديث: أنكم تعتقدون أن الرقوب الحزون هو: المصاب بموت =

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

عند المصيبة والصبر عند الغضب، قال الله عَزَّوَجَلَّ في المصيبة: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]. وقال جَلَّوَعَلَا في الغضب: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٥]. وهذا الجمع بين صبر المصيبة، وصبر الغضب نظير الجمع بين صبر النعمة، وصبر المصيبة، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَيْنٌ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ﴿١﴾ وَلَيْنٌ أَدْقْنَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿٣٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٩-١١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لِكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]"^(١).

وقد قسم ابن القيم رَحْمَةَ اللَّهِ الصبر باعتبار محله، وبحسب اختلاف قوته وضعفه، وباعتبار متعلقه، وباعتبار تعلق الأحكام الخمسة به.

فقال: هو باعتبار محلة ضربان: ضرب بدني، وضرب نفسي، وكل منهما نوعان اختياري واططاري.

=أولاده، وليس هو كذلك شرعاً، بل هو من لم يمت أحد من أولاده في حياته، فيحتسبه، يكتب له ثواب مصيبته به، وثواب صبره عليه، ويكون له فرطاً وسلماً، وكذلك تعتقدون أن الصرعة الممدوح القوي الفاضل هو: القوي الذي لا يصرعه الرجال، بل يصرعهم، وليس هو كذلك شرعاً، بل هو من يملك نفسه عند الغضب، فهذا هو الفاضل الممدوح الذي قلَّ من يقدر على التخلص بخلقه، ومشاركته في فضيلته، بخلاف الأول" شرح النووي على صحيح مسلم (١٦٢/١٦).

(١) مجموع الفتاوى (١٥٨/٢٨-١٦٠)، الاستقامة (٢٧١/٢-٢٧٢)، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص: ٤٢).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وله بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته لجيش الهوى ثلاثة أحوال:
إحداها: أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين فيرد جيش الهوى مغلولاً.
الحالة الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوى.
الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجلاً.

وهو باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها،
وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا
يتسخطها.

وهذه الثلاثة قد وقعت الإشارة إليها بآية: ﴿يَبْتَئِي أَقِيمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].
وهو ينقسم بهذا باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به إلى واجب، ومندوب،
ومحظور، ومكروه، ومباح:

فالصبر الواجب ثلاثة أنواع:

أحدها: الصبر عن المحرمات.

والثاني: الصبر على أداء الواجبات.

والثالث: الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها، كالأفراض، والفقر
وغيرها.

وأما الصبر المندوب فهو الصبر عن المكروهات، والصبر على المستحبات،
والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله.

الدرر السابغة إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني



وأما المحظور فأنواع:

أحدها: الصبر عن الطعام والشراب حتى يموت، وكذلك الصبر عن الميتة، والدم، ولحم الخنزير عند المخمصة حرام إذا خاف بتركه الموت.

ومن الصبر المحظور: صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه، من سبع، أو حيات، أو حريق، أو ماء، أو كافر يريد قتله، بخلاف استسلامه وصبره في الفتنة، وقتال المسلمين؛ فإنه مباح له، بل يستحب كما دلت عليه النصوص الكثيرة.

وأما الصبر المكروه فله أمثلة:

أحدها: أن يصبر عن الطعام، والشراب، واللبس، وجماع أهله، حتى يتضرر بذلك بدنه.

الثاني: صبره عن جماع زوجته إذا احتاجت إلى ذلك، ولم يتضرر به.

الثالث: صبره على المكروه.

الرابع: صبره عن فعل المستحب.

وأما الصبر المباح فهو الصبر عن كل فعل مستوى الطرفين، خير بين فعله وتركه والصبر عليه.

وبالجمله فالصبر على الواجب واجب، وعن الواجب حرام، والصبر عن الحرام واجب، وعليه حرام، والصبر على المستحب مستحب، وعنه مكروه، والصبر عن المكروه مستحب، وعليه مكروه، والصبر عن المباح مباح - والله أعلم -^(١).

(١) انظر ذلك مفصلاً في (عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين) (ص: ٢٢-٣٣).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في بيان مراتب الصابرين: "هي خمسة: صابر، ومصطبر، ومتصبر، وصبور، وصابر، فالصابر: أعمها، والمصطبر: المكتسب الصبر المليء به. والمتصبر: المتكلف حامل نفسه عليه. والصبور: العظيم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره. والصابر: الكثير الصبر. فهذا في القدر والكم، والذي قبله في الوصف والكيف.

قال: وقف رجل على الشبلي رَحِمَهُ اللهُ، فقال: أي صبر أشد على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله جَلَّ وَعَلَا، قال السائل: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله، فقال: لا، قال الشبلي: فإيش هو؟ قال: الصبر عن الله. فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف.

وقال الجريدي رَحِمَهُ اللهُ: الصبر أن لا يفرق بين حال النعمة وحال المحبة، مع سكون الخاطر فيهما. والتصبر: هو السكون مع البلاء، مع وجدان أثقال المحنة. قال أبو علي الدقاق رَحِمَهُ اللهُ: فاز الصابرون بعز الدارين؛ لأنهم نالوا من الله عَزَّجَلَّ معيته؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا مع الصابرين.

وقيل في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى، فالصبر دون المصابرة، والمصابرة دون المرابطة، والمرابطة مفاعلة من الربط، وهو الشد. وسمي المرابط مرابطاً؛ لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفرع. ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها: مرابط...^(١).

(١) مدارج السالكين (١٥٨/٢)، وانظر: عدة الصابرين (ص: ١٦).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني



وقيل: "إنه على ثلاث مقامات مرتبة بعضها فوق بعض:

فالأول: التصبر، وهو تحمل مشقة، وتجرع غصة، والثبات على ما يجري من الحكم. وهذا هو التصبر لله عَزَّوَجَلَّ، وهو صبر العوام.

والثاني: الصبر، وهو نوع سهولة تخفف عن المبتلى بعض الثقل، وتسهل عليه صعوبة المراد، وهو الصبر لله جَلَّوَعَلَا، وهو نوع سهولة، وهو صبر المرئيين.

والثالث: الاضطبار وهو التلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار المولى، وهذا هو الصبر على الله عَزَّوَجَلَّ، وهو صبر العارفين"^(١).

وللصبر على ما يصب المسلم من الشدة والبلاء والكوارث صور كثيرة، وقد ورد أن الصبر فيها من أسباب تكفير الذنوب، ورفع الدرجات.

وسأتي بيان ذلك في (أفضل الصبر).

ثانياً: بيان مكانة الصبر وأنه من أعظم المنجيات من سوء العاقبة:

١ - الصبر من أعظم المنجيات من الفتن وسوء العاقبة:

إن من أعظم المنجيات من الفتن وسوء العاقبة: صبر المؤمن على ما يقع عليه من البلاء في الحياة الدنيا.

فيحتاج المؤمن إلى الصبر في جميع أحواله، ولا سيما إذا نزل به ضرر، من نحو: فقر، أو مرض، أو محنة، أو بلية.

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم (ص: ٢٦٤-٢٦٥).

الدرر السابغة إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

وفي الحديث: عن صهيبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (١).

فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ» أي: خير له في المال وإن كان بعضه شرًا صورياً في الحال.

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "المؤمن هنا هو العالم بالله عَزَّجَلَّ، الراضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده، وذلك أن المؤمن المذكور إما أن يتلى بما يضره، أو بما يسره، فإن كان الأول صبر واحتسب ورضي، فحصل على خير الدنيا والآخرة وراحتهما، وإن كان الثاني، عرف نعمة الله عَزَّجَلَّ عليه، ومنته فيها، فشكرها وعمل بها، فحصل على نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

وقوله: «وليس ذلك إلا للمؤمن» أي: المؤمن الموصوف بما ذكرته؛ لأنه إن لم يكن كذلك لم يصبر على المصيبة، ولم يحتسبها، بل يتضجر ويتسخط، فينضاف إلى مصيبتة الدنيوية مصيبتة في دينه، وكذلك لا يعرف النعمة، ولا يقوم بحقها، ولا يشكرها، فتقلب النعمة نقمة والحسنة سيئة -نعوذ بالله من ذلك- (٢).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: لما حُضِرَتْ بِنْتُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَغِيرَةً، فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَمَّهَا إِلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا، فَقَضَتْ وَهِيَ

(١) صحيح مسلم [٢٩٩٩]، وقد تقدم.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٦٣٠).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

بين يدي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبكت أم أيمن، فقال لها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا أم أيمن، أتبكين ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندك»، فقالت: ما لي لا أبكي ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبكي، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني لست أبكي، ولكنها رحمة»، ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المؤمنُ بخيرٍ على كلِّ حالٍ تُنزعُ نفسه من بين جنبيه وهو يحمَدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ»^(١)، يعني: أن أحوال المؤمن كلها خير له، سواء كانت سرًا، أم ضراء؛ إذ يُثاب على كلِّ أحواله، ففي السراء يُثاب على شكره، وفي الضراء يُثاب على صبره.

وقوله: «تُنزعُ نفسه» ببناء الفعل للمفعول، أي: تخرج روحه. «من بين جنبيه، وهو يحمَدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ»، أي: فهو في هذه الحالة في ثواب عظيم، حيث رضي بقضاء ربِّه، ولم يجزع، بل حمده على ما أصابه، فوقَّاه أجره، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

والمصائبُ التي يُبتلى بها المؤمنُ في الدنيا من أسباب تكفير السيئات، ورفعة الدرجات، كما جاء في الحديث: عن أبي سعيد، وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ

(١) أخرجه أحمد [٢٧٠٤]، وهناد [١٣٢٨]، وعبد بن حميد [٥٩٣]، والنسائي [١٨٤٣]، واللفظ له. وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٢٩١٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٦٨٢]، والضياء [١٨١]، ورمز السيوطي في (جامعه) لحسنه.

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: «ما يصيب المؤمن من وَصَبٍ، ولا نَصَبٍ، ولا سَقَمٍ، ولا حَزَنٍ حَتَّى أَهَمَّ يُهُمُّهُ، إِلَّا كُفِّرَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ» (١).

وإنَّ من أوهن ما يتعلَّلُ به أهلُ الغواية في سلوكِ طريق الضَّلال: ما يقعُ على المرء من الابتلاءات، وتبدُّل الأحوال، وهو أمرٌ يشترك فيه جميعُ الناس في الدنيا؛ لأنها محلُّ ابتلاء. والله عَزَّجَلَّ يتلى العباد في الدنيا؛ ليميزَ الخبيث من الطيب، والصادق في دعواه من الكاذب، فَيُبْتَلَى العبدُ بما يقع عليه من ظَلَمٍ، وبالفقرِ والمرضِ، والخوفِ، وفقدِ الأحباب، يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

إنها سنَّةُ الله عَزَّجَلَّ في تمحيصِ المؤمنين، وإعدادِهِم؛ ليدخلوا الجنة، وليكونوا أهلاً لها.

فالمهتدون هم الموقفون إلى ما يَنْبَغِي عَمَلُهُ في أوقاتِ المَصَائِبِ والشَّدَائِدِ، فلا ينحرفون عن الجادَّة، ولكن يصبرون على ما أصابهم من البلاء، بل يزيدهم ما أصابهم من البلاء إيماناً واحتساباً؛ إذ لا يَسْتَحْوِذُ الجَزَعُ عَلَى نَفْسِهِمْ، ولا يَذْهَبُ البلاءُ بِالْأَمَلِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فَيَكُونُونَ من الفائزين بخيرِ الدنيا، وسعادةِ الآخرة.

(١) صحيح مسلم [٢٥٧٣].

الدرر والاسباب النجاة والوسائد الناجعة حيا طيبة نافعة

الجزء الثاني

وأما الذين لم يهتدوا فهم يجعلون المصائب سببا في اعتراضهم على الله عز وجل، أو كفرهم به، أو قول ما لا يليق، أو شكهم في صحة ما هم عليه من الإسلام، يقولون: لو كان هذا هو الدين المرصى لله عز وجل لما لحقنا عذاب ومصيبة، وهذا شأن أهل الضلال الذين حذرنا الله عز وجل أمرهم، وسلوك نهجهم، بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ أَحْسَنُهَا قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سِيبَةً يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ﴾ [الأعراف: ١٣١]، ويقول الله عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]، ويقول عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾ [التغابن: ١١].

قال ابن القيم رحمه الله: "جمع الله عز وجل لأهل هدايته بين الهدى، والرحمة، والصلاة عليهم، فقال جل وعلا: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ۝﴾ [البقرة: ١٥٧]."

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «نعم العدلان، ونعم العلاوة»^(١). و(العدلان) أي: المثان، قيل: العدلان: الصلوات والرحمة، والعلامة: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ۝﴾. وقيل: [العدلان]: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝﴾، والعلامة: التي يثاب عليها.

(١) صحيح البخاري (٨٣/٢).

الرسالة السبب النجاة

الجزء الثاني

فبالهدى خَلَصُوا من الضلال، وبالرحمة نَجَّوا من الشقاء والعذاب، وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القُرب والكرامة"^(١).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في (الفتح) والصبر سبب في حصول كل كمال، وإلى ذلك أشار صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «إن الصبر خير ما أعطيه العبد»"^(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "إن الصبر سبب في حصول كل كمال، فأكمل الخلق أصبرهم، ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن إلا من ضعف صبره؛ فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات، فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص.

فإذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل؛ ولهذا جاء في دعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي رواه الإمام أحمد، وابن حبان في (صحيحه): «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد»"^(٣)، ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١٧٢/٢-١٧٣).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٣٠٥/١١)، والحديث تقدم.

(٣) قال ابن رجب: "أخرجه الترمذي مختصراً، وابن حبان في (صحيحه)، والحاكم، وصححه، وله طرق متعددة عن شداد" مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (٣٣٥/١). وقال الحافظ العراقي: "أخرجه الترمذي، والنسائي، والحاكم وصححه من حديث: شداد بن أوس. قلت: بل هو منقطع وضعيف" المغني عن حمل الأسفار (ص: ٣٧٩). وأخرجه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط) عن البراء. قال الهيثمي (١٧٣/١٠): "فيه موسى بن مطير، وهو متروك".

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

لا تقوم إلا على ساق الصبر، فلو علم العبد الكنز الذي تحت هذه الأحرف الثلاثة، أعني: اسم (الصبر) لما تخلف عنه" (١).

وقال: "قيام عبودية الأمر والنهي والقدر على ساق الصبر لا تستوي إلا عليه، كما لا تستوي السنبلة إلا على ساقها" (٢).

وقال: "ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر" (٣).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "وأما أهل الإيمان: فيؤمنون بالقضاء والقدر، والأمر والنهي، ويفعلون المأمور، ويتركون المحذور، ويصبرون على المقدور، كما قال جَرَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، ف: (التقوى) تناول: فعل المأمور، وترك المحذور، و(الصبر) يتضمن: الصبر على المقدور. وهؤلاء إذا أصابتهم مصيبة في الأرض، أو في أنفسهم علموا أن ذلك في كتاب، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، فسلموا الأمر لله عَزَّوَجَلَّ، وصبروا على ما ابتلاهم به. وأما إذا جاء أمر الله عَزَّوَجَلَّ فإنهم يسارعون في الخيرات، ويسابقون إلى الطاعات، ويدعون ربهم رغبًا ورهبًا، ويجتنبون محارمه، ويحفظون حدوده، ويستغفرون الله عَزَّوَجَلَّ، ويتوبون إليه من تقصيرهم فيما أمر، وتعديهم لحدوده" (٤).

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٦٦).

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ٢٨-٢٩)، وانظر: فيض القدير (٤/٢٣٤).

(٣) الجواب الكافي (ص: ٩٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٢/٣٠٣-٣٠٤).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

وقال في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]: "إن (التقوى) تتضمن: فعل المأمور، وترك المحذور، و(الصبر) يتضمن: الصبر على المقدور. فالثلاثة ترجع إلى هذين الأصلين، والثلاثة في الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر، وهو طاعة الله عَزَّجَلَّ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (١).

وقد وَعَدَ اللهُ الصابرينَ بثلاثة أشياء كلِّ واحدٍ خيرٌ من الدنيا وما عليها، وهي: صلواته عَزَّجَلَّ عليهم، ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، وهذا مفهمٌ لحصر الهدى فيهم (٢)، فهم الموفقون المهتدون.

وأخبرَ أن الصَّبرَ من عزمِ الأمور: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقد نقدم أن أشد الناس بلاء الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم الأُمَّتُلُ فالأُمَّتُلُ (٣)، وقد صبروا على ما أصابهم من البلاء، وأخلصوا لله عَزَّجَلَّ في العبادة والدعاء، ففرح الله عَزَّجَلَّ عنهم ما أصابهم، فكانوا على العهد، صابرين على ما أصابهم، وشاكرين لله عَزَّجَلَّ في كل حال، وهم خيرة عباده الذين هداهم الله عَزَّجَلَّ، فكانوا قدوة لكل من اقتفى أثرهم، وسار على هديهم، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنُهُمْ أَقْتَدِ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقد أخبر الله عَزَّجَلَّ عن صبرهم وإخلاصهم في الدعاء، فقال عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَنُوحًا

(١) المصدر السابق (٤٥٦/١٠).

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١١٣).

(٣) سيأتي ذكر ما جاء في ذلك من الحديث وتخرجه.

الرسالة السببية النجاة والسبب الناجع لنا طيبة نافعنا

الجزء الثاني

إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَفَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَعْرِقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

وقال عن أيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، وزكريا عليهم السلام: ﴿* وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَآتَى مَسْنَى الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَعَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغَضَّبًا فَقَالَ إِنَّ لِي قُدْرَةً عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَذَكَرْنَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَوَجَّهَهُ وَابْنَهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْحَيَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٣-٩٠]. فهؤلاء الأنبياء عليهم السلام وصفهم الله عز وجل بالصبر، ووصفهم كذلك بالصلاح، وهو يشمل: صلاح القلب، بمعرفة الله عز وجل ومحبته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطبًا من ذكر الله عز وجل، وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله جل وعلا، وكفها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاحهم، أدخلهم الله في رحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ونوه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، فكفى بذلك شرفًا وفضلًا.

وقال الله عز وجل عن أيوب عليه السلام أيضًا: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَآتَى مَسْنَى الشَّيْطَانِ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٩١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٩٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٩٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا

الدرر والاسباب النجاة والسائل الناجع حيا طيبنا فعتا

الجزء الثاني

تَحَنُّتُ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا يَتَعَمَّ الْعَبْدُ إِنَّهُ وَأَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ [ص: ٤١-٤٤]، "يذكر الله عَزَّجَلَّ عن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ما كان أصابه من البلاء، في ماله، وولده، وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحراث شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية. فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، يقال: بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عَزَّجَلَّ، حتى عافه الجليس، وأُفْرِدَ في ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد يَخْنُو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره. ويقال: إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله، وقد كان نبي الله عَزَّجَلَّ أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك" (١).

وفي الحديث: عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وإن كان في دينه رِقَّةٌ ابْتُلِيَ على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة» (٢).

(١) تفسير ابن كثير (٣٥٩/٥).

(٢) أخرجه الطيالسي [٢١٢]، وأحمد [١٤٨١]، وعبد بن حميد [١٤٦]، والدارمي [٢٢٥]، وابن ماجه [٤٠٢٣]، والترمذي [٢٣٩٨]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه: البزار [١١٥٤]، والنسائي في (الكبرى) [٧٤٣٩]، وأبو يعلى [٨٣٠]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٢٢٠٢]، والشاشي [٦٧]، وابن حبان [٢٩٠٠]، والحاكم [١٢١]، وأبو نعيم في (الحلية) (٣٦٨/١)، والبيهقي في (الكبرى) [٦٥٣٤]، وفي (شعب الإيمان) [٩٣١٨]، والبعثي في (شرح السنة) [١٤٣٤]، والضياء [١٠٥٦]، وقال: "إسناده صحيح".

الرسالة إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: دخلت على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يُوعَكُ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَوْقَ اللَّحَافِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ قَالَ: «إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ، وَبُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُمْ مَنْ؟ قَالَ: «تُمْ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدَهُمْ إِلَّا الْعِبَاءَةَ يَجُوبُهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ، كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرِّخَاءِ»^(١).

وفي (الصحيحين): عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: دخلت على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجَلٌ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ»، فَقُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجَلٌ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذَى، مَرَضٌ فَمَا سِوَاهُ، إِلَّا حَطَّ اللَّهُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»^(٢).

وعن أبي عبيدة بن حذيفة، عن عمته فاطمة أنها قالت: أتينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعُودُهُ فِي نِسَاءٍ، فَإِذَا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ نَحْوَهُ يَقْطُرُ مَآؤُهُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ

(١) أخرجه ابن سعد (٢٠٨/٢)، ابن ماجه [٤٠٢٤]، واللفظ له، قال في (الزوائد) (١٨٨/٤): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وله شاهد من حديث: مصعب بن سعد عن أبيه، رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [١٠٤٥]، والحاكم [١١٩]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، قال الذهبي: "على شرط مسلم، وله شواهد كثيرة"، كما أخرجه: أبو نعيم في الحلية (٣٧٠/١).

(٢) صحيح البخاري [٥٦٤٨، ٥٦٦٠، ٥٦٦٧]، مسلم [٢٥٧١].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

مِنْ حَرِّ الْحُمَى، قلنا: يا رسول الله، لو دعوت الله فشفاك، فقال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ: بَلَاءُ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوهُمْ»^(١).

وعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلي في جسده، فقال له بعضهم: إِنَّا لَنَبْتَسُّ لَكَ لِمَا نَزَلَ فِيكَ. قال: فلا تَبْتَسُّ لِمَا تَرَى، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِذَنْبٍ وَمَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]^(٢).

وفي وصية لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَبْنَئِ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وقال جَدَّوَعَلَا: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

(١) أخرجه أحمد [٢٧٠٧٩]، واللفظ له، والنسائي في (الكبرى) [٧٤٥٤]، والحاكم [٨٢٣١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣١٩]. قال الهيثمي (٢/٢٩٢): "رواه أحمد، والطبراني في (الكبير) بنحوه، وقال فيه: «إنا معاشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء»، وإسناد أحمد حسن".

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في (المرض والكفارات) [٢٤٩]، وابن أبي حاتم في (التفسير) [١٨٤٨٢]، (٣٢٧٨/١٠)، والحاكم [٣٦٦٥]، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣٥٦]. قال السيوطي: "أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في (الكفارات)، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في (شعب الإيمان)" الدر المنثور (٣٥٥/٧).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

٢ - أفضل الصبر: ما كان عند الصدمة الأولى:

إن أفضل الصبر ما كان عند الصدمة الأولى، كما جاء في الحديث: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(١)، أي: إنما الصبر الشاق على النفس الذي يعظم الثواب عليه إنما هو عند هجوم المصيبة وحرارتها؛ فإنه يدل على قوة القلب، وتثبتته في مقام الصبر، وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذ ذاك. ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١٥٦) أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ^(١٥٧) [البقرة: ١٥٦-١٥٧]. جعل الله جَلَّ وَعَلَا هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب؛ لما جمعت من المعاني المباركة، فإنَّ قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ توحيد وإقرار بالعبودية والملك. وقوله: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١٥٦) إقرار بالهلاك في الدنيا، ثم البعث من القبور.

قال سعيد ابن جبیر رَحِمَهُ اللَّهُ: لم تعط هذه الكلمات نبيا قبل نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو عرفها يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال: يا أسفى على يوسف.

وروى مسلم: عن أمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١٥٦)، اللَّهُمَّ أَجْرِي فِي مَصِيبَتِي، وَأَخْلَفَ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»^(٢). فهذا تنبيه على قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(١٥٥) إما بالخلف، كما أخلف الله لأُمَّ

(١) صحيح البخاري [١٢٨٣، ١٣٠٢]، مسلم [٩٢٦].

(٢) صحيح مسلم [٩١٨].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه تزوجها لما مات أبو سلمة زوجها، وإما بالثواب الجزيل في الآخرة.

وقيل: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: وبشر الصابرين على الجهاد بالنصر.

والثاني: وبشر الصابرين على الطاعة بالجزاء.

والثالث: وبشر الصابرين على المصائب بالثواب. قال الإمام أبو الحسن

الماوردي رَحِمَهُ اللهُ: "وهو أشبه؛ لقوله من بعد: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا

إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، يعني: إذا أصابتهم مصيبة في نفس، أو أهل، أو مال

قالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾: أي: نفوسنا وأهلونا وأموالنا لله عَزَّجَلَّ، لا يظلمنا فيما يصنعه بنا.

﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يعني: بالبعث في ثواب المحسن، ومعاقة المسيء" (١).

وقد جاء في الحديث: عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: أرسلت ابنة النبي

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه إن ابناً لي قبض، فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إن لله ما

أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر، ولتحتسب» (٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "هذا الحديث من أعظم قواعد الإسلام، المشتملة

على مهمات كثيرة من أصول الدين وفروعه، والآداب، والصبر على النوازل كلِّها،

(١) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (١/٢١٠).

(٢) صحيح البخاري [١٢٨٤، ٦٦٠٢، ٧٤٤٨]، مسلم [٩٢٣].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

والهموم والأسقام وغير ذلك من الأعراض، ومعنى: «إن لله ما أخذ»: أن العالم كله ملك لله جَلَّ وَعَلَا، فلم يأخذ ما هو لكم، بل أخذ ما هو له عندكم في معنى العارية. ومعنى: «وله ما أعطى»: أن ما وهبه لكم ليس خارجاً عن ملكه، بل هو له جَلَّ وَعَلَا يفعل فيه ما يشاء. «وكل شيء عنده بأجلٍ مسمى»، فلا تجزعوا؛ فإن من قبضه قد انقضى أجله المسمى فمُحال تأخره أو تقدمه عنه، فإذا علمتم هذا كله، فاصبروا واحتسبوا ما نزل بكم - والله أعلم -^(١).

٣ - صور من الصبر على الشدة والبلاء والكوارث:

وللصبر على ما يصب المسلم من الشدة والبلاء والكوارث صور كثيرة، وقد ورد أن الصبر فيها من أسباب تكفير الذنوب، ورفع الدرجات، ومن هذه الصور:

أ. الصبر على موت الولد:

وقد ورد في فضل من صبر على فقْد ولده أو صفيه جملة من الأحاديث: فمن ذلك: ما رواه معاوية بن قُرَّة، عن أبيه، قال: كان نبي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا جلس يجلس إليه نفر من أصحابه، وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره، فيقعده بين يديه، فهلك فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لذكر ابنه، فحزن عليه، ففقده النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «مالي لا أرى فلاناً؟»، قالوا: يا رسول الله، بُنِيُّهُ الذي رأيته هلك،

(١) الأذكار (ص: ١٥٠)، شرح النووي على صحيح مسلم (٦/٢٢٥).

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

فلقيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسأله عن بُنَيِّهِ، فأخبره أنه هلك، فعزَّاه عليه، ثم قال: «أَيُّمَا كَانَ أَحَبُّ إِلَيْكَ: أَنْ تَمْتَعَ بِهِ عُمُرُكَ، أَوْ لَا تَأْتِيَ غَدًا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ يَفْتَحُهُ لَكَ»، قال: يَا نَبِيَّ اللهِ، بَلْ يَسْبِقُنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُهَا لِي هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ، قال: «فَذَاكَ لَكَ»، فقال رجل يا رسول الله أله خاصة أم لكلنا؟ قال: «بل لكلكم»^(١).

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النِّسَاءَ قُلْنَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اجْعَلْ لَنَا يَوْمًا فَوْعَظْهُنَّ، وَقَالَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَ لَهَا ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ^(٢)، كَانُوا حِجَابًا مِنَ النَّارِ»، ...

(١) أخرجه أحمد [١٥٥٩٥]، والنسائي [٢٠٨٨]، وابن حبان [٢٩٤٧]، والطبراني [٦٦]، والحاكم [١٤١٧]، والبيهقي [٧٠٨٩]. في بعضها دون: «فقال رجل..». قال الإمام النووي: "أخرجه النسائي بإسناد حسن" الأذكار (ص: ١٥٠). قال الحافظ ابن حجر: "سنده على شرط الصحيح، وقد صححه ابن حبان، والحاكم" فتح الباري (٢٤٣/١١).

(٢) وفي رواية عند مسلم [٢٦٣٢] زيادة: «فتحتسبه». ونصه: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِنِسَاءٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: «لَا يَمُوتُ لِإِحْدَاكُنَّ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَحْتَسِبُهُ، إِلَّا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ»، فقالت امرأة منهن: أو اثنين يا رسول الله؟ قال: «أو اثنين». قال في (المرقاة) (١٢٣٦/٣): "قوله: «فتحتسبه» بالرفع، لا غير. أي: تطلب إحداكن بموته ثوابًا عند الله عَزَّوَجَلَّ بالصبر عليه، وتعتده فيما يدخر لها في الآخرة". قال الطيبي: "أي: فتصبر راجية لرحمة الله وغفرانه". شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٤٢٠/٤). قال العراقي: "وأما التقييد في رواية مسلم من رواية: سهيل بن أبي صالح عن أبيه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقوله: «فتحتسبه» فلعله إنما ذكر ذلك للنساء؛ لقلة الصبر عندهن، وكثرة الجزع فيهن، مع إظهار التفجيع بفعل ما لا يجوز من كثير منهن، فردعهن عن ذلك بهذا الكلام؛ ليحصل انكفافهن عما يتعاطينه من الأمور المحرمة. فكان فائدة هذا التقييد: ارتداعهن =

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

... قالت امرأة: واثنان؟ قال: «واثنان»^(١).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يموت مسلمٍ ثلاثة من الولد، فيلج النار، إلا تحلة القسم»^(٢).

وعن أبي النضر السلمي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم، إلا كانوا له جنة من النار»^(٣).

واقوله «فيحتسبهم» بيان لصفة من يؤجر بمصابه في ولده وهو أن يحتسبهم، وأما من لم يحتسبهم ولم يرض بأمر الله عَزَّجَلَّ فيهم فإنه غير داخل في هذا الوجه^(٤).

وعن عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت له: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس فيه انتقاص ولا وهم. قال: سمعته يقول: «من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله عَزَّجَلَّ الجنة برحمته إياهم، ومن

= عن ذلك لا تخصيص الحكم به. وقد عرف في الأصول أن شرط العمل بالمفهوم أن لا يظهر له

فائدة سوى تخصيص الحكم به" طرح التثريب في شرح التقريب (٢٤٨/٣ - ٢٤٩).

(١) صحيح البخاري [١٢٤٩، ١٠١، ٧٣١٠]، مسلم [٢٦٣٣].

(٢) صحيح البخاري [١٢٥١، ٦٦٥٦]، مسلم [٢٦٣٢]. ومعنى: «تحله القسم» أي: يرد عليها وروداً

سريعاً بقدر يبرئ الله عَزَّجَلَّ به قسمه في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مرم: ٧١].

(٣) أخرجه الإمام مالك في (الموطأ) [٨٠٦]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢١٦٦]. قال ابن عبد

البر: "هذا الحديث قد اضطرب فيه رواية الموطأ، وبين ذلك الاضطراب، ثم قال: وقد روي معنى هذا

الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وجوه -والحمد لله- من حديث: أبي هريرة، وأبي سعيد، ومعاذ بن

جبل، وغيرهم في كتاب: ابن أبي شيبة، وغيره" الاستذكار (٧٨ / ٣).

(٤) المنتقى شرح الموطأ، للباقي (٢٨/٢).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

أنفق زوجين في سبيل الله فإن للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أي باب شاء منها
الجنة» (١).

وقد ورد هذا المعنى في أحاديث متعددة، وعن غير واحد من الصحابة
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (٢).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مات ابن لأبي طلحة، من أم سليم، فقالت لأهلها: لا
تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه، قال: فجاء فقربت إليه عشاء، فأكل
وشرب، فقال: ثم تصنعت له أحسن ما كان تصنع قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأت
أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل
بيت، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك، قال:
فغضب، وقال: تركتني حتى تلتطخت، ثم أخبرني بابني فانطلق حتى أتى رسول الله
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبره بما كان، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بارك الله لكما في غابر
ليلتكما» (٣).

(١) أحمد [١٩٤٣٧، ١٩٤٣٨]، والطبراني في (الأوسط) [٩٠٨٠]، و(الصغير) [١٠٩٥]، قال المنذري
(٥٥/٣): "رواه أحمد بإسناد حسن" قال الهيثمي: "رواه أحمد، والطبراني في الكبير باختصار النفقة،
إلا أنه قال: «أدخله الله برحمته هو وإياهم الجنة» وإسناده حسن".

(٢) انظر هذه الروايات في (الترغيب والترهيب)، للمنذري.

(٣) صحيح مسلم [٢١٤٤].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

ب. حمد الله عزَّوجلَّ عند فقد الولد:

* وقد ورد في فضل حمد الله عزَّوجلَّ عند فقد الولد: ما رواه أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة، وسموه: بيت الحمد»^(١).

ج. الصبر والاحتساب على فقد الصفي:

* وقد ورد فيمن صبر على فقد صفيِّه واحتسبه: ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يقول الله عزَّوجلَّ: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء، إذا قَبِضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةَ»^(٢).

د. الصبر على تربية البنات، والإحسان إليهن:

* وقد ورد في الصبر على تربية البنات، والإحسان إليهن: ما رواه أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالت النساء للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوما من نفسك، فوعدهن يوما لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن:

(١) أخرجه أحمد [١٩٧٢٥]، والترمذي [١٠٢١]، واللفظ له، وقال: "حسن غريب"، كما أخرجه ابن حبان [٢٩٤٨]، وابن السني في (عمل اليوم والليلة) [٥٨١]، والبيهقي في (الكبرى) [٧١٤٦].
(٢) صحيح البخاري [٦٤٢٤]. وصفيه، أي: المصافي له، كالولد والأخ وكل من يحبه الإنسان ويتعلق به.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

«ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها، إلا كان لها حجاباً من النار»، فقالت امرأة: واثنين؟ فقال: «واثنين»^(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت، فخرجت، فدخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا، فأخبرته فقال: «من ابنتي من البنات بشيء، فأحسن إليهن كُنَّ له سِتْرًا من النَّار»^(٢).

وفي رواية: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: جاءني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتها، فَشَقَّتْ التمرة، التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صَنَعَتْ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لها بها الْجَنَّةَ، أو أَعْتَقَهَا بها من النَّار»^(٣).

وعن أبي عُسَيْبَةَ المَعَاذِرِيِّ قال: سمعت عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من كانت -وقال مرّة: - من كان له ثلاث

(١) صحيح البخاري [١٠١، ١٢٤٩، ٧٣١٠]، مسلم [٢٦٣٣].

(٢) صحيح البخاري [١٤١٨، ٥٩٩٥]، مسلم [٢٦٢٩].

(٣) صحيح مسلم [٢٦٣٠].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

بنات، فصبر عليهنّ، وأطعمهنّ، وسقاهنّ، وكساهنّ من جدته كُنّ له حجاباً من النار»^(١).

هـ. الصبر على فقد البصر:

جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيتيه فصبر، عوضته منهما الجنة» يريد: عينيه، تابعه أشعث بن جابر، وأبو ظلال هلال، عن أنس، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢). وفي رواية: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قال ربكم عزَّجَلَّ: من أذهب كرميته، ثم صبر واحتسب، كان ثوابه الجنة»^(٣). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رفعه إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يقول الله عزَّجَلَّ: من أذهب حبيتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثواباً دون الجنة»^(٤).

(١) أخرجه أحمد [١٧٤٠٣]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٧٦]، وابن ماجه [٣٦٦٩]، قال البوصيري (١٠١/٤): "هذا إسناد صحيح". كما أخرجه أبو يعلى [١٧٦٤]، والرويانى [٢٢٩]، والطبرانى في (الكبير) [٨٢٦]، والبيهقى في (شعب الإيمان) [٨٣١٧]. قوله: «من جدته» - بكسر الجيم - أي: غناه. ويقال: وجد يجد جدة: إذا استغنى "حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٣٩١/٢).

(٢) صحيح البخاري [٥٦٥٣].

(٣) أخرجه أحمد [١٤٠٢١]، وأبو يعلى [٤٢٨٥].

(٤) أخرجه أحمد [٧٥٩٧]، والدارمي [٢٨٣٧]، والترمذي [٢٤٠١]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه البزار [٩١٨٤]. وهو عند هناد في (الزهد) [٣٨٠]، والنسائي في (الكبرى) [١١٣٨٢]، بلفظ: «من أذهب كرميته» الحديث.

الإرشاد إلى سبب النجاة

الجزء الثاني

وعن العرياض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني عن ربه جَلَّ وَعَلَا قال:
«إذا سلبت من عبدي كرميته، وهو بهما ضنين لم أرض له ثوابًا دون الجنة إذا
حمدني عليهما»^(١).

ووجه هذا الجزاء: أن فاقدتهما حبيس، فالدنيا سجنه حتى يدخل الجنة.
تسمى العينان بالحبيبتين؛ لما فيهما من جلب المسار، ودفع المضار، وتوقي
الأخطار.

وقيل: سماهما كرميتين؛ لكثرة منافعهما دينا ودنيا، ولأنهما أحب أعضاء الإنسان
إليه؛ لما يحصل له بفقدتهما من الأسف على فوت رؤية ما يريد رؤيته من خير فيسر
به، أو شر فيجتنبه^(٢).

وقوله: «ثم صبر واحتسب» بأن يستحضر ما وعد به الصابرون، ويعمل به.
قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "و«ثم» للتراخي في الرتبة؛ لأن ابتلاء الله عَزَّ وَجَلَّ العبد نعمة،
وصبره عليه مقتض لتضاعف تلك النعمة لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّبُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ
بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]"^(٣).

(١) أخرجه ابن حبان [٢٩٣١]، والطبراني في (الكبير) [٦٣٤]، وفي (الشاميين) [١٥٩٣]. وللحديث
طريق آخر يقويه.

(٢) انظر: فيض القدير (٤/٤٨٨)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٣٤٣)، فتح الباري، لابن
حجر (١٠/١١٦)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٨/٣٤٦).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٣٤٣)، فيض القدير (٤/٤٨٨).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "قوله: «عوضته منهما الجنة»، وهذا أعظم العوض؛ لأن الالتذاذ بالبصر يفنى بفناء الدنيا، والالتذاذ بالجنة باق ببقائها، وهو شامل لكل من وقع له ذلك بالشرط المذكور. ووقع في حديث: أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيه قيد آخر أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) بلفظ: «إذا أخذت كريمتيك، فصبرت عند الصدمة [الأولى] واحتسبت..»^(١) فأشار إلى أن الصبر النافع هو ما يكون في أول وقوع البلاء، فيفوض، ويسلم، وإلا فمتى تضجر وتقلق في أول وهلة ثم يئس يئس فيصبر لا يكون حصلاً المقصود»^(٢).

وقال ابن بطلال رَحِمَهُ اللهُ: "هذا الحديث أيضاً حجة في أن الصبر على البلاء ثوابه الجنة. قال: فمن ابتلى من المؤمنين بذهاب بصره في الدنيا فلم يفعل الله عز وجل ذلك به لسخط منه عليه، وإنما أراد جل وعلا الإحسان إليه، إما بدفع مكروهه عنه يكون سببه نظر عينيه، لا صبر له على عقابه في الآخرة، أو ليكفر عنه ذنوباً سلفت لا يكفرها عنه إلا بأخذ أعظم جوارحه في الدنيا؛ ليلقى ربه جل وعلا طاهراً من ذنوبه، أو ليلبغ به من الأجر إلى درجة لم يكن يبلغها بعمله وكذلك جميع أنواع البلاء، فقد أخبر عليه السلام أن أشد الناس بلاء الأنبياء عليهم السلام، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى

(١) أخرجه أحمد [٢٢٢٢٨]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٥٣٥]، والطبراني في (الشاميين) [٢٢٧٧]، قال الهيثمي (٣٠٨/٢): "رواه ابن ماجه باختصار. رواه أحمد، والطبراني في (الكبير)، وفيه: إسماعيل بن عياش، وفيه كلام". وحديث ابن ماجه بلفظ: «ابن آدم إن صبرت واحتسبت عند الصدمة الأولى، لم أرض لك ثواباً دون الجنة»، قال البوصيري (٤٩/٢): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات".
(٢) فتح الباري (١٠/١١٦).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

الرجل على حسب دينه. وجاء عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن أهل العافية في الدنيا يودون لو أن لحومهم قرضت بالمقاريض في الدنيا؛ لما يرون من ثواب الله عَزَّجَلَّ لأهل البلاء»^(١). فمن ابتلى بذهاب بصره أو بفقد جوارحه من جوارحه فليتلق ذلك بالصبر، والشكر، والاحتساب، وليرض باختبار الله عَزَّجَلَّ له ذلك؛ ليحصل على أفضل العوضين، وأعظم النعمتين، وهي: الجنة التي من صار إليها فقد رحمت تجارتها، وكرمت صفقته، ولم يضره ما لقي من شدة البلاء فيما قاده إليها"^(٢).

وللشيخ ملا القاري الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ كتاب بعنوان: (تسليمة الأعمى عن بلية العمى)، ذكر فيه الأحاديث الواردة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثواب أهل البلاء عامة، وثواب بلية العمى خاصة.

و. الصبر على الصرع:

جاء في الحديث: عن عطاء بن أبي رباح، قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) أخرجه الترمذي [٢٤٠٢]، وقال: "غريب"، وأخرجه أيضاً: ابن أبي الدنيا في (المرض والكفارات) [٢٠٢]، والطبراني في (الصغير) [٢٤١]، والبيهقي في (الكبرى) [٦٥٥٣]، وفي (شعب الإيمان) [٩٤٥١]. قال المنذري (٤/١٤٢): "رواه الترمذي، وابن أبي الدنيا، من رواية: عبد الرحمن بن مغراء، وبقيته رواه ثقات، وقال الترمذي: حديث غريب، ورواه الطبراني في (الكبير): عن ابن مسعود رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ موقوفاً عليه، وفيه رجل لم يسم". وقال المناوي: "إسناده حسن" فيض القدير (٥/٣٩٩).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/٣٧٧-٣٧٨).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

فقلت: إني أُصرعُ، وَإِنِّي أَتَكشَّفُ، فادع الله لي، قال: «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك» فقلت: أصبر، فقلت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها (١). زاد البخاري رَحْمَةُ اللَّهِ: حدثنا محمد، أخبرنا مخلد، عن ابن جريج، أخبرني عطاء رَحْمَةُ اللَّهِ: «أنه رأى أم زفر تلك امرأة طويلة سوداء، على ستر الكعبة».

وقوله: «فادع الله أن لا أتكشف» - بالنون وبزيادة كلمة: «لي»، وفيه: فضيلة ما يترتب على الصبر على الصرع (٢).

قال ابن بطلال رَحْمَةُ اللَّهِ: "فيه فضل الصرع، وفيه: أن اختيار البلاء والصبر عليه يورث الجنة، وأن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة لمن علم من نفسه أنه يطبق التماسدي على الشدة، ولا يضعف عن التزامها" (٣).

وقال أبو العباس القرطبي رَحْمَةُ اللَّهِ: "وقوله للمرأة التي كانت تصرع: «إن شئت صبرت ولك الجنة» يشهد لما قلناه من أن الأجور على الأمراض، والمصائب لا تحصل إلا لمن صبر واحتسب" (٤).

(١) صحيح البخاري [٥٦٥٢]، مسلم [٢٥٧٦].

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢١٠/٢١).

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطلال (٣٧٦/٩).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥٤٩/٦).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

ز. الصبر على الحمى:

جاء في الحديث: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على أُمِّ السَّائِبِ أو أُمِّ الْمُسَيَّبِ فقال: «ما لك؟ يا أُمَّ السَّائِبِ أو يا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزْفِرِينَ؟» قالت: الحُمَّى، لا بارك الله فيها، فقال: «لا تَسِي الحُمَّى؛ فَإِنَّمَا تُذْهَبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كَمَا يُذْهَبُ الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ» (١).

وروي عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: ذُكِرَتِ الحُمَّى عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَبَّهَا رَجُلٌ، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَسَبَّهَا؛ فَإِنَّمَا تَنْفِي الذُّنُوبَ، كَمَا تَنْفِي النَّارُ، خَبَثَ الْحَدِيدِ» (٢).

وقوله: «تزفرين» ذكر كلُّ من القاضي عياض، والإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُمَا اللهُ أن جميع رواة مسلم روى هذه الكلمة بالزاي والفاء فيهما بالزاي المعجمة. ويقال: بضم التاء وفتحها من الزفرة، وهي: صوت حفيف الريح. يقال: زفرت الريح الحشيش، أي: حركته، وزفرت النعام في طيرانه: أي: حرك جناحيه. وقد رواه بعض الرواة بالقاف والراء.

قال أبو مروان بن سراج: بالقاف والفاء معًا بمعنى واحد صحيحان، بمعنى: ترعدين (٣).

(١) صحيح مسلم [٢٥٧٥].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [١٠٨١٠]، وابن ماجه [٣٤٦٩]، قال البوصيري (٤/٦٠): "هذا إسناد ضعيف؛ لضعف موسى بن عبيدة".

(٣) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٤٤/٨)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥٤٨/٦).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "ووقع في بعض نسخ بلادنا بالراء والفاء، ورواه بعضهم في غير مسلم بالراء والقاف، معناه: تتحركين حركة شديدة، أي: ترعدين"^(١). وقال الإمام أبي العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: قوله: "ورواية الفاء أعرف رواية، وأصح معنى، وذلك أن الحمى تكون معها حركة ضعيفة، وحس صوت يشبه الزفرة التي هي حركة الريح وصوتها في الشجر.

وقالوا: ريح زفافة وززرف.

وأما الرقرة - بالراء والقاف - في التلألؤ واللمعان، ومنه: رقراق السراب، ورقراق الماء: ما ظهر من لمعانه، غير أنه لا يظهر لمعانه إلا إذا تحرك وجاء وذهب؛ فلهذا حسن أن يقال: مكان الرقراق، لكن تفارق الزفرة الرقرة بأن الزفرة معها صوت، وليس ذلك مع الرقرة، فانفصلا.

و«قوله: لا تسبي الحمى» مع أنها لم تصرح بسب الحمى، وإنما دعت عليها بألا يبارك فيها، غير أن مثل هذا الدعاء تضمن تنقيص المدعو عليه وذمه، فصار ذلك كالتصريح بالذم والسب، ففيه ما يدل على أن التعريض والتضمين كالتصريح في الدلالة، فيحد كل من يفهم عنه القذف من لفظه؛ وإن لم يصرح به، وهو مذهب مالك رَحِمَهُ اللهُ - كما تقدم-.

وقوله: «فإنها تذهب خطايا بني آدم» هذا تعليل لمنع سب الحمى؛ لما يكون عنها من الثواب، فيتعدى ذلك لكل مشقة، أو شدة يرتجى عليها ثواب، فلا ينبغي

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣١/١٦).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

أن يذم شيء من ذلك، ولا يسب. وحكمة ذلك: أن سب ذلك إنما يصدر في الغالب عن الضجر، وضعف الصبر، أو عدمه، وربما يفضي بصاحبه إلى السخط المحرم، مع أنه لا يفيد ذلك فائدة، ولا يخفف ألماً^(١).

ح. الصبر على ما يصيب العبد من مرض، ويكون سبباً في موته:

ومن ذلك: من يموت بسبب الطاعون، والمرأة التي تموت بجمع، والنفساء، والمبطون، وصاحب ذات الجنب... إلى غير ذلك مما ما سيأتيك بيانه مفصلاً في (أسباب الوقاية من عذاب البرزخ).

ط. الصبر على الظلم:

لا يخفى أن الظلم من أعظم ما يقع على العبد من البلاء، فالصبر على الظلم والاحتساب من أجل ما يكفر عن المظلوم السيئات، ويرفع الدرجات؛ ولذلك كان المظلوم مستجاب الدعاء - كما تقدم بيان ذلك مفصلاً -.

وفي الحديث: «ما يصيب المسلم، من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ، ولا هَمٍّ ولا حزن ولا أذى ولا غَمٍّ، حتى الشوكة يشاكها، إلا كَفَّرَ اللهُ بها من خطاياها»^(٢)، وسيأتي.

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٥٤٨-٥٤٩).

(٢) صحيح البخاري [٥٦٤١]. و«نصب»: تعب، و«وصب»: مرض.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمَفْلَسُ؟»
قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إِنَّ الْمَفْلَسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ
الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا،
وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ
فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرَحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ
فِي النَّارِ» (١).

ي. الصبر على مشاقِّ التكليف:

ويكون الصَّبْرُ كذلك على مشاقِّ التَّكْلِيفِ - كما تقدَّم -، ويكون على أداء
الفرائض، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَأَصْطَبِرْ
لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا
تَحْنُ نَرُزُقُكَ وَالْعَلَقَبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]، ويكون كذلك على ترك المعاصي، وخاصة
مع كثرة الدَّوَاعِي، وغلبة الشَّهَوَاتِ، وقوَّة البواعث على متابعة الهوى، فملازمة العبادة
حينئذٍ أشد.

وقد قيل: الصَّبْرُ صبران: صبر عن معصية الله عَزَّ وَجَلَّ، فهذا مجاهد، وصبر على
طاعة الله جَلَّ وَعَلَا، فهذا عابد. فإذا صبر عن معصية الله، وصبر على طاعة الله أورثه الله

(١) صحيح مسلم [٢٥٨١].

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

الرضا بقضائه، وعلامة الرضا: سكون القلب بما ورد على النفس من المكروهات والمحجوبات^(١).

٤ - الصبر من خصال الإيمان وشعبه:

والصبر من خصال الإيمان، وشعبه العظيمة... - كما تقدم في بيان (شعب الإيمان) -، وقد جاء في الحديث: «أفضلُ الإيمان: الصَّبْرُ والسَّمَاحَةُ»^(٢). قال أحمد رَحْمَةُ اللَّهِ: "يعني: بالصبر: الصبر عن محارم الله عَزَّوَجَلَّ، و(السماحة): أن يسمح بأداء ما افترض الله جَلَّ وَعَلَا"^(٣).

وقد فسَّرَ الحسن البصري رَحْمَةُ اللَّهِ الصبر والسماحة، فقال هو الصبر عن محارم الله عَزَّوَجَلَّ، والسماحة بأداء فرائض الله عَزَّوَجَلَّ^(٤).

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٧٤/٢-١٧٦).

(٢) قال الحافظ العراقي: "أخرجه أبو يعلى، وابن حبان في (الضعفاء) بلفظ: سئل عن الإيمان. وفيه: يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفه الجمهور، ورواه أحمد من حديث: عائشة، وعمرو بن عنبسة بلفظ: ما الإيمان؟ قال: «الصبر والسماحة» وفيه: شهر بن حوشب. ورواه البيهقي في (الزهد) بلفظ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «الصبر والسماحة وحسن الخلق» وإسناده صحيح" المغني عن حمل الأسفار (ص: ١١٤٨)، وانظر: فيض القدير (٢/٢٩).

(٣) شعب الإيمان (٣٧٤/١٠) [٧٦٥٠].

(٤) شعب الإيمان (١٨٩/١٢) [٩٢٥٩]، جامع العلوم والحكم (١٢١/١)، المجالسة وجواهر العلم (٥٣٥/٣).

الدرر السنية إلى سبيل النجاة

الجزء الثاني

وقيل: «السماحة»: السخاوة بالزهد في الدنيا، والإحسان والكرم للفقراء.

وقيل: الصبر على المفقود، والسماحة بالموجود (١).

وقال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ: الصَّبْرُ

وَالسَّمَاحَةُ»: "فسم الإيمان بهما؛ لأن الأول يدل على الترك، والثاني على الفعل" (٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان؛ ولذلك

كان أرفعها وأعلاها، وهو فوق الرضا، وهو يتضمن: الصبر من غير عكس، ويتضمن:

التوكل، والإنابة، والحب، والإخبات، والخشوع، والرجاء، فجميع المقامات مندرجة

فيه، لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له؛ ولهذا كان

الإيمان نصفين: نصف صبر، ونصف شكر، والصبر داخل في الشكر، فرجع الإيمان

كله شكراً، والشاكرون هم أقل العباد، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ

الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣] (٣).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "واعلم أن الصبر ملاك الإيمان، وذلك بأن التقوى

أفضل البر، والتقوى بالصبر، والصبر مقام من مقامات الدين، ومنزل من منازل

السالكين، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور: (معارف، وأحوال،

وأعمال)، فالمعارف هي الأصول، وهي تورث الأحوال، والأحوال تثمر الأعمال،

فالمعارف كالأشجار، والأحوال كالأغصان، والأعمال كالثمار، وهذا مطرد في جميع

(١) مرقة المفاتيح (١/١١٩).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢/٥٠٠).

(٣) مدارج السالكين (١/١٥٧).

المرشد السبيل النجاة والسبيل الناجح حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

منازل السالكين إلى الله عَزَّوَجَلَّ، واسم: (الإيمان) تارة يختص بالمعارف، وتارة يطلق على الكل، وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة، وبجالة قائمة، فالصبر على التحقيق عبارة عنهما.

ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم؛ فإن الصبر خاصة الإنس، ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة، أما في البهائم؛ فلنقصانها، وأما في الملائكة؛ فلكمالها.

وبيانه: أن البهائم سلطت عليها الشهوات، وصارت مسخرة لها، فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها، حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة: صبراً.

وأما الملائكة فإنهم جردوا للأشواق إلى الحضرة الربوبية، والابتهاج بدرجة القرب منها، ولم يسلط عليها شهوة صادرة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر، وأما الإنسان فقد تعارض فيه الأمران، فاحتاج إلى ثبات جند في مقابلة جند آخر، قام للقتال بينهما؛ لتضاربهما، وذلك هو حقيقة الصبر^(١).

وروي عن الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّبُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]: "هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها، وقد بلغني أن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد.

(١) إحياء علوم الدين (٤/٦٢)، وانظر: فيض القدير (٣/١٨٦).

الإرشاد إلى سبيل النجاة والسائل التاجع حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

قال مكي رَحِمَهُ اللهُ: والصبر على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وعن محارم الله جَلَّوَعَلَا أفضل من الصبر على المصائب والفجائع..^(١).

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الصَّبر: نصف الإيمان، واليقين: الإيمان»^(٢). قالوا: "وذلك أن الإيمان: معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالحوارج، فمن لم يصبر على العمل بشرائع لم يستحق اسم: (الإيمان) بالإطلاق، والصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من جسد الإنسان الذي لا تمام له إلا به"^(٣). وقال القاضي ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ: "الإيمان على قسمين: مأمور ومزجور، فللمأمور يتوصل إليه بالفعل، والمزجور امتثاله بالكف والدعة عن الاسترسال إليه، وهو الصبر، فأعلمنا ربنا جَلَّوَعَلَا أن ثواب الأعمال الصالحة مقدر من حسنة إلى سبعمائة ضعف، وخبأ قدر الصَّبر منها تحت علمه، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، لأبي محمد مكي بن أبي طالب (٨٨١/١)، وانظر: أحكام القرآن، لابن العربي (٧٦/٧)، تفسير القرطبي (٢٤١/١٥)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٦٤/٩).

(٢) حديث: «الصبر نصف الإيمان» أخرجه الطبراني في (الكبير) [٨٥٤٤] موقوفاً على ابن مسعود بلفظ: «الصبر نصف الإيمان: واليقين الإيمان»، كما أخرجه الحاكم [٣٦٦٦]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضاً: البيهقي في (شعب الإيمان) [٤٧]، وقال: "وقد روي هذا من وجه آخر غير قوي مرفوعاً، وروينا عن ابن مسعود من أقواله في هذا المعنى شواهد". قال المنذري (١٤٠/٤): "رواه الطبراني في (الكبير)، ورواه رواة الصحيح، وهو موقوف، وقد رفعه بعضهم"، وقال الهيثمي (٥٧/١): "رواه الطبراني في (الكبير)، ورجاله رجال الصحيح".

(٣) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢٨٤/٩)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملحق (٤٦٥-٤٦٦).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

حَسَابٍ ﴿١٠﴾ [الزمر: ١٠]. ولما كان الصوم نوعًا من الصبر حين كان كَفًّا عن الشهوات، قال الله جَلَّ وَعَلَا: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي، وأنا أجزي به» (١). قال أهل العلم: كل أجر يوزن وزنًا، ويكال كيالًا إلا الصوم؛ فإنه يحثي حثيًا، ويغرف غرفًا؛ ولذلك قال مالك رَحِمَهُ اللهُ: هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها. فلا شك أن كل من سلم فيما أصابه، وترك ما نهي عنه فلا مقدار لأجره، وأشار بالصوم إلى أنه من ذلك الباب، وإن لم يكن جميعه - والله أعلم - (٢).

٥ - الصبر خير ما يستعان به عند النوازل والبلاء:

قد جعل الله عَزَّجَلَّ الدنيا دارَ ابتلاءٍ وامتحان واختبار، وليست دارَ خلودٍ واستقرار، وإنما هي دارُ رحيلٍ وانتقال، يمتحن العبادُ فيها ويُختَبَرُونَ؛ ليميز الله عَزَّجَلَّ الخبيث من الطيب.

والابتلاءُ سنَّةٌ من سننه الرِّبَانِيَّةِ الجارية، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿الْم ﴿١﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١-٣]، والابتلاءُ يمحِّص الصَّادِقِينَ مِنَ الكٰذِبِينَ، ويكفِّرُ الذُّنُوبَ، ويرفَعُ درجاتِ المؤمنين الصَّابِرِينَ والمخلصين.

(١) تقدم.

(٢) أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي (٤/٧٦-٧٧).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقد أصاب البلاء سادات البشر، وهم الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحون، وأصاب كذلك شر البشر، وهم الكافرون والملحدون، فهو سنة كونية لا يكاد يسلم منها أحد.

فإذا أحسن المؤمن التعامل معها فصبر وشكر، ورجع إلى الله عَزَّجَلَّ، واجتهد في العبادات والطاعات كانت عاقبة البلاء خيراً له كما جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما يصيب المسلم، من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ، ولا هَمٍّ ولا حزن ولا أذى ولا غَمٍّ، حتى الشوكة يشاكها، إلا كَفَّرَ اللَّهُ بها من خطاياها»^(١).

قال القشيري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "والمن تظهر جواهر الرجال، وهي تدلُّ على قيمهم وأقدارهم، فقدّر كلُّ أحدٍ وقيّمته تظهر عند محنته، فمن كانت محنته من فوات الدنيا، ونقصان نصيبه منها، أو كانت محنته بموت قريب من الناس، أو فقد حبيب من الخلق، فحقير قدره، وكثير في الناس مثله. ومن كانت محنته في الله عَزَّجَلَّ، ولله جَلَّ وَعَلَا فعزیز قدره، وقليل من كان مثله، فهم في العدد قليل، ولكن في القدر والخطر جليل. وبقدر الوقوف في البلاء تظهر جواهر الرجال، وتصفو عن الخبث نفوسهم. والمؤمن من يكفُّ الأذى، ويتحمل من الخلق الأذى، ويتشرب ولا يترشح، بغير شكوى ولا إظهار، كالأرض يلقي عليها كلُّ خبيث فتنبت كلُّ خضرة، وكل نزهة"^(٢).

(١) صحيح البخاري [٥٦٤١]. و«نصب»: تعب، و«وصب»: مرض.

(٢) لطائف الإشارات (٣/٨٩-٩٠).

الدرر والاسرار في سبيل النجاة

الجزء الثاني

والناس في الدين ثلاثة أقسام: مؤمن حسن الاعتقاد والعمل، وكافر مجاهر بالكفر والعناد، ومذبذب بينهما، يظهر الإيمان بلسانه، ويبطن الكفر في فؤاده، وهو المنافق الذي قال الله عَزَّجَلَّ في حقه: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا مبيِّنًا حال الذين يؤمنون بألسنتهم، فإذا مسهم إيذاء جعلوا فتنة الناس كعذاب الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [العنكبوت: ١٠-١١]. فأخبر الحق جَلَّ وَعَلَا عن هؤلاء بأنهم يؤمنون بألسنتهم، فإذا مسهم أذى من الكفار، وهو المراد بفتنة الناس، كان ذلك صارفًا لهم عن الإيمان، كما أن عذاب الله عَزَّجَلَّ صارف للمؤمنين عن الكفر، أو كما يجب أن يكون عذاب الله عَزَّجَلَّ صارفًا.

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: "فهؤلاء إن كانوا قد اعتقدوا البعث والجزاء، فمعنى هذا الجعل: أنهم سوا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، كما هو ظاهر التشبيه، فتوقوا فتنة الناس، وأهملوا جانب عذاب الله عَزَّجَلَّ، فلم يكثرثوا به؛ إعمالًا لما هو عاجل، ونبذًا للآجل. وكان الأحق بهم أن يجعلوا عذاب الله عَزَّجَلَّ أعظم من أذى الناس، وإن كانوا نبذوا اعتقاد البعث تبعًا لنبذهم الإيمان، فمعنى الجعل: أنهم جعلوه كعذاب الله عَزَّجَلَّ عند المؤمنين الذين يؤمنون بالجزاء. فالخبر من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ مكفى به عن الدم والاستحماق على كلا

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

الاحتمالين، وإن كان الذم متفاوتاً. وبين الله عزَّجَلَّ نيتهم في إظهارهم الإسلام بأنهم جعلوا إظهار الإسلام عدة لما يتوقع من نصر المسلمين^(١).

وهم ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا مسهم أذى من الكفار، وهو المراد بفتنة الناس، كان ذلك صارفاً لهم عن الإيمان، كما أن عذاب الله عزَّجَلَّ صارف للمؤمنين عن الكفر. أو كما يجب أن يكون عذاب الله عزَّجَلَّ صارفاً. وإذا نصر الله عزَّجَلَّ المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، أي: مشايعين لكم في دينكم، ثابتين عليه ثباتكم، ما قدر أحد أن يفتننا، فأعطونا نصيبنا من المغنم. ثم أخبر عزَّجَلَّ أنه أعلم ﴿بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ من العالمين بما في صدورهم، ومن ذلك ما تكن صدور هؤلاء من النفاق، وهذا إطلاع منه للمؤمنين على ما أبطنوه^(٢).

وإيذاء الكفار للمؤمنين من أنواع الابتلاء الذي هو الفتنة، كما قال غير واحد، كقوله جلَّ وعلا في آية أخرى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

والله عزَّجَلَّ يتلى العباد؛ ليمحصهم، وليميز الخبيث من الطيب، كما قال جلَّ وعلا: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال جلَّ وعلا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ

(١) التحرير والتنوير (٢٠/٢١٦-٢١٧).

(٢) الكشاف (٣/٤٤٤).

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَتَبْلُؤَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَتَبْلُؤَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ [التوبة: ١٦].

فمن الناس من يُفْتَنَ وَيُضِلُّ عن الحق؛ طمعا في مكانة أو منصب أو جاه أو مال أو عمل، أو خوفاً على النفس أو المال أو الأهل أو المكانة أو العمل. ومنهم من يثبت على الحق ولا يزيغ، ويصبر على ما أصابه من البلاء، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾: "الذين لم يتمسكوا بحجة في دينهم، وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم، كما قلد المشركون آباءهم

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

فقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]. وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن، وتزل أقدامهم أول شيء، وهم في الآخرة أضل وأذل^(١).
وقال الإمام الشوكاني رحمه الله: "﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾، أي: يضلهم عن حجتهم التي هي القول الثابت، فلا يقدر على التكلم بها في قبورهم، ولا عند الحساب، كما أضلهم عن اتباع الحق في الدنيا"^(٢).

والظالم يحمل أوزارًا مضاعفة، فهو يحمل إثم الظلم، وإثم الضلال، وإثم الإضلال. ولا شك أن معاناة الكثيرين من الظلم والقهر والاستبداد، هو من ابتلاء الله عزَّ وجلَّ للعباد؛ ليميز الخبيث من الطيب، والظلم إنما يحمل ضعاف النفوس على الانقياد للباطل؛ طلبًا للسلامة، وإذعانًا لسلطان القوة، أو طمعًا في مكانة أو جاه أو مال، فيسقطون في أوحال الضلال، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].
وقد أمر الله عزَّ وجلَّ نبيه الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبر واحتمال الأذى؛ حتى ينصر الله عزَّ وجلَّ عباده المؤمنين كما وعدهم، ويهلك الطغاة والظالمين.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَصْبِرْ

(١) الكشاف (٢/٥٥٤).

(٢) فتح القدير (٣/١٢٨).

الرسالة السببية للحياة

الجزء الثاني

لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا^ط [الطور: ٤٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧].

كما أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يتشبهه بصبر أولى العزم من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فقال: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا^ط﴾ [الأعراف: ١٢٨].

والصبر من وصايا لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه، حيث قال: ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ^ط إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وأمر عباده المؤمنين بالصبر، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاطْبِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَمُوا فَتَقْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ^ط وَأَصْبِرُوا^ط إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وأرشدهم أن الصبر خير ما يستعان به عند الشدائد فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَتَبْلُؤَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَدَىٰ كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ويستعان بالصبر والصلاة وسائر الطاعات على الشدائد والنوازل والبلاء والكوارث، حيث إنها تجعل العبد متصلًا بالله عَزَّجَلَّ، فيورثه ذلك إيمانًا راسخًا وثقة بوعد الله عَزَّجَلَّ، كما أخبر المولى جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] الَّذِينَ يَطُئُونَ أَنَّهُمْ مُلِّقُوا رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [البقرة: ٤٥-٤٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

الدرر السابغة إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

٦ - طلب الإعانة من الله عزَّوجلَّ عند وقوع البلاء:

ومن يطلب الإعانة من الله عزَّوجلَّ على ما أصابه فإن الله عزَّوجلَّ يكون معه ويعينه، ومن يطلب العفة يعفه الله، ومن يستغنَّ يُغنيه الله، ومن يتصبرَّ يُصبره الله، كما جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفَدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أُدْخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^(١).

٧ - المعونة قدر المؤونة:

جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمَعُونَةَ تَأْتِي مِنَ اللَّهِ عَلَى قَدْرِ الْمُؤُونَةِ، وَإِنَّ الصَّبْرَ يَأْتِي مِنَ اللَّهِ عَلَى قَدْرِ الْبَلَاءِ»^(٢).

(١) صحيح البخاري [١٤٦٩، ٦٤٧٠]، مسلم [١٠٥٣].

(٢) أخرجه الحارث كما في (بغية الباحث) [٤٢٣]، والبخاري [٨٨٧٨]، واللفظ له، والشهاب القضاعي [٩٩٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٤٨٣]. قال المنذري (٤٣/٣): "رواه البخاري، ورواه محتج بهم في (الصحيح) إلا طارق بن عمار ففيه كلام قريب، ولم يترك، والحديث غريب". وقال الهيثمي (٣٢٤/٤): "رواه البخاري، وفيه: طارق بن عمار قال البخاري: لا يتابع على حديثه، وبقيه رجاله رجال الصحيح". وانظر: المقاصد الحسنة (ص: ٢١٢-٢١٣)، فيض القدير (٣٩١/٢).

الدرر السابغ الحفء

الجزء الثاني

وفي (الصحيحين): عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالت: قلت: يا رسول الله يا رسول الله، يَصْدُرُ النَّاسُ بِنُسُكَيْنِ وَأَصْدُرُ بِنُسُكٍ وَاحِدٍ؟ فقيل لها: «أَنْتَظِرِي، فَإِذَا طَهَّرْتِ، فَأَخْرِجِي إِلَى التَّنْعِيمِ، فَأَهْلِي ثُمَّ أَتِينَا بِمَكَانٍ كَذَا، وَلَكِنَّهَا عَلَى قَدْرِ نَفَقَتِكَ أَوْ نَصَبِكَ»^(١).

وعن ابن المبارك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن سفيان الثوري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من قوله: إنما الأجر على قدر الصبر^(٢).

قال الإمام النووي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولكنها على قدر نصبك، أو قال: نفقتك» هذا ظاهر في أن الثواب والفضل في العبادة يكثر بكثرة النصب والنفقة، والمراد: النصب الذي لا يذمه الشرع، وكذا النفقة"^(٣). وقال في موضع آخر: "واعلم أن الأجر على قدر النصب"^(٤).

قال الحافظ ابن حجر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "وهو كما قال، لكن ليس ذلك بمطرد، فقد يكون بعض العبادة أخف من بعض، وهو أكثر فضلاً وثواباً بالنسبة إلى الزمان، كقيام ليلة القدر بالنسبة لقيام ليال من رمضان غيرها، وبالنسبة للمكان، كصلاة ركعتين في

(١) صحيح البخاري [١٧٨٧]، مسلم [١٢١١]. وقولها: (يصدر الناس بنسكين) يرجعون بعبادتين حج وعمرة. (بمكان كذا) والمكان الذي عينه لها: المحصب بمعنى. وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولكنها» أي: ثواب عمرتك. «على قدر نصبك» أي: تعبك.

(٢) حلية الأولياء، لأبي نعيم (٥٤/٧)، سير السلف الصالحين، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني (ص: ١٠٠٥)، كشف الخفاء (٥٩/١).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥٢/٨-١٥٣).

(٤) المصدر السابق (٢٤/٢).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

المسجد الحرام بالنسبة لصلاة ركعات في غيره، وبالنسبة إلى شرف العبادة المالية والبدنية، كصلاة الفريضة بالنسبة إلى أكثر من عدد ركعاتها أو أطول من قراءتها، ونحو ذلك من صلاة النافلة، وكدرهم من الزكاة بالنسبة إلى أكثر منه من التطوع، أشار إلى ذلك: ابن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ فِي (القواعد)...، قال: وقد كانت الصلاة قرّة عين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي شاقّة على غيره، وليست صلاة غيره مع مشقتها مساوية لصلاته مطلقاً - والله أعلم -^(١).

وقد فصل الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ الْقَوْل فِي ذَلِكَ، وَذَكَرَ أَمْثَلَهُ كَثِيرَةً عَلَى مَا قَرَّرَهُ - كَمَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجْرٍ رَحِمَهُ اللهُ -^(٢).

ومما قاله الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ: "رب عبادة خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان، وعبادة ثقيلة على الإنسان خفيفة في الميزان، بدليل أن التوحيد خفيف على الجنان واللسان، وهو أفضل ما أعطيه الإنسان، ومن به الرحمن، والتفوه به أفضل كل كلام، بدليل أنه يوجب الجنان، ويدراً غضب الديان" ثم ذكر أمثلة كثيرة على ما قرره - كما قدمنا -.

قال البدر العيني رَحِمَهُ اللهُ: "هذا الذي ذكره لا يمنع الإطراد؛ لأن الكثرة الحاصلة في الأشياء المذكورة ليست من ذاتها، وإنما هي بحسب ما يعرض لها من الأمور المذكورة. فافهم؛ فإنه دقيق، وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: المراد بالنصب الذي لا يذمه الشرع، وكذا النفقة. وفي (التوضيح): أفعال البر كلها على قدر المشقة والنفقة؛ ولهذا استحب

(١) فتح الباري، لابن حجر (٦١١/٣)، عمدة القاري، للبدر العيني (١٢٤/١٠).

(٢) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لابن عبد السلام (٣٩-٣٤/١).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

الشافعي ومالك رَحِمَهُمَا اللهُ الحُجَّ رَاكِبًا، ومصداق ذلك في كتاب الله عَزَّجَلَّ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرًا أُولَئِكَ لَهُمُ الْبَرَكَاتُ أَكْبَرُ مِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٠]. وفي هذا: فضل الغنى وإنفاق المال في الطاعات، ولما في قمع النفس عن شهواتها من المشقة على النفس، ووعد الله عَزَّجَلَّ الصابرين فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْتِي السَّابِقُونَ أَسْبَقَاتِهِمْ بِحَسَابِ﴾ [الزمر: ١٠] (١). وبظاهر الحديث المذكور استدل على أن الاعتماد لمن كان بمكة من جهة الحل القريبة أقل أجرًا من الاعتماد من جهته البعيدة... (٢).

وعلى أية حال فقد وقع بحث، هل الأجر على قدر المشقة أم على قدر المنفعة؟ وبسط العلماء القول فيه، فقليل: على قدر المشقة، وقيل: على قدر المنفعة، وبه قال الإمام عز الدين بن عبد السلام في (قواعد الأحكام)، وابن تيمية في (الفتاوى) (٣)، وأبو عبد الله المقري في (القواعد) (٤)، والشاطبي في (الموافقات) (٥)، وابن حجر في (الفتح) رَحِمَهُمَا اللهُ. وينظر ذلك في مظانه.

-
- (١) انظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملتن، باب: (أجر العمرة على قدر النصب) (٢٤٣/١٢).
(٢) عمدة القاري (١٢٤/١٠).
(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٦٢٠/١٠)، (٦٢٢/١٠)، (٢٨١/٢٥)، الزهد والورع والعبادة (ص: ٥٣).
(٤) انظر: القواعد، للمقري (٤١٠/٢-٤١١).
(٥) انظر: الموافقات، للشاطبي (٢٢٢/٢).

الدرر والاسباب النجاة والسبائل الناجحة حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

٨ - صبر العبد دليل على محبة الله عزَّجَلَّ له، ورضاه عنه أن وفقه للخير:

ومن علامة حب الله عزَّجَلَّ للعبد المؤمن: صبره ورضاه على ما يصيبه من الكوارث، وما يقع عليه من الابتلاء؛ ففي الحديث: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»^(١)، أي: من الله عزَّجَلَّ أَوْلًا، وَالْعُضْبُ عَلَيْهِ آخِرًا. فالمصائب والبلاء امتحان للعبد. فالمصائب والبلاء امتحان للعبد، وهي علامة على حب الله عزَّجَلَّ له.

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللهُ: "«وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ» بأنواع البلاء؛ حتى يمحصهم من الذنوب، ويفرغ قلوبهم من الشغل بالدنيا، غيرة منه عليهم أن يقعوا فيما يضرهم في الآخرة. وجميع ما يتلهم به من ضنك المعيشة، وكدر الدنيا، وتسليط أهلها؛ ليشهد صدقهم معه، وصبرهم في المجاهدة. قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]"^(٢). وفي الحديث: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزَعَ فَلَهُ الْجَزَعُ»^(٣).

(١) أخرجه ابن ماجه [٤٠٣١]، والترمذي [٢٣٩٦]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: القضاعي [١١٢١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣٢٥].

(٢) فيض القدير (٢٤٦/١).

(٣) أخرجه أحمد في (مسنده) عن محمود بن لبيد [٢٣٦٢٣، ٢٣٦٣٣، ٢٣٦٤١]. قال الهيثمي (٢/٢٩١): "رواه أحمد ورجاله ثقات". كما أخرجه: البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣٢٧]. قال الحافظ في (الفتح) (١٠٨/١٠): "رواته ثقات إلا أن محمود بن لبيد اختلف في سماعه من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد رآه وهو صغير، وله شاهد من حديث: أنس عند الترمذي وحسنه".

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وفي الحديث: «إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يُؤافي به^(١) يوم القيامة»^(٢)، أي: حتى يأتي العبد بذنبه يوم القيامة حاملاً له على كاهله، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧]. والله جَلَّ وَعَلَا يعين العبد الصالح، ويصبره على ما أصابه من البلاء، كما جاء في الحديث: عن إبراهيم بن مهدي السلمي عن أبيه، عن جده - وكانت له صحبة من

(١) قال الطيبي: "أي: لا يجازيه بذنبه حتى يجيء في الآخرة متوفر الذنوب وافيه، فيستوفي حقه من العقاب" وفي لفظ: «حتى يوافيه» أي: يجازيه جزاءً وافياً. «به» أي: بذنبه. قال الطيبي: الضمير المرفوع راجع إلى الله تعالى، والمنصوص إلى العبد، ويجوز أن يعكس اهـ. قال القاري: ولعل الموافاة حينئذ بمعنى: الملاقاة. وهو في (الترمذي): «حتى يوافي به». انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٣٥٠)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٣/١١٤٢)، التيسير بشرح الجامع الصغير (١/٦٤).

(٢) الحديث مروى عن أنس، وأبي هريرة، وعبد الله بن مغفل، وعن عمار بن ياسر. حديث أنس: أخرجه الترمذي [٢٣٩٦]، وقال: "حسن غريب". وأخرجه أيضاً: أبو يعلى [٤٢٥٤]، الحاكم [٨٧٩٩]، والبيهقي في (الأسماء والصفات) [٣١٦]. حديث أبي هريرة رَوَاهُ اللَّهُ عَنَّهُ: أخرجه ابن عدي (١٨٨/٥)، ترجمة [١٣٤٦] علي بن ظبيان، وقال: "الضعف على حديثه بين". حديث عبد الله بن مغفل: أخرجه أحمد [١٦٨٠٦]. قال الهيثمي (١٩١/١٠): "رواه أحمد، والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي الطبراني". كما أخرجه الروياني [٨٩٣]، وابن حبان [٢٩١١]، والحاكم [١٢٩١، ٨١٣٣] وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣٥٩]. حديث عمار بن ياسر: قال الهيثمي (١٩٢/١٠): "رواه الطبراني، وإسناده جيد". وقال العراقي: "أخرجه أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعاً ومتصلاً. ووصله الطبراني أيضاً من رواية: الحسن عن عمار بن ياسر، ورواه أيضاً من حديث: ابن عباس، وقد روى الترمذي وابن ماجه المرفوع منه من حديث: أنس، وحسنه الترمذي" المغني عن حمل الأسفار (ص: ١٤٧٨).

الدرر السنية إلى سبيل النجاة

الجزء الثاني

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة، لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده، أو في ماله، أو في ولده»، قال أبو داود: زاد ابن نفييل: «ثم صبره على ذلك حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله عَزَّجَلَّ»^(١).

وفي الحديث: «ومن ابتلاه الله ببلاء في جسده فهو له حِطَّةٌ»^(٢)، أي: يحط به منه ذنوبه.

والمقصود من البلاء هنا: ما يقع على المؤمن قدرًا بدون اختياره.

(١) الحديث مروى عن محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده. وقد أخرجه أحمد [٢٢٣٣٨]، وأبو داود [٣٠٩٠]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [١٤١٦]، وأبو يعلى [٩٢٣]، والطبراني في (الكبير) [٨٠١]، و(الأوسط) [١٠٨٥]، وأبو نعيم في (معرفة الصحابة) من طريق: الحسن بن سفيان [٦٧٦٢] والبيهقي في (السنن) [٦٥٤٥]. قال الهيثمي (٢/٢٩٢): "رواه الطبراني في (الكبير)، و(الأوسط)، وأحمد، ومحمد بن خالد، وأبوه لم أعرفهما - والله أعلم -". وللحديث شاهد عند أبي يعلى [٦٠٩٥] من طريق: يونس بن بكير، قال: حدثنا يحيى بن أيوب البجلي، قال: حدثنا أبو زرعة، قال: حدثنا أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة، فما يبلغها بعمل فما يزال الله يبتليه بما يكره، حتى يبلغه إياها»، وهو كذلك عند ابن حبان [٢٩٠٨]، والحاكم [١٢٧٤]، وصححه. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (الآداب) [٧٣٥].

(٢) أخرجه الطيالسي [٢٢٧]، وأحمد [١٦٩٠]، البخاري في (التاريخ الكبير) (٢١/٧)، وأبو يعلى [٨٧٨]، قال الهيثمي (٢/٣٠٠): "فيه يسار بن أبي سيف، ولم أر من وثقه ولا جرحه، وبقية رجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: الشاشي [٢٦٥]، والحاكم [٥١٥٣]، والبيهقي في (السنن الكبرى) [١٨٥٦٧]، والضياء [١١١٨]، وقال: "إسناده حسن".

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "إِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا يُؤَدِّبُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الَّذِي يُحِبُّهُ وَهُوَ كَرِيمٌ عِنْدَهُ، بِأَدْنَى زَلَّةٍ وَهَفْوَةٍ، فَلَا يَزَالُ مُسْتَيْقِظًا حَذِرًا، وَأَمَّا مَنْ سَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ وَهَانَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَاصِيهِ، وَكَلِمَا أَحْدَثَ ذَنْبًا أَحْدَثَ لَهُ نِعْمَةً، وَالْمَغْرُورُ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ كِرَامَتِهِ عَلَيْهِ، وَلَا يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ عَيْنُ الْإِهَانَةِ، وَأَنَّهُ يَرِيدُ بِهِ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ وَالْعُقُوبَةَ الَّتِي لَا عَاقِبَةَ مَعَهَا، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بَعْدَ خَيْرٍ عَجَلَ لَهُ عِقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بَعْدَ شَرٍّ أَمْسَكَ عَنْهُ عِقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

فتبين أن ما يقع على المؤمن من الابتلاء بالمصائب والكوارث لا يعني أنه بعيد عن الله عَزَّجَلَّ، وما يغدق على العبد من النعم لا يعني أنه قريب من الله عَزَّجَلَّ، فقد يكون استدراجًا، فليست النعمة دائمًا دليل حب الله عَزَّجَلَّ للعبد، ولا النعمة دائمًا دليل بغض الله عَزَّجَلَّ.

قال بعض السلف: "مصيبة تقبل بها على الله عَزَّجَلَّ خير لك من نعمة تنسبك ذكر الله عَزَّجَلَّ" (٢).

وقال ابن عيينة رَحِمَهُ اللهُ: "ما يكره العبد خير له مما يحب؛ لأن ما يكرهه يهيجه للدعاء، وما يحبه يلهيه" (٣).

(١) زاد المعاد (٣/٥٠٦). والحديث تقدم تخريجه.

(٢) انظر: تسلية أهل المصائب، لشمس الدين المنبجي (ص: ١٧٥).

(٣) شعب الإيمان [٩٥٥٩].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وفي الحديث: «مثل المؤمن مثل السنبله، تستقيم مرة، وتخر مرة، ومثل الكافر مثل الأرزة، لا تزال مستقيمة حتى تخر، ولا تشعر»^(١)، "أي: هو كثير الاسقام في بدنه وماله، فيمرض ويصاب، ويخلو من ذلك أحياناً؛ ليكفر عنه ذنوبه"^(٢).
"فمن ثم يميل يمينة ويسرة. والمنافق على حالة واحدة من دوام الصحة في نفسه وأهله، ويفعل الله عزَّجَلَّ ذلك بالمؤمن؛ ليصرفه إليه في كل حال، فكلما سكنت نفسه إلى شيء أمالها عنه؛ ليدعوه بلسانه وجنانه؛ لأنه يحب صوته، فاختلف الأحوال تميل بالمؤمن إلى الله عزَّجَلَّ، والمنافق وإن اختلفت عليه الأحوال لا يرده ذلك إلى ربه عزَّجَلَّ؛ لأنه أعماه وختم على قلبه، فنفسه كالخشب المسندة لا تميل لشيء، وقلبه كالحجر، بل أشد، ليس فيه رطوبة الإيمان، كالأرز لا تهتز حتى تحصد بمنجل الموت. ومقصود الحديث: أن يحذر المؤمن دوام السلامة؛ خشية الاستدراج، فيشتغل بالشكر، ويستبشر بالأمراض والرزايا"^(٣).

والمعنى: أن المؤمن مثل السنبله لا يكاد يمر عليه يوم بلا بلاء، كما أن السنبله لا تكاد تثبت؛ لتقليب الرياح لها، وكذلك شجرة الأرزة لا تكاد تهتز، وكذلك الكافر

(١) أخرجه البزار [٧٢١٧، ٧٢١٨]. قال الهيثمي (٢/٢٩٣): "رواه البزار بسند رجاله ثقات". وانظر: فيض القدير (٥/٥١٢). و«الأرزة» بفتح الهمزة وفتح الراء المهملة ثم زاي على ما ذكره أبو عمرو. وقال أبو عبيدة: بكسر الراء بوزن: فاعلة، وهي النابتة في الأرض. وقيل: بسكون الراء شجر معروف بالشام، وهو شجر الصنوبر والصنوبر ثمرتها. فيض القدير (٥/٥١٢)، وانظر: مشارق الأنوار، للقاضي عياض، مادة: (أرز) (١/٢٧).

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/٣٧٢).

(٣) فيض القدير (٥/٥١٢).

الدرر والاسرار في سبيل النجاة

الجزء الثاني

لا يكاد يصيبه البلاء؛ حتى يهوي مرة واحدة، فينقلب من فيض النعم إلى سلبها، ومن الصحة إلى المرض، ومن الأمن إلى الخوف، ومن الانبساط إلى الضيق، ومن النعيم إلى العذاب، ومن الحياة إلى الموت. نسأل الله جَلَّ وَعَلَا السلامة والعافية.

وفي (الصحيح): «مثل المؤمن كالحامة من الزرع، تُفَيِّئُهَا الرِّيحُ مَرَّةً، وَتَعْدِلُهَا مَرَّةً، وَمِثْلُ الْمُنَافِقِ كَالْأَرْزَةِ، لَا تَزَالُ حَتَّى يَكُونَ مُجْعَفُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً»^(١)

وفي رواية: «مثل المؤمن كمثل الحامة من الزرع، من حيث أتتها الرِّيحُ كَفَأَتْهَا، فَإِذَا اعْتَدَلَتْ تَكَفَّفُ بِالْبَلَاءِ، وَالْفَاجِرُ كَالْأَرْزَةِ، صَمَاءٌ مَعْتَدِلَةٌ، حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ»^(٢).

(١) صحيح البخاري [٥٦٤٣]، واللفظ له، مسلم [٢٨١٠]. قوله: «كالحامة»: بالخاء المعجمة وتخفيف الميم: الغض الرطب من النبات أول ما ينبت. «تفئتها»: أي: تحركها وتميلها يمنة ويسرة، وأصل التفئية: إلقاء الشيء على الشيء، وهو الظل، فالريح إذا أمالتها إلى جانب ألقنت ظلها عليه. ذكره القاضي. «تعديلها»: ترفعها. «لا تزال»: قائمة لا تلين. «انجعافها»: انقلاعها. والمعنى كما ذكر المناوي: أن المؤمن كثير الآلام في بدنه وأهله وماله، وذا مكفر لسيناته رافع لدرجاته، والكافر قليلها، وإن حل به شيء لم يكفر، بل يأتي بها تامة يوم القيامة. فيض القدير (٥/٥١٢). وينظر المعنى مفصلاً في (فتح الباري)، لابن حجر (١٠٦/١٠)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (١٧٢/٨).

(٢) صحيح البخاري [٥٦٤٤، ٧٤٦٦]. «كفأتها» بفتح الكاف والفاء والهمزة، أي: أمالتها. ونقل ابن التين أن منهم من رواه بغير همزة كأنه سهلها. «تكفأ بالبلاء»: تقلب بالمصيبة. أي: المؤمن إذا أصابه بلاء رضي بقدر الله جَلَّ وَعَلَا، فإذا زال عنه قام واعتدل بشكر الله عَزَّجَلَّ، فانقلب البلاء خيراً ورحمة. «صماء»: صلبة شديدة. «يقصمها»: من القصم، وهو الكسر مع الإبانة، أي: فصل الأجزاء عن بعضها. انظر المعنى مفصلاً في (فتح الباري) (١٠٧/١٠)، عمدة القاري (٢١/٢١٠).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

قال أبو الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: "وقد دل الحديث على أن القويَّ يَحْمِلُ مَا حَمَلَ، وَالضَّعِيفُ يُرْفَقُ بِهِ، إِلَّا أَنَّهُ كَلِمَا قَوِيَّتِ الْمَعْرِفَةُ بِالْمَبْتَلَى هَانَ الْبَلَاءُ الشَّدِيدُ. وَمَنْ أَهْلُ الْبَلَاءِ مَنْ يَرَى الْأَجْرَ فَيَهْوُونَ الْبَلَاءَ عَلَيْهِ، وَأَعْلَى مِنْهُ مَنْ يَرَى تَصَرُّفَ الْمَبْتَلَى (١) فِي مَلِكِهِ، وَأَرْفَعُ مِنْهُ مَنْ تَشْغَلُهُ مَحَبَّةُ الْحَقِّ عَنِ وَقْعِ الْبَلَاءِ (٢)، وَنَهَايَةُ الْمَرَاتِبِ: التَّلَذُّذُ بِضَرْبِ الْحَبِيبِ؛ لِأَنَّهُ عَنِ اخْتِيَارِهِ نَشَأُ" (٣).

٩ - المسلم يتعوذ من البلاء، ويحمد الله عَزَّوَجَلَّ على العافية:

إن المسلم لا يتمنى البلاء، ولا يسعى إليه؛ لأنه قد يفتن ولا يصبر. وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعوذ من جهد البلاء، ففي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَوَّذُ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرْكِ الشَّقَاءِ، وَسَوْءِ الْقَضَاءِ، وَشِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ» (٤).

(١) المبتلي - بصيغة اسم الفاعل - هو الله عَزَّوَجَلَّ، وقد قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَسْوَاقِ وَالْحَرْبِ فَتَنَّاكُمُ فِي الْأَنْبِيَاءِ: ٣٥﴾. وفي (الفتح) (١٠/١٢)، و(فيض القدير) (١/٥١٩): "تصرف المالك في ملكه فيسلم ولا يعترض" مكان: "تصرف المبتلي في ملكه" والمعنى واحد.

(٢) في المصادر السابقة: "من شغلته المحبة عن طلب رفع البلاء".

(٣) كشف المشكل، لابن الجوزي (١/٢٨٧).

(٤) صحيح البخاري [٦٣٤٧]، مسلم [٢٧٠٧].

الدرر السابغ إلى سبب النجاة

الجزء الثاني

وفي رواية: «تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»^(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عاد رجلاً من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟»، قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سبحان الله لا تطيقه - أو لا تستطيعه - أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»، قال: فدعا الله له، فشفاه^(٢).

والمسلم يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ على العافية، فإذا أصابه البلاء صبر وشكر.

١٠ - مسألة: الغني الشاكر، والفقير الصابر:

وفي هذه المسألة خلاف مشهور بين السلف والخلف، وهاك أهم ما قيل في ذلك:

أ. القول الأول: أن الكفاف أفضل من الفقر والغنى؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما رزقه»^(٣). قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الكفاف: الكفاية بلا زيادة ولا نقص. وفيه فضيلة هذه الأوصاف، وقد يحتج به

(١) صحيح البخاري [٦٦١٦].

(٢) صحيح مسلم [٢٦٨٨].

(٣) أخرجه مسلم [١٠٥٤] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الدراسة والسبيل إلى النجاة

والوسائل التي تجعل حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

لمذهب من يقول: الكفاف أفضل من الفقر ومن الغنى"^(١). وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "الكفاف) هو: ما يكف عن الحاجات، ويدفع الضرورات والفاقات، ولا يلحق بأهل الترفهات.

ومعنى هذا الحديث: أن من فعل تلك الأمور، واتصف بها، فقد حصل على مطلوبه، وظفر بمرغوبه في الدنيا والآخرة"^(٢).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "الفلاح هو الفوز بالبغية في الدارين، والحديث قد جمع بينهما. والمراد بالرزق: الحلال منه؛ لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدح المرزوق، وأثبت له الفلاح. وذكر أمرين وقيد الثاني بـ: (وقنع) أي: رزق كفافاً، وقنعه الله عَزَّوَجَلَّ بالكفاف فلم يطلب الزيادة، وأطلق الأول: ليشتمل جميع ما يتناوله الإسلام"^(٣).

قيل: وصاحب هذه الحالة معدود من الفقراء؛ لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا، بل يجاهد نفسه في الصبر على القدر الزائد على الكفاف، فلم يفتته من حال الفقراء إلا السلامة من قهر الرجال، وذل المسألة"^(٤).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤٥/٧-١٤٦).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٩٩/٣)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٢٧٥/١١).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٢٨٠/١٠).

(٤) فيض القدير (٥٠٨/٤).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وعن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «طوبى لمن هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وفتح»^(١).

وفي (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم ارزق آل محمد قوتاً»^(٢). و(القوت): ما يسد الرمق. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "وفيه فضيلة التقلل من الدنيا، والاعتصار على القوت منها، والدعاء بذلك"^(٣). وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»؛ أي: ما يقوتهم ويكفيهم، بحيث لا يشوشهم الجهد، ولا تُرهقهم الفاقة، ولا تذلهم المسألة والحاجة، ولا يكون أيضاً في ذلك فضول يخرج إلى الترف والتبسط في الدنيا، والركون إليها.

وهذا يدل على زهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا، وعلى تقلله منها، وهو حجة لمن قال: إن الكفاف أفضل من الفقر والغنى"^(٤).

وقال: "ووجه التمسك بهذا الحديث: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما يدعو لنفسه بأفضل الأحوال، وأيضاً: فإنَّ الكفاف حالة متوسطة بين الغنى والفقر، وقد قال

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٥٥٣]، وأحمد [٢٣٩٤٤] والترمذي [٢٣٤٩] وقال: "حسن صحيح"، والنسائي في (الكبرى) [١١٧٩٣]، وابن حبان [٧٠٥]، والطبراني [٧٨٦]، والحاكم [٩٨]، وقال: "صحيح على شرط مسلم". ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري [٦٤٦٠]، مسلم [١٠٥٥].

(٣) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٤٦/٧).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١٠٠/٣).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خير الأمور أوسطها»^(١). وأيضًا: فإنَّ هذه الحال سليمة من آفات الغنى، وآفات الفقر المدقع، فكانت أفضل منها، ثم إن حالة صاحب الكفاف حالة الفقير؛ إذ لا يترفه في طيبات الدنيا ولا في زهرتها، فكانت حاله إلى الفقر أقرب، فقد حصل له ما حصل للفقير من الثواب على الصبر، وكُفي مرارته وآفاته.

لا يقال: فقد كانت حالة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفقر الشديد المدقع، كما دلت عليه أحاديث هذا الباب وغيرها، ألا ترى أنه يطوي الأيام، ولا يشبع يومين متواليين، ويشد على بطنه الحجر من الجوع والحجرين، ولم يكن له سوى ثوب واحد، فإذا غسله انتظره إلى أن يجف، وربما خرج وفيه بقع الماء، ومات ودرعه مرهونة في شعر لأهله، ولم يخلف دينارًا ولا درهما، ولا شاة، ولا بعيرًا، ولا حالة في الفقر أشد من هذه، وعلى هذا فلم يكن حاله الكفاف، بل: الفقر. فلم يجبه الله عَزَّجَلَّ في الكفاف؛ لعلمه بأن الفقر أفضل له؛ لأننا نقول: إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جمع له حال الفقر والغنى والكفاف، فكانت أول أحواله الفقر؛ مبالغة في مجاهدة النفس وخطامها عن مألوفات عاداتها، فلما حصلت له ملكة ملكها، وتخلص له خلاصة سببها،

(١) أخرجه البيهقي في (الكبرى) [٦١٠٢]، وفي (شعب الإيمان) [٥٨١٩]، وقال: "منقطع". وقال العراقي: "أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) من رواية: مطرف بن عبيد الله معضلًا" المغني عن حمل الأسفار (ص: ٩٣٩)، وقال السيوطي: "أخرجه ابن السمعاني في (تاريخه) من حديث: علي بسند فيه من لا يعرف حاله. وأخرجه ابن جرير في (تفسيره) من كلام: مطرف بن عبد الله، ومن كلام: يزيد بن مرة الجعفي. وروي أبو يعلى عن وهب بن منبه قال: إن لكل شيء طرفين ووسطًا، فإذا أمسك أحد الطرفين مال الآخر، وإذا أمسك الوسط اعتدل الطرفان، فعليكم بالأوساط من الأشياء" الدرر المنتثرة (ص: ١١٦)، وانظر: المقاصد الحسنة (ص: ٣٣٢).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

خيرَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ في أن يجعل له جبال تهامة ذهبًا تسير معه حيث سار، فلم يلتفت إليها، وجاءته فتوحات الدنيا فلم يعرج عليها، بل صرفها وانصرف عنها، حتى قال: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود فيكم»^(١)، وهذه حالة الغني الشاكر، ثم اقتصر من ذلك كله على قدر ما يرد ضروراته وضرورات عياله، ويرد حاجتهم، فاقتنى أرضه بخير، وكان يأخذ منها قوت عياله، ويدخره لهم سنة، فاندفع عنه الفقر المدقع، وحصل الكفاف الذي دعا به، ثم إنه لما احتضر وقف تلك الأرض على أهله؛ ليدوم لهم ذلك الكفاف الذي ارتضاه لنفسه، ولتظهر إجابة دعوته حتى في أهله من بعده، وعلى ذلك المنهج نهج الخلفاء الراشدون رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ على ما تدل عليه سيرهم وأخبارهم. وعلى هذا فأهل الكفاف هم صدر كتبية الفقراء الداخلين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام؛ لأنهم وسطهم، والوسط: العدل. وليسوا من الأغنياء كما قرناهم، فاقتضى ذلك ما ذكرناه - والله تعالى أعلم -^(٢).

وفي (صحيح مسلم): عن أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا ابن آدم إنك أن تبذل الفضل خير لك، وأن تمسكه شر لك، ولا تلام على

(١) أخرجه أحمد [٦٧٢٩]، وأبو داود [٢٦٩٤]، والنسائي [٣٦٨٨]، وابن الجارود [١٠٨٠]: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال الهيثمي (١٨٨/٦): "رواه أبو داود باختصار كثير، ورواه أحمد، ورجال أحد إسناده ثقات"، وانظر: غاية المقصد في زوائد المسند (٥٩/٣)، والحديث له طرق يتقوى بها.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/١٣٠-١٣٢).

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى»^(١). فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولا تلام على كفاف» أي: ولا يلحقك لوم من الشرع على إمساك ما تكف به الحاجة.

ب. القول الثاني: أن الفقر مع الصبر أفضل؛ لما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو خمسمائة عام»^(٢).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً»^(٣).

ج. القول الثالث: الغنى مع الشكر أفضل؛ لحديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء الفقراء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: ذهب أهل الدُّثور من الأموال بالدرجات العلا، والنعيم المقيم يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال يحجون بها، ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدقون، قال: «ألا أحدثكم إن أخذتم أدركنم

(١) أخرجه مسلم [١٠٣٦].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٣٩٢]، وأحمد [٩٨٢٣]، وابن ماجه [٤١٢٢]، والترمذي [٢٣٥٤]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه: البزار [٧٩٣١]، والنسائي في (الكبرى) [١١٢٨٥]، وأبو يعلى [٦٠٢٥]، وابن حبان [٦٧٦]. والطبراني في (الأوسط) [٨٨٦٥]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢١٢/٨). قال الحافظ المنذري (٦٤/٤): "رواه الترمذي، وابن حبان في (صحيحه) وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح". قال الحافظ: ورواه محتج بهم في (الصحيح)، ورواه ابن ماجه بزيادة من حديث: موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر".

(٣) أخرجه أحمد [١٤٤٧٦]، وعبد بن حميد [١١١٧]، والترمذي [٢٣٥٥]، وقال: "حديث حسن".

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافعته

الجزء الثاني

من سبقكم، ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله: تسبحون، وتحمدون، وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين»، فاختلنا بيننا، فقال بعضنا: نسبح ثلاثاً وثلاثين، ونحمد ثلاثاً وثلاثين، ونكبر أربعاً وثلاثين، فرجعت إليه، فقال: تقول: «سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، حتى يكون منهن كلهن ثلاثاً وثلاثين»^(١).

ولحديث: أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ناساً من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثُورِ بالأجور، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، ويصومون كما نصوم، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تَصَدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»^(٢).

(١) صحيح البخاري [٨٤٣، ٦٣٢٩]، مسلم [٥٩٥].

(٢) صحيح مسلم [١٠٠٦].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "«الدُّثُورُ»: بالثاء المثلثة، واحدها: دثر، بفتح الدال وسكون الثاء المثلثة، وهو المال الكثير. وفي هذا الحديث دليل لمن فضل الغني الشاكر على الفقير الصابر، وفي المسألة خلاف مشهور بين السلف والخلف من الطوائف" (١). وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "استدل به من يفضل الغني على الفقير، وهي مسألة اختلف الناس فيها على خمسة أقوال: فمن قائل بتفضيل الغني، ومن قائل بتفضيل الفقير، ومن قائل بتفضيل الكفاف، ومن قائل رابع: يَرُدُّ هذا التفضيل إلى اعتبار أحوال الناس في ذلك، ومن قائل خامس: توقف، ولم يفضل واحداً منهما على الآخر" (٢).

د. القول الرابع: من العلماء من قال: كلاهما سواء، كما نقل أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في (التفسير): عن سفيان رَحِمَهُ اللهُ: أنه سئل عن عبد بن (٣) ابتلي أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر، فقال: كلاهما سواء؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أثني على عبد بن، أحدهما: صابر، والآخر: شاكر، ثناءً واحداً، فقال في وصف أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وقال في وصف سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]. قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: وقد رد هذا الكلام صاحب

(١) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٩٢/٥)، وانظر: إكمال المعلم (٥٤٦/٢)، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (٣٢٥/١-٣٢٦).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢١٣/٢-٢١٤).

(٣) نسب أبو طالب المكي هذا القول إلى بعض القدماء، فقال: "سئل عنها بعض القدماء عن عبد بن: ابتلي أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر... قوت القلوب في معاملة المحبوب (٣٣٨/١).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

(القوت) (١) واستدل بقصة أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في تفضيل الفقير على الغني، وذكر كلاماً كثيراً شيد به كلامه. وخفي عليه أن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أحد الأغنياء من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قبل البلاء وبعده، وإنما ابتلي بذهاب ماله، وولده، وعظيم الداء في جسده. وكذلك الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ صبروا على ما به امتحنوا وفتنوا. فأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ دخل في البلاء على صفة، فخرج منه كما دخل فيه، وما تغير منه حال، ولا مقال، فقد اجتمع مع أيوب في المعنى المقصود، وهو عدم التغير الذي يفضل فيه بعض الناس بعضاً. وبهذا الاعتبار يكون الغني الشاكر والفقير الصابر سواء. وهو كما قال سفيان رَحِمَهُ اللهُ - والله أعلم - (٢).

د. القول الخامس: التفصيل والتحرير:

ومن أفضل ما قيل في هذه المسألة: ما حرره الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ حيث قال: "والتحقيق عند أهل الحدق أن لا يجاب في ذلك بجواب كلي، بل يختلف الحال باختلاف الأشخاص والأحوال، نعم عند الاستواء من كل جهة، وفرض رفع العوارض بأسرها فالفقير أسلم عاقبة في الدار الآخرة، ولا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيء - والله أعلم - (٣).

وسياتي في (التلازم بين الصبر والشكر) ما حرره العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في هذه المسألة، ومحصل قوله: "أن أفضلهما: أعظمهما شكراً وصبراً، فإن فضل أحدهما

(١) انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب، لأبي طالب المكي (١/٣٣٨-٣٤٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/٢١٥-٢١٦).

(٣) فتح الباري (٩/٥٨٣)، وفصل القول في موضع آخر. انظر: فتح الباري (١١/٢٧٤-٢٧٧).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

في ذلك فضل صاحبه. فالشكر مستلزم للصبر لا يتم إلا به، والصبر مستلزم للشكر لا يتم إلا به^(١).

والحاصل أن الذي يتقرر في هذه المسألة:

أ. لا ينبغي أن يجاب في ذلك بجواب كلي، بل يختلف الحال باختلاف الأشخاص والأحوال.

ب. أن الله عَزَّجَلَّ يحاسب كل عبد من العباد على حدة، على حسب ما عمل، وعلى قدر ما ابتلي به فصبر وشكر، أو زاغ وكفر، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۗ ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أُنْخِذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۗ ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۗ ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۗ ﴿٨٠﴾﴾ [مريم: ٧٧-٨٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكُلُّهُمْ عَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۗ ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٥].

ج. إن ميزان التفاضل بين الخلق، وما يحدد مدى قربهم من الله عَزَّجَلَّ، وإكرام الله عَزَّجَلَّ لهم إنما هو بحسب تقواهم، وكل من الفقير الصابر والغني الشاكر محتاج إلى الشكر والصبر، وأفضلهما: أتقاهما وأعظمهما شكرًا وصبرًا. فأكرم الناس عند الله عَزَّجَلَّ منزلة، وخيرهم مكانة هم المتقون، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَّكُمْ ۗ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي الحديث: عن أبي نضرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حدثني من سمع خطبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس، إن ربكم واحد وأباكم واحد، ألا لا

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٦٥)، وسيأتي تمام قوله.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أسود على أحمر، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى، أبلغتُ؟»، قالوا: بَلَّغَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. " الحديث (١).
وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قيل يا رسول الله: من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم» (٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قد أذهب الله عنكم عُيْبَةَ الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، والناس بنو آدم وآدم من تراب» (٣). وقد تقدم بيانه.

فدلَّ الكتاب والسنة على أن أكرم الناس عند الله عزَّجَلَّ: أتقاهم.
فهذا هو مقياس التفاضل بين الناس، وليس بالحسب، ولا بالنسب، ولا بكثرة المال، ولا بالجاه.. وقد تقدم بيان ذلك في (التقوى).

١١ - التعوذ بالله عزَّجَلَّ من الغنى المطغي والفقر المنسي:

إذا أقصي الإيمان عن ميدان التربية، فإن سلوك الإنسان يتفاوت تفاوتاً كبيراً

حسب المؤثرات التالية:

أ. اختلاف معادن الناس.

ب. الغنى المطغي - كما سيأتي بيانه -.

(١) تقدم.

(٢) متفق عليه، وقد تقدم.

(٣) تقدم.

الدراسة والسبيل إلى النجاح

والوسائل التي تجعل الحياة طيبة نافعة

الجزء الثاني



ج. الفقر المنسي - كما سيأتي بيانه -.

د. الامتياز العلمي الذي يؤدي إلى غرور العلم ويصد عن الهداية.

هـ. الوضع السياسي.

و. المدرسة والمعهد والجامعة.

ز. الأقارب والأصدقاء.

ح. البيئة والحلي.

ط. المدرسين والمحيط العلمي.

ي. الأسس التربوية والمنهج الدراسي.

وما يعنينا هنا: هو الحديث عن (الفقر المنسي، والغنى المطغي) من حيث

افتقار كلٍ منهما إلى الصبر والشكر، وقد فصلنا القول عن المؤثرات الأخرى من قبل

في كتاب: (عقبات في طريق الهداية وسبل الوقاية والعلاج منها).

إنَّ من حكمة الله عزَّ وجلَّ أنه خلق بعض الناس فقراء، وبعضهم أغنياء، كما قال

جلَّ وعلا: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، "أي:

فأوت بينكم في الأرزاق، والأخلاق، والمحاسن والمساوئ، والمناظر والأشكال والألوان،

وله الحكمة في ذلك، كقوله جلَّ وعلا: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا

بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقوله جلَّ وعلا: ﴿أَنْظُرْ

كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

الدرر السبيل إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

وقوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، أي: ليختبركم في الذي أنعم به عليكم ويمتحنكم به؛ ليختبر الغني في غناه، ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره" (١).

وقال الله عز وجل في آية أخرى: ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالَّذِي فَتَنَّا وَاللَّيِّنَاتُ تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].
وقال جل وعلا: ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

إنَّ الغنى والفقر ابتلاءٌ من الله عز وجل لعباده، فيوسِّع على أقوامٍ، ويضيِّق على آخرين؛ ليبتلى الغني بغناه، والفقير بفقره، فيشكر الغني مولاه على نعمه الوافرة، ويؤدِّي المال حقه، ويعين الفقير، فهذا الغني الشاكر. وفي المقابل فإن المال قد يكون سبباً لطغيان أقوامٍ وتجبرهم، وانغماسهم في الشهوات.

وأما الفقير الصَّابِر فإنه يقنع ويرضى، وفي المقابل فإن الفقر قد يكون من أسباب الجزع والتسخط، فيكون وبالاً على صاحبه.

وقد جاء في الحديث: عن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شُكْرٌ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (٢). فالْمُؤْمِنُ يتقلب بين الشكر والصبر.

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣٨٥).

(٢) صحيح مسلم [٢٩٩٩]، وقد تقدم.

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

والعبد لا يعلم ما هو أنفع وأصلح له، فقد يكون الفقر هو الخير للعبد، كما قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، أي: لشغلوا عن طاعته، وحملهم ذلك على البغي والطغيان والتجبر على الخلق، قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

إن الفقر المنسي يؤثر في سلوك الإنسان، وفكره، وطريقة حياته، ويختلف ذلك بمقدار تأثر الإنسان به، كما أنه قد يختلف من حيث مدى شدته، فقد يكون الفقر صارفًا حقيقيًا عن الهداية، وعن طلب العلم والمعرفة، وعن التفقه في الدين، كما أنه قد يكون نعمة بالنسبة إلى طالب العلم - ولا سيما في بداية الطلب - حتى لا تشده الدنيا إلى مشاغلها.

والحقيقة أن ذلك يرجع إلى اعتبارات تتعلق بالفقر ومدى تأثره، وبالفقر ومدى تأثره، وقد يرجع ذلك إلى اعتبارات تتعلق بالخوف على المكانة أو العمل، أو المصالح الاقتصادية التي توفر الرفاهية والتمتع بالمال.

وللفقر أسباب كثيرة، أذكر منها:

الضعف والعجز عن الكسب.

ومنها: إخفاق السعي.

ومنها: البطالة والكسل.

ومنها: الجهل بالطرق الموصلة إلى الكسب.

ومنها: ما تسوقه الأقدار من نحو حركات الرياح، واضطراب البحار، واحتباس

الأمطار، وكساد التجارة، ورخص الأسعار.

الدراسة والسبب في الفحاة

والوسائد التي اجتمعت حياطة طيبة نافعة

الجزء الثاني

وللفقر من الآثار ما قد يكون عائقًا عن الهداية بالنسبة لكثيرين، فالبحث عن السبب، والنظر في العلاج محل النظر.

يقول بعض أهل العلم: "إنَّ الفقر له حالان:

أ. حال تتبلبل فيها الخواطر من الهم والغم، وكثرة العيال، وانكسار النفس الناشئ عن ذلك، ولنعبّر عن هذا بالفقر الأسود، وهو يبدد الدهن، ويقتل النبوغ والإبداع، ويورث الاكتئاب والإحباط، فيذوي صاحبه كما تذوي الشجرة الخضراء إذا انقطع عنها الماء.

ب. وحال ثانية يكون الإنسان فيها فقيرًا، ولكنه يكون خفيف المؤونة، راسخ الطمأنينة بالله عَزَّجَلَّ، لا يؤثر الفقر إلا على سطح جسده ومظهر لباسه، أما خاطره فمستقر مشرق، ولنسم هذا بالفقر الأبيض كما يقال، وهو نعمة بالنظر إلى طالب العلم في أول حياته حتى لا تشده الدنيا إلى مشاغلها وغمراتها ومفاتها؛ فإنَّ التقلل من الدنيا أمكن لحفظ العلم وتحصيله"^(١).

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: أزين شيء بالعلماء الفقر مع القناعة. وقال: لا يطلب هذا العلم من يطلبه بِالتَّمَلُّل، وعزَّ النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلة النفس

(١) صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل (ص: ١٤٩-١٥٠).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وضيق العيش وذلة أفلح^(١). وقال: ما أفلح في العلم إلا من طلبه في القلة، ولقد كنت أطلب القرطاس فيعسر علي^(٢).

وقال: فقر العلماء فقر اختيار، وفقر الجهال فقر اضطرار. وقال: ما فرغت من الفقر قط^(٣).

ويُستدلُّ على ذلك: بفقر أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي دعاه إلى ملازمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على طمأنينة، وخفة مسؤولية، فكان فقره في ماله حسنة عليه وعلى الناس^(٤).

والفقر المنسي هو الذي استعاذ منه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الفقر، والقلة، والذلة، وأعوذ بك من أن أظلم، أو أظلم»^(٥).

(١) شعب الإيمان [١٦٠٣]، الإلماع (ص: ٥٢)، جامع بيان العلم [٤٤٩]، تهذيب الأسماء، للإمام النووي (٧٤/١)، الشذا الفياح (٤٠٤/١)، المحدث الفاصل، للرامهرمزي (ص: ٢٠٢)، فتح المغيث (٣٥٥/٢).

(٢) تهذيب الأسماء، للإمام النووي (٧٤/١).

(٣) المصدر السابق (٧٥/١).

(٤) انظر: صفحات من صبر العلماء (ص: ١٥١-١٥٢).

(٥) أخرجه أحمد [٨٠٥٣]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٧٨]، وابن ماجه [٣٨٤٢]، وأبو داود [١٥٤٤]، والبزار [٨٢١٦]، والنسائي [٥٤٦٠]، وابن حبان [١٠٣٠]، والحاكم [١٩٨٣]، وقال: "صحيح الإسناد على شرط مسلم". وأخرجه أيضاً: البيهقي [١٣١٥٠].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

قوله: «اللهم إني أعوذ بك من الفقر». (الفقر): الاحتياج والطلب، وأراد به هنا: (فقر القلب)، وكل قلب يطلب شيئاً، ويحتاج إلى شيء، ويحرص على شيء، فهو فقير - وإن كان صاحبه كثير المال - يعني: من قلب حريص على جمع المال. وهذا مثل قوله: «ونفس لا تشبع»^(١).

وقال بعض أهل العلم: الفقر المستعاذ منه إنما هو فقر النفس وجشعها الذي يفضي بصاحبه إلى كفران النعمة في المال، ونسيان ذكر المنعم المتعال. قال الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "الفقر المذموم: فقر النفس، وهو الذي استعاذ منه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"^(٢).
وكما أن الفقر المنسي من المعوقات الشاغلة فكذلك الغنى المطغي؛ لأنَّ الغنى قد يكون من أسباب الطغيان الذي يؤدي إلى البطر والانغماس في الشهوات والملاهي، وإلى الانشغال عن طلب الهداية، وعن العمل للآخرة.

وقد بين الله عَزَّجَلَّ في بعض الآيات حكمة تضييقه للرزق على من ضيقه عليه من العباد. وذكر أن من حكم ذلك: أن بَسَطَ الرزق للإنسان قد يحمله على البغي والطغيان، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿* وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧]، أي: بقدر ما يصلحهم ولو زاده

(١) صحيح مسلم [٢٧٢٢]. قال الإمام النووي في (شرحه لصحيح مسلم) (٤١/١٧): "معناه: استعاذة من الحرص والطمع والشره وتعلق النفس بالآمال البعيدة".

(٢) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٦٤٨/١١)، وانظر: مرقاة المفاتيح (١٧٠٩/٤). قال العلامة المناوي: أراد "فقر النفس لا ما هو المتبادر من معناه من إطلاقه على الحاجة الضرورية؛ فإن ذلك يعم كل موجود: ﴿* يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [فاطر: ١٥] فيض القدير (١٢٢/٢).

الدرر السابغ إلى سبب النجاة

الجزء الثاني

لفسد حالهم^(١)؛ فإن المال قد يكون سببًا للطغيان والهلاك، كما قال الله عزَّ وجلَّ عن قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿١﴾ أَلَمْ يَرَأْ أَنَّا سَخَّجْنَا ﴿٢﴾﴾ [العلق: ٦-٧].

والفقر والغنى هما من قدر الله عزَّ وجلَّ الذي قَسَمَ الأرزاق والآجال؛ ولذلك فإنهما لا يوصفان بالذم والمدح في ذاتهما، وإنما بآثار كلِّ منهما على صاحبه، فالفقير إن صبر وشكر ورضي بقضاء الله عزَّ وجلَّ، ولم يكن الفقر عائقًا عن طلب الحق والهداية، وعن أداء الحقوق والواجبات فهذا هو الفقر المحمود.

أما إذا وصل الفقر لدرجة أنست صاحبها مقام عبوديته لله عزَّ وجلَّ، فانشغل في طلب الرزق، وأعرض عن الطاعة والهداية، فهذا هو الحد المذموم الذي تعوَّذ منه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك الغنى إذا تجاوز الحد، وكان سببًا في طغيان صاحبه، وكفرانه لنعمة الله عزَّ وجلَّ، وانشغاله بالمال عن سلوك طريق الهداية، وعن طلب العلم النافع، وانغماسه في الشهوات والملذات، وتركه للحقوق والواجبات في المال، وما يندب فيه من البذل في سبل الخيرات، وإعانة المحتاجين، فهو الغنى المهلك لصاحبه.

وقد تعوَّذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتنه الغنى، وفتنة الفقر، كما جاء في (الصحيح): عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهزم، والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر، وعذاب القبر، ومن فتنة النار وعذاب النار، ومن شر فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر..» الحديث^(٢).

(١) انظر: أضواء البيان (٦٠/٧)، (٢١٤/٨).

(٢) صحيح البخاري [٦٣٦٨، ٦٣٧٥، ٦٣٧٧]، مسلم [٥٨٩].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "والتقييد في الغنى والفقر بالشر لا بد منه؛ لأن كلا منهما فيه خير باعتبار، فالتقييد في الاستعاذة منه بالشر يخرج ما فيه من الخير سواء قل أم كثر. قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: فتنة الغنى: الحرص على جمع المال وحبه حتى يكسبه من غير حله، ويمنعه من واجبات إنفاقه وحقوقه. وفتنة الفقر يراد به: الفقر المُدْفَع الذي لا يَصْحَبُهُ خَيْرٌ ولا وَرَعٌ حَتَّى يَتَوَرَّطَ صَاحِبُهُ بِسَبَبِهِ فيما لا يليق بأهل الدين والمروءة، ولا يبالي بسبب فاقته على أيِّ حَرَامٍ وَثَبَ، ولا في أيِّ حالة تَوَرَّطَ"^(١). وقال ابن بطل رَحِمَهُ اللهُ: "واستعاذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شر فتنة الغنى، وقد علم كل مؤمن أن الله تعالى قد أعاده من شر كل فتنة، وإنما دعاؤه بذلك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تواضعاً لله عَزَّجَلَّ، وتعليماً لأمته، وحرصاً لهم على إثبات الزهد في الدنيا"^(٢).

وقال بعض أهل العلم: قوله: «ومن شر فتنة الغنى»، وهي: البطر والطغيان، وتحصيل المال من الحرام، وصرفه في العصيان، والتفاخر بالمال والجاه، «ومن شر فتنة الفقر»، وهي: الحسد على الأغنياء، والطمع في أموالهم، والتذلل بما يُدَسُّ العِرض، وَيَتَلَمُّ الدين، وعدم الرضا بما قسم الله عَزَّجَلَّ له، وغير ذلك مما لا تحمد عاقبته.

ويمكن أن يقال: إن الفقر والغنى لذاتهما محمودان، وإن كان الجمهور على أن الفقر أسلم، وقد قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ

(١) فتح الباري (١١/١٧٧).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطل (١٠/١٦٠).

الدُّرَرُ وَالرُّسُلُ إِلَى سَبِيلِ النِّجَاةِ وَالْوَسَائِلُ إِلَى النَّجَاتِ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً

الجزء الثاني

حَيِّرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ [الإسراء: ٣٠]، ففي الآية إيماء إلى أن التسليم أفضل (١)، وأن بسط الرزق وتضييقه كل واحد يناسب بعض عباده دون بعض.

ومجمل الكلام: أن كل ما يقربك إلى الله عَزَّجَلَّ فهو مبارك عليك ومحمود، وكل ما يبعدك عن الله عَزَّجَلَّ فهو شؤم عليك، سواء كان فقرًا أو غنى (٢).
فإذا منَّ الله عَزَّجَلَّ على العبد بغنى لا يُطغي، وبفقر لا يُنسي، وكانت حاله وسطًا، وعبادته مستقيمة، وأحواله قويمه، فهذه هي السعادة.

١٢ - الوقاية من آفات الفقر المنسي والغنى المطغي والعلاج:

وعلاج الأثر الاقتصادي إنما يكون بالاعتقاد الإيماني؛ فإن له من الأثر ما ينقل المؤمن من حال إلى حال.

ومن أسباب الوقاية من آفات الفقر المنسي: السعي في طلب الرزق، ومكافحة البطالة، وشغل الفراغ.

فعلى المسلم أن يسعى في طلب الرزق، بلا هلع، ولا ضجر، ولا قلق، وليعلم أن أهم عامل في تحقيق الاستقرار المادي والنفسي هو التقوى، والسلوك الواعي في حدود ما أحلَّ الله عَزَّجَلَّ، وفي نطاق ما شرع، بلا إسراف ولا تبذير، ولا بخل ولا تقتير، ومن غير ظلم أو أكل لأموال الناس بالباطل. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ وَفْرًا مِمَّا يَشَاءُ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ﴾

(١) أي: التسليم والرضى بقضاء الله عَزَّجَلَّ وقدره.

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/١٧٠٥).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

[الطلاق: ٢-٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وإنَّ الإيمان يمنح الناس الأمن والأمان، ويورث القناعة والرضا.

والمعصية سببٌ في منع الرزق، أو سلب بركته، فقد يحرم المرء الرزق بالمعصية يرتكبها، أو قد يحرم البركة في الرزق، فيكون لديه المال الوفير ولا يحسن الانتفاع به، فيضيع المال في غير مصلحة، ويذهب من غير فائدة. قال الله عَزَّجَلَّ على لسان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١١﴾﴾ ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٢﴾ وَيُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٠٠-١٢].

ولكن ينبغي أن نعلم أنَّ على الفقير آدابًا عليه أن يراعيها:

منها: أن لا يكون في نفسه كراهية لما ابتلاه الله عَزَّجَلَّ به من الفقر، أعني: أنه لا يكون كارهًا فعل الله جَلَّ وَعَلَا من حيث إنه فعله - وإن كان كارهًا للفقر - كالمحجوم يكون كارهًا للحجامة؛ لتألمه بها، ولا يكون كارهًا فعل الحجام، ولا كارهًا للحجام، بل يشكر الحجام على ما فعله؛ لأنه يعلم فائدة الحجامة وأثرها عليه.

وعليه أن لا يفتقر بسبب الفقر عن عبادة، ولا يمنع الفقر من بذل ما يفضل عنه، يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرْ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا سَيِّجَعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق: ٧].

وقد تقدم أن في قوله جَلَّ وَعَلَا في وصف المتقين المسارعين إلى الخيرات: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]: إشارة إلى أن النفوس ينبغي أن تكون كريمة

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

مهما أُلحَّ عليها الفقر، وأن تتعوَّد الإحسان بقدر الطاقة، كما قال جَلَّ وَعَلَا في آية أخرى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧].
وعلاج الغنى المطغي يكون بأداء الحقوق والواجبات في المال، وبذله في سبل الخيرات، وإعانة المحتاجين، وشكر الله عَزَّجَلَّ على نعمه الوافرة، وعدم الاسترسال والإغراق في الشهوات التي تحول بين المسلم وبين وبين أدائه للحقوق والواجبات تجاه نفسه، وتجاه الآخرين، ولا يخفى أن الاسترسال في الشهوات له مضار ظاهرة وباطنة، وحسية ومعنوية، وفردية واجتماعية.

وقد شاءت إرادة الله عَزَّجَلَّ أن يجعل الإنسان خليفة في الأرض؛ ليقوم بعمارته، وأعطاه من النعم ما يعينه على القيام بهذه المهمة. وحيث إنَّ الإنسان مدنيٌّ بالطبع لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا بدَّ له من معاملة غيره، فقد أعطاه الله عَزَّجَلَّ نعمة المال، يتبادل بواسطته المنافع، ويقضي الحوائج.

ولأن كل شيء - من النعم والمتاع - ابتلاء واختبار من الله عَزَّجَلَّ، فقد جعل الله جَلَّ وَعَلَا المال من أعظم أنواع الابتلاء - كما تقدم بيان ذلك في أسباب (الوقاية من آفات ترك الزكاة والعلاج) - .

ومن أعظم أسباب الوقاية من مضارِّ الغنى المطغي والفقر المنسي: أن ينظر الإنسان في أمور الدنيا إلى من هو دونه، وأن يتطلَّع إلى من هو فوقه في البرِّ والطاعات، كما تقدم بيان ذلك في (وسائل تقوية الإيمان).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

١٣ - بيان عاقبة الصبر، وبيان أنه مفتاح الفرج:

إن للصبر نتائج كثيرة، وثمرات عظيمة، تدل على رفعة مكانته، وعظيم منزلة الصابرين، وأن العاقبة الحسنة لكل صابر محتسب، كما جاء بيان ذلك في آيات وأحاديث كثيرة، وقد تقدم ذكر كثير من ثمرات الصبر، فقد وعد الله عزَّجَلَّ الصابرين بأنه معهم بعنايته ورعايته، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ويَبِّنُ أن الصَّبر من أعظم أسباب النصر، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦-١٢٥].

وفي الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: كنت رديف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «يا غلام، أو يا غليم، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟» فقلت: بلى، فقال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء، يعرفك في الشدة، وإذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقدرُوا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك،

الدرر السبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

لم يقدرُوا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر،
وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»^(١).

(١) أخرجه أحمد [٢٨٠٣]، واللفظ له، بسند رجاله ثقات، وقد روي الحديث بأسانيد عن ابن عباس. كما روي عن أنس، وفيه: عبد الرحمن بن زاذان، وقد أورده الذهبي في (ميزان الاعتدال) (٥٦١/٢)، ترجمة [٤٨٦٤]، والحافظ في (لسان الميزان) (٤١٥/٣)، ترجمة [١٦٢٨]، كلاهما في ترجمة: عبد الرحمن بن زاذان، وقالوا: متهم روى حديثاً باطلاً، وذكرنا الحديث. ورواه الطبراني وغيره: عن عبد الله بن جعفر، قال الهيثمي (١٨٩/٧)، "وفيه علي بن أبي علي القرشي، وهو ضعيف". قال في (المقاصد): "حديث: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»، [أخرجه] الطبراني في (الكبير) من حديث: عيسى بن محمد القرشي، والعسكري في (الأمثال) من حديث: حجاج بن فرافصة، كلاهما عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس، قال: كنت ردف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالتفت إلي فقال: «يا غلام! احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف..» الحديث، وفيه: «قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدرُوا عليه، أو أرادوا أن يضروك بشيء، لم يقضه الله عليك، لم يقدرُوا عليه، وفيه: واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك. وما أخطاك لم يكن ليصيبك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً». ومن طريق الطبراني أورده الضياء في (المختارة)، وهو حسن، وله شاهد عند: عبد بن حميد من طريق: المثني بن الصباح، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس مرفوعاً: «يا ابن عباس! احفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده أمامك، وتعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة»، وذكره مطولاً، وسنده ضعيف، وأصل الحديث بدون لفظ الترجمة عند الترمذي، وصححه من حديث: حنش عن ابن عباس مرفوعاً، بل أخرجه أحمد، والطبراني، وغيرهما من هذا الوجه أيضاً بتمامه، وهو أصح وأقوى رجالاً، وقد بسطت الكلام عليه في (تخريج الأربعين) "المقاصد الحسنة (ص: ٢٥٦-٢٥٧).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

فبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن «النصر» من الله عَزَّوَجَلَّ للعبد على أعداء دينه وديناه إنما يكون «مع الصبر» على الطاعة، وعن المعصية، فهما أخوان شقيقان متلازمان، والثاني بسبب الأول. وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنه مع الصابرين، أي: بهدايته ونصره المبين، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَيْنَ صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. ومن خيريته لهم: كونه سبباً لنصرهم على أعدائهم، وأنفسهم؛ ولهذا لا يحصل الظفر لمن انتصر لنفسه غالباً. قال بعض العارفين: الصبر أنصر لصاحبه من الرجال، ومحلّه من الظفر محل الرأس من الجسد.

«والفرج» يحصل سريعاً. «مع الكرب» فلا يدوم معه الكرب، فعلى من نزل به أن يكون صابراً، محتسباً، راجياً سرعة الفرج حسن الظن بربه جَلَّوَعَلَا؛ فإنه أرحم من كل راحم. «وإن مع العسر يسراً» كما نطق به القرآن مرتين، ولن يغلب عسر يسرين؛ لأن النكرة إذا أعيدت تكون غير الأولى، والمعرفة عينها غالباً. قال البعض: وجعل «مع» على بابها هو الظاهر؛ إذ أواخر أوقات الصبر والكرب والعسر أوائل أوقات مقابلها، فتحققت المقارنة.

وقيل: إن نظر للعلم الأزلي فهي متقارنة؛ إذ لا ترتب فيه أو للوجود الحقيقي فمع بمعنى بعد لأن بينهما تضادا فلا تتصور المقارنة^(١)، وقيل غير ذلك. وأخبر أن الصبر من أسباب السلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠]. "فبين الحق جَلَّوَعَلَا

(١) فيض القدير (٦/٢٩٨).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

أنه مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، فبين أنه مع الصبر والتقوى يمدهم بالملائكة. وينصرهم على أعدائهم الذين يقاتلونهم. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، فأخبرهم أن أعداءهم من المشركين، وأهل الكتاب لا بد أن يؤذوهم بألسنتهم، وأخبر أنهم إن يصبروا ويتقوا ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [١٨٦]. فالصبر والتقوى يدفع شر العدو المظهر للعداوة، المؤذنين بألسنتهم، والمؤذنين بأيديهم، وشر العدو المبطن للعداوة، وهم المنافقون.. "(١).

وأخبر عن ثقة المؤمنين بنصر الله عَزَّوَجَلَّ الذي وعدهم إن استجابوا لأمره، وكانوا من الصابرين، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلِقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وبشر الصابرين بحسن العاقبة فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].
وجمع للصابرين أموراً لم يجمعها لغيرهم فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].
فعاقبة الصبر جامعة لخيري الدنيا والآخرة.
وقال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عاقبة الصبر:

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٥٠٧-٥٠٨).

الدراسات والأساليب النحوية

الجزء الثاني

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيِّئَةٌ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَىٰ الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ٢٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤].
وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ١١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النحل: ٤١].
[٤٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١١٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: ٧٥].
وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾ [الفرقان: ٧٥-٧٦].

فِيهَا حَسَنَاتٌ مُمْسَقًا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ [الفرقان: ٧٥-٧٦].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۗ وَنُكَفِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٦-٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَمِلِينَ ۗ﴾ [٥٨] الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ [العنكبوت: ٥٨-٥٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا يُقَلِّدُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُقَلِّدُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [٣٥] [فصلت: ٣٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَزَلْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

"فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييق جازاهم على ذلك: نعومة الحرير، وسعة الجنة. وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللهُ في هذه الآية: جزاهم بما صبروا عن الشهوات.."(١).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۗ﴾ [١٨] أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ [البلد: ١٧-١٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۗ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

(١) روضة المحبين، لابن القيم (ص: ٤٨٠).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

ومن أسباب الثبات: علم العبد بعاقبة الصبر وآثاره من جزيل الثواب، ومن محبة الله عَزَّجَلَّ للصابرين.

وفي الحديث: عن أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنْ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ فِيهِنَّ مِثْلُ: الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ»^(١).

و(أيام الصبر) بالإضافة، هي الأيام يعظم فيها أجر الصبر؛ لكثرة الفتن، واختلاط الأمور، مع كثرة المفسدين والمضللين، ووقوع البلاء والمحن.

(١) رواه ابن ماجه [٤٠١٤]، وأبو داود [٤٣٤١]، وزاد: قيل يا رسول الله: أجر خمسين رجلاً منا أو منهم، قال: «بل أجر خمسين منكم». كما أخرجه الترمذي [٣٠٥٨]، وقال: "حديث حسن غريب"، والحاكم [٧٩١٢]، وصححه، ووافقه الذهبي. قال السيوطي: "أخرج الترمذي، [وحسنه]، وابن ماجه، وابن جرير، والبعغوي في (معجمه)، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في (الشعب): عن أبي أمية الشعباني، قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني، فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أَيْتُهُ آيَةٌ؟ قال: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَنبَأُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «بل اتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْتَرَةً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، ودع عنك أمر العوام؛ فإن من ورائكم أيام الصبر، الصابر فيهن مثل: القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل: عملكم» الدر المنثور (٢١٥/٣).

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

قال الإمام أبو محمد الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ:

وهذا زمانُ الصَّبْرِ من لك بالتي كَقَبْضٍ على جَمْرٍ فَتَنَجُو من البَلا
ولو أنَّ عَيْنًا سَاعَدَتْ لَتَوَكَّفَتْ سَحَائِبُهَا بالدَّمْعِ دِيمًا وَهَطَلَا
ولكنَّها عن قَسْوَةِ القلبِ فَحَطُّهَا فِيا ضَيْعَةِ الأعمارِ تَمَثَّى سَبَهَلًا
فإذا كان حال زمانه مع ما فيه من الخير والصلاح فما نقول في زماننا؟! نسأل
الله السلامة والعافية.

والابتلاءُ سَنَةٌ من سننه الرِّبائِيَّةِ الجارية - كما تقرر في غير موضع -، كما قال
جَلَّ وَعَلَا: ﴿الْم ۝ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ۝﴾ [العنكبوت: ١-٣].
وفي وقت نزول البلاء، واشتداد الفتن يمحص الله عَزَّجَلَّ المؤمنين الصادقين من
الكاذبين، ويرفع درجات الصَّابرين والمخلصين منهم، ويعينهم على الثبات والاستقامة،
ويكفر عنهم الذُّنوب.

وفي ذلك تعليم للعباد على الصبر واحتمال الإيذاء؛ فإن من سنن الله عَزَّجَلَّ في
عباده الابتلاء؛ ليتحقق في المسلم معنى التكليف المتفرع عن عبوديته لله عَزَّجَلَّ.
وقد أوصى الرسل عَلَيْهِ السَّلَامُ أقوامهم بالصَّبْرِ على أئمة الجور، وما يقع عليهم من
الشدة والظلم؛ فإن العاقبة للمتقين، وسيهلك الله عَزَّجَلَّ أعدائهم.

ومن هذه الوصايا بالصبر على أئمة الجور: ما وقع لقوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من
شدة وقهر، فأمرهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالصبر، والاستعانة بالله عَزَّجَلَّ، والثقة به، وبشرهم
بالنصر وحسن العاقبة، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ

الرسالة السببية النجاة والسبب النجاة طيبة نافع

الجزء الثاني

لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرِكَ وَعَالِيَهُمْ وَنَسْتَحِيءُ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ [الأعراف: ١٢٧-١٢٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وبشر الله عَزَّوَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ بحسن العاقبة أيضاً في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ [الروم: ٤٧]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ﴿٣٤﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لُهُلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ﴿١٣﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

وقال: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ ﴿١١٠﴾ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١١٠﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ [غافر: ٥١]، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٦١﴾﴾ [المجادلة: ٢١].. إلى غير ذلك من الآيات.

ومن هذه الوصايا بالصبر على أئمة الجور: ما جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية»^(١).

وعن جنادة بن أبي أمية، قال: دخلنا على عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو مريض، فقلنا: حدثنا أصلحك الله، بحديث ينفع الله به سمعته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: دعانا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا: «أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نَنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»، قال: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بَرَهَانٌ»^(٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "في هذه الأحاديث حجة في ترك الخروج على أئمة الجور، ولزوم السمع والطاعة لهم. والفقهاء مجمعون على أن الإمام المتغلب طاعته لازمة، ما أقام الجمعات والجهاد، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء، ألا ترى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «سترون بعدى أثره وأموراً تنكروها» فوصف أنهم سيكون عليهم أمراء يأخذون منهم الحقوق،

(١) صحيح البخاري [٧٠٥٣، ٧٠٥٤، ٧١٤٣]، مسلم [١٨٤٩].

(٢) صحيح البخاري [٧٠٥٥، ٧٠٥٦]، مسلم [١٧٠٩].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

ويستأثرون بها، ويؤثرون بها من لا تجب له الأثرة، ولا يعدلون فيها، وأمرهم بالصبر عليهم، والتزام طاعتهم على ما فيهم من الجور"^(١).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "وفيه: الحث على السمع والطاعة، وإن كان المتولي ظالماً عسواً فيعطى حقه من الطاعة، ولا يخرج عليه، ولا يخلع، بل يتضرع إلى الله تعالى في كشف أذاه، ودفع شره وإصلاحه. والمراد بالأثرة: استئثار الأمراء بأموال بيت المال"^(٢).

وقال العلامة السندي رَحِمَهُ اللهُ: "يعني: أن الأمراء يفضلون عليكم غيركم في العطايا والولايات والحقوق"^(٣).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩]: "واصبر على دعوتهم واحتمل أذاهم وإعراضهم حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ لك بالنصرة عليهم والغلبة. وروى أنها لما نزلت جمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأنصار فقال: «إنكم ستجدون بعدي أثره»^(٤)،

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٧-٨).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/٢٣٢).

(٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/٢٠٣).

(٤) "أثرة" بفتح الهمزة والمثلثة في جميع النسخ الموجودة. وفي (القاموس): «أثرة» بضم الهمزة وسكون الثاء ويفتحهما أيضاً. وفي (شرح مسلم للنووي): (الأثرة): بفتح الهمزة والثاء، ويقال: بضم الهمزة وإسكان الثاء، وبكسر الهمزة وإسكان الثاء، ثلاث لغات" مرقاة المفاتيح (٦/٢٣٩٧).

الدرر السبيل إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

.... فاصبروا حتى تلقوني»^(١)، يعني: أُنِي أُمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامتني الكفرة فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة»^(٢).

وفي رواية: عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنكُمْ سترون بعدي أثره وأموراً تنكرونها»، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم»^(٣).

والصبر مفتاح الفرج، وخير ما يستعان به في النوازل، وهو أعظم أسباب النجاة، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ١١٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

قال عبد الله المكناسي رَحِمَهُ اللَّهُ: كنت عند الجنيد، فأتت امرأة إليه، وقالت: ادع الله عَزَّجَلَّ أن يرِدَّ عليَّ ابني؛ لي فإن ابناً لي ضاع، فقال: اذهبي واصبري، فمضت، ثم عادت، فقالت: مثل ذلك، فقال لها الجنيد: اذهبي واصبري، فمضت، ثم عادت، ففعلت مثل ذلك مرات، والجنيد يقول لها: اصبري، فقالت: عيل صبري، ولم يبق لي

(١) جاء في الحديث: عن أنس بن مالك، عن أسيد بن حضير أن رجلاً من الأنصار قال: يا رسول الله، ألا تستعلمني كما استعملت فلاناً؟ قال: «ستلقون بعدي أثره، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» صحيح

البخاري [٣٧٩٢]، مسلم [١٨٤٥].

(٢) الكشاف (٣٧٥/٢).

(٣) صحيح البخاري [٧٠٥٢].

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

طاقة عليه، فادع لي، فقال لها الجنيد: إن كان كما قلت: فاذهبي فقد رجع ابنك، فمضت فوجدته، ثم عادت تشكر له، فقيل للجنيد: لم عرفت ذلك؟ فقال: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]"^(١).

١٤ - التلازم بين الصبر والشكر:

ذكر غير واحد من الأئمة رَحِمَهُمُ اللهُ وجه التلازم بين الصبر والشكر، فمن ذلك: قول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "الشكر واجب، وترك الواجب حرام، وفي شغل النفس بفعل الواجب صبر على فعل الحرام، والحاصل أن الشكر يتضمن الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية. قال بعض الأئمة: الصبر يستلزم الشكر لا يتم إلا به، وبالعكس فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، فمن كان في نعمة ففرضه: الشكر والصبر، أما الشكر فواضح، وأما الصبر فعن المعصية، ومن كان في بلية ففرضه: الصبر والشكر، أما الصبر فواضح، وأما الشكر فالقيام بحق الله عَزَّوَجَلَّ عليه في تلك البلية؛ فإن لله جَلَّ وَعَلَا على العبد عبودية في البلاء، كما له عليه عبودية في النعماء"^(٢).

ومن ذلك: قول الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية وفيهما يتحد الصبر والشكر؛ لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة؛ لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله عَزَّوَجَلَّ إلى ما هو المقصود منها بالحكمة، والصبر

(١) الأعمال الكاملة، للجنيد البغدادي (ص: ١٤٢-١٤٣)، الرسالة القشيرية (ص: ٤٢١-٤٢٢).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٣٠٥/١١)، وانظر: الكواكب الدراري (٢٢٨/٢٢).

الدراسة والأسباب النجاة

الجزء الثاني

يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين، فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى: (صبراً) بالإضافة إلى باعث الهوى، ويسمى: (شكراً) بالإضافة إلى باعث الدين؛ إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة، وهو أن يصرع به باعث الشهوة، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه؟!^(١).

ومن ذلك: قول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "إن العبد لا يخلو قط من أن يكون في نعمة أو بلية، فإن كان في نعمة ففرضها: الشكر والصبر. أما الشكر فهو قيدها وثباتها، والكفيل بمزيدتها، وأما الصبر فعن مباشرة الأسباب التي تسلبها، وعلى القيام بالأسباب التي تحفظها، فهو أحوج إلى الصبر فيها من حاجة المبتلى. ومن هنا يعلم سر مسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر، وأن كلاً منهما محتاج إلى الشكر والصبر، وأنه قد يكون صبر الغنى أكمل من صبر الفقير. كما قد يكون شر الفقير أكمل، فأفضلهما: أعظمهما شكراً وصبراً، فإن فضل أحدهما في ذلك فضل صاحبه.

فالشكر مستلزم للصبر لا يتم إلا به، والصبر مستلزم للشكر لا يتم إلا به. فمتى ذهب الشكر ذهب الصبر، ومتى ذهب الصبر ذهب الشكر، وإن كان في بلية ففرضها الصبر والشكر أيضاً: أما الصبر فظاهر، وأما الشكر فللقيام بحق الله عَزَّوَجَلَّ عليه في تلك البلية؛ فإن لله جَلَّوَعَلَا على العبد عبودية في البلاء كما له عليه عبودية في النعماء،

(١) إحياء علوم الدين (٤/١٣٩).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وعليه أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا. فعلم أنه لا انفكاك له عن الصبر، ما دام سائرًا إلى الله عَزَّجَلَّ" (١).

وأخبر الله عَزَّجَلَّ أن الصبر والشكر من أسباب التدبر والاعتبار، والإجابة إلى الواحد القهار فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَىٰ فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ٣١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورى: ٣٢-٣٣].

ثالثًا: تعريف الشكر وبيان مكانته ومنازله وأركانه وعاقبته:

١ - تعريف الشكر وبيان الفرق بينه وبين الحمد، وذكر درجاته ومراتبه:

أ. بيان حقيقة الشكر:

قال أهل اللغة: أصل الشكر: تصور النعمة، وإظهارها والتحدث بها.

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١].

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٦٥).

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

وذكر بعض أهل اللغة أن أصل الشكر: الظهور؛ ومنه قولهم: دابة شكور: إذا ظهر عليها من السمن على القليل من العلف، فالشكور من البهائم الذي يأكل قليلاً ويظهر به بدنه، وقد قيل: سمى الله عزَّجَلَّ نفسه: ﴿شَاكِرًا﴾ [النساء: ١٤٧]؛ لأنه يرضى ويتقبل القليل من العمل وينميهِ، وذلك، بعد رتبة التوحيد، فذلك شكر منه لعباده.

قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "الشكر: الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف. يقال: شكرته وشكرت له، وباللام أفصح، و(الشكران) خلاف الكفران. و(الشكر) - بالضم -: عرفان الإحسان، ومن الله عزَّجَلَّ: المجازاة والثناء الجميل" (١).

وقال الإمام أبو القاسم الجنيد رَحِمَهُ اللهُ: كنت بين يدي سري السقطي رَحِمَهُ اللهُ، وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام ما الشكر؟ قلت: ألا تعصي الله عزَّجَلَّ بنعمه، فقال لي: أحشى أن يكون حظك من الله عزَّجَلَّ لسانك، قال الجنيد رَحِمَهُ اللهُ، فما أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها لي السري رَحِمَهُ اللهُ.

وقال سري رَحِمَهُ اللهُ للجنيد رَحِمَهُ اللهُ: يا أبا القاسم ما الشكر؟ فقال: ألا يستعان بشيء من نعم الله عزَّجَلَّ على معاصيه، فقال سري رَحِمَهُ اللهُ: من أين لك هذا؟ فقال الجنيد رَحِمَهُ اللهُ: من مجالستك.

وقال الجنيد رَحِمَهُ اللهُ: فرض الشكر: الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان.

(١) انظر: الصحاح، مادة: (شكر) (٧٠٢/٢)، الكشف والبيان (٤٠٦/٣-٤٠٧)، الكليات (ص: ٥٣٤)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٦٠/١-٢٦١).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقال: الشكر ألا ترى نفسك أهلاً للنعمة.

والشكر معه المزيد أبداً. لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فمتى

لم تر حالك في مزيد. فاستقبل الشكر "(١)".

وقال الإمام أبو القاسم القشيري رَحِمَهُ اللهُ في بيان حقيقة الشكر، وذلك في تفسيره

لقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، "أي: والله شاکر عليم، ومعنى

كونه ﴿شَاكِرًا﴾: أنه مادح للعبد، ومشهد عليه فيما يفعله (٢)؛ لأن حقيقة الشكر

وحده: الثناء على المحسن بذكر إحسانه، فالعبد يشكر الله عَزَّجَلَّ، أي: يثني عليه بذكر

إحسانه إليه الذي هو نعمته عليه، والربُّ جَلَّ وَعَلَا يشكر للعبد بأن يثني عليه بذكر

إحسانه الذي هو طاعته له، فإن الله عَزَّجَلَّ يثني عليه بما يفعله من الطاعة، مع علمه

بأن له ذنوباً كثيرة.

ويقال: يشكره - وإن علم أنه سيرجع في المستأنف إلى قبيح أعماله - "(٣)".

وقال: وحقيقة الشكر - على لسان العلماء - : الاعتراف بنعمة المنعم على جهة

الخشوع. والأحسن أن يقال: الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه، فيدخل

في هذا: شكر الله عَزَّجَلَّ للعبد؛ لأنه ثناء منه على العبد بذكر إحسان العبد، وشكر

(١) الأعمال الكاملة، للجنيد البغدادي (ص: ١٣٦-١٣٧)، طبعة دار الشروق، وانظر: مدارج السالكين

(٢/٢٣٦)، الرسالة القشيرية (ص: ٣١١-٣١٦)، بصائر ذوي التمييز (٣/٣٣٩).

(٢) أي: يشهد ملائكته على ما يقوم به العبد من الأفعال الجليلة التي تقربه من الله عَزَّجَلَّ، كما جاء في غير

حديث.

(٣) تفسير القشيري (لطائف الإشارات) (١/٣٨٠).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

العبد ثناء على الله عَزَّجَلَّ بذكر إحسانه، إلا أن إحسان الحق هو إنعامه، وإحسان العبد طاعته وخدمته لله عَزَّجَلَّ، وما هو الحميد من أفعاله.
فأمّا على طريق أهل المعاملة وبيان الإشارة: فالشكر صرف النعمة في وجه الخدمة.

ويقال: الشكر ألا تستعين بنعمته على معاصيه.
ويقال: الشكر شهود المنعم من غير مساكنة إلى النعمة.
ويقال: الشكر رؤية العجز عن الشكر.
ويقال: أعظم الشكر: الشكر على توفيق الشكر.
ويقال: الشكر على قسمين: شكر العوام على شهود المزيد، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيْنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وشكر الخواص يكون مجردًا عن طلب المزيد، غير متعرض لمنال العوض.

ويقال: حقيقة الشكر: قيد النعم وارتباطها؛ لأن بالشكر بقاءها ودوامها^(١).
وقال الحارث المحاسبي رَحِمَهُ اللهُ: "أصل الشكر: أن يعرف العبد أن ما به من نعمة فمن الله عَزَّجَلَّ بقلبه، علم يقين لا تخالطه الشكوك، فإذا عرف بقلبه ذلك ذكره بلسانه، فحمده عليه، ثم لم يستعن بشيء من نعم المنعم على شيء مما يكره المنعم.

(١) المصدر السابق (٣/٣٩-٤٠).

الدرر والاسرار في السبل النجاة

الجزء الثاني

وأعلا من ذلك من الشكر: أن تعد كل بلاء نزل بك نعمة؛ لأن الله عزَّ وجلَّ من البلاء ما أنزله بغيرك أشد وأعظم من الذي أنزله بك، والناس يحتاجون عند ذلك إلى الصبر، وهو قائم بالشكر^(١).

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "أصل الشكر هو: الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له، والذل، والمحبة، فمن لم يعرف النعمة، بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدتها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بما فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدتها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرض به وعنه لم يشكرها أيضاً، ومن عرفها وعرف المنعم بها، وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه، ورضى به وعنه، واستعملها في محابته وطاعته، فهذا هو الشاكر لها"^(٢).

وقال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: "وقد اختلف السلف في حدِّ الشكر فقال بعضهم: شكر العبد لربه جلَّ وعلا: رضاه بقضائه، وتسليمه لأمره فيما نابه من خير أو شر. ذكره الربيع بن أنس رَحِمَهُ اللهُ عن بعض أصحابه.

وقال آخرون: الشكر لله عزَّ وجلَّ هو الإقرار بالنعمة أنها منه، وأنه المتفضل بها، وقالوا: الحمد والشكر بمعنى واحد، روى ذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وابن زيد رَحِمَهُ اللهُ.

(١) آداب النفوس، للحارث بن أسد المحاسبي (ص: ٦٦-٦٧).

(٢) طريق المهجرتين وباب السعادتين (ص: ٩٥)، وانظر ما قيل في حدِّ الشكر في (مدارج السالكين) (٢/٢٣٤-٢٣٦).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: والصواب في ذلك أن شكر العبد هو: إقراره بأن ذلك من الله عَزَّجَلَّ دون غيره، إقرارًا بحقيقة الفعل، وبصدقه العمل. فأما الإقرار الذي يكذبه العمل؛ فإن صاحبه لا يستحق اسم: (الشاكر) بالإطلاق، ولكنه يقال: شكر باللسان، والدليل على صحة ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، ومعلوم أنه لم يأمرهم؛ إذ قال لهم ذلك، بالإقرار بنعمه؛ لأنهم كانوا لا يجحدون أن يكون ذلك تفضلاً منه عليهم، وإنما أمرهم بالشكر على نعمه بالطاعة له بالعمل، وكذلك قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين تفترت قدماه في قيام الليل: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

فإن قال قائل: فأبي المنزلتين أعلى درجة: الصبر أو الشكر؟

قيل: كلُّ رفيع الدرجة، شريف المنزلة، وما ذو العافية والرِّخاء كذي الفاقة والبلاء، وفي قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وخصوصه إياهم من الأجر على صبرهم دون سائر من ضمن له ثواباً على عمله: ما يبين فضل الصبر..^(١).

ولكن ذلك الجزاء على الصَّبْرِ لا يكون إلا إذا كان مقترناً بالشكر، والأجر يعظم على قدر البلاء الذي يصيب العبد، وهو صابر شاكر.

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٨٣-١٨٤).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وروي عن الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يُؤْتِي
الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]: "هو الصبر على فجاج الدنيا وأحزانها،
وقد بلغني أن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد"^(١).

وقد قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الصبر: نصف الإيمان، واليقين:
الإيمان»^(٢). وقد تقدم بيانه.

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «الطَّاعِم
الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ»^(٣).

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

(٣) الحديث رواه سعيد المقبري، عن أبي هريرة، وقد أخرجه: معمر بن أبي عمرو راشد في (جامعه) [١٩٥٧٣]، والترمذي [٢٤٨٦]، وقال: "حديث حسن غريب"، كما أخرجه: أبو يعلى [٦٥٨٢]، وابن خزيمة [١٨٩٨]، وابن حبان [٣١٥]، والحاكم [٧١٩٤]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [٨٥١٨]، والبعثي في (شرح السنة) [٢٨٣٢]. قال البيهقي: "ورويناه من حديث: المقبري، وحنظلة بن علي، عن أبي هريرة، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير شك" (شعب الإيمان)، للبيهقي [٤١٤٧] [٢٦٣/٦]. قال الحافظ العراقي: "علقه البخاري، وأسنده الترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن حبان، من حديث: أبي هريرة، ورواه ابن ماجه من حديث: سنان بن سنة، وفي إسناده اختلاف" المغني عن حمل الأسفار (ص: ١٤٢١). انظر طرق الحديث في (شعب الإيمان)، للبيهقي [٤١٤٧] [٢٦٣/٦]، وفي (تغليق التعليق على صحيح البخاري)، للحافظ ابن حجر (٤/٤٩١).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال الشيخ الكرمانى رَحِمَهُ اللهُ: "أى: الذي يأكل ويشكر الله عَزَّجَلَّ ثوابه مثل ثواب الذي يصوم ويصبر على الجوع. قيل الشكر نتيجة النعماء، والصبر نتيجة البلاء، فكيف شبه الشاكر بالصابر؟ أجيب: بأن التشبيه في أصل الاستحقاق لا في الكمية والكيفية، ولا يلزم المماثلة في جميع الوجوه.

وقال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: ربما توهم متوهم أن ثواب الشكر يقصر عن ثواب صبر الصائم، فأزيل توهمه به، يعني: هما سيان في الثواب، ولأن الشاكر لما رأى النعمة من الله عَزَّجَلَّ، وحبس نفسه على محبة المنعم بالقلب، وإظهارها باللسان نال درجة الصابر. ووجه الشبه: اشتراكها في حبس النفس، فالصابر يحبس نفسه على طاعة المنعم، والشاكر يحبس نفسه على محبته، وفيه: حث على شكر الله عَزَّجَلَّ على جميع نعمه؛ إذ لا يختص بالأكل، وتفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر؛ لأن الأصل أن المشبه به أعلى درجة"^(١).

ب. معنى شكر الله عَزَّجَلَّ للعبد:

شكر الله عَزَّجَلَّ للعبد هو ثناؤه عليه، ومجازاته بأحسن الجزاء. وقد تقدم حديث: الرجل الذي أحرَّ غصن شوك عن الطريق فشكر الله له، فغفر له، وحديث: الذي سقى كلبًا يأكل الثرى من العطش فَشَكَرَ اللهُ، فغفر له.

(١) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٦٦/٢٠)، وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢٨٥٣/٩)، فيض القدير (٥٠٠/٢).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

فمعنى: «فشكر الله له»؛ أي: رضي فعله ذلك، وأثابه عليه بالأجر، والثناء الجميل.

ج. الفرق بين الشكر والحمد:

ذكر الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ: أن الفرق بين الحمد والمدح من وجوه:
الأول: أن المدح قد يحصل للحي ولغير الحي، ألا ترى أن من رأى لؤلؤة في غاية الحسن، أو ياقوتة في غاية الحسن فإنه قد يمدحها، ويستحيل أن يحمدها، فثبت أن المدح أعم من الحمد.

الوجه الثاني: في الفرق: أن المدح قد يكون قبل الإحسان، وقد يكون بعده، أما الحمد فإنه لا يكون إلا بعد الإحسان.

الوجه الثالث: في الفرق: أن المدح قد يكون منهياً عنه، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالسَّلَامُ: «احتوا التراب في وجوه المداحين»^(١). أما الحمد فإنه مأمور به مطلقاً.

(١) الحديث في (صحيح مسلم) [٣٠٠٢]: عن أبي معمر، قال: قام رجل يثني على أمير من الأمراء، فجعل المقداد يثني عليه التراب، وقال: «أمرنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن نثني في وجوه المداحين التراب»، عن همام بن الحارث، أن رجلاً جعل يمدح عثمان، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه، وكان رجلاً ضخماً، فجعل يثني في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا رأيتم المداحين، فاحتوا في وجوههم التراب». والحديث ورد بلفظ: «احتوا التراب في وجوه المداحين»، وهو مروى عن المقداد بن الأسود، وعن ابن عمر، وعن أبي هريرة. وورد كذلك بلفظ: «احتوا في أفواه المداحين التراب».

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

الوجه الرابع: أن المدح عبارة عن القول الدال على كونه مختصاً بنوع من أنواع الفضائل، وأما الحمد فهو القول الدال على كونه مختصاً بفضيلة معينة، وهي فضيلة الإنعام والإحسان، فثبت بما ذكرنا أن المدح أعم من الحمد. وأما الفرق بين الحمد وبين الشكر، فهو أن الحمد يعم ما إذا وصل ذلك الإنعام إليك أو إلى غيرك، وأما الشكر فهو مختص بالإنعام الواصل إليك.

قالوا: المدح: عبارة عن القول الدال على أنه مختص بنوع من أنواع الفضائل باختياره وبغير اختياره، والحمد: قول دال على أنه مختص بفضيلة اختيارية معينة، وهي: فضيلة الإنعام إليك وإلى غيرك، ولا بد أن يكون على جهة التفضيل لا على سبيل التهكم والاستهزاء، والشكر على النعمة الواصلة إليك خاصة وهو باللسان، وقد يكون بالقلب والجوارح. قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

والحمد باللسان وحده فهو إحدى شعب الشكر^(١).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "الحمد: هو الثناء بالفضيلة. والشكر: مقابلة النعمة قولاً

وعملاً.

ولما كانت النعمة لا تخرج من كونها فضيلة، صار الحمد منطوقاً على معنى:

الشكر.

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١/١٩٠-١٩١)، وانظر: الكشاف (١/٨)، غرائب القرآن (١/٩٣)، روح المعاني

(١/٧٢)، حاشية الطيبي على الكشاف (١/٧١٧-٧٢٦)، حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي

(١/١٥٧).

الدرر السابغة في النجاة

الجزء الثاني

وعلى هذا فالحمد أخص من المدح، وأعم من الشكر؛ فإنَّ المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يقال منه وفيه بالتسخير، فقد يمدح الإنسان بطول قامته، وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله، وسخائه، وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأول، والشُّكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة، فكلُّ شكر حمد، وليس كل حمد شكرًا، وكل حمد مدح، وليس كل مدح حمدًا^(١)؛ وعلى هذا جاز أن يمدح الله عزَّ وجلَّ على صفته، بأنه عالم قادر، ولم يجوز أن يحمد به؛ لأن العلم والقدرة من صفات ذاته، لا من صفات أفعاله، ويجوز أن يمدح ويحمد على صفته، بأنه خالق رازق؛ لأن الخلق والرزق من صفات فعله، لا من صفات ذاته.

وقال الشيخ أبو سليمان الخطابي رحمه الله: "الحمد: نوع، والشكر جنس، فكل حمد شكر، وليس كل شكر حمدًا.
قال: وهو على ثلاثة منازل:

١ - (شكر القلب): وهو الاعتقاد بأن الله عزَّ وجلَّ ولي النعم، قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (٥٢/١)، المفردات، مادة: (حمد) (ص: ٢٥٦)، وانظر: التعريفات، للشريف الجرجاني (ص: ١٢٨)، معجم الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (ص: ٣٠١).

اللسان إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

٢ - و(شكر اللسان): وهو إظهار النعمة بالذكر لها، والثناء على مسديها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وهو رأس الشكر المذكور في الحديث (١).

٣ - و(شكر العمل): وهو إدآب (٢) النفس بالطاعة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَعْمَلُوا عَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]. وقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تفترت قدماه فقبل له: يا رسول الله أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» (٣).

وقد جمع الشاعر أنواعه الثلاثة فقال:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

(١) يعني: ما روي عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لا يحمد» أخرجه معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي في (جامعه) [١٩٥٧٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٠٨٥]، والديلمي [٢٧٨٤]، والبغوي في (شرح السنة) [١٢٧١]، قال المناوي (٤١٨/٣): "قال المصنف (يعني: السيوطي) في (شرح التقريب): "رواه الخطابي في (غريبه)، والديلمي في (الفردوس)، بسند رجاله ثقات، لكنه منقطع".

(٢) قال الزجاج: "اللدأب): الملازمة للشيء والعادة" معاني القرآن وإعرابه (١١٤/٣). وقال القاضي عياض: "و(الدأب): الملازمة للشيء، والاعتناء به. وقيل: (الدأب) مثل: الأمر والشأن" مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢٥٢/١).

(٣) تقدم.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني



ويقال: إن الحمد ما كان على غير مقابلة، والشكر عن مقابلة^(١).
وقال القاضي عياض رَحْمَةُ اللَّهِ: "الشكر والحمد بمعنى، لكن الحمد أعم، فكل شاكر حامد، وليس كل حامد شاكرًا"^(٢).
قال بعضهم: (الشكر بالقلب)، وهو التسليم...، و(باللسان)، وهو الاعتراف..، و(شكر العمل)، هو الدوام على طاعة الله عَزَّجَلَّ.."^(٣).
وقال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ: "تكلم الناس في الفرق بين الحمد والشكر أيهما أعلى وأفضل؟ وفي الحديث: «الحمد رأس الشكر، فمن لم يحمد الله لم يشكره»^(٤).
والفرق بينهما: أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته. والحمد أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.
ومعنى هذا: أن الشكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانة، وباللسان ثناءً واعتزافًا، وبالجوارح طاعةً وانقيادًا. ومتعلقه: النعم، دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله عَزَّجَلَّ على حياته وسمعه وبصره وعلمه. وهو المحمود عليها، كما هو محمود على إحسانه وعدله، والشكر يكون على الإحسان والنعم.

(١) غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (٣٤٦/١)، وانظر: التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٤٧٠/١).

(٢) "وربما جعل الحمد مكان: الشكر، ولا يجعل الشكر مكان الحمد" انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، لأبي عبد الله الحميدي (ص: ٤٤٩-٤٥٠).

(٣) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض (٢٥٢/٢).

(٤) تقدم تخريجه.

الدرر والاسرار النجاة والسائل الناجع حياة طيبة نافعة



الجزء الثاني

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس؛ فإن الشكر يقع بالجوارح، والحمد يقع بالقلب واللسان^(١).

وفي أسماء الله عزَّجَل: (الحميد)، أي: المحمود على كل حال، فعيل بمعنى: مفعول. قال مجد الدين ابن الأثير رحمه الله: "والحمد والشكر متقاربان، والحمد أعمهما؛ لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية، وعلى عطائه، ولا تشكره على صفاته"^(٢). قالوا: "والحمد رأس الشكر"^(٣)، كما أن كلمة الإخلاص، وهي: (لا إله إلا الله) رأس الإيمان، وإنما كان رأس الشكر؛ لأن فيه: إظهار النعمة، والإشادة بها؛ ولأنه أعم منه، فهو شكر وزيادة"^(٤). وقال بعض الشراح: الحمد باللسان وحده، والشكر به وبالقلب والجوارح، فهو إحدى شعب الشكر، ورأس الشيء بعضه، فهو من هذه الجهة بعض الشكر، وجعل رأسه؛ لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليتها أشيع لها، وأدل على مكانها لحنفاء الاعتقاد، ولما في أعمال الجوارح من الاحتمال، بخلاف عمل اللسان، وهو النطق الذي يفصح عن الكل^(٥).

(١) مدارج السالكين (٢/٢٣٦-٢٣٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (حمد) (١/٤٣٦-٤٣٧).

(٣) لما روي من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لا يحمده»، وقد تقدم.

(٤) انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، لأبي عبد الله الحميدي (ص: ٤٤٩-٤٥٠)، النهاية في غريب

الحديث والأثر، مادة: (حمد) (١/٤٣٦-٤٣٧)، شرح السنة، للبغوي (٥/٥٠-٥٢)، شرح الطيبي

على مشكاة المصابيح (٦/١٨٢٦).

(٥) انظر: مرقاة المفاتيح (٤/١٥٩٩).

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

ولكنهم اختلفوا: أيهما أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق: أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمدته لفروسيته، وحمدته لكرمه. وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون بالقول والعمل والنية - كما تقدم -، وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إلي. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين - والله أعلم -.

وأما المدح فهو أعم من الحمد؛ لأنه يكون للحي وللमित وللجماد، كما يمدح الطعام والمال ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضًا فهو أعم^(١).

وبيان ما ذكره بعض المتأخرين من قولهم: الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري، أي: الصفات والأفعال الاختيارية التي يفعلها الشخص، يعني: أن الإنسان له أفعال اختيارية، وأفعال اضطرارية، فالجمال -مثلًا- ليس اختياريًا، فلا مدخلية

(١) تفسير ابن كثير (١/١٢٨-١٢٩).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

للإنسان في جمال الوجه -مثلاً-. فلا أقول: أحمدك على جمالك، وإنما أحمدك على كرمك.

فالحمد في مقابلة الجميل الاختياري، ولا يكون في مقابلة الاضطراري. أما الثناء على الاضطراري فيسمى: مدحًا، فيقال: أمدحك على جمالك وحسنك، وسواد شعرك... إلى غير ذلك.

فالحمد يكون على الجميل الاختياري، فيحمد الله عَزَّوَجَلَّ على لطفه، ورحمته، وإحسانه. وأما المدح فإنه يكون على الاختياري والاضطراري، كما يمدح الإنسان على جمال وجهه، وهو ليس فعله، وعلى إحسانه الذي هو عمله الاختياري، والثناء: المدح وتكراره مرة بعد مرة.

فالحمد يعمُّ الفضائل والفواضل دون الشكر؛ فإنه يختص بالفواضل. والفضائل هي: المزايا الذاتية القاصرة التي لا يتوقف تعقلها على تعدي أثرها للغير، كالحُسن (الجمال) والعلم. والفواضل هي: المزايا المتعدية، وهي: التي يتوقف تعقلها على تعدي أثرها للغير، كالإنعام والتعليم.

والمدح هو الثناء باللسان على الجميل مطلقًا، أي: سواء كان اختياريًا أم اضطراريًا، أي: سواء كان على العلم والكرم، أو على التعليم والإكرام. والحمد يصدر من اللسان.

والشكر يكون من اللسان والأفعال والقلب، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

فالشكر أعم من حيث مورده، فهو يكون ثلاثة أماكن، من: (اللسان والأفعال والقلب).

وأما الحمد فهو من مكان واحد، وهو اللسان. فالشكر أعم موردًا، وأخص من حيث المتعلق؛ لأن الشكر يختص بالفواضل، والحمد بالفواضل والفضائل، بمعنى: أن الشكر ينفرد في شيء، والحمد ينفرد في شيء، فبينهما عموم وخصوص من وجه. فهذا حاصل ما قيل.

د. منازل الشكر ودرجاته:

تقدم في كلام الشيخ أبي سليمان الخطابي، وكلام القاضي عياض رَحِمَهُمَا اللهُ أن الشكر على ثلاث منازل: شكر القلب، وشكر اللسان، وشكر العمل.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: "الشكر على درجتين:

إحدهما: واجب، وهو أن يأتي بالواجبات، ويتجنب المحارم، فهذا لا بد منه. والدرجة الثانية: الشكر المستحب، وهو أن يعمل العبد بعد أداء الفرائض واجتناب المحارم بنوافل الطاعات، وهذه درجة السابقين المقربين، وهي التي أرشد إليها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (١).

قال الهروي رَحِمَهُ اللهُ: "الشكر على ثلاث درجات:

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/٨٣-٩٢).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

الدرجة الأولى: الشكر في المحاب:

وهذا شكر شاركت المسلمين فيه: اليهود، والنصارى، والمجوس، ومن سعة برّ
الباري جَلَّ وَعَلَا: أنه عدّه شكراً، ووعد عليه الزيادة، وأوجب له المثوبة.

والدرجة الثانية: الشكر في المكاره:

وهذا ممن تستوي عنده الحالات؛ إظهاراً للرضا، وممن يميز بين الأحوال، كظما
للشكوى، ورعاية للأدب، وسلوك مسلك العلم، يعني: أن الشكر على المكاره: أشد
وأصعب من الشكر على المحاب؛ ولهذا كان فوقه في الدرجة.

والدرجة الثالثة: أن لا يشهد العبد إلا المنعم:

فإذا شهد المنعم عبودية: استعظم منه النعمة، وإذا شهد حباً: استحلى منه
الشدّة، وإذا شهد تفريداً: لم يشهد منه نعمة، ولا شدّة، وإلى مقام مشاهدته حباً،
واستحلاء الشدة منه.

وهذه الدرجة يستغرق صاحبها بشهود المنعم عن النعمة. فلا يتسع شهوده
للمنعم ولغيره.

وقد فصل القول في ذلك وبينه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في (مدارج
السالكين)^(١).

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/٢٤٢-٢٤٣)، منازل السائرين (ص: ٥٣-٥٤).

الدرر السابغ إلى السبب النجاة

الجزء الثاني

هـ. أركان الشكر:

قال الهروي رَحِمَهُ اللهُ: "ومعاني الشكر ثلاثة أشياء: معرفة النعمة، ثم قبول النعمة، ثم الثناء بها"^(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في (الوابل الصيب): "السعادة بثلاث: شكر النعمة، والصبر على البلاء، والتوبة من الذنب؛ فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد، وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفك عبد عنها أبدًا.

قال: والشكر مبني على ثلاثة أركان:

١ - الاعتراف بها باطنًا.

٢ - والتحدث بها ظاهرًا.

٣ - وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها ومعطيها جَلَّ وَعَلَا.

فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكرها"^(٢).

وقال في (المدارج): "والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور،

وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناءه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس: هي أساس الشكر، وبنائها عليها، فمتى عدم منها واحدة: اختل

من قواعد الشكر قاعدة.

وكل من تكلم في الشكر وحده، فكلامه إليها يرجع. وعليها يدور.

أما معرفتها: فهو إحضارها في الذهن ومشاهدتها وتمييزها.

(١) منازل السائرين (ص: ٥٣).

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٥-٦).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وقبولها: هو تلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة إليها، وأن وصولها إليه بغير استحقاق منه^(١).

٢ - الشكر من أعظم المنجيات من سوء العاقبة:

تقدم أن عاقبة المؤمن هي خير له على كل حال، سواء كان ما أصابه سرّاً، أم ضرّاً؛ إذ يُثاب على كلِّ أحواله، ففي السرِّاء يُثاب على شكره، وفي الضرِّاء يُثاب على صبره، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المؤمنُ بخيرٍ على كلِّ حالٍ تُنزعُ نفسه من بين جنبَيْهِ وهو يحمَدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ»^(٢)، وكما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «عجباً لأمر المؤمن، إنَّ أمره كُلُّهُ خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاً شكرٌ، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاً، صبرٌ فكان خيراً له»^(٣).

إن من أسباب هلاك الأمم، وتحول العافية، وسوء العاقبة: كفران نعم الله عَزَّوَجَلَّ، وإن من أسباب النجاة، ودوام السلامة والعافية، وحسن العاقبة: شكر الله عَلى نِعَمِهِ، بالتزام أمره، والإحسان إلى خلقه.

إن من سنن الله عَزَّوَجَلَّ الكونيَّة التي لا تتبدل ولا تتغير: أن العصيان يجلب الانتقام، وأنَّ الطَّاعة تجلب الرِّحمة والرِّضوان، وأنَّ من أكبر أسباب زوال

(١) مدارج السالكين (٢/٢٣٤)، وانظر: بصائر ذوي التمييز (٣/٣٣٧).

(٢) تقدم.

(٣) تقدم.

الدراسات والأساليب الفخية

الجزء الثاني

النعمة: كفرها، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّ بِنَهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨﴾﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق: ٨-٩]، وقال: ﴿وَمَن يُبَدِّل نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٢١١]، وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتِرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وقال في بيان عاقبة من كفر نعمه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩].

وقال الله عَزَّجَلَّ في بيان عاقبة الإعراض عن طاعته وكفران نعمه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِّن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ وَبَلَدُهُ طَيِّبَةٌ وَرَبُّهُ عَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

وقد حذّر الله عَزَّجَلَّ من الإعراض عن طاعته، وكفران نعمه، وبين عاقبة المعرضين، وذكر نعمه على عبده في آيات كثيرة، فمن ذلك: نعمته عليهم في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ

الإسراء والسبل النجاة

الجزء الثاني

يَكَلُّوكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ [الأنبياء: ٤٢]، فهؤلاء المعرضون لا يعترفون بنعمه عليهم، وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ [التوبة: ٧٦]، وقال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ [الإسراء: ٨٣].

وإنَّ نِعَمَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَى خَلْقِهِ كَثِيرَةٌ لَا تَحْصَى، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَعَاثَ لَكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣١﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

وهي نِعَمٌ ظَاهِرَةٌ وَبَاطِنَةٌ، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ وَظَهَرَ وَبَاطِنَةً ﴿٢٠﴾ [لقمان: ٢٠]. وإنَّ مِنْ أَجَلِّ هَذِهِ النِّعَمِ: نِعْمَةُ الْهُدَايَةِ إِلَى الْإِيمَانِ، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٧﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ [النحل: ٧١-٧٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْلًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافع

الجزء الثاني

﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ [النحل: ٨٠-٨٣]، وقال جَلَوَعَلَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال جَلَوَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج: ٦٥-٦٦]، وقال: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الزخرف: ١٥].

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ عباده بالشكر على هذه النعم الوافرة، الظاهرة منها والباطنة، فقال جَلَوَعَلَا: ﴿فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٦]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

والمسلم يطلب من الله عَزَّوَجَلَّ الهداية والتوفيق، وأن يعينه على الشكر، وأن يجعله من الشاكرين، وهذا ما شرع في السنة، كما جاء في الحديث: عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحْبَبُكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحْبَبُكَ»، فَقَالَ: «أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعُنِي فِي دَبْرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»، وأوصى بذلك معاذ الصناجحي، وأوصى به الصناجحي أبا عبد الرحمن (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أحبون أن تجتهدوا في الدعاء؟ قولوا: اللهم أعنا على شكرك، وذكرك، وحسن عبادتك» (٢).

وعن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك» (٣).

والشكر سبب في دوام النعم وزيادتها، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير أسوة في الطاعة والشكر، كما جاء في الحديث: عن الْمُغِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى وَرِمَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: قد غَفَرَ اللَّهُ لك ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ، قال: «أفلا أكونُ عَبْدًا شَكُورًا» (٤).

(١) أخرجه أحمد [٢٢١١٩]، وعبد بن حميد [١٢٠]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٩٠]، وأبو داود [١٥٢٢]، والبخاري [٢٦٦١]، والنسائي [١٣٠٣]، وابن خزيمة [٧٥١]، والشاشي [١٣٤٣]، والطبراني في (الكبير) [١١٠]، وابن حبان [٢٠٢١]، والحاكم [١٠١٠]، وقال: "صحيح الإسناد على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد [٧٩٨٢]، وابن الأعرابي [١١٤٩]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٢٣/٩). قال الهيثمي (١٧٢/١٠): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير موسى بن طارق، وهو ثقة".

(٣) أخرجه البزار [٢٠٧٥]، وقال: "وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن عبد الله بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد". قال الهيثمي (١٧٢/١٠): "رجاله رجال الصحيح غير عمرو بن عبد الله الأودي، وهو ثقة".

(٤) صحيح البخاري [١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١]، مسلم [٢٨١٩] واللفظ له.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صلى قام حتى تَفَطَّرَ رجلاه، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يا رسول الله أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١).

وهكذا كان أنبياءُ الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وأثنى على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٣] شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أُجْتَبَلَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١].

والشكر من أسباب السلامة من العذاب، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

قال أبو جعفر رَحِمَهُ اللهُ: "أي: ما يصنع الله جَلَّوَعَلَا، أيها المنافقون، بعذابكم، إن أنتم تُبْتَم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ورجعتم إلى الحق الواجب لله جَلَّوَعَلَا عليكم، فشكركموه على ما أنعم عليكم من نعمه في أنفسكم وأهاليكم وأولادكم، بالإجابة إلى توحيدِهِ، والاعتصام بِهِ، وإخلاصكم أعمالكم لوجهه، وترك رياء الناس بها، وآمنتُم برسوله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصدَّقتموه، وأقررتُم بما جاءكم به من عنده فعملتُم به؟ يقول: لا حاجة بالله أن يجعلكم في الدَّرَكِ الأسفل من النار، إن أنتم أنبتم إلى طاعته، وراجعتُم العمل بما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه؛ لأنه لا يجتلب بعذابكم إلى نفسه نفعًا، ولا يدفع عنها ضررًا، وإنما عقوبته من عاقب من خلقه، جزاءً منه له على جزاءته عليه، وعلى خلافه أمره ونهيهِ،

(١) صحيح البخاري [٤٨٣٧]، مسلم [٢٨٢٠] واللفظ له.

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وكفرانه شكر نعمه عليه. فإن أنتم شكرتم له على نعمه، وأطعتموه في أمره ونهيه، فلا حاجة به إلى تعذيبكم، بل يشكر لكم ما يكون منكم من طاعة له وشكر، بمجازاتكم على ذلك بما تقصر عنه أمانيتكم، ولم تبلغه آمالكم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ لكم ولعباده على طاعتهم إياه، بإجزاله لهم الثواب عليها، وإعظامه لهم العوض منها. ﴿عَلِيمًا﴾ بما تعملون، أيها المنافقون، وغيركم من خير وشر، وصالح وطالح، محص ذلك كله عليكم، محيط بجميعه، حتى يجازيكم جزاءكم يوم القيامة، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته^(١).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "فإن قلت: لم قدم الشكر على الإيمان؟ قلت: لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه، وتعريضه للمنافع، فيشكر شكرًا مبهمًا، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم، آمن به، ثم شكر شكرًا مفصلاً، فكان الشكر متقدمًا على الإيمان، وكأنه أصل التكليف ومداره"^(٢).

وقيل: هو من عطف الخاص على العام؛ لأن الإيمان من الشكر، وخص بالذكر؛ لشرفه.

(١) تفسير الطبري (٣٤٢/٩-٣٤٣).

(٢) الكشاف (٥٨١/١-٥٨٢). ولخصه القاضي البيضاوي حيث قال: وإنما قدم الشكر؛ لأن النظر يُدرك النعمة أولاً، فيشكر شكرًا مبهمًا، ثم يمعن النظر حتى يعرف المنعم فيؤمن به، وكذا عن الإمام. حاشية الطيبي (٢٠٦/٥)، وانظر: مفاتيح الغيب (٢٥٢/١١-٢٥٣)، تفسير البيضاوي (١٠٥/٢)، تفسير النسفي (٤٠٩/١)، غرائب القرآن (٥٢١/٢).

الدرر السبيل إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

وعن قتادة رَحِمَهُ اللهُ: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، قال: إن الله جل ثناؤه لا يُعَدِّبُ شَاكِرًا وَلَا مُؤْمِنًا (١).

والله جَلَّ وَعَلَا يبتلي العباد؛ ليميز الخبيث من الطيب، والشاكر من الكافر، وهو العليم بأحوال العباد، والخبير بما يعملون، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

والله جَلَّ وَعَلَا يحبُّ الشَّاكِرِينَ، وقد وعدهم بالأجر الجزيل، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وفي الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ اللهُ ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها» (٢).

وقوله: «يَأْكُلُ الأَكْلَةَ»: بفتح الهمزة، أي: المرة من الأكل، ويروى بضم الهمزة، أي: اللقمة. وقد عبر بالمرة؛ إشعارًا بأن الأكل والشرب يستحق الحمد عليه وإن قل، وهذا تنويه عظيم بمقام الشكر (٣).

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٤٣/٩)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١١٠٠/٤)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١٣٤/٢)، الدر المنثور (٧٢٤/٢).

(٢) صحيح مسلم [٢٧٣٤].

(٣) انظر: فيض القدير (٢٦٢/٢)، التيسير بشرح الجامع الصغير (٢٦١/١).

الدرر والاسباب النجاة والسبائك الناجعة حيا طيبة نافعته

الجزء الثاني

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "وفيه استحباب حمد الله عَزَّوَجَلَّ عقب الأكل والشرب. وقد جاء في (البخاري) صفة التحميد: [أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا رفع مائدته قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُودَعٍ وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ، رَبَّنَا»^(١). وجاء غير ذلك ولو اقتصر على (الحمد لله) حصل أصل السنة"^(٢).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "والحمد هنا بمعنى: الشكر، وقد قدمنا: أن الحمد يوضع موضع الشكر، ولا يوضع الشكر موضع الحمد، وفيه دلالة على أن شكر النعمة - وإن قلَّت - سبب نيل رضا الله عَزَّوَجَلَّ، الذي هو أشرف أحوال أهل الجنة. قال: وإنما كان الشكر سببًا لذلك الإكرام العظيم؛ لأنه يتضمن معرفة المنعم، وانفراده بخلق تلك النعمة، ويأصلها إلى المنعم عليه، تفضلاً من المنعم، وكرمًا ومنَّة، وإن المنعم عليه فقير محتاج إلى تلك النعم، ولا غنى به عنها، فقد تضمن ذلك معرفة حق الله عَزَّوَجَلَّ وفضله، وحق العبد وفاقته وفقره، فجعل الله عَزَّوَجَلَّ جزاء تلك المعرفة تلك الكرامة الشريفة"^(٣).

(١) صحيح البخاري [٥٤٥٨] عن أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وفي رواية: عن أبي أمامة: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا فرغ من طعامه - وقال مرة: إذا رفع مائدته قال: «الحمد لله الذي كفانا وأروانا، غير مَكْفِيٍّ وَلَا مَكْفُورٍ» صحيح البخاري [٥٤٥٩]. وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «غير مكفي» أي: ما أكلناه ليس كافيًا عما بعده، بل نعمك مستمرة علينا غير منقطعة طول أعمارنا. «ولا مودع» من الوداع، أي: ليس آخر طعامنا.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٥١/١٧).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦٠/٧-٦١).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال أبو حازم رَحِمَهُ اللهُ: كل نعمة لا تقرب من الله عَزَّجَلَّ فهي بلية، فإذا وَقَّقَ اللهُ عَزَّجَلَّ عبده للشكر على نعمه الدنيوية بالحمد أو غيره من أنواع الشكر، كانت هذه النعمة خيرًا من تلك النعم، وأحب إلى الله عَزَّجَلَّ منها؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا يحب المحامد، ويرضى عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها، والثناء بالنعم، والحمد عليها وشكرها عند أهل الجود والكرم أحب إليهم من أموالهم، فهم يبذلونها طلبًا للثناء، والله عَزَّجَلَّ أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، فهو يبذل نعمه لعباده، ويطلب منهم الثناء بها وذكرها، والحمد عليها، ويرضى منهم بذلك شكرا عليها، وإن كان ذلك كله من فضله عليهم، وهو غير محتاج إلى شكرهم، لكنه يجب ذلك من عباده، حيث كان صلاح العبد وفلاحه وكمال فيه^(١).

وقيل: من كتم النعمة فقد كفرها، ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها.

وهذا مأخوذ من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ بِنِعْمَةٍ أَحَبَّ أَنْ

يرى أثر نعمته على عبده»^(٢).

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/٨٢-٨٣).

(٢) مدارج السالكين (٢/٢٣٦). والحديث أخرجه الطيالسي [٢٣٧٥]، وأحمد [٦٦٩٥]، والترمذي

[٢٨١٩]، وقال: "وفي الباب: عن أبي الأحوص، عن أبيه، وعمران بن حصين، وابن مسعود، وهذا

حديث حسن"، كما أخرجه الحاكم [٧١٨٨]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه

أيضًا: تمام [١٢٦٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٢٥١]: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن

جده. وفي لفظ: «كلوا، واشربوا، وتصدقوا، والبسوا في غير مخيلة ولا سرف؛ فإن الله يحب أن ترى أثر

نعمته على عبده». ونحوه: عن عمران بن حصين. وقد أخرجه أحمد [١٩٩٣٤]، والرواياني

[٩١]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٣٠٣٧]، والطبراني في (الكبير) [٢٨١]، والقضاعي =

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

ومع ذكر المولى جَلَّ وَعَلَا لهذه النعم الوافرة فقد أخبر أن القليل من عباده شكور لتلك النعم، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].
وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

والله عَزَّوَجَلَّ رحيم حلیم، يذكر العباد بما يستلزم الشكر، ويمهل العباد لعلمهم يهتدون، وينبئون إلى خالقهم جَلَّ وَعَلَا، والمنعم عليهم، فيأدون الحقوق الواجبة من الطاعة والشكر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦].
وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

= [١١٠٢]، والبيهقي في (الكبرى) [٦٠٩٣]، وفي (شعب الإيمان) [٥٧٨٩]، قال الهيثمي (١٣٢/٥): "رواه أحمد، والطبراني، ورجال أحمد ثقات". وعن أبي الأحوص، قال الهيثمي (١٣٣/٥): "رواه الطبراني في (الصغير)، ورجاله رجال الصحيح".

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

﴿١٣٣﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ

نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ [المائدة: ٦].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ [المائدة: ٨٩].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ

النَّاسُ فَآوَىٰكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

﴿٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً

تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ [النحل: ١٤].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ

السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَالْبَدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا أَسْمَ

اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا

لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ [الحج: ٣٦].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ

فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ [القصص: ٧٣].

الدرر السبل إلى سبيل النجاة

الجزء الثاني

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلُكُ فِيهِ مَوَاحِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿* اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِيَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحاثية: ١٢].

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيد بالله عَزَّجَلَّ من زوال النعمة، كما في الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان من دعاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ» (١).

والله جَلَّ وَعَلَا قد أرشد العباد إلى سبيل النجاة، فمنهم اهتدى وشكر، ومنهم من ضل وكفر، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. ولكن الإنسان كفور بنعم الله عَزَّجَلَّ، لا يعرف قدر الله عَزَّجَلَّ، ومدى ضعفه وحاجته إليه، إلا وقوع الملمات والشدائد، كما ذكر الله جَلَّ وَعَلَا ذلك في آيات كثيرة، يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنَابِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ

(١) صحيح مسلم [٢٧٣٩].

الدراسات والأساليب النحوية والوسائد الناجمة عن الحياة طيبة نافعاً

الجزء الثاني

ضَرَّهُو مَرَّ كَأَنَّ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرِّ مَسَّهُوَ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ [يونس: ١٢].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَإِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَلْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ [يونس: ٢١-٢٣].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَئِن أَدْفَنَّا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ﴿١٠﴾ وَلَئِن أَدْفَنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١١﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ [هود: ٩-١١].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَعَّرُونَ ﴿٥٢﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ [النحل: ٥٣-٥٥].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا تَجَدَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ [الإسراء: ٨٣-٨٤].

الدراسات والأساليب النحوية والوسائط التكنولوجية طيبة نافعته

الجزء الثاني

وقال جل وعلا: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥-٦٦].

وقال جل وعلا: ﴿* وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر: ٨].

وقال جل وعلا: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزمر: ٤٩-٥٢].

وقال جل وعلا: ﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِن أَدْقَنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت: ٤٩-٥١].

وقال جل وعلا: ﴿فَتَلَّ الْإِنْسَانُ مَا كَفَرَهُ ﴿٧٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿٧٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ وَ فَقَدَرَهُ ﴿٧٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ﴿٨٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٨١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٨٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٨٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٨٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٨٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٨٦﴾﴾

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

فَأَثْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَيْنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَاقٍ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَكْهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾
مَتَلَعًا لَكُمْ وَلَا نَعْمِيَكُمْ ﴿٣٢﴾ [عبس: ١٧-٣٢].

وقد تقدم بيان ذلك في (الإخلاص في الدعاء).

٣ - كفران النعم من صور الكفر الأصغر:

ومن صور الكفر الأصغر - كما جاء مبينًا في كل من كتاب: (عقبات في طريق الهداية)، وكتاب: (نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار): كفر النعمة والإحسان والحقوق:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ﴿١٥٢﴾ [البقرة: ١٥٢]، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ﴿١٥٢﴾ هو من كفر النعمة (١).

وفي الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: مطر الناس على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أصبح من الناس شاكراً، ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، قال: فنزلت هذه الآية:

(١) قال ابن عطية: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ﴿١٥٢﴾ [البقرة: ١٥٢]، أي: نعمي وأيادي، وانحذفت نون الجماعة للجزم، وهذه نون المتكلم، وحذفت الياء التي بعدها تخفيفاً؛ لأنها رأس آية لتناسب الفواصل، ولو كان نهيًا عن الكفر ضد الإيمان لكان: ولا تكفروا، بغير النون". المحرر الوجيز (١/٢٢٦-٢٢٧).
"أو ولا تكفروا بي" البحر المحيط، لأبي حيان (٥٠/٢).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ [الواقعة: ٧٥]، حتى بلغ: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢] (١).

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "أصل الشكر: الظهور؛ ومنه قولهم: دابة شكور: إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكله من العلف. والشاكر: هو الذي يثني بالنعمة، ويظهرها، ويعترف بها للمنعم، وجحدها: كفرانها؛ فمن نسب المطر إلى الله عَزَّجَلَّ، وعرف منته فيه، فقد شكر الله جَلَّ وَعَلَا، ومن نسبه إلى غيره، فقد جحد نعمة الله عَزَّجَلَّ في ذلك، وظلم بنسبتها لغير المنعم بها، فإن كان ذلك عن اعتقاد، كان كافراً ظالماً حقيقة، وإن كان عن غير معتقد، فقد تشبه بأهل الكفر والظلم الحقيقي.

وقد قابل في هذا الحديث بين الشكر والكفر، فدل ظاهره على أن المراد بالكفر هاهنا: (كفران النعم)، لا الكفر بالله جَلَّ وَعَلَا.

ويحتمل أن يكون المراد به: الكفر الحقيقي، ويؤيد ذلك استدلال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢]، أي: تجعلون شكر رزقكم التكذيب؛ على حذف المضاف؛ قاله المفسرون.. (٢).

(١) صحيح مسلم [٧٣].

(٢) وذكر ما يؤيد ذلك مما روي عن علي بن أبي طالب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ: ﴿ وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي: حقيقة. قال: فعبّر عن الرزق بالشكر، والرزق: الشكر بلغة أزد شنوءة، يقال: ما أرزقه! أي: ما أشكره! وما رزق فلان فلاناً، أي: ما شكره" المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/٢٦٠-٢٦١)، وانظر: تفسير الطبري (٢٣/١٥٣)، الدر المنثور (٨/٣٠)، المحرر الوجيز (٥/٢٥٢)، تفسير أبي عبد الله القرطبي (١٧/٢٢٨).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُرَيْتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ»، قيل: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قال: «يَكْفُرْنَ العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهنَّ الدهر، ثم رأيت منك شيئاً، قالت: ما رأيت منك خيراً قط»^(١). قال ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ: "قال المهلب رَحِمَهُ اللهُ: الكفر هاهنا هو كفر الإحسان، وكفر نعمة العشير، وهو الزوج، وتسخط حاله، وقد أمر الله عَزَّجَلَّ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشكر النعم، وجاء في الحديث: «من لا يشكر الله من لا يشكر الناس»^(٢)، وشكر نعمة الزوج هو من باب شكر نعمة الله عَزَّجَلَّ، لأن كل نعمة فضل بها العشير أهله، فهي من نعمة الله عَزَّجَلَّ أجراها على يديه. وقد دل الحديث على أن المعاصي تنقص الإيمان، ولا تخرج إلى الكفر الذي يوجب الخلود في النار؛ لأنهم حين سمعوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يكفرن العشير» ظنوا أنه كفر بالله عَزَّجَلَّ، فقالوا: أيكفرن بالله؟ قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان»، فبيّن لهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أراد كفرهن حق أزواجهن، وذلك لا محالة ينقص من إيمانهم، ودل ذلك أن إيمانهم يزيد بشكرهن العشير، وبأفعال البر كلها، فثبت أن الأعمال من الإيمان، وأنه قول وعمل؛ إذ بالعمل الصالح يزيد، وبالعمل السيء ينقص. وفيه: دليل أن المرء يعذب على الجحد للفضل والإحسان وشكر المنعم.

(١) صحيح البخاري [٢٩، ١٠٥٢، ٥١٩٧]، مسلم [٩٠٧].

(٢) سيأتي.

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

وقيل: إن شكر المنعم فريضة^(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "وفيه جواز إطلاق الكفر على كفران الحقوق - وإن لم يكن ذلك الشخص كافراً بالله عَزَّوَجَلَّ -"^(٢).

قال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللهُ فِي (شرحه): "إن الطاعات كما تسمى: إيماناً كذلك المعاصي تسمى: كفرًا، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة.

وخص كفران العشير من بين أنواع الذنوب؛ لدقيقة بدیعة، وهي قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»^(٣)، فقرن حق الزوج على الزوجة بحق الله جَلَّ وَعَلَا، فإذا كفرت المرأة حق زوجها - وقد بلغ من حقه عليها هذه الغاية - كان ذلك دليلاً على تماونها بحق الله عَزَّوَجَلَّ، فلذلك يطلق عليها: الكفر، لكنه كفر لا يخرج عن الملة"^(٤).

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/٨٨-٨٩).

(٢) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٦/٢١٣).

(٣) الحديث أخرجه غير واحد، منهم: الترمذي [١١٥٩]، وحسنه، عن أبي هريرة. قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص: ٤٩٨): "أخرجه الترمذي، وابن حبان، من حديث: أبي هريرة، وكذلك رواه أبو داود من حديث: قيس بن سعد، وابن ماجه من حديث: عائشة، وابن حبان من حديث: ابن أبي أوفى".

(٤) فتح الباري، لابن حجر (١/٨٣)، وانظر: عارضة الأحوذبي، لابن العربي (١٠/٦١).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

٤ - شُكْرُ النَّاسِ:

جاء في الحديث: عن الأشعث بن قيس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أشكركم الله عَزَّجَلَّ أشكركم للناس»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»^(٢).

قال القاضي أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ: "أصل النعم من الله عَزَّجَلَّ، والخلق كله على اختلاف أنواعه وسائط وأسباب مسخرة، من حيوان، وجماد، وعاقل، وغير عاقل، فالنعم بالحقيقة هو الله عَزَّجَلَّ وحده، فله الحمد في السماوات والأرض، وله الشكر فيهما، فالحمد خبر عن جلاله جَلَّ وَعَلَا. والشكر خبر عن إنعامه وإفضاله. وقد أذن الله عَزَّجَلَّ في شكر الناس خاصة؛ لما في ذلك من تأثير المحبة، والألفة، والتحريض على إسداء النعمة باستراحة قلب المنعم عليه.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في (اصطناع المعروف) [١٣١]، والطبراني [٦٤٨]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٨٦٩٩]. قال الهيثمي (٨/١٨٠): "رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات". وأخرجه أيضًا: الضياء [١٤٩٢] وقال: "صحيح".

(٢) أخرجه الطيالسي [٢٦١٣]، وأحمد [٧٩٣٩]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٢١٨]، وأبو داود [٤٨١١]، والترمذي [١٩٥٤]، وقال: "حديث صحيح"، كما أخرجه: وابن أبي الدنيا في (اصطناع المعروف) [١٣٠]، وفي (قضاء الحوائج) [٧٢]، والبخاري [٩٥٨٧]، وابن حبان [٣٤٠٧]، وأبو الشيخ في (الأمثال) [١١٠]، وأبو نعيم في (الحلية) (٧/١٦٥)، والقضاعي [٨٢٩]، والبيهقي في (الكبرى) [١٢٠٣٢]، وفي (شعب الإيمان) [٨٦٩٦]، والبعثي في (شرح السنة) [٣٦١٠].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ: روي برفع الله والناس، ونصبهما، ورفع أحدهما ونصب الآخر^(١). قال الزين العراقي رَحِمَهُ اللهُ: والمعروف المشهور في الرواية نصبهما. والمعنى على رفع الله والناس: من لا يشكره الناس لا يشكره الله. والمعنى على نصبهما: من لا يشكر الناس بالثناء بما أولوه لا يشكر الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنه أمر بذلك عبيده، أو من لا يشكر الناس كمن لا يشكر الله عَزَّوَجَلَّ، ومن شكرهم كمن شكره.

والمعنى على رفع الناس ونصب الجلالة، وعلى رفع الجلالة ونصب الناس: لا يكون من الله عَزَّوَجَلَّ شاكراً إلا من كان شاكراً للناس، وشكر الله عَزَّوَجَلَّ: ثناؤه على المحسن، وإجراؤه النعم عليه بغير زوال.

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من لا يشكر الناس، لا يشكر الله، ومن لا يشكر القليل، لا يشكر الكثير، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة بركة، والفرقة عذاب»^(٢).

(١) عارضة الأحوزي (١٣٢/٨-١٣٣)، فيض القدير (٢٢٤/٦)، (٢٤٠/٦).
(٢) أخرجه أحمد [١٨٤٤٩]، وابن أبي الدنيا في (اصطناع المعروف) [١٣٦]، وفي (قضاء الحوائج) [٧٨]، والبخاري [٣٢٨٢]، والطبراني في (الكبير) [٨٤]، وأبو الشيخ في (الأمثال) [١١١]، والقضاعي [٣٧٧]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤١٠٥]. قال الهيثمي (٢١٧/٥-٢١٨): "رواه عبد الله بن أحمد، والبخاري، والطبراني ورجالهم ثقات". وللحديث أطراف كثيرة، فمن ذلك: ما جاء عن جرير قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من لم يشكر للناس لم يشكر الله»، قال الهيثمي (١٨١/٨): "رواه الطبراني، ورجالهم رجال الصحيح". وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله عَزَّوَجَلَّ»، قال الهيثمي (١٨١/٨): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وإسناده حسن".

الدرر والاسرار في السبيل النجاة

الجزء الثاني

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله»، قال الشيخ أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: هذا الكلام يتأول على وجهين: أحدهما: أن من كان طبعه وعادته كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله عَزَّوَجَلَّ، وترك الشكر له جَلَّوَعَلَا. والوجه الآخر: أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس، ويكفر معروفهم؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر^(١). وقوله: «التحدث بنعمة الله شكر»، أي: إشاعتها من الشكر، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، والشكر ثلاثة أقسام: شكر اللسان بالتحدث بالنعمة، وشكر الأركان بالقيام بالخدمة، وشكر الجنان بالاعتراف بأن كل نعمة منه جَلَّوَعَلَا.

«ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير» فاشكر لمن أعطى ولو سمسة. وقوله: «وتركها كفر» أي: ستر وتغطية لما حقه الإظهار والإذاعة. قال بعض العارفين: ذكر النعم يورث الحب في الله عَزَّوَجَلَّ. ثم هذا الخبر موضعه ما لم يترتب على التحدث بها ضرر، كحسد، وإلا فالكتمان أولى - كما يفيدته قول الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ -: وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد أن يقتدى به، وأمن على نفسه الفتنة، وإلا فالستر أفضل^(٢).

(١) معالم السنن (١١٣/٤).

(٢) جاء في (الكشاف) (٧٦٩/٤): "عن عبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول: رزقني الله البارحة خيراً: قرأت كذا، وصليت كذا، فإذا قيل له: يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا؟ قال: يقول الله عَزَّوَجَلَّ: =

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

ولو لم يكن فيه إلا التشبه بأهل السمعة والرياء لكفى.

«والجماعة بركة والفرقة عذاب» أي: اجتماع جماعة المسلمين، وانتظام شملهم زيادة خير، وتفرقهم يترتب عليه من الفتن، والحروب، والقتل، وغير ذلك مما هو أعظم من كل عذاب في الدنيا، وأمر الآخرة إلى الله عَزَّوَجَلَّ^(١).

ومن أعظم الشكر في هذا الباب: شكر الوالدين، فقد أكد القرآن الكريم على ضرورة الإحسان إلى الوالدين تأكيداً لا تجد نظيراً له في الديانات الأخرى، فقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بعبادته وتوحيده، وجعل برَّ الوالدين مقروناً بذلك، كما قرن شكره بشكرهما. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، أي: وصَيْنَاهُ بِشُكْرِنَا وَبِشُكْرِ وَالِدَيْهِ، وكفى بهذا دلالة على تعظيم حقهما، ووجوب برِّهما، والإحسان إليهما. فأوجب الله عَزَّوَجَلَّ شكر نفسه، وشكر الوالدين. ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما، وألا يكتفى فيه بمجرد النطق بالثناء عليهما علم أن شكر الحق لا يكفي فيه مجرد القول ما لم تكن فيه موافقه العمل، وذلك بالتزام الطاعة، واستعمال النعمة في وجه الطاعة... (٢).

= ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وأنتم تقولون: لا تحدث بنعمة الله. وإنما يجوز مثل هذا:

إذا قصد به اللطف، وأن يقتدى به غيره، وأمن على نفسه الفتنة. والستر أفضل. ولو لم يكن فيه إلا

التشبه بأهل الرياء والسمعة: لكفى به. وانظر: غرائب القرآن (٥١٩/٦).

(١) فيض القدير (٢٧٩/٣)، وانظر: التيسير بشرح الجامع الصغير (٤٦٠/١).

(٢) انظر: لطائف الإشارات (١٣١/٣)، مفاتيح الغيب (٧٦/١٠).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني



ومن أنواع الشكر في هذا الباب والتي خصت بمزيد عناية: شكر الجار:
وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يا نساء
المسلمات^(١)، لا تَحْقِرَنَّ جارة ل جارتهما، ولو فرسن شاة»^(٢).

قال ابن دريد: "والشاة لا فراسن لها، وإنما الفراسن للبعير. وفرسن البعير: خفه
بعينه"^(٣). و(فرسن) - بكسر الفاء والسين -: الظلف، وأصله في الإبل، وهو فيها
كالقدم في الإنسان، ويطلق على الغنم استعارة. والمقصود من هذا الحديث: النهي
عن احتقار القليل من الصدقة.

قال ابن بطلال رَحِمَهُ اللَّهُ: "في هذا الحديث: الحض على مهادة الجار وصلته، وإنما
اشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفرسن الشاة إلى القليل من الهدية، لا إلى إعطاء الفرسن؛ لأنه
لا فائدة فيه"^(٤).

(١) قال العلامة الطيبي: "في إعرابه ثلاثة أوجه: أحدها: نصب النساء وجر المسلمات على الإضافة، وهو
من إضافة الموصوف إلى صفته، والعام إلى الخاص، كمسجد الجامع، وجانب الغربي، ولدار الآخرة.
يجوزه الكوفيون. والبصريون يقدرون محذوقاً، أي: مسجد المكان الجامع، وجانب المكان الغربي، ولدار
الحياة الآخرة، ويقدر هنا: يا نساء الطوائف المسلمات. وقيل: تقديره: يا فاضلات المسلمات، كما
يقال: هؤلاء رجال القوم، أي: ساداتهم. والوجه الثاني: رفعهما، قال الباجي: هكذا يروى أهل بلدنا.
[ضم النساء على النداء، ورفع المسلمات على لفظه]. الثالث: رفع نساء، وكسر المسلمات على أنه
منصوب على الصفة على المحل، كما يقال: يا زيد العاقل والعاقل "شرح الطيبي على مشكاة المصابيح
(١٥٤٣/٥).

(٢) صحيح البخاري [٢٥٦٦، ٦٠١٧]، مسلم [١٠٣٠].

(٣) جمهرة اللغة (٣/١٣١٣).

(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطلال (٩/٢٢٢).

الرسائل والأساليب النحوية والوسائد الناجمة عن حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

وفي (المرقاة): "أي: لا تستحقر إهداء شيء، ولو أن تهدي أو تصدق بفرس شاة، وهو لحم بين ظلفي الشاة، وأريد به المبالغة، أي: ولو شيئاً يسيراً، وأمرًا حقيرًا؛ لقوله جلّ وعلا: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]، ولأمره عزّ وجلّ بالإحسان إلى الجار بقوله جلّ وعلا: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]. والمعنى: لا تمتنع إحداكن من الهدية أو الصدقة لجارتها؛ احتقارًا للموجود عندها. وقيل: يجوز أن يكون الخطاب لمن أهدى إليهن، فالمعنى: لا تحقرن إحداكن هدية جارتها، بل تقبلها وإن كانت قليلة، وفيه: حث على الهدية، واستجلاب القلوب بالعطية"^(١)؛ فالهدية خلق من الأخلاق التي حثّ الإسلام، تؤلف القلوب، وتنفي سخائم الصدور، وتؤنس المهدي إليه، وتؤكد الصحبة، وتجلب المودة، وترزع المحبة.

وفي الحديث: «تهادوا تحابوا»^(٢).

(١) مرقاة المفاتيح (٤/١٣٣٦)، وانظر: انظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣/٥٦١)، شرح النووي على صحيح مسلم (٧/١٢٠)، الكواكب الدراري (١١/١١٠)، الديباج (٣/١٠٦).
(٢) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٥٩٤]، وأبو يعلى [٦١٤٨]، والدولابي في (الكنى) [٨٤٢]، وأبو الشيخ في (الأمثال) [٢٤٥]، وتمام في (الفوائد) [١٥٧٧]، والشهاب [٦٥٧]، والبيهقي في (الآداب) [٨١]، و(السنن الصغير) [٢٢٣٠]، و(الكبرى) [١١٩٤٦]، و(شعب الإيمان) [٨٥٦٨]. قال الحافظ العراقي: "أخرجه البخاري في كتاب: (الأدب المفرد)، والبيهقي من حديث: أبي هريرة بسند جيد". المغني عن حمل الأسفار (ص: ٤٧٨). وقال الحافظ ابن حجر في (التلخيص الحبير) (٣/١٦٣): "رواه البخاري في (الأدب المفرد)، والبيهقي. وأورده ابن طاهر في (مسند الشهاب) من طريق: محمد بن بكير عن ضمّام بن إسماعيل، عن موسى بن وردان، عن أبي هريرة، وإسناده حسن".

الدرر والاسباب النجاة والسائل الناجع حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

وعن ثابت رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: كَانَ أَنَسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: يَا بَنِي تَبَاذَلُوا بَيْنَكُمْ، فَإِنَّهُ أَوَدُ لَمَّا بَيْنَكُمْ (١).

وصنائع المعروف هي خير ما يفعله الإنسان من شكر وإحسان إلى الناس - كما تقدم -:

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيدُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَتْوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تَكْفَتْونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنْكُمْ قَدْ كَافَتْموهُ» (٢).

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْق» (٣).

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٥٩٥] بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه الطيالسي [٢٠٠٧]، وأحمد [٥٣٦٥]، وابن حميد [٨٠٦]، وأبو داود [١٦٧٢]، والنسائي في (الكبرى) [٢٣٤٨]، وابن الأعرابي [٣٦٧]، وابن حبان [٣٣٧٥]، والطبراني في (الكبير) [٣٣٧٥]، و(الأوسط) [٤٠٣١]، والحاكم [١٥٠٢، ٢٣٦٩]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه الشهاب [٣٢٦٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٢٦٠]، عن ابن عمر. قال الإمام النووي في (الرياض) (ص: ٤٨٠): "حديث صحيح، رواه أبو داود، والنسائي بأسانيد الصحيحين".

(٣) صحيح مسلم [٢٦٢٦].

الدرر السبل إلى السبل النجاة

الجزء الثاني

وكما شرع الله عَزَّجَلَّ العدل فإنه ندب إلى الفضل، من العفو ومقابلة الإساءة بالإحسان، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّادِقِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقد قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾، فندب إلى الفضل، وأوجب العدل.

وقد جعل الله عَزَّجَلَّ مقابلة الإساءة بالإحسان، وحسن الخلق سبباً يكون به العدو صديقاً، وتمكَّن فيه صداقة الصديق، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. إن كل إساءة تقابل بالإحسان سوف يكون له من الأثر الطيب ما يمحو أثرها، ويعالج ما أحدثته من صدمع وجفاء، يعني: أنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إلى مصافاتك ومحبتك. ومقابلة السيئة بالحسنة مرتبة عظيمة لا يرتقي إليها من عباد الله عَزَّجَلَّ إلا من امتلك زمام نفسه. والدفع بالتي هي أحسن قد يكون بالقول كما يكون بالفعل.

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

ومن أخلاق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه: «لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح»^(١) فهو «يعفو»، أي: في الباطن. «ويصفح»، أي: في الظاهر عن صاحب السيئة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَزَّوُا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلَهَا ۗ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ^(٣) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٤) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ الْأُمُورِ^(٥) [الشورى: ٤٠-٤٣]: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَزَّوُا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلَهَا﴾، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وكقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۗ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، فشرع العدل، وهو القصاص، وندب إلى الفضل، وهو العفو، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَلْجُرُوحَ قِصَاصٍ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، أي: لا يضيع ذلك عند الله عَزَّوَجَلَّ، كما صح في الحديث: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً»^(٦)، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(٧) [الشورى: ٤٠]، أي: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة"^(٨).

(١) صحيح البخاري [٤٨٣٨].

(٢) صحيح مسلم [٢٥٨٨].

(٣) تفسير ابن كثير (٧/٢١١-٢١٢).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

فالإحسان يكون واجبًا وغير واجب، وأما الفضل فلا يكون واجبًا، فالإسلام لا يأمر بالعدل، وأداء الحقوق والواجبات فقط، بل يندب إلى الفضل، وإلى التسابق في عمل الخير، إلى الإيثار، قال الله عزَّوجلَّ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

قال الراغب رحمه الله في قواه جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]: "فيه إشارة إلى أن الإحسان حسن، والتفضل أحسن، وقال جلَّ وعلا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالإنسان إنما يكون محسنًا متفضلًا بعد أن يكون عادلاً منصفًا" (١).

ثالثًا: ذكر ما يعين العبد على الصبر والشكر:

١ - الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، شباها يهرم، وأنها دار ابتلاء واختبار، وليست دار إقامة، وأن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، وأن الإنسان مهما أصابه من شدة في هذه الحياة الفانية فهو منقلب إلى الدار الآخرة الباقية، فإن آمن وعمل صالحًا، وصبر وشكر، عاش حياة طيبة، وجوزي يوم القيامة بأحسن الجزاء.

(١) تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين (ص: ٨٧).

الدرر السبيل إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

إن المؤمن مهما تفاقم الشر، وتعاظم الضرر فإنه يعلم أن ما قضى الله عزَّجَلَّ كائن، وما لم يشأ لم يكن، ولا يحكم به يحق، لا رافع لما وضع، ولا واضع لما رفع، ولا معطي لما منع، ولا مضل لمن هدى، فلا جزع ولا هلع، وإنما صبر وشكر، وما عند الله عزَّجَلَّ خير وأبقى.

وَرُبَّ مَحْنَةٍ أَوْرَثَتْ مَنَحَةً، وَرَبَّ نَوْرٍ يَشْعُغُ مِنْ كَيْدِ الظَّلَامِ؛ فَإِنَّ النُّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَإِنَّ الفَرْجَ مَعَ الكَرْبِ، وَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يَسْرًا، فَمَا بَعْدَ دِيَاجِيرِ الظَّلَامِ إِلَّا فَلَاقُ الصَّبْحِ المَشْرِقِ.

وصيانة الإيمان تسهم في استئصال آفات اليأس والقنوط التي قد تصيب الإنسان بسبب ما يقع عليه من البلاء، ونور الإيمان يدفع عن المسلم ما ينتابه من صنوف الوحشة، وما يناله من النوازل. وهو قائم على ركائز من الثقة بالله عزَّجَلَّ، والتوكل عليه. قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۗ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۗ﴾ [الطلاق: ٤]، وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۗ﴾ [الطلاق: ٥]، وقال جلَّ وعلا: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتِلَهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۗ﴾ [الطلاق: ٧]، وقال جلَّ وعلا: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۗ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۗ﴾ [الشرح: ٥-٦].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

٢ - الإكثار من الدعاء:

وخير الدعاء وأنفعه للعبد: ما كان الرشيد الذي يستضاء فيه بأنوار الوحي، وهو الذي جاء في كتاب الله عز وجل، وفيما أرشد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته إليه من جوامع كلمه. ومن ذلك في هذا الباب: دعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجامع للمعاني الجليلة، من خيري: الدنيا والآخرة: «رَبِّ أَعْيِي وَلَا تُعِنِّي، وَاَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ...» الحديث (١)، وقد تقدم.

ومن التوفيق أن يسأل العبد ربه جَلَّ وَعَلَا أن يبلغه منزلة الشاكرين، وهذا ما علمه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولأمته مما تقدم بيانه، وكما روى ذلك عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو هريرة، وعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - كما تقدم -.

فلا بد في الوصول إلى منزلة الشاكرين من الصدق والإخلاص في الالتجاء إلى الله عز وجل بالدعاء، والاستعانة به في بلوغ هذه المنزلة الرفيعة، وهذا نصح الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين، كما أخبر الله عز وجل عن دعاء سليمان في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩].

ومن الأسباب التي توصل العبد إلى منزلة الشاكرين الرفيعة: أن يسجد لله عز وجل؛ شكرًا عند تجدد النعم، كما جاء في الحديث: عن أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي

(١) تقدم.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ «كَانَ إِذَا جَاءَهُ أَمْرٌ سُرُورٍ، أَوْ بُشْرٍ بِهِ، خَرَّ سَاجِدًا، شَاكِرًا لِلَّهِ» (١).

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: «خَرَّ سَاجِدًا، شَاكِرًا لِلَّهِ» أي: سقط على الفور هاويًا إلى إيقاع سجدة؛ لشكر الله عَزَّوَجَلَّ على ما أحدث له من السرور. ومن ثم ندب سجود الشكر عند حصول نعمة، واندفاع نقمة. والسجود أقصى حالة العبد في التواضع لربه جَلَّوَعَلَا، وهو أن يضع مكارم وجهه بالأرض، وينكس جوارحه، وهكذا يليق بالمؤمن كلما زاده ربه جَلَّوَعَلَا محبوبًا ازداد له تذللًا وافتقارًا، وفيه ترتبط النعمة، ويحتلب المزيد، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَيْنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

والمصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشكر الخلق للحق جَلَّوَعَلَا؛ لعظم يقينه، فكان يفرع إلى السجود.

وفيه حجة للشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في ندب سجود الشكر عند حدوث سرور، أو دفع بلية، وردَّ على أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ في عدم ندبه " (٢).

(١) أخرجه أحمد [٢٠٤٥٥]، وابن ماجه [١٣٩٤]، واللفظ عنده: «كان إذا أتاه أمر يسره أو يبشر به، خرَّ ساجدًا؛ شكرًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى» وأبو داود [٢٧٧٤]، واللفظ له، والترمذي [١٥٧٨]، وقال: "حديث حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: البزار [٣٦٨٢]، وأبو عبد الله محمد بن نصر المروزي في (تعظيم قدر الصلاة) [٢٣١]، والطبراني في (الأوسط) [٤٢٥]، والدارقطني [١٥٢٩]، والحاكم [١٠٢٥]، وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [٣٩٣٤]، وفي (السنن الصغير) [٨٧٦].

(٢) فيض القدير (١١٨/٥).

الدرر والاسرار في سبيل النجاة

الجزء الثاني

قال الثوري شتي رَحِمَهُ اللهُ: "ونضر الله وجه أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، فقد بلغنا عنه أنه قال، وقد ألقى عليه هذه المسألة: لو أُلزم العبد السجود عند كل نعمة متجددة عظيمة الموقع كان عليه أن لا يغفل عن السجود طرفة عين؛ لأنه لا يخلو منها أدنى ساعة؛ فإن من أعظم نعمة عند العباد نعمة الحياة، وهي متجددة بتجدد الأنفاس، أو كلامًا هذا معناه" (١).

وأجيب: بأن المراد بالسرور: هو سرور يحصل عند هجوم نعمة ينتظرها، أو يفاجأ بها من غير انتظار مما يندر وقوعها، لا ما استمر وقوعها، ومن ثم قدرها في الحديث بالمحيي على سبيل الاستعارة. ونكر «أمر»؛ للتفخيم وللتعظيم (٢).
وقد اختلف الفقهاء في مشروعية السجود؛ للشكر، فذهب الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وابن المنذر، وأبو يوسف ومحمد وعليه الفتوى، وهو قول ابن حبيب من المالكية، وعزاه ابن القصار إلى مالك، وصححه البناني إلى أنه مشروع، والمسألة مبسطة في مظانها.

وهي وصية الله عزَّجَلَّ للقمان الحكيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعباده الصالحين، كما قال جَلَّ وَعَلَا:
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ أَلَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

(١) الميسر في شرح مصابيح السنة (١/٣٥٦).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٣١٧-١٣١٨)، وانظر: فيض القدير (٥/١١٨)، حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/٤٢٣-٤٢٤).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلًى وَهَنٍ وَفَضَّلَهُ فِي عَامَيْنِ

أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ [القمان: ١٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا

وَحَمْلُهُ وَفَضَّلَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ

إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ [الأحقاف: ١٥]... وكما تقدم في آيات الشكر.

٣ - الثقة بالله عَزَّوَجَلَّ، وبما أخبر من أن الشكر سبب في حفظ النعم ودوامها

- كما تقدم.-

٤ - ملاحظة النعم التي تستوجب الشكر.

٥ - العلم بجليل نعم الله عَزَّوَجَلَّ على العبد، ونسبة تلك النعم إليه جَلَّوَعَلَا:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا

تُحْصُونَهَا ﴿٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا

مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ [الجاثية: ١٣].

وفي الحديث: عن زيد بن خالد الجهني، أنه قال: صلى لنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس،

فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب»^(١).

قال سليمان الواسطي رَحِمَهُ اللهُ: ذكر النعم تورث الحب لله عَزَّوَجَلَّ^(٢).

٦ - أن لا يفتر العبد عن الحمد والشكر في كل أحواله:

إن مداومة العبد على الحمد والشكر من أعظم الذِّكر، وأجلِّ الأعمال التي تقرب من الله عَزَّوَجَلَّ، والتي تثمر زيادة في الخير - كما تقدم -، وفي الحديث: عن شبيب بن بشر، عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ»^(٣)؛ "لأن قول: (الحمد لله) نعمة من الله عَزَّوَجَلَّ، والمحمود عليه نعمته أيضًا، وبعض النعم أجل من بعض، فنعمة الشكر أجل من نعمة مال، أو جاه، أو ولد، ولا يستلزم ذلك كون فعل العبد أفضل من فعل الله عَزَّوَجَلَّ، وإن دل على أن فعل العبد للشكر قد يكون أفضل من بعض مفعول الله جَلَّ وَعَلَا، وفعل العبد هو مفعول الله عَزَّوَجَلَّ، ولا ريب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض، كما بينه البيهقي رَحِمَهُ اللهُ وغيره، كابن القيم رَحِمَهُ اللهُ^(٤)، فما نقل عن الإمام الورع ابن عيينة رَحِمَهُ اللهُ أنه عزى المتن إلى الحسن رَحِمَهُ اللهُ، ثم قال هو خطأ؛ لأن فعل

(١) صحيح البخاري [٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧]، مسلم [٧١].

(٢) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٣٣٤/٣٦).

(٣) أخرجه ابن ماجة [٣٨٠٥]، وفي (الزوائد) (١٣١/٤): "إسناده حسن. وشبيب بن بشر مختلف فيه"،

كما أخرجه ابن المقرئ في (معجمه) [٨١١]، والضياء في (المختارة) [٢١٩٤].

(٤) انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن القيم (ص: ١٣١-١٣٢).

الدرر السبيل إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

العبد ليس بأفضل من فعل الرب جَلَّ وَعَلَا، كما أنه ذهل عن كونه حديثاً مرفوعاً فقد غفل عن معناه المقرر - فتدبر - " (١).

وقال ابن أبي الدنيا رَحِمَهُ اللهُ: "بلغني عن بعض العلماء أنه قال: "ينبغي للعالم أن يحمد الله على ما أعطاه، وأين يقع ما أعطاه، والحسنات تأتي عليه إلى ما عافاه، فلم يبتله به فيشغل قلبه، ويتعب جوارحه، فيشكر الله عَزَّجَلَّ على سكون قلبه وجميع بدنه" (٢).

فيحمد الله عَزَّجَلَّ على ما زوى عنه من شهوات الدنيا، كما يحمده على ما أعطي من نعمة العافية، وعلى الاشتغال بما ينفعه.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من رأى مبتلى، فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً، لم يصبه ذلك البلاء» (٣).

(١) فيض القدير (٥/٤٢٨).

(٢) الشكر، لابن أبي الدنيا [١١٣]، وانظر: عدة الصابرين، لابن القيم (ص: ١٣٢).

(٣) أخرجه الترمذي: عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة [٣٤٣٢]، وقال: "حديث حسن غريب". وأخرجه أيضاً: البزار [٦٢١٧، ٩١٠٦]، والطبراني في (الدعاء) [٧٩٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤١٢٩]. قال الهيثمي (١٠/١٣٨): "حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا رأى أحدكم أحداً في بلاء فليقل: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً؛ فإنه إذا قال ذلك كان شاكرًا لتلك النعمة»، قلت: رواه الترمذي باختصار، ورواه البزار، والطبراني في (الصغير) و(الأوسط) بنحوه، وإسناده

الدرر السبب في النجاة

الجزء الثاني

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا اسْتَيْقِظَ فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ» (١).

وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، قَالَ: «بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا»، وَإِذَا قَامَ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ» (٢).

ونحوه: عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣)، وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٤).

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَفَعَ مَائِدَتَهُ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مَبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُؤَدِّعٍ وَلَا مُسْتَغْنَى عَنْهُ، رَبَّنَا» (٥).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَإِذَا قَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَلْيَقُلْ: يَهْدِيكُمْ اللَّهُ وَيُصَلِّحُ بِالْكُم» (٦).

(١) أخرجه الترمذي [٣٤٠١]، وقال: "حديث حسن"، كما أخرجه النسائي في (الكبرى) [١٠٦٣٦]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٨٦٦].

(٢) صحيح البخاري [٦٣١٢، ٦٣١٤، ٦٣٢٤، ٧٣٩٤].

(٣) صحيح البخاري [٦٣٢٥، ٧٣٩٥].

(٤) صحيح مسلم [٢٧١١].

(٥) صحيح البخاري [٥٤٥٨]، وقد تقدم.

(٦) صحيح البخاري [٦٢٢٤].

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

والأحاديث في ذلك كثيرة، وهي تفيد أن الموفق من يحمد الله عَزَّوَجَلَّ في جميع أحواله.

٧ - التأمل في خلق الله جَلَّوَعَلَا وآياته في الخلق.

٨ - النظر إلى كل عطاء على أنه اختبار من الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وينبغي على المسلم أن يتذكر دائماً أن التوسعة في ليست دليلاً على الرضا، فقد نفى القرآن الكريم أن تكون كثرة المال أو الولد دليلاً على رضى المولى جَلَّوَعَلَا، وإنما العمل الصالح هو الوسيلة للحصول على هذا الرضوان، والقرب من الله جَلَّوَعَلَا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [الكهف: ٤٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَاؤُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا آمَاؤُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

٨ - أن يحذر المؤمن دوام السلامة؛ خشية الاستدراج:

إنَّ من أسباب العافية في الدنيا والآخرة: أن يحذر المؤمن دوام السلامة؛ خشية الاستدراج، فيشتغل بالشُّكر، وذكر الله عَزَّوَجَلَّ وطاعته على الدوام. فيجازى في الآخرة بالحسنى جزاء لما عمل في أيامه الخالية. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ويحيا في الدنيا حياة طيبة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

٩ - الاعتبار بحال السابقين ممن جحد نعم الله عَزَّوَجَلَّ:

أخبرنا الحق عَزَّوَجَلَّ عن هلاك بعض الأمم بسبب المعاصي، وكفران النعم، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا﴾ يعني: وحدوا الله عَزَّوَجَلَّ وأطاعوه. ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: المطر. ﴿وَالْأَرْضِ﴾ يعني: النبات، وأصل البركة: المواظبة على الشيء، والثبات عليه، مأخوذ من بروك البعير^(١)، أي: تابعنا عليهم بالمطر، وكثرة المواشي والأنعام، وزيادة الثمار والأرزاق، والأمن والسلامة، ورفعنا عنهم القحط والجذب.

وقال البيضاوي رَحِمَهُ اللهُ: "لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب. وقيل:

المراد: المطر والنبات"^(٢).

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم﴾: فجعلنا لهم العقوبات. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

من الكفر، والمعصية، والأعمال الخبيثة.

(١) انظر: الكشف والبيان (٢٦٥/٤)، تفسير البغوي (٢١٦/٢)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٤٥٣٢/٧)، الخازن (٢٣٠/٢-٢٣١).

(٢) تفسير البيضاوي (٢٥/٣)، وانظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣٨٩/٢).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]، فقد يحرم المرء الرزق بالمعصية يرتكبها، أو قد يحرم البركة في الرزق، فيكون لديه المال الوفير ولا يحسن الانتفاع به، فيضيع المال في غير مصلحة، ويذهب من غير فائدة.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "الحذر الحذر من المعاصي، فكم سلبت من نعم؟! وكم جلبت من نقم؟! وكم خربت من ديار؟!"^(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "المعاصي تُزِيلُ النِّعَمَ، ومن عقوباتها أنها تُزِيلُ النِّعَمَ الحاضرة، وتَقْطَعُ النِّعَمَ الواصِلَةَ، فَتُزِيلُ الحاصل، وتمنع الواصل فإن نِعَمَ اللَّهِ مَا حُفِظَ مَوْجُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَلَا اسْتُجِلِبَ مَفْقُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ؛ فَإِنِ مَا عِنْدَهُ لَا يَبَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا وَآفَةً، سَبَبًا يَجْلِبُهُ، وَآفَةً تُبْطِلُهُ، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته، وآفات المانعة منها معصيته، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها"^(٢).

وقد تقدم ذكر الآيات في بيان عاقبة من كفر نعم الله عَزَّجَلَّ.

١٠ - أن يسجد العبد لله عَزَّجَلَّ شكرًا له عند تجدد النعمة - كما تقدم -.

(١) لطائف المعارف (ص: ١٤٦-١٤٧).

(٢) الجواب الكافي (ص: ١٠٦).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

١١ - القيام بأركان الشكر: من الاعتراف بالنعمة الاعتراف بها باطنًا، والتحدث بها ظاهرًا، وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها، وهو ما يستلزم بحقوق الله عزَّجَل، والوفاء بحقوق العباد.

١٢ - أن ينظرَ الإنسانُ في أمور الدنيا إلى من هو دونه، وأن يتطَّلعَ إلى من هو فوقه في البرِّ والطَّاعات، فيسلك سبيل المهتمدين، من التَّبصر في أمور الدين، ومن التنافس في صالح الأعمال، ومن الصَّبْر على البلاء، والنَّظَر إلى ما أعدَّه الله عزَّجَل لعباده الصَّالحين. ففي أمور الدنيا وزخارفها ينظر إلى من هو أسفل منه؛ فإن ذلك حقيقٌ بأن يشكرَ نعمة الله عزَّجَل عليه، ولا يزدريها. وينظر إلى من هو أعلى منه في الدِّين، والعلم، والدَّعوة، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخصال الخير، والأخلاق الفاضلة، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْحَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ» (١).

وفي رواية: «انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله» (٢).

قال ابن بطال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "هذا الحديث جامع لمعاني الخير؛ لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهدًا فيها إلا وجد من هو فوقه، فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله، فيكون أبدًا في زيادة تُقَرِّبُه من ربِّه، ولا يكون على حال

(١) صحيح البخاري [٦٤٩٠]، مسلم [٢٩٦٣].

(٢) صحيح مسلم [٢٩٦٣].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

حَسِيَسَةً مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَجَدَ مِنْ أَهْلِهَا مَنْ هُوَ أَحْسَنُ حَالًا مِنْهُ، فَإِذَا تَفَكَّرَ فِي ذَلِكَ عَلِمَ أَنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ وَصَلَتْ إِلَيْهِ دُونَ كَثِيرٍ مِمَّنْ فَضِّلَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ أَوْجَبَهُ، فَيُلْزِمُ نَفْسَهُ الشُّكْرَ، فَيَعْظُمُ اغْتِبَاطَهُ بِذَلِكَ فِي مَعَادِهِ"^(١). وَقَالَ غَيْرُهُ: "فِي هَذَا الْحَدِيثِ دَوَاءُ الدَّاءِ؛ لِأَنَّ الشَّخْصَ إِذَا نَظَرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ لَمْ يَأْمَنْ أَنْ يُؤَثَّرَ ذَلِكَ فِيهِ حَسَدًا. وَدَوَائُوهُ: أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ دَاعِيًا إِلَى الشُّكْرِ"^(٢).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَمْرِي خَلِيلِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ، وَالذُّنُورِ مِنْهُمْ، وَأَمْرِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي، وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي» الْحَدِيثُ^(٣).

١٣ - عَدَمُ مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عِنْدَ حَصُولِ النِّعْمَةِ:

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَوْتَانِ مَلْعُونَانِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: مِزْمَارٌ عِنْدَ نِعْمَةٍ، وَرِنَةٌ عِنْدَ مِصِيبَةٍ»^(٤).

١٤ - الِاسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ مِنْ خَطَرِ الِاسْتِدْرَاجِ، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

الَّذِي يُوَسَّوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، وَيُزِينُ لَهُمْ مَا فِيهِ هَلَاكُهُمْ.

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٩٩)، فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٢٣).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٢٣).

(٣) أخرجه أحمد [٢١٤١٥]، وابن حبان [٤٤٩]، والطبراني في (الصغير) [٧٥٨]، والبيهقي في (السنن) [٢٠١٨٦]. قال الهيثمي (٧/٢٦٥): "رجاله رجال الصحيح غير سلام أبي المنذر وهو ثقة".

(٤) أخرجه البزار [٧٥١٣]، والضياء في (المختارة) [٢٢٠٠]، وقال: "إسناده حسن"، قال المنذري في (الترغيب) (٤/١٨٤): "رواه البزار، ورجاله ثقات"، وتبعه الهيثمي (٣/١٣).

الدرر السبيل إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

١٥ - الاستعانة على ما يصيب الإنسان من شدة وبلاء بالصبر، والإكثار من الطاعات:

وقد بيّن الحق جَلَّ وَعَلَا أن خير ما يستعان به عند الشدائد: الصبر والصلاة، فقال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وقد تقدم بيان ذلك.

١٦ - حسن ظنّ المظلوم بالله عَزَّجَلَّ، وأن ينظر إلى ما أعده الله جَلَّ وَعَلَا لعباده الصابرين من الأجر الجزيل، والثواب العظيم في الآخرة، وأن يدرك أن الجزع لا يرفع البلاء.

١٢ - المطالعة الدائمة لسيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسيرة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، والسلف الصالح، وما كانوا عليه من الصبر، والرُّهد، والورع والتَّقوى.

١٣ - إن مما يعين على الصبر عن محارم الله عَزَّجَلَّ: علم العبد بقبحها، وحياء العبد من الله عَزَّجَلَّ، والخوف منه، ومراعاة نعمه، ومحبته جَلَّ وَعَلَا:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "الصبر عن محارم الله عَزَّجَلَّ: يدخل في هذا: المواظبة على فعل الواجبات، والكف عن المحرمات، وذلك ينشأ عن علم العبد بقبحها، وأن الله عَزَّجَلَّ حرمها؛ صيانة لعبده عن الرذائل، فيحمل ذلك العاقل على تركها، ولو لم يرد على فعلها وعيد.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

ومنها: الحياء منه، والخوف منه أن يوقع وعيده فيتركها؛ لسوء عاقبتها، وأن العبد منه بمرأى ومسمع، فيبعثه ذلك على الكف عما نهي عنه.

ومنها: مراعاة النعم؛ فإن المعصية غالبًا تكون سببًا لزوال النعمة.

ومنها: محبة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن المحب يصير نفسه على مراد من يحب وأحسن ما وصف به الصبر أنه حبس النفس عن المكروه، وعقد اللسان عن الشكوى والمكابدة في تحمله، وانتظار الفرج" (١).

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ذلك مفصلاً، وزاد على ما ذكر في بيانه لقاعدة: (الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة) في كتابه: (طريق المهجرتين) (٢)، كما ذكر (الأسباب التي تعين على الصبر على الطاعة) (٣).

(١) فتح الباري (٣٠٣/١١).

(٢) انظر: طريق المهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٧٠).

(٣) انظر: المصدر السابق (ص: ٢٧٥).

الدراسة والسبب النجاة وَالْوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً



الجزء الثاني



المبحث العاشر:

حياة البرزخ

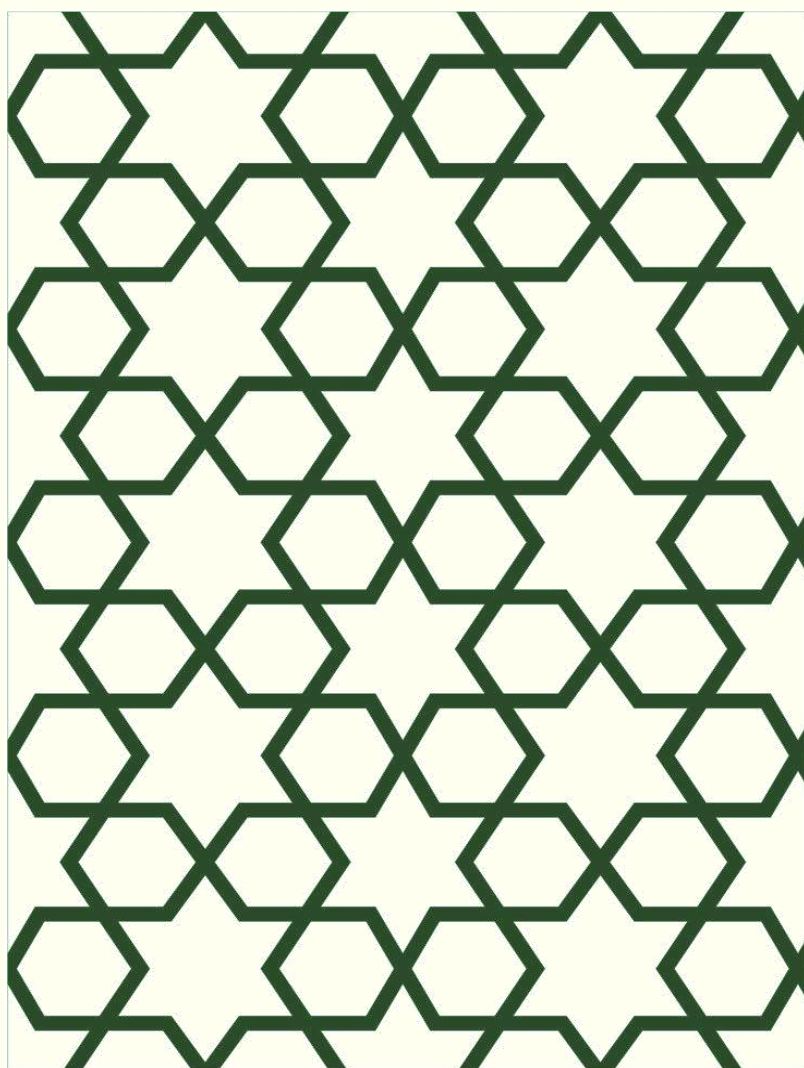
وأسباب الوقاية من العذاب فيه

الإرشاد إلى أسباب النجاة
والوسائد التي اجتمعت حيا لا طيبتر نافعة



الجزء الثاني

الإرشاد إلى أسباب النجاة



الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

أولاً: الإيمان بحياة البرزخ الخاصة:

وهي الفاصلة بين حياة فانية، وحياة باقية.

إن من الإيمان باليوم الآخر: إيمان المسلمين بما أخبر به الشارع مما يكون بعد الموت، كفتنة القبر، وعذابه ونعيمه، فأما الفتنة فيقال للرجل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ كما جاء في الحديث: عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: أتيت عائشة - زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حين خسفت الشمس، فإذا الناس قيام يصلون، وإذا هي قائمة تصلي، فقلت: ما للناس؟ فأشارت بيدها نحو السماء، وقالت: سبحان الله، فقلت: آية؟ فأشارت: أي نعم، فقمت حتى تجلاني العشي، وجعلتُ أصبُ فوق رأسي ماء، فلما انصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمد الله عز وجل، وأثنى عليه، ثم قال: «ما من شيء كنت لم أراه إلا قد رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار، ولقد أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور، مثل: -أو قريب من- فتنة الدجال» - لا أدري أي ذلك قالت أسماء- «يُؤْتَى أَحَدُكُمْ، فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن»، - لا أدري أي ذلك قالت: أسماء- «فيقول: هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا واتبعنا، فيقال له: نعم صالحاً، فقد علمنا إن كنت لمؤمناً، وأما المنافق أو المرتاب» - لا أدري أي ذلك قالت أسماء- «فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»^(١).

(١) أخرجه البخاري [٨٦، ١٨٤، ٩٢٢، ١٠٥٣، ٧٢٨٧].

الدرر الساب إلى السبب النجاة

الجزء الثاني

إن أهل السنة يؤمنون بعذاب القبر لمن كان أهلاً له، وسؤال مُنكرٍ ونكيرٍ، وأنَّ القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، وأن كل من مات وهو مستحق العذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر، فلو أكلته السباع، أو أحرق حتى صار رماداً، ونسف في الهواء، أو صلب، أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى أصحاب القبور.

وقد ظن بعض الأوائل أنه إذا أحرق جسده بالنار وصار رماداً، وذري بعضه في البحر، وبعضه في البر في يوم شديد الريح أنه ينجو بذلك، كما في (صحيح البخاري): عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَلَمَّا يَبَسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطْبًا كَثِيرًا، وَأَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا، حَتَّى إِذَا أَكَلْتُ حَمِيَّ وَخَلَصْتُ إِلَى عَظْمِي فَامْتَحِشْتُ^(١)، فَخَذُّوهَا فَاطْحَنُوهَا، ثُمَّ انظُرُوا يَوْمًا رَاحًا^(٢)، فَادْرُوه^(٣) فِي الْيَمِّ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللهُ فَقَالَ لَهُ: لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، فَغَفَرَ اللهُ لَهُ^(٤)».

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللَّهِ لَتَن قَدَرَ عَلَيَّ رَيِّي لِيُعَذِّبَنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ

(١) أي: احترقت، أو احترق عظمي.

(٢) أي: شديد الريح.

(٣) أي: طروه.

(٤) أخرجه البخاري [٣٤٥٢، ٣٤٧٩].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له»، وقال غيره: «مخافتك يا رب»^(١).

وفي رواية: عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أن رجلاً كان قبلكم، رَغَسَهُ^(٢) اللهُ مَالًا، فقال لبيته لَمَّا حُضِرَ: أَيُّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قالوا: خير أب، قال: فإني لم أعمل خيرا قطُّ، فإذا مُتُّ فأحرقوني، ثم اسحقوني^(٣)، ثم ذرُّوني في يوم عاصفٍ، ففعلوا، فجمعه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فقال: على ما فعلت؟ قال: مخافتك، فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ»^(٤).

وفي لفظ: عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذكر رجلاً فيمن كان سلف، أو قبلكم، آتاه اللهُ مَالًا وولداً -يعني: أعطاه- قال: فلما حضر قال لبيته: أَيُّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قالوا: خير أب، قال: فإنه لم يبتئز عند الله خيراً -فسرها قتادة: لم يدخر- وإنَّ يقدِّم على اللهِ يُعَذِّبُهُ، فانظروا فإذا مُتُّ فأحرقوني، حتى إذا صرت فحماً فاسحقوني -أو قال: فاسهكوني-، فإذا كان يوم ريح عاصف فأذروني فيها، فقال: نبي اللهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فأخذ موثيقهم على ذلك وري، ففعلوا، ثم أذروه في يوم عاصف، فقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: كن، فإذا هو رجل قائم، قال اللهُ: أي

(١) صحيح البخاري [٣٤٨١]، مسلم [٢٧٥٦].

(٢) أي: أعطاه وبارك له فيه، من (الرغس)، وهو البركة والنماء والخير.

(٣) من (السحق)، وهو أشد الدق.

(٤) صحيح البخاري [٣٤٧٨]، [٦٤٨١]، [٧٥٠٨]، مسلم [٢٧٥٧].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

عبدى ما حملك على أن فعلت ما فعلت؟ قال: مخافتك، -أو فَرَّقْ منك-، قال: فما تَلَفَاهُ أن رَحِمَهُ عندها»، وقال مرة أخرى: «فما تَلَفَاهُ غيرها»، فحدثت به أبا عثمان، فقال: سمعت هذا من سلمان غير أنه زاد فيه: «أذروني في البحر»، أو كما حدث (١).

فقوله: «فلم يبتثر خيراً» أي: لم يقدم لنفسه خبيثة خيراً، ولم يدخر، فَسَّرَهَا قتادة رَحِمَهُ اللهُ بقوله: لَمْ يَدَّخِرْ، وقال أبو عبيد رَحِمَهُ اللهُ: قول: «فلم يبتثر خيراً» أي: لم يقدم خيراً، وهو من الشيء يُخْبَأُ، كأنه لم يقدم لنفسه شيئاً خبأه لها. والأصمعي والكسائي رَحِمَهُمَا اللهُ كانا يقولان فيه: لم يقدم خيراً. وقال غيرهما: معناه: أنه لم يقدم لنفسه خيراً خبأه لها. وقالوا: إن أصل الابتثار: الإخفاء، يقال منه: بَأْرَتِ الشيءَ وابتأرتَه ابتثاراً، ومنه سميت الحفرة: البؤرة، وفيه لغتان، ابتأرت وابتيرت، ومصدره: ابتثاراً (٢).

ومن الأحاديث الدالة على حياة البرزخ: ما عن أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: دخل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر»، فضج ناس من أهله، فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا

(١) صحيح البخاري [٦٤٨١].

(٢) انظر: غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام، مادة: (بأر) (١/١٤٦-١٤٧)، تهذيب اللغة (١٨٩/١٥)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٩٣)، غريب الحديث، لابن الجوزي (١/٥١)، كشف المشكل (٣/١٥٦)، المعلم بفوائد مسلم (٣/٣٣٥)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (بأر) (١/٨٩)، أساس البلاغة (١/٢٢٨).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

بخير؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»، ثم قال: «اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونور له فيه»^(١).

وسياتي ذكر الآيات التي توجب الإيمان ب حياة البرزخ بعد الموت، وذكر جملة من أصح ما جاء من الأحاديث الدالة على عذاب البرزخ وفتنته ونعيمه.

ثانياً: المراحل التي يمر بها الإنسان قبل ولادته وبعدها:

الإنسان قبل ولادته يكون جنيناً في بطن أمه، وله أطوار يمر بها في تكوينه، كما أخبر الله عز وجل عن ذلك في قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۗ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۗ﴾ [الحج: ٥-٧].

وقال الله عز وجل أيضاً في بيان المراحل التي يمر بها الإنسان من الخلق إلى البعث يوم القيامة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۗ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۗ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ

(١) صحيح مسلم [٩٢٠].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٦﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦].

وفي الحديث: عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حدثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الصادق المصدوق: «إِنْ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها»^(١).

وقد تقدم أن الموت ليس نهاية لرحلة الإنسان - كما يظن الملاحدة - حيث قالوا: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام: ٢٦]، وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٧﴾ [الجنّة: ٢٤]، فالموت ليس الخاتمة الأبدية لرحلة الإنسان، وإنما ينتقل الإنسان من حياة إلى أخرى، هذه هي الحقيقة عرفها المسلمون من كتاب ربهم جَلَّ وَعَلَا، ومن سنة نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغابت عن كثيرين، حتى عاينوا الحقيقة عند حضور الموت، وتمنوا الرجوع إلى الدنيا، كما أخبر الحق جَلَّ وَعَلَا عن عاقبتهم بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ

(١) صحيح البخاري [٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤]، مسلم [٢٦٤٣].

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافع



الجزء الثاني



أَلَمَوْتُ قَالَ رَبِّ أَرْجِعُونِي ﴿١١٤﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١١٥﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١١٦﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١١٨﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١١٩﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٤].

وأخبر عن تحسرتهم بقوله: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ [الزمر: ٥٦-٥٩].

وينتقل الإنسان بعد الموت إلى دار البرزخ، وهي الدار الفاصلة بين الدنيا والآخرة، ينتقل من دار الزرع إلى دار الحصاد، من دار الفناء إلى دار البقاء، من دار التكليف إلى دار الثواب والعقاب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ (الروح): "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الدَّوْرَ ثَلَاثًا: دَارَ الدُّنْيَا، وَدَارَ الْبَرْزَخِ، وَدَارَ الْقَرَارِ (١). وَجَعَلَ لِكُلِّ دَارٍ أَحْكَامًا تَخْتَصُّ بِهَا، وَرَكِبَ هَذَا الْإِنْسَانُ مِنْ بَدَنِ وَنَفْسٍ.

وَجَعَلَ أَحْكَامَ دَارِ الدُّنْيَا عَلَى الْأَبْدَانِ، وَالْأَرْوَاحِ تَبِعَ لَهَا، وَهَذَا جَعَلَ أَحْكَامَهُ الشَّرْعِيَّةَ مُرْتَبَةً عَلَى مَا يَظْهَرُ مِنْ حَرَكَاتِ اللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، وَإِنْ أَضْمَرَتِ النُّفُوسُ خِلَافَهُ.

(١) ومن أهل العلم من جعل الدور للإنسان أربعًا: فجعل الأولى: عندما يكون في بطن أمه.

الدراسة إلى سبب النجاة

الجزء الثاني

وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تبع لها. فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا، فتألمت بألمها، والتذت براحتها، وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب، تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها. والأرواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعيم، فالأبدان هنا ظاهرة، والأرواح خفية، والأبدان كالقبور لها. والأرواح هناك ظاهرة، والأبدان خفية في قبورها، فتجري أحكام البرزخ على الأرواح، فتسري إلى أبدانها نعيمًا وعذابًا، كما جرى أحكام الدنيا على الأبدان، فتسري إلى أرواحها نعيمًا وعذابًا. فأحط بهذا الموضوع علمًا وأعرفه كما ينبغي، يزل عنك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج" (١).

قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ: "الموت انتقال من دار ضيقة إلى دار واسعة. قال العلماء: الموت ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقة وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار. فإن الله جَلَّ وَعَلَا خلق بني آدم للبقاء لا للفناء، وإنما ينقلهم بعد خلقهم من دار إلى دار، كما قال ذلك طائفة من السلف الأخيار منهم: بلال بن سعد، وعمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وقال ابن القاسم رَحِمَهُ اللهُ: للنفس أربعة دور كل دار أعظم من التي قبلها: الأولى: بطن الأم، وذلك محل الضيق والحصر والغم، والظلمات الثلاث. والثانية: هي الدار التي أنشأتها وألفتها، واكتسبت فيها الشر والخير.

(١) الروح (ص: ٦٣)، وانظر: تسلية أهل المصائب (ص: ٢٠٤).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

والثالثة: هي دار البرزخ، وهو أوسع من هذه الدار وأعظم، ونسبة هذا الدار إليها كنسبة البطن إلى هذه.

والرابعة: هي دار القرار الجنة أو النار، ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الأخرى. انتهى" (١).

ويتبين مما سبق: أن يمر بمراحل: مرحلة الجنين، وله أطوار يمر بها، ثم مرحلة الولادة والرضاعة، ثم مرحلة الطفولة، ثم مرحلة المراهقة، ثم مرحلة الرشد، ثم مرحلة الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة، ومن الناس من يرد بعد الشيخوخة إلى أرذل العمر، نسأل الله جَلَّ وَعَلَا السلامة والعافية.

ومن أنفع الدعاء: ما ورد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جوامع الكلم - كما تقرر في غير موضع-، ومن ذلك: ما كان يستعيذ منه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نحو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وأعوذ بك أن أُرذَلَّ إلى أرذل العمر» الحديث (٢).

والمراحل الرئيسية التي يمر الإنسان بعد ولادته ثلاث:

الأولى: هذه الحياة الدنيا الفانية.

والثانية: مرحلة البرزخ الفاصلة بين الحياتين الفانية والباقية.

(١) بشرى الكتيب بقاء الحبيب، لجلال الدين السيوطي (ص: ١٨)، وانظر: أهوال القبور، لابن رجب (ص: ٥).

(٢) صحيح البخاري [٢٨٢٢، ٦٣٦٥، ٦٣٧٠].

الدراسة والسبيل للحياة

الجزء الثاني

والثالثة: الحياة في الدار الآخرة حيث البقاء الأبدي الذي لا زوال له ولا انقضاء. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوةُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، أي: الحياة الدائمة التي لا موت فيها. وأما (دار القرار) فهي إما الجنة أو النار، وسميت: (دار القرار)؛ لكونها دائمة لا تنقطع، ومستمرة لا تزول.

قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "في حالة الإنسان في دنياه وما يحتاج أن يتزود منها الإنسان مسافر، ومبدأ سفره من حيث ما أشار إليه جَلَّ وَعَلَا بقوله: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]. قال: ومنتهى سفره: دار السلام، ودار القرار. وله بينهما منازل... (١)".

ثالثاً: حقيقة الحياة في دار البرزخ والعذاب والفتنة والنعيم فيه:

الحياة الأرواح في دار البرزخ من عالم الغيب، الذي لا سبيل إلى معرفتها إلا عن طريق النقل. وقد دلَّ النقل على أن حياة الناس في دار البرزخ حياة خاصة، وفيها يفتنون، فينعمون أو يعذبون. وهذا مذهب سلف الأمة وأئمتها أَنَّ المَيِّتَ إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، على اختلاف في ماهية هذا العذاب، هل هو عذاب حسي، أم أنه من قبيل العرض،

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (ص: ٦٩-٧٠).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

وأنة لا عذاب حسي إلا المحاسبة؟ قولان، ولا سبيل إلى القطع في ذلك؛ لكونه من الغيبات التي لا سبيل إلى معرفتها إلا عن طريق النقل، وما دام النقل محتملاً للحمل على عذاب العرض النفسي، فالقطع بأنه بطبيعة العذاب الواقع دونه خرق القناد، وعلى هذا فمن نفى العذاب فإنما يحمل قوله على نفي العذاب الحسي، دون نفي عذاب العرض الذي يصيب النفس بسبب رؤية منزلها، وما سينزل بها بعد المحاسبة من العقاب، ولا سيما في أعمال جاء فيها الوعيد الشديد، فهو يتقلب في عذاب على كلا القولين على مدار الزمان - والله أعلم -.

ولذلك قال ميمون بن محمد النسفي رَحِمَهُ اللهُ فِي (بحر الكلام): "والدليل على أن عذاب القبر مما يقبله العقل: ألا ترى أن النائم تخرج روحه، وتكون متصلة بجسده حتى أنه يتألم في المنام، ويصل إليه الألم والاستراحة، وقد يتكلم في المنام؛ لأن روحه متصلة بجسده، والنوم أخو الموت، فيجوز أن يتألم ويستريح بعد الموت. والمعذب والمريح والراحم هو الله عَزَّجَلَّ، يعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، كما يريد، وهو على كل شيء قدير" (١).

ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى قام الموتى من قبورهم لرب العالمين؛ للحساب على ما كل واحد منهم من عمل، وعلى ما فرط وترك، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٦-٧].

(١) بحر الكلام (ص: ٢٥١-٢٥٢).

الدرر السابغ إلى السبب النجاة والسائل الناجع نجاة طيبة نافعته

الجزء الثاني

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۗ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس: ٥١-٥٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿خُشِعَا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَىٰ الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٧-٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَدَرَّهْمٌ يَخْوِضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿١٤﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُوفِضُونَ ﴿١٥﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذٰلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المعارج: ١٤-١٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار: ٤-٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [العاديات: ٦-١١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿الْهَلِكُمْ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ١-٨].

قال الإمام السيوطي رَحِمَهُ اللهُ فِي (شرح الصدور): "باب: (فتنة القبر، وسؤال

الملكين)

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قد تواترت الأحاديث بذلك، مؤكدة من رواية: أنس، والبراء، وتميم الداري، وبشير بن الكمال، وثوبان، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن رواحة، وعبادة بن الصامت، وحذيفة، وضمرة بن حبيب، وابن عباس، وابن عمر، وابن مسعود، وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، وعمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل، وأبي أمامة، وأبي الدرداء، وأبي رافع، وأبي سعيد الخدري، وأبي قتادة، وأبي هريرة، وأبي موسى، وأسماء، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ^(١).

وأخبر الله جَلَّ وَعَلَا عن حال من شغله المتاع العاجل، وغفل عن الدار الآخرة حتى باغته الموت بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلْهَيْكُمْ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝﴾ [التكاثر: ١-٨]. ولم يذكر المتكاثر به؛ ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون، من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وقد خلا عن الإخلاص والشكر والطاعة. فاستمرت غفلتكم وهوتكم وتشاغلكم عن طاعة ربكم، وعمما ينجيكم من سخطه عليكم. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝﴾ يعني: حتى صرتم إلى المقابر، فدفنتم فيها.

(١) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص: ١٢١).

الدرر السابغ إلى سبب النجاة

الجزء الثاني

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ: "وفي هذا دليل على صحة القول بعذاب القبر؛ لأن الله عَزَّجَلَّ ذكره، أخبر عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثر، أنهم سيعلمون ما يلقون إذا هم زاروا القبور وعيدًا منه لهم وَهَدُّدًا"^(١).

ودل جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أن البرزخ دار فاصلة بين الدنيا الفانية والآخرة الباقية، فلا مستقر فيها؛ ولذلك الله عَزَّجَلَّ سماهم: زائرين. و﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إذا زرتم المقابر، أيها الذين ألهاهم التكاثر، غبَّ فعلكم، واشتغالكم بالتكاثر في الدنيا عن طاعة الله ربكم جَلَّوَعَلَا.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: "يقول: ثم ما هكذا ينبغي أن تفعلوا أن يلهيكم التكاثر بالأموال، وكثرة العدد، سوف تعلمون إذا زرتم المقابر، ما تلقون إذا أنتم زرتموها، من مكروه اشتغالكم عن طاعة ربكم جَلَّوَعَلَا بالتكاثر. وكزَّر قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مرتين؛ لأن العرب إذا أرادت التخليط في التخويف والتهديد كرَّروا الكلمة مرتين.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ يقول تعالى ذكره: ما هكذا ينبغي أن تفعلوا، أن يلهيكم التكاثر أيها الناس، لو تعلمون أيها الناس علمًا يقينًا، أن الله عَزَّجَلَّ باعثكم يوم القيامة من بعد مماتكم من قبوركم ما ألهاكم التكاثر عن طاعة الله

(١) تفسير الطبري (٥٨٠/٢٤).

الدرر السابغ إلى السبب النجاة

الجزء الثاني

رِكم عَزَّجَلَّ، ولسارعتن إلى عبادته، والانتهاه إلى أمره ونهيه، ورفض الدنيا؛ إشفاقًا على أنفسكم من عقوبته" (١).

وهاك جملة من أصح ما جاء من الأحاديث في هذا الباب من حيث الدلالة على عذاب البرزخ، وفتنته، ونعيمه.

رابعًا: النصوص الدالة على عذاب البرزخ، وفتنته، ونعيمه:

استدل على عذاب البرزخ بجملة من النصوص من الكتاب والسنة:

وقد استدل من القرآن الكريم على عذاب البرزخ بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥-٤٦]. فالعطف يقتضي المغايرة، فعرض النار قبل يوم القيامة، وهو عذاب القبر.

وقد استدل بالآية الإمام البخاري رَحْمَةُ اللَّهِ فِي (صحيحه) على عذاب البرزخ (٢).

وقال ابن قتيبة رَحْمَةُ اللَّهِ: "وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] فإنه لم يرد أن ذلك يكون في الآخرة، وإنما أراد أنهم يعرضون عليها بعد مماتهم في القبور.

(١) تفسير الطبري (٤/٢٤٠٨١).

(٢) انظر: صحيح البخاري، باب ما جاء في عذاب القبر (٢/٩٧).

الدرر والاسرار في السبب النجاة

الجزء الثاني

وهذا شاهد من كتاب الله عزَّجَلَّ لعذاب القبر، يدُّك على ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فهم في البرزخ يعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا، وفي القيامة يدخلون أشد العذاب" (١).
وقال جابر الله الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "ويستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر" (٢).

وقال البغوي رَحِمَهُ اللهُ: "فذلك عذابهم في البرزخ بين الدنيا والآخرة" (٣).
وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ: "الآيات الدالة على عذاب القبر، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، والموتتان لا تحصل إلا عند حصول الحياة في القبر، وقال الله عزَّجَلَّ: ﴿أَغْرِقُوا فَاَدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، والفاء للتعقيب.. وذكر قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].
قال: وإذا ثبت عذاب القبر وجب القول بثواب القبر أيضًا.. ثم دلل على ذلك (٤).

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "إنَّ فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، أي: أشده ألما

(١) تأويل مشكل القرآن (ص: ٥٦).

(٢) الكشاف (٤/١٧٠)، وانظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٢٣٢)، تفسير القرطبي (١٥/٣١٨-٣١٩).

(٣) معالم التنزيل (١/٣٤١).

(٤) انظر: مفاتيح الغيب (٤/١٢٦).

الدرر والاسرار في سبيل النجاة

الجزء الثاني

وأعظمه نكالا. وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور" (١).

ومن الأدلة على حياة النعيم الخاصة في البرزخ: قوله جَلَّوَعَلَا عن الشهداء: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ ۗ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]. وقال جَلَّوَعَلَا عن الشهداء أيضا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا ۗ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [١٦٦] فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٧٠] * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، "أي: بل هم أحياء، والجملة معطوفة على ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ إضراب عنه، وليس من عطف المفرد على المفرد؛ ليكون في حيز القول، ويصير المعنى: بل قولوا: أحياء؛ لأن المقصود إثبات الحياة لهم، لا أمرهم بأن يقولوا في شأنهم: إنهم أحياء، وإن كان ذلك أيضا صحيحا.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [١٥٤] أي: لا تحسون ولا تدركون ما حالهم بالمشاعر؛ لأنها من أحوال البرزخ التي لا يطلع عليها، ولا طريق للعلم بها إلا بالوحي. واختلف في هذه الحياة، فذهب كثير من السلف إلى أنها حقيقية بالروح والجسد ولكنها لا ندركها في هذه النشأة، واستدلوا بسياق قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

(١) تفسير ابن كثير (١٤٦/٧).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

﴿آل عمران: ١٦٩﴾، وبأن الحياة الروحانية التي ليست بالجسد ليست من خواصهم، فلا يكون لهم امتياز بذلك على من عداهم.

وذهب البعض إلى أنها روحانية، وكونهم يرزقون لا ينافي ذلك، فقد روي عن الحسن رَحْمَةُ اللَّهِ أَنْ الشَّهَدَاءِ أَحْيَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ تُعْرَضُ أَرْزَاقُهُمْ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ فَيُصَلُّ إِلَيْهِمُ الرُّوحُ^(١) والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدواً وعشيا، فيصل إليهم الوجد^(٢)، فوصول هذا الرُّوح إلى الروح هو الرزق والامتياز ليس بمجرد الحياة، بل مع ما ينضم إليها من اختصاصهم بمزيد القرب من الله عز شأنه، ومزيد البهجة والكرامة.

وذهب البلخي رَحْمَةُ اللَّهِ إِلَى نَفْيِ الْحَيَاةِ بِالْفِعْلِ عَنْهُمْ مُطْلَقًا - وَأَخْرَجَ الْجُمْلَةَ الْاسْمِيَّةَ الدَّالَّةَ عَلَى الْاسْتِمْرَارِ الْمُسْتَوْعَبِ لِلْأَزْمَنَةِ مِنْ وَقْتِ الْقَتْلِ إِلَى مَا لَا آخِرَ لَهُ عَنْ ظَاهِرِهَا - وَقَالَ: مَعْنَى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ إِنَّهُمْ يَحْيُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَجْزُونَ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ، فَالآيَةُ عَلَى حَدِّ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣-١٤].

(١) الروح - بفتح الراء -: الراحة والسرور، و(الروح) - بالفتح - من (الاستراحة)، وكذا: (الراحة). و(الروح) أيضًا و(الريحان): الرحمة والرزق. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (روح) (١/٣٧٠-٣٧١)، مختار الصحاح، (ص: ١٣١)، جمهرة اللغة (١/٥٢٦)، تهذيب اللغة (٥/١٤٢).

(٢) انظر: الكشف والبيان (٢/٢٢)، تفسير البغوي (١/١٦٨)، الكشف (١/٢٠٦)، تفسير البيضاوي (١/١١٤)، تفسير النسفي (١/١٤٤). ومما يستدل على ذلك: حديث: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا» وسياقي.

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

وفائدة الإخبار بذلك: الرد على المشركين حيث قالوا: إن أصحاب محمد يقتلون أنفسهم، ويخرجون من الدنيا بلا فائدة، ويضيعون أعمارهم، فكأنه قيل: ليس الأمر كما زعمتم، بل يحيون ويخرجون. وذهب بعضهم إلى إثبات الحياة الحكمية لهم بما نالوا من الذكر الجميل، والثناء الجليل^(١).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَكِنَّ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، أي: "كيف حالهم في حياتهم"^(٢). قال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ اللهُ: "هذا تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يحس به من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل، بل بالوحي، وفيها دلالة على أن الأرواح: جواهر قائمة بنفسها، وأنها تبقى بعد الموت داركة، وعليه جمهور الصحابة رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُمْ والتابعين، وبه نطقت الآيات والسنن، وعلى هذا فتخصيص الشهداء؛ لاختصاصهم بالقرب من الله عَزَّجَلَّ، ومزيد البهجة والكرامة"^(٣).

وكلام الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ فيما يظهر أعم من أن تكون حياتهم بالروح فحسب، ولا ريب أنها أمر لا يدرك بالعقل، بل بالوحي، ولا وجه لنفي الحياة بالفعل عنهم مطلقاً، كما ذهب إليه البلخي رَحِمَهُ اللهُ، ولكن الله عَزَّجَلَّ قد خصهم تختلف عن حياة غيرهم، حيث تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الرُّوح والفرح - كما تقدم -.

(١) روح المعاني (١/٤١٨).

(٢) الكشف (١/٢٠٦).

(٣) تفسير البيضاوي (١/١١٤).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

والقول بأن المراد: إثبات الحياة الحكيمة لهم، دون غيرها، وذلك بما نالوا من الذكر الجميل، والثناء الجليل، فقد أبعد النجعة، وهو مما لا يتسق مع ظاهر النص ومفهومه، وكذلك مع غيره من النصوص الدالة على إكرام الله عزَّجَلَّ للشهيد وحياته الخاصة في البرزخ، واختصاصه بالرزق، ومزيد من البهجة والكرامة، والحياة الحكيمة قد شاركهم فيها غيرهم ممن ترك أثرًا طيبًا، وكلما ارتفع في ميزان الإنسانية وما قدم كان حياته الحكيمة أطول.

والحاصل أن الشهداء أحياء عند ربهم جَلَّ وَعَلَا، كما أخبر الله عزَّجَلَّ في القرآن الكريم - كما تقدم-، وكما سيأتي في الحديث.

أما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]، فهو لما يكتبون لأجله، فالجملة مستأنفة مسوقة للإجابة عن سؤال مقدر، تقديره: لم يكتبون ذلك، فكأنه قيل: ليجازي الأبرار بالنعيم، والفجار بالجحيم.

أما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الانفطار: ١٦] فهو كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] - كما ذكر الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ -.

وقيل: يجوز أن يراد: يصلون النار يوم الدين وما يغيبون عنها قبل ذلك، يعني: في قبورهم.. (١).

وعلى هذا القول فإن قوله: (يعني: في قبورهم)، "الواو: للعطف، فيقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، أي: إنهم الآن ليسوا بغائبين عن الجحيم، كما قال

(١) انظر: الكشاف (٤/٧١٧).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

عَرَجَلٌ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ [غافر: ٤٦]. ذكره العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ فِي (حاشيته على الكشاف) (١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "وذكر عذاب القيامة والبرزخ معاً في غير موضع: ذكره في قصة آل فرعون فقال: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ [غافر: ٤٥-٤٦]، وقال في قصة قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ [نوح: ٢٥]، مع إخبار نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم بالقيامة في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ [نوح: ١٧-١٨].

وقد ذكرنا في غير موضع: أن الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قبل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْذَرُوا بِالْقِيَامَةِ الْكُبْرَى؛ تَكْذِيبًا لِمَنْ نَفَى ذَلِكَ مِنَ الْمُتَفَلِّسَةِ، وَقَالَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١﴾ [التوبة: ١٠١]، قال غير واحد من العلماء: المرة الأولى في الدنيا، والثانية في البرزخ، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١﴾﴾ في الآخرة (٢).

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (٣٣٠/١٦-٣٣١).

(٢) وقد استدلل بالآية الإمام البخاري في (صحيحه) على عذاب البرزخ، باب ما جاء في عذاب القبر. انظر: صحيح البخاري (٩٧/٢). قال ابن بطال: "واختلف أهل التأويل في قوله جَلَّوَعًا: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٠١]، قال الحسن، وابن جريج: عذاب الدنيا وعذاب القبر، وقال مجاهد: القتل والسبأ" شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣٦٣/٣)، وانظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملتن (١٥١/١٠)، وقال الكرمانلي: "قوله جَلَّوَعًا: ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ هما: القتل في الدنيا، وعذاب القبر في الآخرة، والدليل عليه: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١﴾﴾ وهو عذاب النار.

الدرر السابغ الحفاه

الجزء الثاني

وقد ثبت في (الصحيحين) من غير وجه: «أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أتى المشركين يوم بدر في القلب ناداهم: يا فلان يا فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً»^(١). وهذا دليل على وجودهم، وسماعهم، وأنهم وجدوا ما وعدوه بعد الموت من العذاب، وأما نفس قتلهم فقد علمه الأحياء منهم...، إلى غير ذلك من الآيات التي ذكرها، وبعضها محل نظر من حيث عدم القطع بما ذكر من التأويل، واحتمالها لغيره، مما ينظر في مظانه، ثم ذكر عقب ذلك جملة من الأحاديث ذات الصلة^(٢).

وذكر أبو عبد الله القرطبي وابن القيم رَحِمَهُمَا اللهُ: أن مما يستدل به على العذاب في البرزخ: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه:١٢٤]، قالوا: فسرها غير واحد من السلف: بعذاب القبر، وجعلوا هذه الآية من الأدلة على عذاب القبر؛ ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾^(١٤٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا^(١٤٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمِ تُنْسَى^(١٤٦) [طه:١٢٤-١٢٦]، أي: تترك في العذاب كما تترك العمل بآياتنا، فذكر عذاب البرزخ، وعذاب دار البوار.

ومن ذلك: ما قيل في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الطور:٤٧] بأن المراد منه: عذاب القبر؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ ذكره عقب قوله: ﴿فَذَرَّهُمْ حَتَّى

(١) انظر: صحيح البخاري [١٣٧٠، ٣٩٧٦، ٣٩٨٠، ٤٠٢٦]، مسلم [٢٨٧٣، ٢٨٧٤]، [٢٨٧٤].

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٤/٢٦٦-٢٧٠).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

يُلْقَوْنَ يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ [الطور: ٤٥]، وهذا اليوم هو اليوم الآخر من أيام الدنيا، فدل على أن العذاب الذي هم فيه هو عذاب القبر، وكذلك قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ [الطور: ٤٧]؛ لأنه غيب (١).

قال ابن القيم رحمه الله: "جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الطور: ٤٧] يحتمل أن يراد به: عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به: عذابهم في البرزخ، وهو أظهر؛ لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا. وقد يقال: وهو أظهر أن من مات منهم عذب في البرزخ، ومن بقي منهم عذب في الدنيا بالقتل وغيره، فهو وعيد بعذابهم في الدنيا، وفي البرزخ" (٢).

ومما استدل به على عذاب البرزخ: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ [الأنعام: ٩٣].

قال الإمام البخاري رحمه الله: "باب ما جاء في عذاب القبر، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، قال أبو عبد الله: الهون: هو الهوان، والهون: الرفق" (٣)، أي:

(١) انظر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، لأبي عبد الله القرطبي (ص: ٣٨٨-٣٨٩)، مفتاح دار السعادة،

لابن القيم (١/٤٣-٤٤).

(٢) الروح، لابن القيم (ص: ٧٥).

(٣) صحيح البخاري (٢/٩٧).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

الهُونُ - بفتح الهاء - معناه: الرفق، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿الَّذِينَ يَمُشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، أي: برفق وسكينة.

وقال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾: خلصوها من أيدينا، أي: لا تقدرّون على الخلاص. ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ يجوز أن يريدوا: وقت الإمامة، وما يعذبون به من شدة النزاع، وأن يريدوا الوقت الممتد المتطاوّل (١) الذي يلحقهم فيه العذاب في البرزخ والقيامة. والهون والهوان: الشديد، وإضافة (العذاب) إليه كقولك: رجل سوء (٢)، يريد: العراقة في الهوان، والتمكّن فيه. ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣): فلا تؤمنون بها" (٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]: "هذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون: أنهم حينئذ يجزون

(١) أي: "من الإمامة إلى ما لا نهاية له" كما ذكر القاضي البيضاوي (٢/ ١٧٣)؛ إذ مبدأ عذابهم وقت الإمامة، ثم يعذبون في البرزخ، وفي القيامة. انظر: حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (١٩٧/٨).

(٢) "أي: عذاباً شديداً، فأضيف؛ ليدل على أن العذاب ملك له؛ لأن نسبة الإضافة ألصق من نسبة الصفة بالموصوف. ومن ثم قال: "يريد العراقة في الهوان": أي: الأصالة. وفي (الأساس): فلان معرق في الكرم أو اللؤم، وهو عريق فيه، واعتزقت الشجرة، واستعرت: ضربت بعروقها" حاشية الطيبي على الكشاف (١٦٧/٦)، أساس البلاغة، مادة: (عرق) (١/ ٦٤٧).

(٣) الكشاف (٢/ ٤٦-٤٧).

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافعته

الجزء الثاني

عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم: ﴿الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ﴾^(١).

ومن ذلك: ما جاء في قوله جلَّ وعلا: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فقد روى البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ، ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾» قال أبو عبد الله: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة بهذا، وزاد: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ نزلت في عذاب القبر^(٢).

ومن ذلك: ما قيل في قوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

قيل: ﴿الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾: عذاب الدنيا من القتل والأسر، وما منحوا به من القحط والجدب.

وعن مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: ﴿الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾: عذاب القبر. و﴿الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾: عذاب الآخرة، أي: نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة^(٣).

(١) الروح، لابن القيم (ص: ٧٥).

(٢) صحيح البخاري [١٣٦٩]، واللفظ له، مسلم [٢٨٧١].

(٣) انظر ما قيل في تفسير الآية في: تفسير يحيى بن سلام (٢/٦٩٢-٦٩٣)، تفسير الطبري (٢٠/١٩١)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٩/٣١١٠)، الكشف (٣/٥١٣)، الدر المنثور (٦/٥٥٤-٥٥٥)، الزهد، لهناد [٣٤٥]، وأورد الماوردي في (النكت والعيون) (٤/٣٦٥) ثمانية أقوال في تفسير: =

الدرر السابغ إلى السبب النجاة

الجزء الثاني

ومن ذلك: ما قيل في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلْهَيْكُمْ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾ [التكاثر: ١-٤]، والمعنى: سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت. وقيل: العلم الأول: يقع عند نزول الموت. والثاني: عند نزول القبر.

وقد رُوِيَ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه فسَّرَ قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾ أي: ما ينزل فيكم من العذاب في القبر. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾ أي: في الآخرة إذا حل بكم العذاب فالأول: في القبر، والثاني: في الآخرة، فالتكرير للحالتين. كما رُوِيَ عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت هذه السورة: ﴿أَلْهَيْكُمْ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾ [التكاثر: ١-٣]، يعني: في القبور^(١).

= ﴿أَلْعَذَابِ الْأَذَى﴾، وأورد ابن الجوزي في (زاد المسير) (٤٤٢/٣) ستة أقوال. قال: وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾: "أي: قَبْلَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ وفيه قولان: أحدهما: أنه عذاب يوم القيامة، قاله ابن مسعود. والثاني: أنه القتل ببدر. قاله مقاتل". وقال الحافظ ابن كثير: "قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى: مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتُها، وما يحل بأهلها مما يتلى الله عَزَّجَلَّ به عباده؛ ليتوبوا إليه. وروى مثله عن أبي بن كعب، وأبي العالية، والحسن، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وعلقمة، وعطية، ومجاهد، وقتادة، وعبد الكريم الجزري، وخصيف. وقال ابن عباس - في رواية عنه -: يعني به: إقامة الحدود عليهم. وقال البراء بن عازب، ومجاهد، وأبو عبيدة: يعني به: عذاب القبر" تفسير ابن كثير (٣٦٩/٦-٣٧٠)، وقيل غير ذلك.

(١) انظر: التذكرة، لأبي عبد الله القرطبي (ص: ٣٨٨) أخرجه الترمذي [٣٣٥٥]، بإسناد فيه ضعف. وقال: "حديث غريب"، كما أخرجه ابن أبي عاصم في (السنة)، وقال: "وروى في عذاب القبر: زيد بن

الدرر والاسباب النجاة والسائل الناجع حيا طيبنا فاعتنا

الجزء الثاني

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٣ ثم كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ [التكاثر: ٣-٤] قيل: تأكيد لحصول العلم، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ٤ ثم كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ [النبا: ٤-٥] وقيل: ليس تأكيدا، بل العلم الأول عند: المعاينة ونزول الموت. والعلم الثاني: في القبر، هذا قول الحسن، ومقاتل، ورواه عطاء: عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. ثم ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ما يدل على صحة هذا القول من عدة أوجه" (١).

والأحاديث في إثبات عذاب البرزخ كثيرة، وقد تقدم ذكر بعضها، ومن هذه الأحاديث: ما جاء في (الصحيح): عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -زوج النبي- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن يهودية جاءت تسألها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

= ثابت، وأبو أيوب، وعلي، وأبو هريرة، وأنس، وعثمان بن أبي العاص، وأبو بكر، وابن عباس، وعائشة، وأسماء، وأم خالد، وأبو رافع، وجابر. كل هؤلاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال أبو بكر: وصحّت الأخبار عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في استعاذته من عذاب القبر وتَعُوذِهِ منه، وثبت عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أمته ستبتلى في قبورها، وهي أخبار ثابتة توجب العلم، وتنفي الريب والشك. والله عَزَّ وَجَلَّ نسأل أن يعيدنا من عذاب في قبورنا، وأن يجعلها علينا رياضاً خضراء تنور لنا فيها" اهـ. كما أخرجه ابن جرير الطبري في (التفسير) (٥٨٠/٢٤)، وأخرجه أيضاً: الطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٥١٧٧]، وقال: "سمعت محمد بن عبد الرحمن الهروي يقول: قال أحمد بن حنبل: ما حدث الفريابي بحديث أحسن من هذا الحديث، يعني: حديث قيس هذا، قال أبو جعفر: فكان هذا الحديث فيه إثبات عذاب القبر، وقد رويت عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آثار باستعاذته منه متواترة.. اهـ"، ثم أورد جملة من هذه الآثار. وأخرجه أيضاً: ابن أبي حاتم في (التفسير) [١٩٤٥٤]، وأخرجه كذلك: البيهقي في (شعب الإيمان) [٣٩٥]، وفي (إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين) [٢٢٤].

(١) انظر: عدة الصابرين (ص: ١٨٧-١٨٨)، وانظر: تفسير القرطبي (١٧٢/٢٠)، السراج المنير

(٥٨٢/٤).

الرسالة السببية النجاة والسبب الناجح حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيعذب الناس في قبورهم؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَائِدًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ».

ثم ركب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات غداة مركبًا، فَخَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَرَجَعَ ضَحَى، فَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْحُجْرَيْنِ^(١)، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي وَقَامَ النَّاسُ وَرَاءَهُ، فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، ثُمَّ رَفَعَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ قَامَ قِيَامًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ، فَسَجَدَ وَانصَرَفَ، فَقَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ «أَمْرَهُمْ أَنْ يَتَعَوَّذُوا مِنَ عَذَابِ الْقَبْرِ»^(٢).

وفي رواية: عن مسروق، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ يَهُودِيَةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا، فَذَكَرَتْ عَذَابَ الْقَبْرِ، فَقَالَتْ لَهَا: أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَسَأَلَتْ عَائِشَةَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَقَالَ: «نَعَمْ، عَذَابُ الْقَبْرِ»، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فَمَا رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ صَلَاتِهِ إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. زَادَ عُذْرٌ: «عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ»^(٣).

(١) (بين ظهري الحجر) أي: بينها، وهي بيوت أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي رواية مسلم: قالت عائشة: فخرجت في نسوة بين ظهري الحجر في المسجد... الحديث.

(٢) صحيح البخاري [١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥٥، ١٠٥٦]، واللفظ له، مسلم [٩٠٣].

(٣) صحيح البخاري [١٣٧٢].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وعن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، تقول: «قام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطيباً، فذكر فتنة القبر التي يفتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضجَّ المسلمون ضجَّةً» (١). زاد النسائي رَحِمَهُ اللهُ من قول أسماء رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ضجَّ المسلمون ضجَّةً حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما سكنت ضجتهم قلت لرجل قريب مني: أي بارك الله لك، ماذا قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر قوله؟ قال: «قد أوحى إليَّ أَنْكُمْ تفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال» (٢).

وكذلك سماع الموتى قرع نعال دافنيهم، وكلامه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل القليب - كما تقدم -، وسؤال الملكين، وإعادتهما للميت، وجوابه لهما.

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأما المؤمن، فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً»، - قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: وذكر لنا: أنه يفسح له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس - قال: «وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟

(١) صحيح البخاري [١٣٧٣].

(٢) سنن النسائي [٢٠٦٢]، السنن الكبرى [٢٢٠٠]، وكذا في (مستخرج أبي عوانة) [٣٩٧]، والمخلصيات [١٨٢٢] [٢٤٦]، وفي (إثبات عذاب القبر) للبيهقي [١٠٢].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعه من يليه غير الثقلين»^(١).

ومن الأحاديث التي نصّت على عذاب البرزخ: ما جاء في (الصحيح): عن أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد وجبت الشمس، فسمع صوتاً، فقال: «يَهُودُ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهَا» وقال النضر: أخبرنا شعبة، حدثنا عون، سمعت أبي، سمعت البراء، عن أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخلت عَلِيَّ عَجُوزَانِ مِنْ عَجُزِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَتَا لِي: إِنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يَعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَكَذَبْتُهُمَا، وَلَمْ أَنْعَمْ أَنْ أَصْدَقَهُمَا، فَخَرَجْتَا، وَدَخَلَ عَلِيٌّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عَجُوزَيْنِ، وَذَكَرْتَ لَهُ، فَقَالَ: «صَدَقْتَا، إِنَّهُمَا يَعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ كُلُّهَا»، فَمَا رَأَيْتَهُ بَعْدَ فِي صَلَاةٍ إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ^(٣).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ

(١) صحيح البخاري [١٣٣٨، ١٣٧٤]، مسلم [٢٨٧٠].

(٢) صحيح البخاري [١٣٧٥]، مسلم [٢٨٦٩]. و(وجبت الشمس)، أي: غربت. وفي رواية مسلم: «بعد ما غربت الشمس».

(٣) صحيح البخاري [٦٣٦٦]، مسلم [٥٨٦].

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة الحيا، وفتنة الممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة الحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»^(٢).

وكان سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعَلِّمُ بَنِيهِ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ كَمَا يُعَلِّمُ الْمَعْلَمُ الْغُلَّامَانَ الْكُتَابَةَ، ويقول: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْهُنَّ ذُبْرَ الصَّلَاةِ: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أُرَدَّ إِلَى أُرْدَلِ الْعَمْرِ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر»^(٣).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهزم، وأعوذ بك من فتنة الحيا والممات، وأعوذ

(١) صحيح البخاري [٨٣٢]، مسلم [٥٨٩]. و«المأثم» معناه: من الإثم والغرم، وهو الدين، أي: من الأمر الذي يوجب الإثم، فالمأثم ما يسبب الإثم، ويترتب عليه العقاب، و«المغرم» هو الدين. وقيل: الدين الذي لا يجد وفاءه. وقيل المراد الاستعاذة ممن جعل الاستدانة دأبه وعادته.

(٢) صحيح البخاري [١٣٧٧]، مسلم [٥٨٨]. وفي رواية عند مسلم: «إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة الحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال». وفي رواية عند مسلم: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وعذاب النار، وفتنة الحيا والممات، وشر المسيح الدجال».

(٣) صحيح البخاري [٢٨٢٢، ٦٣٦٥، ٦٣٧٠].

الدرر والاسباب النجاة والسبائل الناجحة حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

بك من عذاب القبر»^(١). وفي لفظ: «أعوذ بك من البخل والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة الحيا والممات»^(٢).

وفي (صحيح مسلم): عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال أبو سعيد: ولم أشهده من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن حدثني زيد بن ثابت، قال: بينما النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حائط لبني النجار، على بغلة له ونحن معه، إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة - قال: كذا كان يقول الجريري - فقال: «من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟»، فقال رجل: أنا، قال: «فمتى مات هؤلاء؟»، قال: ماتوا في الإشراف، فقال: «إن هذه الأمة تبلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا، لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه»، ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: «تعوذوا بالله من عذاب النار»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار، فقال: «تعوذوا بالله من عذاب القبر»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: «تعوذوا بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن»، قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: «تعوذوا بالله من فتنة الدجال»، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال^(٣). وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر»^(٤).

(١) صحيح البخاري [٢٨٢٣، ٦٣٦٧]، مسلم [٢٧٠٦].

(٢) صحيح البخاري [٤٧٠٧]، مسلم [٢٧٠٦].

(٣) صحيح مسلم [٢٨٦٧].

(٤) صحيح مسلم [٢٨٦٨].

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

وعن عوف بن مالك، يقول: صَلَّى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جنازة، فحفظت من دعائه، وهو يقول: «اللهم، اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وزوجاً خيراً من زوجته، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر - أو من عذاب النار-»، قال عوف: «فتمنيت أن لو كنت أنا الميت، لدعاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك الميت»^(١).

والأحاديث في الاستعاذة من عذاب القبر كثيرة.

وبما تقدم يتبين أن للناس في قبورهم حياةً أخرى لها خصوصياتها، وتعلقُ الروح بالبدن فيها تعلقٌ خاصٌّ. والناس في تلك الحياة ينالون من العذابِ أو النعيمِ على حسب أعمالهم في الدنيا، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]. كما أن ذلك العالم البرزخي من عالم الغيب الذي لا يستقل العقل بإدراكه، وينال العذاب أو النعيم الروح والجسد على قول الأكثر، وقيل: إن ذلك من قبيل العرض - كما تقدم -.

وقد ظن الملاحدة: أن الموت نهاية رحلة الإنسان في هذه الحياة، فلا حياة بعده ولا بعث، وهذا دأب الملحدين في كل زمان، كما قال الله عَزَّجَلَّ عنهم: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

(١) صحيح مسلم [٩٦٣].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

والحقيقة التي غابت عنهم بسبب إلحادهم، والتي عرفها المسلمون من كتاب ربهم جَلَّ وَعَلَا، وسنة نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذه النهاية: أنها انتقال من حياة إلى حياة، انتقال من دار الدنيا إلى دار البرزخ، من دار الزرع إلى دار الحصاد، من دار الفناء إلى دار البقاء، من دار التكليف، إلى دار الثواب والعقاب.

فنهاية الإنسان ليست العدم المحض، بل انتقال من دار الدنيا إلى دار البرزخ، كما أخبر الحق في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٦﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، أي: مهلة يمكنون بها، إلى أن ينتقلوا إلى الدار الآخرة.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عاقبة الغافلين عن ذكره: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٥﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

قال أبو القاسم القشيري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الكافر إذا أعرض عن ذكره بالكلية فله المعيشة الضنك في الدنيا، وفي القبر، وفي النَّار، وبالقلب من حيث وحشة الكفر، وبالوقت من حيث انغلاق الأمور.

ويقال: من أعرض عن الانخراط في قضايا الوفاق انثالت^(١) عليه فنون الخذلان، ومن أعرض عن استدامة ذكره سبحانه بالقلب توالت عليه من تفرقة القلب ما يسلب عنه كلَّ روح.

(١) أي: انصبت، يقال: انثال عليه التراب، أي: انصبَّ. وانثال عليه الناس من كلِّ وجه، أي: انصبُّوا. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ثول) (٤/١٦٤٩).

الدرر السابغ إلى السبب النجاة

الجزء الثاني

ومن أعرض عن الاستئناس بذكره انفتحت عليه وساوس الشيطان وهو اجس النفس بما يوجب له وحشة الضمير، وانسداد أبواب الراحة والبسط. ويقال: من أعرض عن ذكر الله عَزَّجَلَّ في الخلوة قَيَّضَ اللهُ عَزَّجَلَّ له في الظاهر من القرين السوء ما توجب رؤيته له قبض القلوب، واستيلاء الوحشة^(١).

فعداب القبر ونعيمه لا يفوت تلك الأجزاء التي صارت رمادًا، حتى لو علق الميت على رؤوس الأشجار في مهابِّ الريح لأصاب جسده وروحه من عذاب القبر أو نعيمه حَظُّهُ ونصيبه. ولو دفن الرجل الصَّالِح في أتونٍ من النَّار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه، فَيَجْعَلُ اللهُ عَزَّجَلَّ النَّارَ على هذا بردًا وسلامًا، والهواء على ذلك نارًا وسمومًا. فعناصرُ العالم ومواده منقادَةٌ لِرَبِّهَا وفاطرِها وخالقِها يَصْرِفُهَا كيف يشاء، ولا يستعصي عليه منها شيء أرادَهُ، بل هي طُوعٌ مشيئته، مذلَّةٌ منقادَةٌ لقدرته، ومن أنكر هذا فقد جَحَدَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وكفر به، وأنكر ربوبيته.

وقد وردت أحاديثٌ كثيرة تدلُّ على أنَّ الناس في حياة البرزخ يكونون في نعيم أو عذاب على حسب الأعمال التي قدموها، فمن ذلك: ما جاء في (الصحيح): عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: مر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَحَائِطٍ مِنْ حَيْطَانِ الْمَدِينَةِ، أَوْ مَكَّةَ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يَعْذِبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَعْذِبَانِ، وَمَا يَعْذِبَانِ فِي كَبِيرٍ»، ثُمَّ قَالَ: «بَلَى، كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الْآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ، فَكَسَرَهَا كَسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كَسْرَةً، فَقِيلَ

(١) لطائف الإشارات (٤٨٦/٢).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

له: يا رسول الله، لم فعلت هذا؟ قال: «لعله أن يخفف عنهما ما لم تيبسا»، أو: «إلى أن ييبسا»^(١).

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وما يعذبان في كبير» قد ذكر العلماء فيه تأويلين: أحدهما: أنه ليس بكبير في زعمهما وفي اعتقادهما أو في اعتقاد المخاطبين، وهو عند الله كبير، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: "كثيرٌ من الناس يتساحون في أمور يظنونها قريبة، كإطلاق البصر؛ هواناً بتلك الخطيئة، وكفتوى من لا يعلم؛ لئلاً يقال: هو جاهل، ونحو ذلك مما يظنه صغيراً، وهو عظيم"^(٢).

والثاني: أنه ليس بكبير تركه عليهما، أي: كان لا يَشُقُّ عليهما الاحتراز من ذلك.

وحكى القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ تأويلاً ثالثاً، أي: ليس بأكبر الكبائر - وإن كان كبيراً-. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "فعلى هذا يكون المراد بهذا: الزجر والتحذير لغيرهما، أي: لا يتوهم أحد أن التعذيب لا يكون إلا في أكبر الكبائر الموبقات؛ فإنه يكون في غيرها - والله أعلم-".

(١) صحيح البخاري [٢١٦، ٢١٨، ١٣٦١، ٦٠٥٢، ٦٠٥٥]، مسلم [٢٩٢].

(٢) صيد الخاطر (ص: ١٤٩).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وسبب كونهما كبيرين: أن عدم التنزه من البول يلزم منه: بطلان الصلاة، فتركه كبيرة بلا شك، والمشي بالنميمة والسعي بالفساد من أقبح القبائح، لا سيما مع قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كان يمشي» بلفظ كان التي للحالة المستمرة غالبًا - والله أعلم - .
وقوله: «لا يستتر» روى ثلاث روايات: «يستتر»، و«يستنزّه»، و«يستبرئ»، وكلها صحيحة، ومعناها: لا يتجنبه ويتحرز منه^(١).

ومن الأسباب الموجبة لعذاب البرزخ: ما جاء في (الصحيح)^(٢): من حديث: سَمُرَةَ بِنْتِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يَكْثُرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا؟» قَالَ: فَيَقْصُصُ عَلَيْهِ مِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقْصُصَ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ عَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَانِي»، أَي: أَتَاهُ مَلَكَانِ فِي الْمَنَامِ وَأَيَقِظَاهُ، وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الْوَحْيِ؛ لِأَنَّ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَحْيٌ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ. ثُمَّ ذَكَرَ مَا رَأَى فِي تِلْكَ الرُّؤْيَا فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ.

فمن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وإنهما قالا لي انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ رأسه» أي: يشدخه ويكسره.

«فَيَتَدَهَّدُهُ الْحَجَرُ هَا هُنَا» أي: يتدحرج.
«فَيَتَّبِعُ الْحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصْبَحَ» أي: يصبح.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٠١/٣)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (١١٨/٢).

(٢) صحيح البخاري [٧٠٤٧].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

«رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى».

وجاء في تمام الحديث بيان حال هذا الرجل، وهو الذي «يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ».

قال ابن هُبَيْرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "رفض القرآن بعد حفظه جناية عظيمة؛ لأنه يوهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه، فلما رفض أشرف الأشياء، وهو القرآن عوقب في أشرف أعضائه، وهو الرأس" (١).

وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ» ما يوجب الحذر من ترك الصلاة، أو تأخيرها عن وقتها دائماً أو غالباً.

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قَوْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٤-٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "﴿سَاهُونَ﴾ عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله" (٢).

(١) فتح الباري، لابن حجر (٤٤٤/١٢)، وانظر: دليل الفالحين (٣٨١/٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٦٨١/٢).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقد جاء عن عطاء رَحِمَهُ اللهُ، وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا قَالَا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَالَ: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، ولم يقل: (في صلاتهم) (١). وقد تقدم بيان ذلك في (الصلاة).

ومما جاء في حديث المنام: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَانْطَلِقْنَا، فَأَتِينَا عَلَى نَهْرٍ - حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: - أَحْمَرٌ مِثْلَ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبِحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةٌ كَثِيرَةٌ، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبِحُ مَا يَسْبِحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ، فَيَفْغُرُ لَهُ فَاهُ (٢) فَيَلْقَمُهُ حِجْرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبِحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ كَلِمًا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حِجْرًا». وجاء في تمام الحديث بيان حال هذا الرجل الذي يسبح في نهر الدم ويلقم الحجارة بأنه: أكل الربا.

قال ابن هُبَيْرَةَ رَحِمَهُ اللهُ: "إِنَّمَا عَوْقِبَ آكَلَ الرَّبَا بِسَبَاحَتِهِ فِي النَّهْرِ الْأَحْمَرِ وَالْقَامَهُ الْحِجْرَ؛ لِأَنَّ أَصْلَ الرَّبَا يَجْرِي فِي الذَّهَبِ، وَهُوَ أَحْمَرٌ. وَأَمَّا إِلْقَامُ الْمَلِكِ لَهُ الْحِجْرَ فَإِنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يَغْنِي عَنْهُ شَيْئًا، وَكَذَلِكَ الرَّبَا، فَإِنَّ صَاحِبَهُ يَتَخِيلُ أَنَّ مَالَهُ يَزِيدُ، وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ مِنْ وَرَائِهِ يَمْحَقُهُ" (٣).

(١) انظر: تفسير الطبري (٦٣٣/٢٤)، الكشف والبيان (٣٠٥/١٠)، تفسير ابن كثير (٤٦٨/٨)، الدر المنثور (٦٤٣/٨)، الإتيان في علوم القرآن (١٦٧/٢).

(٢) أي: يفتح له فمه.

(٣) فتح الباري (٤٤٥/١٢)، وانظر: دليل الفالحين (٣٨١/٨).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

ولئن كان هذا العذاب لا أكل الربا في البرزخ فهو مستمرٌ معه حتى بعد أن يقوم من قبره يوم البعث من القبور. فقد وصفَ الله عزَّجَلَّ الذين يتعاملون بالربا، ويمتصون دماء الناس بأنهم لا يقومون من قبورهم يوم القيامة، ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، أي: إلا كما يقوم المصروع حال صرعه. قال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: "وأما ألفاظ الآية فكانت تحتل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الربا بقيام المجنون؛ لأن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أعضاؤه، وهذا كما تقول لمسرع في مشيه، يَخْلِطُ في هيئة حركاته، إما من فرع أو غيره: قد جُنَّ هذا" (١).

وذلك أن الناس إذا قاموا من قبورهم يوم القيامة فإنهم يذهبون مسرعين إلى المحشر إلا آكلي الربا فإنهم يقومون ويسقطون؛ لأن الربا قد أثقل بطونهم، فعظمت وثقلت عليهم. ويقال: إنهم يبعثون يوم القيامة قد انتفخت بطونهم كالحبالي، وكلما قاموا سقطوا والناس يمشون عليهم. وقال بعض العلماء: إنما ذلك شعار لهم يعرفون به يوم القيامة، ثم العذاب من وراء ذلك (٢).

ومما جاء في حديث المنام: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُورِ، فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ»، قال: «فَاطْلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عِرَاءٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ هَبٌّ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا» (٣)، أي: ضجوا

(١) المحرر الوجيز (١/٣٧٢).

(٢) انظر: تفسير أبي الليث السمرقندي (بحر العلوم) (١/١٨٢)، تفسير القرطبي (٣/٣٥٤).

(٣) صحيح البخاري [٧٠٤٧].

الدرر والاسرار في سبب النجاة

الجزء الثاني

وصاحوا، وارتفعت أصواتهم متألمين. وفي رواية: «فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور، أعلاه ضيق وأسفله واسع، يتوقد تحته نارا، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها» (١).

وجاء في تمام الحديث بيان حال أولئك المعذبين أنهم الزناة من الرجال، والزواني من النساء. قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "مناسبة العُري لهم؛ لاستحقاقهم أن يفضحوا؛ لأن عادتهم أن يستتروا في الخلوة، فعوقبوا بالهتك. والحكمة في إتيان العذاب من تحتهم: كون جنائهم من أعضائهم السفلى" (٢).

وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «بيننا أنا نائم إذ أتاني رجلان فأخذا بضبعي فأتيا بي جبلا وعرا، فقالا لي: اصعد حتى إذا كنت في سواء الجبل، فإذا أنا بصوت شديد، فقلت: ما هذه الأصوات؟ قال: هذا عواء أهل النار، ثم انطلق بي فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبيهم، مُشَقَّقة أشداقهم، تسييل أشداقهم دما، فقلت: من هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء الذين يُفطرون قبل تحلة صومهم، ثم انطلق بي، فإذا بقوم أشد شيء انتفاحا، وأنتنه رجحا، وأسوءه منظرا، فقلت: من هؤلاء؟ قيل: الزانون والزواني، ثم انطلق بي، فإذا بنساء تنهش ثديهن الحيات، قلت: ما بال هؤلاء؟ قيل: هؤلاء اللاتي يمنعن أولادهن ألباهن، ثم انطلق بي، فإذا أنا بغلمان يلعبون بين هرين، فقلت: من هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء ذراري

(١) صحيح البخاري [١٣٨٦].

(٢) فتح الباري (١٢/٤٤٥).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

المؤمنين، ثم شرف بي شرفاً، فإذا أنا بثلاثة يشربون من حمر لهم، فقلت: من هؤلاء؟ قالوا: هذا إبراهيم، وموسى، وعيسى وهم ينتظرونك»^(١).

ويمتد عذاب الزناة من الرجال والزواني من النساء بعد البرزخ، فينالهم العذاب في نار جهنم إذا لم تقع منهم التوبة النصوح، يقول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٨﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَعَمِلَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

فقوله عز وجل: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾، أي: لا يرتكبون جريمة الزنى. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾، أي: ومن يقترب تلك الموبقات العظيمة من الشرك والقتل والزنى يجد في الآخرة النكال والعقوبة. ﴿يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: يُضاعف عقابه ويُغلظ بسبب الشرك وبسبب المعاصي. ﴿وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾، أي: يُخلد في ذلك العذاب حقيراً ذليلاً. ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾.

وذلك يوجب على كل مسلم الحذر غاية الحذر من هذا الذنب، وأن يحذر أسبابه وما يوصل إليه، كالحلوة المحرمة، أو تعاطي أسباب الفتنة، مثل: التبرج وإظهار مفاتن المرأة، والنظر إلى المحرمات، إلى غير ذلك من المحرمات على الفاحشة.

(١) أخرجه: ابن خزيمة [١٩٨٦]، والخراطي في (اعتلال القلوب) [١٦٥]، وابن حبان [٧٤٩١]، والطبراني [٧٦٦٧]، والحاكم [٢٨٣٧]، وقال: "حديث صحيح على شرط مسلم" ووافقه الذهبي. كما أخرجه: البيهقي [٨٠٠٦].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وقد نهانا الله عَزَّجَلَّ عن الزنا وما يدعو إليه فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وإذا كان الله عَزَّجَلَّ قد حذّرنا من مقدمات الزنا فالتحذير من ارتكابه أولى وأشد؛ لأنه يفسد الأخلاق، ويهتك الأعراض، ويوقع البلايا والأمراض الحبيثة القاتلة. ومما يدل كذلك على خطورة هذا الفعل المنكر: ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظُّلَّة، فإذا خرج من ذلك العمل عاد إليه الإيمان»^(١).

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(٢). وقد فصلت القول في ذلك في كتاب: (نوح الأبرار). وجاء في (حديث المنام) الذي رواه: سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيان عاقبة الكذاب الذي تبلغ كذبه الآفاق، قال: «فانطلقنا، فأتينا على رجل مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وإذا آخر قائم عليه بِكُلُوبٍ من حديد^(٣)، وإذا هو يأتي أحد شِقِّي وَجْهَهُ فَيُشْرِشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قِفَاهِ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قِفَاهِ، وَعَيْنَهُ إِلَى قِفَاهِ، فَيَشُقُّ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ، فَمَا

(١) أخرجه أبو داود [٤٦٩٠]، والحاكم [٥٦]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي.

وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٤٩٧٩].

(٢) صحيح البخاري [٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٨١٠]، مسلم [٥٧].

(٣) حديدة معوجة الرأس.

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

من ذلك الجانب حتى يَصِحَّ ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى».

وجاء في تمام الحديث بيان حال ذلك الرجل بأنه الكذاب الذي: «يُحَدِّثُ بالكذبة^(١)، فَتُحْمَلُ عنه حتى تَبْلُغَ الآفاق»^(٢).

وذلك يوجب الحذر من هذه المعصية. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: "وهذا تحذير من الكذب إلا أنه هنا بأمور الشريعة أخص"^(٣). وقد فصلت القول في ذلك في كتاب: (نُجْحُ الأبرار).

وقد شاهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مرائي المعراج أناسًا يَعْذَّبُونَ بسبب ذنوبٍ يخشى على من واقعها أن يناله من العذاب ما أصاب أولئك، فمن ذلك: الغيبة، ففي الحديث: وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لما عرج بي

(١) «بالكذبة» بكسر الكاف، ويقال بفتحها، وأنكر بعضهم الكسر إلا إذا أراد الحالة والهيئة. مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٣٣٧/١). تقول: كَذَبَ كَذْبَةً، كما تقول: رَكَعَ رُكْعَةً. انظر: فتح الباري (٣٩١/٦)، مرقاة المفاتيح (٣٦٣٧/٩)، فيض القدير (١٠٦/٥).

(٢) صحيح البخاري [١٣٨٦، ٦٠٩٦، ٧٠٤٧].

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣٨/٢).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»^(١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "ولما كان خمخ الوجه والصدر من صفات النساء النائحات، جعلهما جزاء من يغتاب ويفري من أعراض المسلمين؛ إشعارًا بأنهما ليسا من صفات الرجال، بل هما من صفات النساء في أقبح حالة، وأشوه صورة"^(٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "وأكل لحوم الناس يصدق على النميمة والغيبة"^(٣).

وقد قال الله عَزَّجَلَّ محذراً من الغيبة، ومبيناً خطورتها وبشاعتها: ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقد فصلت القول في ذلك في كتاب: (نهج الأبرار).

ومن مرآئي المعراج: ما حدث به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يصيب علماء السوء، وخطباء الفتنة، كما جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مررت ليلة أسرى بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار،

(١) أخرجه أحمد [١٣٣٤٠]، وأبو داود [٤٨٧٨]، والخرائطي في (مساويئ الأخلاق) [١٨٧]، والطبراني في (الأوسط) [٨]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٢٩٠]، والضياء [٢٢٨٦]. قال العراقي (ص: ١٠٣٣): "أخرجه أبو داود مسنداً ومرسلاً، والمسند أصح".

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٢١٨/١٠).

(٣) فتح الباري (٤٧١/١٠).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

قلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال: خطباء من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون»^(١).

وقد فصلت القول في ذلك في كتاب: (نهج الأبرار).

وما تقدم من أحوال أهل البرزخ هو من عالم الغيب الذي لا يستقل العقل بإدراكه، فلا سبيل إلى معرفة شيء من ذلك إلا عن طريق النقل.

وقد دلَّ النقل - كما تقدم - على أنَّ حياة النَّاس في دار البرزخ حياة خاصة، وفيها يفتنون، فينعمون أو يعذبون.

ولكن هل هو من قبيل العذاب الحقيقي الواقع على أولئك، أم أنه من قبيل العرض لما سيؤول إليه حالهم بعد المحاسبة، وحال من يقتفي أثرهم؟

يبقى أن تلك الذنوب التي ارتكبتها أولئك الذين رآهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعذبون يخشى على من وقع في ذنب منها أن يناله من العذاب ما أصاب أولئك، وذلك يوجب الحذر والتقوى، والعلم بالمنجيات، وأسباب الوقاية من تلك الذنوب.

(١) أخرجه الطيالسي [٢٠٦٠]، وابن أبي شيبه [٣٦٥٧٦]، وأحمد [١٢٢١١]، وعبد بن حميد [١٢٢٢]، والبخاري [٧٢٣١]، وأبو يعلى [٣٩٩٢]، قال الهيثمي (٢٧٦/٧): "أحد أسانيد أبي يعلى رجاله رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٥٣]، والطبراني في (الأوسط) [٨٢٢٣]، وأبو نعيم في (الحلية) (٣٨٦/٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٧]، والضياء [٢٦٤٦] وقال: "إسناده صحيح".

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

خامساً: بشرى المؤمن بحسن العاقبة عند انتقاله إلى الدار الآخرة:

ومن أحب لقاء الله عَزَّجَلَّ، واستعد لذلك اليوم الذي يرحل فيه عن الحياة الدنيا، أحب الله عَزَّجَلَّ لقاءه، فجاءته البشائر عند خروجه من الدنيا بحسن العاقبة، كما جاء في الحديث: عن البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَمَّا يُلْحَدُّ، فجلس رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجلسنا حوله، وكان على رؤوسنا الطير، وفي يده عود يَنْكُثُ به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» -مرتين أو ثلاثاً-. ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحَنُوطٌ من حَنُوطِ الجنة، حتى يجلسوا منه مَدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان»، قال: «فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة في السَّقَاءِ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحَنُوطِ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض»، قال: «فيصعدون بها، فلا يمرون -يعني: بما- على مَلَأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فيقولون: فلان بن فلان -بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا- حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز

الدرر والاسرار في النجاة والسائل الناجع حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

وجل: اكتبوا كتاب عبي في عِلِّيَّين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى» قال: «فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: ما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فأمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة»، قال: «فيأتيه من رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، ويفسح له في قبره مدًّا بصره»، قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيبُ الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرُّك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت، فوجهك الوجه يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عمَلِك الصالح، فيقول: ربِّ أقم الساعة، ربِّ أقم الساعة؛ حتى أرجع إلى أهلي ومالي»، قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل ملائكة سود الوجوه، معهم المُسْوَح، فيجلسون منه مدًّا البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سَخَط من الله وغضب»، قال: «فَتَفَرَّقُ في جسده، فَيَنْتَزِعُهَا كما يُنْتَزَعُ السَّفُودُ من الصُّوفِ المَبْلُولِ، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المُسْوَح، ويخرج منها كأنتن جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرُّون بها على مِلا من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الريح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان - بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في

الرسالة إلى السبيل النجاة

والوسائد الناجعة حيا طيبة نافعة

الجزء الثاني

الدنيا - حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، «فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: اكتبوا كتابه في سَجِينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى. ثم تطرح روحه طرحًا». ثم قرأ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، «فيعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي مناد من السماء: أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرِّها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلَاعُه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يَسُوءُكَ هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عمك الحبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة»^(١).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

(١) أخرجه أحمد [١٨٥٣٤] وغيره، قال الهيثمي (٥٠/٣): "هو في الصحيح وغيره باختصار، رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح".

الدرر السبكي في النجاة

الجزء الثاني

ولما احتضر عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: قال اخرجوا عني فلا يبقى عندي أحد، قال: وكان عنده مسلمة بن عبد الملك رَحِمَهُ اللهُ، قال: فخرجوا، فقعد على الباب، هو وفاطمة رَحِمَهُمَا اللهُ، قال: فسمعوه يقول: مرحبًا بهذه الوجوه ليست بوجوه أنس ولا جان، قال ثم قال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الفصل: ٨٣]، قال: ثم هدأ الصوت، فقال مسلمة لفاطمة رَحِمَهُمَا اللهُ قد قبض صاحبك، فدخلوا فوجدوه قد غُمِضَ، وسُوِّيَ إلى القَبْلَةِ، وقُبِضَ^(١).

ومن كان يرجو لقاء الله عَزَّجَلَّ تمنى سرعة التخلص من الدار ذات الشوائب، والانتقال إلى جوار الله عَزَّجَلَّ، وجنته التي أعدها الله عَزَّجَلَّ لعباده الصالحين. وهذا كان حال السلف عند الموت، كما روي عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه كان يتمنى الموت، فلما احتضر قال: حبيب جاء على فاقة^(٢).

ونحوه عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ^(٣).

قال الإمام السيوطي رَحِمَهُ اللهُ في (حاشيته على البيضاوي): "قال الشيخ تاج الدين السبكي رَحِمَهُ اللهُ -فيما قرأته بخطه- أراد بالحبيب: لقاء الله"^(٤).

(١) تاريخ دمشق (٤٥ / ٢٥٥)، البداية والنهاية (٩ / ٢١٠)، سير أعلام النبلاء (٥ / ١٤٢)، تاريخ الإسلام

ووفيات المشاهير والأعلام (٣ / ١١٥)، الثبات عند الممات (ص: ١٥٠)، المجالس الوعظية (١ / ٣١٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٧٢٠٣]، والحاكم [٨٥٣٣] وصححه، ووافقه الذهبي. كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (١ / ٢٨٢)، وابن عساكر (١٢ / ٢٩٧).

(٣) أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (١ / ٢٣٩)، وانظر: جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (١ / ٢٢٦).

(٤) نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي) (٢ / ٢٨٤).

الدرر السبيل إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

وقال عمار بن ياسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في اليوم الذي مات فيه: «اليوم نلقى الأحبة محمداً وحزبه» (١).

وفي الحديث: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أحب لقاء الله أحب لقاءه، ومن كره لقاء الله كره لقاءه»، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أو بعض أزواجه رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ: إنا لنكره الموت، قال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، كره لقاء الله وكره لقاءه» (٢).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قال الله عز وجل: إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه» (٣).

وقال العلماء: "إن محبة لقاء الله عز وجل لا تدخل في النهي عن تمني الموت الوارد في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يتمنين أحد منكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنياً للموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت

(١) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد): (٢٩٦/٩) "رواه الطبراني في (الأوسط)، وأحمد باختصار، ورجاهما رجال الصحيح، ورواه البزار بنحوه بإسناد ضعيف". كما أخرجه الحاكم [٥٦٦٨]، وقال: "صحيح

على شرطهما، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري [٦٥٠٧]، مسلم [٢٦٨٤].

(٣) صحيح البخاري [٧٥٠٤].

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

الوفاة خيراً لي»^(١)؛ لأن محبة لقاء الله عَزَّوَجَلَّ ممكنة مع عدم تمني الموت، كأن تكون المحبة حاصلة لا يفترق حاله فيها بحصول الموت، ولا بتأخره، وأن النهي محمول على حالة الحياة المستمرة، وأما عند الاحتضار والمعاناة فلا تدخل تحت النهي، بل هي مستحبة، ومثله إذا تمني الموت لخوف فتنة في الدين، أو لتمني الشهادة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ^(٢)، أو لغرض أخروي آخر. وفيه أن في كراهة الموت في حال الصحة تفصيلاً فمن كرهه إثارة للحياة على ما بعد الموت من نعيم الآخرة كان مذموماً، ومن كرهه خشية أن يفضي إلى المؤاخذة، كأن يكون مقصراً في العمل لم يستعد له بالأهبة بأن يتخلص من التبعات ويقوم بأمر الله عَزَّوَجَلَّ كما يجب فهو معذور، لكن ينبغي لمن وجد ذلك أن يبادر إلى أخذ الأهبة حتى إذا حضره الموت لا يكرهه، بل يجب لما يرجو بعده من لقاء الله عَزَّوَجَلَّ^(٣).

وهذا كان حال السلف عند الموت، كما روي عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يتمنى الموت، فلما احتضر قال: حبيب جاء على فاقة^(٤).

(١) صحيح البخاري [٦٣٥١]، مسلم [٢٦٨٠].

(٢) قال ملا علي القاري: "وقد أفتى النووي: أنه لا يكره تمني الموت لخوف فتنة دينية، بل قال: إنه مندوب، ونقل عن الشافعي، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهما. وكذا يندب تمني الشهادة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ" مرقاة المفاتيح (١١٥٧/٣).

(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٣٦٠/١١)، إحياء علوم الدين (٣٣٠/٤)، مرقاة المفاتيح (١١٥٧/٣).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٧٢٠٣]، والحاكم [٨٥٣٣] وصححه، ووافقه الذهبي. كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٢٨٢/١)، وابن عساكر (٢٩٧/١٢).

الإرشاد إلى سبب النجاة

الجزء الثاني



ونحوه عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).

قال الإمام السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (حاشيته على البيضاوي): "قال الشيخ تاج الدين السبكي رَحِمَهُ اللَّهُ - فيما قرأته بخطه - أراد بالحبيب: لقاء الله"^(٢).
وقد قيل: إن المَوْت جسر يُوصل الحبيب إلى الحبيب^(٣).

"فأهل السعادة يحبون الموت ولقاء الله عَزَّجَلَّ؛ لينتقلوا إلى ما أعد لهم، ويجب الله عَزَّجَلَّ لقاءهم، فيجزل لهم العطاء والكرامة، وأهل الشقاوة يكرهون لقاءه؛ لما علموا من سوء ما ينتقلون إليه، ويكره الله عَزَّجَلَّ لقاءهم، أي: يبعدهم عن رحمته وكرامته، ولا يريد ذلك بهم، وهذا معنى كراهته جَلَّ وَعَلَا لقاءهم"^(٤).

وَرُوِيَ عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول: «ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني فإن الله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿وَمَا

(١) أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٢٣٩/١)، وانظر: جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢٢٦/١).

(٢) حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (٢٨٤/٢).

(٣) انظر: العاقبة في ذكر الموت، لعبد الحق بن عبد الأزدي، المعروف بابن الخراط (ص: ٣٢)، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص: ١١٦)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٢٩٥/٩)، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص: ٢٣).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٠/١٧).

الرسالة السببية للحياة

الجزء الثاني

عند الله خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ [آل عمران: ١٩٨]، ويقول: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا» [آل عمران: ١٧٨]» (١).

وفي الحديث: عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه كان يحدث: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر عليه بجنابة، فقال: «مستريح ومستراح منه» قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد، والشجر والدواب» (٢).

وقال الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله جَلَّ وَعَلَا، ومن كانت راحته في لقاء الله عَزَّجَلَّ فيوم الموت يوم سروره وفرحه، وأمنه، وعزه، وشرفه" (٣).

وقد أخبر الله عَزَّجَلَّ عن حال المكذبين بلقائه جَلَّ وَعَلَا في آيات كثيرة، ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْحَرَجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦].

(١) أخرجه سعيد بن منصور في (التفسير) [٥٤٧، ٥٤٧]، وابن جرير الطبري في (التفسير) (٤٩٦/٧). وانظر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص: ١١٥)، بشرى الكتيب بلقاء الحبيب، للسيوطي

(ص: ١٥٠)، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص: ٢١).

(٢) صحيح البخاري [٦٥١٢، ٦٥١٣]، مسلم [٩٥٠].

(٣) إحياء علوم الدين (٤/٤٦٥).

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافع

الجزء الثاني

كما أخبر الله عز وجل عن حالهم عند خروجهم من الدنيا فقال جل وعلا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٣-٩٤].

وقال جل وعلا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبِرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١].

وقال جل وعلا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبِرَهُمْ ﴿٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آتَبَعُوا مَا أَسْحَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٨﴾﴾ [محمد: ٢٧-٢٨]. وقد تقدم ذكر ما جاء في تفسير الآيات.

وأخبر المولى جل وعلا عن حال عاقبة المكذبين بلقاءه في آيات كثيرة، فمن ذلك قوله جل وعلا: ﴿يَمَعْشَرِ الْحِينَ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام: ١٣].

وقال جل وعلا: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَعَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَلُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥١].

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

وقال جلّ وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧].

وقال جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غٰفِلُونَ﴾ [٧] أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ [يونس: ٧-٨].

وقال جلّ وعلا: ﴿وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَتَنَدَّرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُعَيْنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

وقال جلّ وعلا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَتْ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ أَفَلَا يَكُونُونَ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

وقال جلّ وعلا: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

وقال جلّ وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

وقال جلّ وعلا: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [٥٣] أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٣-٥٤].

وقال جلّ وعلا: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [٣٣]

الدراسات والأساليب الفخية

الجزء الثاني

وَلَيْنَ أَطْعَمْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٦﴾ أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٧].

وقال جلَّ وعلا: ﴿* وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴿١١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكُكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴿١٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ٢١-٢٣].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: ١٦].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَقَالُوا أءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءَأْتَا لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [السجدة: ١٠].

وقال جلَّ وعلا: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة: ١٤].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: ٧١-٧٢].

الدراسة السبيل النجاة

الجزء الثاني

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَلِكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَأَكُمْ أَلْتَارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَالِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الجنابة: ٣٤-٣٥].

سادسًا: حياة الشهداء في البرزخ:

جاء في الحديث بيان من يطلق عليه مسمى الشهيد حقيقة أو حكمًا:

فمن ذلك: حديث: أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبًا، ويقاثل حميةً، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائمًا، فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله عَزَّجَلَّ»^(١).

وفي لفظ: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال الرجل: يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للدِّكْرِ، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عَزَّجَلَّ»^(٢).

وفي لفظ: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال الرجل: يقاتل حمية، ويقاثل شجاعة، ويقاثل رياء، فأى ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله عَزَّجَلَّ»^(٣).

(١) صحيح البخاري [١٢٣]، مسلم [١٩٠٤].

(٢) صحيح البخاري [٢٨١٠، ٣١٢٦]، مسلم [١٩٠٤].

(٣) صحيح البخاري [٧٤٥٨]، مسلم [١٩٠٤].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: سمعت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من قُتِلَ دون ماله فهو شهيد»^(١).

وعن سعيد بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»^(٢).

فمن الواجب: الدفاع عن النفس، والعرض، والمال، والوطن عند الاعتداء. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاؤُنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما تعدون الشهيد فيكم؟» قالوا: يا رسول الله، من قتل في سبيل الله فهو شهيد، قال: «إن شهداء أمتي إذا لقليل»، قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: «من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد،

(١) صحيح البخاري [٢٤٨٠]، مسلم [١٤١].

(٢) أخرجه أحمد [١٦٥٢]، وعبد بن حميد [١٠٦]، وأبو داود [٤٧٧٢]، والترمذي [١٤٢١]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه النسائي [٤٠٩٥]، والبيهقي [٦٠٦٢]، والضياء [١٠٩٣]، وقال: "إسناده حسن".

المرشد إلى سبيل النجاة والوسائد الناجعة لحياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

ومن مات في البطن فهو شهيد»، قال ابن مقسم: أشهد على أبيك في هذا الحديث أنه قال: «والغريق شهيد»^(١).

قال الإمام التوريشي رَحِمَهُ اللهُ: "والشهيد في التعارف الشرعي: «من قتل في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ»، وأما تسميته بذلك من حيث الاشتقاق اللفظي: فقد قيل: لأنه يشهد حينئذ الملائكة المبشرين بالفوز والكرامة، ويحتمل أنه سمي بذلك؛ لأنه يشاهد حينئذ ما أعد له من النعيم، أو لأنه يحضر عند ربه جَلَّوَعَلَا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد: ١٩]. وقد قيل: سمي شهيداً؛ لأنه تبين مما بذله من نفسه في سبيل ربه جَلَّوَعَلَا استقامته على الإيمان، وإخلاصه في الطاعة.

والأصل في الشهادة: التبيين، يقال لشهادة الشهود: بينة. وقد قيل: لأنه يكون تلو الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في الشهادة على الأمم، فيشهد بمثل ما يشهدون به، وكفى بذلك شرفاً ومنزلة. ومعنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ومن مات في سبيل الله..» إلى آخر الحديث: أنهم يشاركون الشهداء في نوع من أنواع المثوبات التي يستحقها الشهداء، ولم يرد به -والله أعلم- المساواة في سائر أنواع الفضيلة"^(٢).

ونحوه قول العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "الشهيد فعيل من الشهود بمعنى: المفعول؛ لأن الملائكة تحضره، وتبشره بالفوز والكرامة، أو بمعنى فاعل؛ لأنه يلقي ربه جَلَّوَعَلَا، ويحضر عنده كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد: ١٩]، أو من الشهادة؛ فإنه

(١) صحيح مسلم [١٩١٥].

(٢) الميسر في شرح مصابيح السنة، للتوريشي (١٧٨/٣).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

بين صدقة في الإيمان والإخلاص في الطاعة ببذل النفس في سبيل الله عزَّ وجلَّ، أو يكون تلو الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في الشهادة على الأمم يوم القيامة. ومن مات بالطاعون أم بوجع في البطن ملحق بمن قتل في سبيل الله عزَّ وجلَّ؛ لمشاركته إياه في بعض ما ينال من الكرامة، بسبب ما كابده من الشدة، لا في جملة الأحكام والفضائل^(١).

ومما يدل على حياة البرزخ الخاصة: ما تقدّم ذكره من الآيات التي تنص على أن الشهداء أحياء عند ربهم جلَّ وعلا، وأنهم يرزقون ويكرمون.

وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ - نَهْرٍ بِيَابِ الْجَنَّةِ - فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يُخْرَجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»^(٢).

ولا يختلف أحدٌ على عظم مكانة الشهيد في الإسلام، الذي بذل نفسه وماله في سبيل الله جلَّ وعلا، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢٦٣٨/٨-٢٦٣٩)، وانظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٥٩/٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [١٩٣٢١]، وأحمد [٢٣٩٠]، واللفظ له، قال الهيثمي (٢٩٤/٥): "رواه أحمد ورجاله ثقات، ورواه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط) اهـ"، كما أخرجه: هناد في (الزهد) [١٦٦]، وعبد بن حميد [٧٢١]، وابن جرير في (تفسيره) (٢١٦/٣-٢١٧)، وابن حبان [٤٦٥٨]، والطبراني في (الكبير) [١٠٨٢٥]، و(الأوسط) [١٢٣]، والحاكم [٢٤٠٣]، وقال: "صحيح الإسناد على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضاً: البيهقي في (شعب الإيمان) [٣٩٣٦]، وفي (إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين) [٧٨]، والدليمي [٣٦١٢]، والضياء [١٠٠].

الدراسة السبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

وَالْقُرْآنَ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَّ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١].

حيث مثل الله عَزَّجَلَّ إياهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشراء، وقدَّم الأناض على الأموال ابتداء بالأشرف وبما لا عوض له إذا فُقِدَ (١). وهذا وعدٌ مؤكَّد أخبر الله عَزَّجَلَّ أنَّ هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله، وعد ثابت، وقد أثبتته في التوراة، والإنجيل كما أثبتته في القرآن. ناهيك من صفقة البائع فيها ربُّ العالمين، والثمن جنة المأوى. ثم قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَّ اللَّهِ﴾، أي: لا أحد أوفى منه.

ولا شك أن بلوغ الأهداف الكبرى والنبيلة في الحياة يستلزم تضحيات كبرى، ولا ريب أن سمو الأهداف، وشرف المقاصد، ونبيل الغايات، تقتضي سمو التضحيات، وشرفها، ورتبها، وإذا كان أشرف التضحيات وأسمها ما كان ابتغاء رضوان الله تعالى ومحبتة، ورجاء نيل النعيم المقيم في جنات النعيم؛ فإنَّ الذود عن حياض هذا الدين، والدَّبَّ عن حوذته، والمنافحة عن كتابه وشرعه ومقدساته يتبوء أرفع درجات هذا الرضوان. ثم إنَّ للتضحيات ألواناً كثيرة ودروباً متعددة، لكن تأتي في الذروة منها: التضحية بالنفس، وبذل الروح رخيصة في سبيل الله عَزَّجَلَّ؛ لدحر أعداء الله جَلَّ وَعَلَا، ونصر دينه، وهذا هو المراد من مصطلح الشهادة والاستشهاد في حقيقته؛ فإن من أعظم علامات الصدق في المحبة: بذل النفس في سبيل الله عَزَّجَلَّ، وقول المسلم: أحب

(١) انظر: البحر المحيط في التفسير (٥/٥٠٩).

الدرر والاسرار في سبيل النجاة

الجزء الثاني

الله عَزَّوَجَلَّ هي دعوى ينبغي أن يصدقها العمل، ولا عمل فوق هذا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانْتَهُم بُنِينَ مَرْصُوصًا﴾ [الصف: ٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

فتبين أن الجهاد في سبيل الله جَلَّوَعَلَا محمود في عاقبته، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِيَّةِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِمَّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

وفي السنة بيان دقيق لفضل الشهادة، ومنازل الشهداء وحالمهم في دار الكرامة عند مليك مقتدر.

فعن مسروق، قال: سألتنا عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] قال: أما إنا قد سألتنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف جوف طيرٍ خضِرٍ، لها قناديلٌ مُعَلَّقَةٌ بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ إِطْلَاعَةً، فقال: هل تشتبهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتبه ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن تُرَدَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا» (١).

(١) صحيح مسلم [١٨٨٧].

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافعته

الجزء الثاني

قال الإمام التوريشي رَحِمَهُ اللهُ: "أراد بقوله: «أرواحهم في أجواف طير خضر» أن الروح الإنسانية المخصوصة المميزة بالإدراكات بعد مفارقتها البدن يهياً لها طير أخضر فتنتقل إلى جوفه؛ ليلعق ذلك الطير من ثمر الجنة، فتجد الروح بواسطته ريح الجنة، ولذتها، والبهجة والسرور، ولعل الروح يحصل لها تلك الهيئة إذا تشكلت وتمثلت بأمر الله عزَّجَلَّ طيراً أخضر، كتمثل الملك بشراً، وعلى أي حالة كانت فالتسليم واجب علينا؛ لورود البيان الواضح على ما أخبر عنه الكتاب والسنة، وروداً صريحاً لا سبيل إلى خلافه" (١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "قلت -والله أعلم-: في الآية تشبيه؛ لأن باب: (علمت) و(حسبت) من دواخل المبتدأ والخبر، فالواجب حمل المفعول الثاني على الأول، ولا يصح ذلك في الآية إلا بالتشبيه، نحو: (حسبت زيداً أسداً)، على أن بعض الأصحاب عدَّ هذا الباب من أداة التشبيه، كأنه قيل: لا تحسبنهم كالأموات، بل احسبنهم كالأحياء، ثم بين ما به شبهوا بهم بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٦) ﴿فَرِحِينَ﴾ [ال عمران: ١٦٩-١٧٠]، فيكون حديث: الطير بياناً لكيفية حياتهم، وإيصال الرزق إليهم، وإلى التشبيه أشار الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ بقوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ مثل ما يرزق سائر الأحياء، يأكلون ويشربون اه). وهو تأكيد لكونهم أحياء، ووصف لحالهم التي هم عليها من التمتع برزق الله"، ومما يشد من عضد أن حكمهم خلاف حكم سائر الأموات ما روينا عن أبي

(١) الميسر في شرح مصابيح السنة، للتوريشي (١٧٦/٣).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

داود والترمذي، عن فضالة بن عبيد، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه يُنمى له عمله إلى يوم القيامة»^(١).

وعن المقدم بن معدي كرب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفرع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»^(٢).

ومن خصائص الشهيد: أنه يخفف عنه مس الموت حتى إنه لا يجد من ألمه إلا كما يجد أحدنا من مس القرصة، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (٤/٣٤٣-٣٤٤)، الكشاف (١/٤٣٩). والحديث مروى عن فضالة بن عبيد، عن عقبه بن عامر. حديث: فضالة بن عبيد: أخرجه سعيد بن منصور في (السنن) [٢٤١٤]، وأحمد [٢٣٩٥١]، وأبو داود [٢٥٠٠]، الترمذي [١٦٢١]، وقال: "حديث حسن صحيح"، والبزار [٣٧٥٣]، وأبو عوانة [٧٤٦٣]، وابن حبان [٤٦٢٤]، والطبراني في (الكبير) [٨٠٣]، والحاكم [٢٤١٧]، وقال: "صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٣٩٨٢]، وفي (إثبات عذاب القبر) [١٤٣]. وحديث: عقبه بن عامر: أخرجه أحمد [١٧٣٥٩]، والدارمي [٢٤٦٩]، وأبو محمد الحارث [٦٢٨]. وفيه: ابن لهيعة. قال الهيثمي (٢٨٩/٥): "رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن". وفي (صحيح مسلم) [١٩١٣]: عن سلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان».

(٢) أخرجه أحمد [١٧١٨٢]، وابن ماجه [٢٧٩٩]، والترمذي [١٦٦٣]، واللفظ له، وقال: "حديث صحيح غريب".

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مسِّ القرصنة»^(١).

ودار الشهداء في الجنة أحسن الدور وأفضلها، كما جاء في الحديث: عن سُمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رأيت الليلة رجلين أتياي، فصعدا بي الشجرة فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل، لم أر قط أحسن منها، قالوا: أما هذه الدار فدار الشهداء»^(٢).

ومن إكرام الله عزَّجَلَّ للشهيد: أن الملائكة تُظَلُّه بأجنحتها، كما جاء في الحديث: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: لما قتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه أبكي، ويَنْهَوْنِي عنه، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تُظَلُّه بأجنحتها حتى رفعتموه»^(٣).

وليس هناك أحد يتمنى ويرغب أن يفارق الجنة بعد دخولها، ويعود إلى الدنيا مرة أخرى. ولو أعطي الأرض كلها بما فيها من كنوز ونفائس، وما عليها من قصور عالية، وحدائق غناء إلا الشهيد، فإنه يحب العودة إلى الدنيا عشر مرات؛ لكي يجاهد كل مرة في سبيل الله عزَّجَلَّ، ويستشهد فيفوز بالشهادة عشر مرات بدل مرة واحدة،

(١) أخرجه أحمد [٧٩٥٣]، والترمذي [١٦٦٨]، وقال: "حديث حسن صحيح غريب"، وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٤٦٥٥].

(٢) صحيح البخاري [٢٧٩١].

(٣) صحيح البخاري [١٢٤٤، ١٢٩٣، ٢٨١٦، ٤٠٨٠]، مسلم [٢٤٧١].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وذلك لما يرى من الكرامة التي يلاقيها الشهداء^(١) كما في حديث: أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَجِبُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيَقْتُلَ عَشْرَ مَرَاتٍ؛ لَمَا يَرَى مِنَ الْكِرَامَةِ»^(٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا الحديث أجل ما جاء في فضل الشهادة، والحض عليها، والترغيب فيها، وإنما يتمنى أن يقتل عشر مرات - والله أعلم -؛ لعلمه بأن ذلك مما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، ويقرب منه؛ لأن من بذل نفسه ودمه في إعزاز دين الله عَزَّوَجَلَّ ونصرة دينه ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم تبق غاية وراء ذلك، وليس في أعمال البر ما تبذل فيه النفس غير الجهاد؛ فلذلك عظم الثواب عليه - والله أعلم -"^(٣).

وقال المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخْبَرَنَا نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ رَسُولِ رَبِّنَا: «مَنْ قَتَلَ مِنَّا صَارَ إِلَى الْجَنَّةِ»^(٤). وقال المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَخْبَرَنَا نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ رَسُولِ رَبِّنَا، أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ مِنَّا صَارَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ لَمْ يَرِ مِثْلَهَا قَطُّ، وَمَنْ بَقِيَ مِنَّا مَلِكٌ رِقَابِكُمْ»^(٥).

(١) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٩١/٤).

(٢) صحيح البخاري [٢٧٩٥، ٢٨١٧]، مسلم [١٨٧٧].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣٠/٥).

(٤) صحيح البخاري [٧٥٣٠].

(٥) صحيح البخاري [٣١٥٩].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى» الحديث (١).

ومن نصح الأبرار: المسارعة إلى تلبية نداء الجهاد؛ لعلمهم بعظيم فضله، وهم يرغبون في النصر أو الشهادة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد جاء في الحديث: عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: انطلق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ»، فدنا المشركون، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»، قال: - يقول عُمَيْرُ بْنُ الحُمَامِ الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: - يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم»، قال: بخ بخ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما يحملك على قولك: بخ بخ؟»، قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها»، فأخرج تمرات من قَرْنِهِ، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل (٢).

(١) صحيح البخاري [٣١٨٢، ٤٨٤٤]، مسلم [١٧٨٥].

(٢) صحيح مسلم [١٩٠١].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وأحيل في بيان (فضل الشهادة وأحكام الشهيد) إلى تحقيقنا لشرح منظومتي الشهداء، (داعي الهدى بشرح منظومة الشهداء)، لأحمد بن عبد الرزاق المغربي الرشيدي رَحِمَهُ اللهُ، و(شرح منظومة الشهداء)، لعلي بن محمد الأجهوري رَحِمَهُ اللهُ^(١).

سابعاً: بيان المراد من الصّديقين وحياتهم في البرزخ:

١ - بيان المراد من الصّديقين:

قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "والصّديقُ، مثألُ الفِسيقِ: الدائمُ التّصديقِ، وَيَكُونُ الَّذِي يُصَدِّقُ قَوْلَهُ بِالْعَمَلِ"^(٢).

وفي (العين): "الصّديق: من يُصَدِّقُ بكل أمر الله عَزَّجَلَّ والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتخالجه شك في شيء"^(٣).

وقال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللهُ: "الصّديق: الكثيرُ الصدقِ، كما يقال: فِسيقٌ، وشَرِيبٌ، وسِكِّيرٌ: إذا كثُر ذلك منه"^(٤).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "الصّديق: من أبنية المبالغة. ونظيره: الصّحيك والتّطبيق، والمراد: فرط صدقه، وكثرة ما صدّق به من غيوب الله عَزَّجَلَّ، وآياته، وكتبه، ورسله

(١) وقد طبعا معاً في (دار الضياء)، الكويت، والتحقيق بالتعاون مع فضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ، الطبعة الأولى [١٤٣٤هـ].

(٢) (الصالح، للجوهري، مادة: (صدق) (١٥٠٦/٤)).

(٣) (العين (٥٦/٥)).

(٤) (غريب القرآن، لابن قتيبة الدينوري (ص: ٢١٨)).

الرسالة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافعته

الجزء الثاني

عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وكان الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسول عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أي: كان مصدقًا بجميع الأنبياء وكتبهم، وكان نبيًا في نفسه، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧]، أو كان بليغًا في الصدق؛ لأن ملاك أمر النبوة: الصدق، ومصداق الله بآياته ومعجزاته حري أن يكون كذلك" (١).

وقال الله عَزَّجَلَّ عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مریم: ٤١].

وقال عن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مریم: ٥٤].

وقال عن إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مریم: ٥٦].

وذكر القشيري رَحِمَهُ اللهُ أكثر من قول في وصف الصِّدِّيقِ، فقال: هو "الكثير الصِّدِّيقِ، الذي لا يمازج صدقه شوب.

ويقال: هو الصادق في أقواله، وأعماله، وأحواله.

ويقال: الصِّدِّيقِ لا يناقض سرُّه علنه.

ويقال: هو الذي لا يشهد غير الله عَزَّجَلَّ مثبتًا ولا نافيًا.

ويقال: هو المستجيب لما يطالب به جملة وتفصيلاً.

ويقال: هو الواقف مع الله عَزَّجَلَّ في عموم الأوقات على حدِّ الصدق" (٢).

(١) الكشاف (٢٤/١٠).

(٢) لطائف الإشارات (٢/٤٣٠-٤٣١).

المرشد إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

وقيل: "من صدَّق الله في وُحْدَانِيَّتِهِ، وَصَدَّقَ أَنْبِيَاءَهُ وَرَسُولَهُ، وَصَدَّقَ بِالْبَعْثِ، وَقَامَ بِالْأَوْامِرِ فَعَمِلَ بِهَا؛ فَهُوَ الصِّدِّيقُ" (١).

وفي (لطائف الأعلام)، للقاشاني رَحْمَةُ اللَّهِ: "الصِّدِّيقُ: الكثير الصدق. كما يقال: سَكَّيتُ وَصَرَّيْتُ: إذا كثُرَ منه ذلك.

والصديق من الناس من كان كاملاً في تصديقه لما جاءت به رسل الله عَزَّجَلَّ علماً وعملاً، وقولاً وفعلاً، وليس يعلو على مقام الصديقيَّة إلا مقام النبوة، بحيث إن من تخطى مقام الصديقيَّة حصل في مقام النبوة. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، فلم يجعل الله عَزَّجَلَّ بين مرتبة النبوة والصديقية مرتبة أخرى تتخللهما. قال: و(الصديقية): كمال الصدق، وتمايمته: تصديق الصادق في كلِّ ما أخبر به. ثم بيَّن القاشاني رَحْمَةُ اللَّهِ المراد من صدق الأقوال، وصدق الأفعال، وصدق الأحوال (٢).

وقال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ: "فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية، وهي كمال الانقياد للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع كمال الإخلاص للمرسل.

وقد أمر الله عَزَّجَلَّ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

(١) تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٩٤/٣)، وانظر: تفسير البغوي (٢٣٣/٥).

(٢) انظر: لطائف الأعلام، للقاشاني (٤٥٩/٢).

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

وأخبر عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين، فقال: ﴿وَأَجْعَلِ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].
وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٥﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٦﴾﴾ [المر: ٥٤-٥٥]. فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق. ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق" (١).

وفي الآخرة ينفع الصادقين صدقهم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقد بسط ابن القيم رحمه الله القول في بيان مرتبة الصديقية، ومراتب المكلفين في الآخرة ودرجاتهم، فمما قال رحمه الله: "ورثة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وخلفاؤهم في أممهم، وهم القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ودعوة للخلق إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، على طرقهم ومنهجهم؛ ولهذا أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة، وهي: (مرتبة الصديقية)؛ ولهذا قرأهم الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، فجعل درجة: (الصديقية) معطوفة على درجة: (النبوة)، وهؤلاء هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأُمَّته،

(١) مدارج السالكين (٢/٢٥٨-٢٥٩).

الرسالة السببية للحياة والوسائد الناجمة عنها طيبة نافعة



الجزء الثاني



فهم خلفاؤه، وأولياؤه، وحزبه، وخاصته، وحملة دينه، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله عز وجل وهم على ذلك، وقال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩] (١).

ومن كان على نهج الصديقين من التقوى، والصلاح، والصدق، والإخلاص، رفع الله عز وجل مكانته، فكان مع اقتنى أثرهم، وسار على هديهم، كما قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [٦٦] ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ [النساء: ٦٩-٧٠].

فمن أراد أن يمن الله عز وجل بمنزلة: (الصديقية)، وأن يكون مع من أحب أن يكون معهم، فسيبيله إلى ذلك: طاعة الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم في السر والعلن، واتباع هدي الرسل عليهم السلام الذين أمر الله عز وجل بالافتداء بهم، كما قال جل وعلا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنُهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال جل وعلا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المتحنة: ٤]، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [المتحنة: ٦].

(١) انظر ذلك مفصلاً في (طريق المهجرتين وباب السعادتين) (ص: ٣٥١).

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

وخير الهدي: هدي خاتم النبيين، وسيد المرسلين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۗ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقد جاء في الحديث: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خَطَبَ أَحْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ، يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»، ويقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، ويقرن بين إصبعيه السبابة، والوسطى، ويقول: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدى محمد، وَشَرُّ الْأُمُورِ: مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ»، ثُمَّ يَقُولُ: «أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَا لَّا فَلَإِهِلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دِينَنَا أَوْ ضِيَاعًا فَإِنِّي وَعَلَيَّ»^(١). وقال عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن أحسن الحديث: كتاب الله عَزَّجَلَّ، وأحسن الهدي: هدي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشَرُّ الْأُمُورِ: مُحَدَّثَاتُهَا، وَإِنْ مَا تَوَعَّدُونَ لَات، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ»^(٢).

والناس في بلوغ مرتبة: (الطاعة والاتباع) مراتب على حسب إخلاصهم واتباعهم.

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ: "ليس المراد بكون من أطاع الله عَزَّجَلَّ وأطاع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع النبيين والصديقين، كون الكل في درجة واحدة؛ لأن هذا يقتضي

(١) صحيح مسلم [٨٦٧].

(٢) صحيح البخاري [٧٢٧٧].

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول، وإنه لا يجوز، بل المراد: كونهم في الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بعد المكان؛ لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضًا، وإذا أرادوا الزيارة والتلاقي قدروا عليه، فهذا هو المراد من هذه المعية.

قال: وقد دلت الآية على أنه لا مرتبة بعد النبوة في الفضل والعلم إلا هذا الوصف، وهو كون الإنسان صديقًا، وكما دلّ الدليل عليه فقد دلّ لفظ القرآن عليه؛ فإنه أينما ذكر الصديق والنبي لم يجعل بينهما واسطة، فقال في وصف إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مریم: ٥٤]، وفي صفة إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ [مریم: ٥٦]، وقال في هذه الآية: من النبيين والصديقين وقال في هذه الآية: ﴿مَنْ التَّبِيبَيْنِ وَالصَّادِقَيْنِ﴾ [النساء: ٦٩]، يعني: أنك إن ترقيت من الصديقية وصلت إلى النبوة، وإن نزلت من النبوة وصلت إلى الصديقية، ولا متوسط بينهما، وقال في آية أخرى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣]، فلم يجعل بينهما واسطة، وكما دلت هذه الدلائل على نفي الواسطة فقد وفق الله عزَّجَلَّ هذه الأمة الموصوفة بأنها خير أمة حتى جعلوا الإمام بعد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على سبيل الإجماع، ولما توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دفنوه إلى جنب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما ذاك إلا أن الله عزَّجَلَّ رفع الواسطة بين النبيين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصديقين في هذه الآية، فلا جرم ارتفعت الواسطة بينهما في الوجوه التي عددناها^(١).

(١) مفاتيح الغيب (١٠/١٣٣-١٣٥).

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

٢ - حياة الصديقين في البرزخ:

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "وإذا كان الشهيد لا يفتن فالصديق أجمل خطرًا، وأعظم أجرًا، فهو أحرى أن لا يفتن؛ لأنه المقدم ذكره في التنزيل على الشهداء في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وقد جاء في المرابط الذي هو أقل مرتبة من الشهيد أنه لا يفتن، فكيف بمن هو أعلى مرتبة منه ومن الشهيد؟ - والله أعلم - فتأمله" (١).

وقد صرح الحكيم الترمذي رَحِمَهُ اللهُ بأن الصديقين لا يسألون فقال في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [٢٧] * [إبراهيم: ٢٧-٢٨]: "تأويله - والله أعلم - أن من مشيئته أن يرفع مرتبة أقوام عن السؤال، وهم الصديقون والشهداء.

وروي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قيل له ما بال الشهداء لا يفتنون في قبورهم؟ فقال: «كفى ببارقة السيوف عليهم فتنة» (٢) معناه: أنه أظهر صدق ما في ضميره، حيث برز للحرب والقتل، فلماذا يعاد عليه السؤال في القبر؟ فإذا كان الشهيد لا يفتن فالصديق أحرى أن لا يفتن" (٣).

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص: ٤٢٤).

(٢) أخرجه النسائي في (السنن) [٢٠٥٣]، وفي (الكبرى) [٢١٩١]، وذكره الردواني في (جمع الفوائد) [٦١٢٨]، وسنده صحيح. انظر: كثر العمال [١١٧٤١]، [٤/٥٩٥-٥٩٦]، البيان والتعريف (١٤٠/٢).

(٣) نوادر الأصول في أحاديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١٦١/٤).

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ: "وما نقله القرطبي رَحِمَهُ اللهُ عن الحكيم في توجيه حديث: الشهيد يقتضي اختصاص ذلك بشهيد المعركة، لكن قضية أحاديث (الرباط) التعميم في كل شهيد. وقد جزم الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في كتاب: (بذل الماعون في فضل الطاعون) بأن الميتم بالطعن لا يسأل؛ لأنه نظير المقتول في المعركة^(١)، وبأن الصابر بالطاعون محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله عَزَّجَلَّ له إذا مات فيه بغير الطعن لا يفتن أيضاً؛ لأنه نظير المرابط. وقد قال الحكيم في توجيه حديث: (المرابط): إنه قد ربط نفسه، وسجنها، وصيرها جيشاً لله عَزَّجَلَّ، في سبيل الله عَزَّجَلَّ؛ لمحاربة أعدائه، فإذا مات على هذا فقد ظهر صدق ما في ضميره، فوقي فتنة القبر"^(٢).

ثامناً: حياة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في البرزخ:

أما الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فهم أحياء من باب أولى؛ فهم أرفع رتبة من الشهداء والصديقين.

(١) انظر ما ذكره الحافظ ابن حجر في (بذل الماعون في فضل الطاعون) من الدليل على أن شهيد الطاعون ملتحق بشهيد المعركة (ص: ١٩٦-١٩٨).

(٢) حاشية السيوطي على سنن النسائي (٤/١٠٠-١٠١)، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (١٥٠-١٥١).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقد جاء في الحديث: عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الأنبياء أحياء يصلون في قبورهم» وفي بعض الروايات زيادة: «يُصَلُّون»^(١).
قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللهُ: "قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»؛ لأنهم كالشهداء، بل أفضل، والشهداء أحياء عند ربهم. وفائدة التقييد بالعندية: الإشارة إلى أن حياتهم ليست بظاهرة عندنا. قال: وقوله: «يُصَلُّون» قيل المراد به: التسييح والذكر"^(٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أحياء عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كانوا في صورة الأموات بالنسبة إلى أهل الدنيا، وقد ثبت ذلك للشهداء، ولا شك أن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أرفع رتبة من الشهداء"^(٣).
وقال: "وقد أفرد البيهقي رَحِمَهُ اللهُ جزءاً لطيفاً في حياة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في قبورهم، وأورد فيه عدة أحاديث تؤيد هذا، فيراجع منه، وقال في (دلائل النبوة): الأنبياء

(١) أخرجه البزار [٦٣٩١، ٦٨٨٨]، وأبو يعلى [٣٤٢٥]، وابن عدي (٣٢٧/٢)، ترجمة: الحسن بن قتيبة المدائني [٤٦٠]، كما أخرجه تمام [٥٨]، والديلمي [٤٠٣]، وابن عساكر (٣٢٦/١٣)، قال الهيثمي (٨ / ٢١١): "رواه أبو يعلى، والبزار، ورجال أبي يعلى ثقات". وقال الحافظ في الفتح (٤٨٧/٦):
أخرجه البيهقي في كتاب: (حياة الأنبياء في قبورهم) وصححه". وقال المناوي في (فيض القدير): (١٨٤/٣): "رواه أبو يعلى عن أنس بن مالك، وهو حديث صحيح".

(٢) فيض القدير (١٨٤/٣).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (٤٤٤/٦).

الدراسة السابعة والخمسة والعشرون والسؤال التوجيهي لطبقتنا الجزء الثاني

عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أحياء عند ربهم كالشهداء، وقال في كتاب: (الاعتقاد): والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بعد ما قبضوا ردت إليهم أرواحهم فهم أحياء عند ربهم كالشهداء" (١).

وقال البدر العيني رَحِمَهُ اللهُ: "الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أحياء، فقد رآهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقيقة، وقد مر على موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو قائم يصلي في قبره، ورآه في السماء السادسة" (٢).

وقد ثبت أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إمامًا في بيت المقدس في ليلة: (الإسراء والمعراج)، كما جاء في (الصحيح) من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء... فحانت الصلاة فَأَمَّتْهُمْ» الحديث (٣).

وفي (صحيح مسلم): عن أنس بن مالك، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أتيت - وفي رواية هدايا: مررت - على موسى ليلة أُسْرِيَ بي عند الكُتَيْبِ الأحمر، وهو قائم يُصَلِّي في قبره» (٤).

قال العلامة المظهري رَحِمَهُ اللهُ: "وصلوات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في قبورهم عبارة عن زيادة درجاتهم بعد الموت؛ فإن الصلاة والسجدة فيها خاصة قُرْبٍ من الله عَزَّجَلَّ، كما

(١) انظر: التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، لابن حجر (٢/٢٩٣-٢٩٤)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٦/٤٨٧)، الاعتقاد، للبيهقي (ص: ٣٠٥)، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للبيهقي (٢/٣٨٨).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٤/٤٨).

(٣) صحيح مسلم [١٧٢].

(٤) صحيح مسلم [٢٣٧٥].

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَسْجُدْ وَقْتَرَبْ ۝١٦﴾ [العلق: ١٩]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وقرة عيني في الصلاة»^(١).

ولا شك أن درجات القرب من الله عَزَّجَلَّ غيرُ متناهية، فهو المراد من الصلاة - والله أعلم -^(٢).

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الكثيب": هو الكوم من الرمل ويجمع: كَثَبًا، وهذا الكثيب هو بطريق بيت المقدس.. وهذا الحديث يدلُّ بظاهره على: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رؤية حقيقية في اليقظة، وأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في قبره حيًّا، يصلي فيه الصلاة التي كان يصلها في الحياة، وهذا كله ممكن لا إحالة في شيء منه، وقد صحَّ أن الشهداء أحياء يرزقون، ووجد منهم من لم يتغير في قبره من السنين. وإذا كان هذا في الشهداء كان في الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أخرى وأولى.

فإن قيل: كيف يصلون بعد الموت، وليس تلك الحال حال تكليف؟

فالجواب: أن ذلك ليس بحكم التكليف، وإنما ذلك بحكم الإكرام لهم والتشريف؛ وذلك أنهم كانوا في الدنيا حَيِّبَت لهم عبادة الله عَزَّجَلَّ. والصلاة بحيث كانوا يلازمون ذلك، ثم توفوا وهم على ذلك، فشرَّفهم الله عَزَّجَلَّ بعد موتهم بأن أبقى عليهم ما كانوا يحبون، وما عُرفوا به، فتكون عبادتهم إلهامية كعبادة الملائكة، لا تكليفية..^(٣).

(١) تقدم.

(٢) المفاتيح في شرح المصايح (٦/٦٦-٦٧).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/١٩٢)، وانظر: حاشية السندي على سنن النسائي (٣/٢١٥-٢١٧).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: "وقد يكون الصلاة هنا بمعنى: الدعاء والذكر، وهي من أعمال الآخرة، ويؤكد أحد التأويلات فيه، وأنها الصلاة المعهودة: ما ذكر من أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ"^(١).

ومن المتفق عليه أنه لا تكليف بعد الموت، فتكون عبادتهم إلهامية كعبادة الملائكة، لا تكليفية - كما تقدم-، وذلك كما يلهم أهل الجنة التسييح إلهامًا.

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: "فإن قيل: فكيف رأى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في قبره يصلى، وكيف صلى بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في حديث الإسراء ببيت المقدس على ما جاء في الحديث، وقد جاء في الحديث نفسه أنه وجدهم على مراتبهم في السماوات عليه ورحبوا به؟

قيل: يحتمل أن رؤيته لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في قبره عند الكئيب الأحمر كانت كانت قبل صعوده إلى السماء، وفي طريقه إلى بيت المقدس، ثم وجد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد سبقه إلى السماء.

ويحتمل أنه رأى الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وصلّى بهم على تلك الحال لأول ما رآهم، ثم سألوهم ورحبوا به.

أو يكون اجتماعه بهم، وصلاته، ورؤيته موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد انصرافه ورجوعه عن سدة المنتهى"^(٢).

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١/٥٢٤).

(٢) المصدر السابق (١/٥٢٤)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٢٣٨).

الرسالة السبب النجاة

الجزء الثاني

وتقدّم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إمامًا بالصلاة فيه دلالة ظاهرة على فضل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعظيم مقامه ومكانته، وبلاغ بأن دين الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ واحد، وأن أمر النبوة قد ختم. وفيه دلالة ودخول جميع الرسالات الإلهية تحت رسالته، وانضواء جميع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تحت لوائه، وفيه دلالة على أن الإسلام هو كلمة الله عزَّجَلَّ الأخيرة إلى خلقه، ودليل على عالمية الإسلام، وعموم رسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه حامل لواء الهداية للخلق جميعًا، تحمّلها بأمانة وقوة، وقام بحققها على خير وجه، ثم ورثها لأمته من بعده، وبذلك أصبحت خير أمة أخرجت للناس، ومسئولة عن إقامة حُجَّةِ الله عزَّجَلَّ على خلقه جميعًا، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقد اجتمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في (رحلة المعراج) - كما في (الصحيحين) وغيرها^(١)، فرأى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في السماء الدنيا، ورأى عيسى ويحيى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في السماء الثانية، وفي الثالثة: يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي الرابعة: إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي الخامسة: هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي السادسة: موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي السابعة: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفي رواية الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ، والإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ وغيرهما: قال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السماء الدنيا: «هذا أبوك آدم فسلم عليه...»، وقال له في السماء الثانية: «هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما»، وفي الثالثة: «هذا يوسف فسلم عليه»، وفي الرابعة: «هذا إدريس فسلم عليه»، وفي الخامسة: «هذا هارون

(١) صحيح البخاري [٣٨٨٧]، مسلم [١٦٢].

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافعته

الجزء الثاني

فسلم عليه»، وفي السادسة: «هذا موسى فسلم عليه»، وفي السابعة: «فلما خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك فسلم عليه»^(١).

قال الثوريشتي رحمه الله: "وأمر الملك - جبريل عليه السلام - إياه بالتسليم عليهم، وأن في ذلك توقيف على تفاوت منازلهم، واختلاف مراتبهم ومنازعتهم، وعلى أنه أعلى رتبة، وأقوى حالاً، وأتم عروجاً. وأمره بالتسليم عليهم؛ لأنه كان عابراً عليهم، فكان في حكم القيام، وكانوا في حكم القعود، والقائم يسلم على القاعد، وإن كان أفضل منهم"^(٢).

ومن إكرام الله عز وجل للأنبياء عليهم السلام في عالم البرزخ، وما يدل على خصوصية حياتهم، وتميزها عن غيرهم: ما جاء في الحديث: عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه؛ فإن صلاتكم معروضة علي» قال: قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت - يقولون: بليت -؟ فقال: «إن الله عز وجل حرم على الأرض أجساد الأنبياء»^(٣).

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل [١٧٨٣٥]، صحيح البخاري [٣٨٨٧]، مستخرج أبي عوانة [٣٣٨]، صحيح ابن حبان [٤٨].

(٢) الميسر في شرح مصابيح السنة (٤/١٢٧٢)، وانظر: المفاتيح في شرح المصابيح، للمظهري (٦/١٩١)، مرقاة المفاتيح (٩/٣٧٦٠).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبه [٨٦٩٧]، وأحمد [١٦١٦٢]، والدارمي [١٦١٣]، وابن ماجه [١٠٨٥]، وأبو داود [١٠٤٧]، وابن أبي عاصم في (الأحاد والمثاني) [١٥٧٧] والنسائي [١٣٧٤]، وابن خزيمة [١٧٣٣]، وابن حبان [٩١٠]، والطبراني في (الكبير) [٥٨٩]، و(الأوسط) [٤٧٨٠]، والحاكم =

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما من أحدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ، إِلَّا رَدَّ اللهُ عَزَّجَلَّ إِلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»^(١).

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِلَيَّ رُوحِي» الحديث ظاهره: أن عود الروح إلى الجسد يقتضي انفصالها عنه، وهو الموت.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "وقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة:

وذكر منها: أن المراد بالروح الملك الموكل بذلك.

أو أن المراد بالروح: النطق، فيكون المعنى: أي: رَدَّ عَلَيَّ نَطْقِي، فتجوز فيه من

جهة خطابنا بما نفهمه.

قال: وقد استشكل ذلك من جهة أخرى، وهو أنه يستلزم استغراق الزمان كله

في ذلك؛ لاتصال الصلاة والسلام عليه في أقطار الأرض ممن لا يحصى كثرة. وأجيب:

بأن أمور الآخرة لا تدرك بالعقل، وأحوال البرزخ أشبه بأحوال الآخرة"^(٢).

= [١٠٢٩]، وقال: "صحيح على شرط البخاري"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [٥٩٩٣] وغيره.

(١) أخرجه أحمد [١٠٨١٥]، وأبو داود [٢٠٤١]، والطبراني في (الأوسط) [٣٠٩٢]، وفي (الدعوات الكبرى) [١٧٨]، والبيهقي في (الكبرى) [١٠٢٧٠]، وفي (شعب الإيمان) [١٤٧٩]، وابن عساكر في (معجمه) [١١٣٢]. قال الهيثمي (١٠/١٦٢): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وفيه عبد الله بن يزيد الإسكندراني ولم أعرفه، ومهدي بن جعفر ثقة، وفيه خلاف، وبقية رجاله ثقات". قال الإمام النووي: "رواه أبو داود بإسناد صحيح" رياض الصالحين (ص: ٣٩٦)، الأذكار (ص: ١١٥)، وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (٦/٤٨٨): "رواه ثقات".

(٢) فتح الباري (٦/٤٨٨).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "لعل معناه: أن روحه المقدسة في شأن ما في الحضرة الإلهية، فإذا بلغه سلام أحد من الأمة ردَّ الله عَزَّجَلَّ روحه المطهرة من تلك الحالة إلى ردِّ من سلَّم عليه، وكذلك عاداته في الدنيا يفيض على الأمة من سبحات الوحي الإلهي ما أفاضه الله عَزَّجَلَّ عليه، فهو صلوات الله عليه في الدنيا والبرزخ والآخرة في شأن أمته"^(١).

وقال ابن الملك رَحِمَهُ اللهُ: "رد الروح كناية عن إعلام الله عَزَّجَلَّ إياه بأن فلاناً صلَّى عليه، وقد أجاب السيوطي رَحِمَهُ اللهُ عن الإشكال بأجوبة أخرى في رسالة له"^(٢).
وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من أحد يسلم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ»، وفي رواية: «إليَّ» وهو اللفظ وأنسب؛ إذ بين التعديتين فرق لطيف؛ فإنَّ بين التعديتين فرقاً لطيفاً؛ فإنَّ: «ردَّ» يعدى بـ: (على) في الإهانة، وبـ: (إلى) في الإكرام.
قال في (الصحيح): ردَّ عليه الشيء: إذا لم يقبله، وكذا إذا خطأه، وتقول: ردَّه إلى منزله، وردَّ إليه جواباً، أي: رجع.

وقال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: من الأول: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَرُدُّكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٩]، ﴿وَرُدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ [الأنعام: ٧١].

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٠٤٣/٣).

(٢) مرآة المفاتيح (٧٤٣/٢).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

ومن الثاني: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمَمِهِ﴾ [القصص: ١٣]، ﴿وَلَيْنَ رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَلِيمٍ أَعْيَبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [التوبة: ٩٤]، ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَىٰ اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾ [الأنعام: ٦٢]"^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَجْعَلُوا بَيْتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنْ صَلَاتِكُمْ تَبْلَغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»^(٢).
وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ، يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»^(٣).

يعني: أن الله عَزَّجَلَّ أَرْسَلَ مَلَائِكَةً عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ؛ حَتَّىٰ يُخْبِرُونِي عَمَّنْ صَلَّىٰ أَوْ سَلَّمَ عَلَيَّ^(٤).

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد، لمحمد بن يوسف الصالحى الشامى (٣٦٥/١٢)، فيض القدير، للمناوى (٤٦٧/٥)، المفردات في غريب القرآن، للراغب، مادة: (رد) (ص: ٣٤٨)، الصحاح، للجوهري، مادة: (دد) (٤٧٣/٢).

(٢) أخرجه أحمد [٨٨٠٤]، وأبو داود [٢٠٤٢]، والطبراني في (الأوسط) [٨٠٣٠]، والبيهقى في (شعب الإيمان) [٣٨٦٥]، والحديث له شواهد. وقد حسنه الحافظ ابن حجر في (نتائج الأفكار) (٢٢/٤).

(٣) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٠٢٨]، وعبد الرزاق [٣١١٦]، وابن أبي شيبة [٢٦٩]، وأحمد [٣٦٦٦]، والبخاري في (كشف الأستار) [٨٤٥]، والنسائي [١٢٨٢]، وأبو يعلى [٥٢١٣]، والشاشي [٨٢٥]، وابن حبان [٩١٤]، والطبراني في (الكبير) [١٠٥٢٩]، وأبو الشيخ في (العظمة) [٥١٣]، والحاكم [٣٥٧٦]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي، كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (١٣٠/٨)، والبيهقى في (شعب الإيمان) [١٤٨٠]، وفي (الدعوات) [١٧٩]، والبغوي في (شرح السنة) [٦٨٧].

(٤) المفاتيح في شرح المصايح (١٦٣/٢).

الرسائل والأساليب النجاة

الجزء الثاني

قال القاري رَحِمَهُ اللهُ: وفيه إشارة إلى حياته الدائمة، وفرحه ببلوغ سلام أمته الكاملة، وإيماء إلى قبول السلام، حيث قبلته الملائكة، وحملته إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).
وقال شمس الدين السخاوي رَحِمَهُ اللهُ: "يؤخذ من هذه الأحاديث: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيٌّ على الدوام؛ وذلك أنه محال عادة أن يخلو الوجود كله من واحد يسلم عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ليل ونهار، ونحن نؤمن ونصدق بأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيٌّ يُرْزَقُ في قبره، وأنَّ جسده الشريف لا تأكله الأرض، والإجماع على هذا"^(٢).

وقال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ: "حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قبره هو وسائر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ معلومة عندنا علمًا قطعياً؛ لما قام عندنا من الأدلة في ذلك، وتواترت به الأخبار"^(٣).

وعن أبي هريرة: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اِحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قُدِّرَ عَلَيَّ قبل أن أُخْلَقَ»، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى مَرَّتَيْنِ»^(٤).

(١) مرقاة المفاتيح (٢/٧٤٣).

(٢) القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع، لشمس الدين السخاوي (ص: ٢٤٣)، ط: مكتبة المؤيد، الطائف، السعودية، ودار البيان، دمشق، وانظر: الدر المنضود في الصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود، لابن حجر الهيتمي (ص: ١٥٨-١٥٩).

(٣) الحاوي للفتاوي، لجلال الدين السيوطي (٢/١٧٨).

(٤) صحيح البخاري [٣٤٠٩، ٦٦١٤، ٧٥١٥]، مسلم [٢٦٥٢].

الدرر والاسرار في حياة النبي الجزء الثاني

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اِخْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى» أي: طلب كل منهما الحجة من صاحبه على ما يقول.

وقد قيل: هذه المحاجة كانت روحانية في عالم الغيب.

قال أبو الحسن القابسي رَحِمَهُ اللَّهُ: التقت أرواحهما في السماء، فوقع الحجاج بينهما^(١). قال ابن بطلال رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد جاءت الرواية بذلك"^(٢)، يعني: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عند ربهما» أي: عند تجليه جَلَّ وَعَلَا عليهما حال تفاوضهما.

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويحتمل أنه على ظاهره، وأنهما اجتمعا بأشخاصهما، وقد جاء في حديث الإسراء: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتمع بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي السَّمَاوَاتِ، وَفِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَصَلَّى بِهِمْ، وَلَا يَبْعُدُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحْيَاهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الشَّهَادَةِ.

وقيل: يحتمل أن ذلك كان في حياة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه سأل ربه جَلَّ وَعَلَا أن يريه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فحاجه بما ذكر"^(٣).

(١) انظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (١٣٧/٨)، شرح النووي على صحيح مسلم (٢٠٠/١٦)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٦٠/١٩)، طرح الثريب في شرح التقريب (٢٤٧/٨)، المفاتيح في شرح المصايح (١٧٣/١).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطلال (٣١٤/١٠).

(٣) إكمال المعلم، للقاضي عياض (١٣٧/٨).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

قال أبو عمر ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: "التقاء آدم وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يمكن أن يكون كما قال ابن وهب رَحِمَهُ اللهُ^(١): يمكن أن يريه الله عَزَّجَلَّ إياه، وهو حي. ويمكن أن يكونا التقت أرواحهما، وعلم ذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما يعلم به خبر السماء في غير ذلك. وهذا ومثله مما لا يطاق فيه التكييف، وإنما فيه التصديق والتسليم"^(٢).
فتقرر مما تقدم أن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أحياء في قبورهم حياةً برزخيةً لا يَعْلَمُ كُنْهَهَا إِلَّا اللهُ عَزَّجَلَّ، وهي ليست كحياة أهل الدنيا.

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "وذلك لأن النفوس القدسية إذا تجردت عن العلائق البدنية، عرجت واتصلت بالملا الأعلى، ولم يبق لها حجاب، فترى الكل كالمشاهد بنفسها أو بأخبار الملك لها وفيه سر يطلع عليه من تيسر له"^(٣).
والحاصل أن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أموات بالنسبة لأهل الدنيا، أما عند الله عَزَّجَلَّ فهم أحياء - كما تقدم -.

وقد قال الله عَزَّجَلَّ مخاطبًا خاتم النبيين وأفضلهم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنَّ مِتَّ فَهُمْ آلُ الْخَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

(١) وذكر القاضي ابن العربي في (المسالك) أنه الصحيح من القولين. انظر: المسالك في شرح موطأ مالك، لابن العربي (٢٢١/٧).

(٢) الاستذكار (٢٦٠/٨)، وانظر: مرقاة المفاتيح (١٤٩/١).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٠٤٤/٣)، مرقاة المفاتيح (٧٤٤/٧)، فيض القدير (١٩٩/٤)، الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية، لابن علان (٣١٤/٣-٣١٥).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - زوج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أخبرته، قالت: أقبل أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على فَرَسِهِ من مَسْكِنِهِ بِالسُّنْحِ حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَنَيَّمَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مُسَجَّى بِبُرْدِ حَبْرَةٍ، فَكَشَفَ عن وَجْهِهِ، ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ، فَقَبَّلَهُ، ثم بكى، فقال: «بأبي أنت يا نبي الله، لا يَجْمَعُ اللهُ عليك مَوْتَتَيْنِ، أما المَوْتَةُ التي كتبت عليك فقد مَتَّهَا»، قال أبو سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فأخبرني ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أن أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خرج، وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يكلم الناس، فقال: «اجلس»، فأبى، فقال: «اجلس»، فأبى، فتشهد أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فمال إليه الناس، وتركوا عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات، ومن كان يعبد الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله حي لا يموت، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] إلى ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، والله لكان الناس لم يكونوا يعلمون أن الله عَزَّوَجَلَّ أنزلها حتى تلاها أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فتلقاها منه الناس، فما يسمع بشر إلا يتلوها^(١)

وقد رُوِيَ: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»^(٢).

(١) صحيح البخاري [١٢٤١، ٣٦٦٧، ٣٦٦٨، ٣٦٦٩، ٣٦٧٠].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٦٤٢١]، وأحمد [١٤٦٣١]، والبخاري [١٧٦]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٧٦]، والديلمي [٧٤٦٩]. قال الحافظ في (الفتح) (٣٣٤/١٣): "أخرجه أحمد، وابن أبي شيبة، والبخاري من حديث: جابر، ورجاله موثوقون، إلا أن في مجالد ضعفًا" وقال في موضع آخر (٥٢٥/١٣): "وفي سنده: مجالد بن سعيد، =

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

أما عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد صعد إلى السماء بروحه وجسده، وكذلك قد قيل في إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وسينزل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الأرض في آخر الزمان، وسيكون نزوله عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، مُصَدِّقًا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى مِلَّةِ فَيَقْتُلُ الدَّجَالَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنزِيرَ، كَمَا جَاءَ ذَلِكَ مَبِينًا فِي السَّنَةِ. فَعَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا يَنْزِلُ مَقْرَرًا لِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ، وَمُجَدِّدًا لَهَا؛ إِذْ هِيَ آخِرُ الشَّرَائِعِ.

تاسعًا: الأطفال في حياة البرزخ:

ظاهر الأحاديث والأدلة الشرعية أن الطفل لا يسأل؛ لأن السؤال إنما يكون للمكلفين، ولم يقع على الأطفال تكليف.

قال النسفي في (بحر الكلام): "ثم اعلم أن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ليس عليهم حساب، ولا عذاب، ولا سؤال القبر، وكذلك أطفال المؤمنين ليس لهم حساب، ولا عذاب، ولا سؤال القبر، وكذلك العشرة الذين بشرهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنة، ليس عليهم حساب، هذا كله حساب المناقشة. وأما حساب العرض فالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا، وهو أن يقال: فعلت كذا وعفوت عنك.

= وهو لين". وقال الهيثمي (١٧٤/١): "رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار، وفيه: مجالد بن سعيد، ضعفه أحمد، ويحيى بن سعيد، وغيرهما". ومن أهل العلم من حسنه باعتبار شواهد؛ فإنه قد روي عن غير مجالد فتقوى بذلك.

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني



وحساب المناقشة أن يقال: لم فعلت كذا؟^(١).
قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "واختلف في الطفل غير المميز فجزم القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في (التذكرة) بأنه يسأل^(٢)، وهو منقول عن الحنفية.
وجزم غير واحد من الشافعية بأنه لا يسأل، ومن ثم قالوا: لا يستحب أن يلحق^(٣). قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "وأما الطفل ونحوه، فلا يلحق"^(٤). قال الزركشي رَحِمَهُ اللهُ في (الخادم): "وهو مبني على أن غير المكلف لا يسأل في قبره اهـ". فلا يسن تلقيه؛ لأنه لا يفتن في قبره. ومثله: المجنون - إن لم يسبق له تكليف وإلا لقن - وعبرة (النهاية): ولا يلحق طفل - ولو مراهقا - ومجنون لم يتقدمه تكليف - كما قيد به الأذرع رَحِمَهُ اللهُ -؛ لعدم افتتانهما^(٥).

(١) بحر الكلام (ص: ١٩٣-١٩٤).

(٢) قال القرطبي: "فإن قالوا: ما حكم الصغار عندكم؟ قلنا: هم كالبالغين وأن العقل يكمل لهم؛ ليعرفوا بذلك منزلتهم، وسعادتهم، ويلهمون الجواب عما يسألون عنه" التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص: ٣٧٧).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (٣/ ٢٣٩)، وانظر: إرشاد الساري (٢/ ٤٦٥).

(٤) روضة الطالبين وعمدة المفتين (٢/ ١٣٨).

(٥) انظر: الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (١/ ٢١٠)، وانظر: أسنى المطالب في شرح روض الطالب (١/ ٣٣٠)، الغرر البهية (٢/ ١٢٢)، حاشيتنا قليوبي وعميرة (١/ ٤١٤)، حاشية البجيرمي على الخطيب (٢/ ٢٩٨)، إعانة الطالبين (٢/ ١٥٩)، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج (٣/ ٤١)، حاشية الجمل على شرح المنهج (٢/ ٢٠٥).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال السيوطي رَحْمَةُ اللَّهِ: "وقد جزم أصحابنا الشافعية بأن الطفل لا يلقن بعد الدفن، وأن التلقين يختص بالبالغ، هكذا ذكره النووي رَحْمَةُ اللَّهِ في (الروضة) وغيرها، وهو دليل على أن الأطفال لا يسألون، وقد أفتى به الحافظ ابن حجر رَحْمَةُ اللَّهِ"^(١).
وعند الحنفية أن كل ذي روح من بني آدم، فإنه يسأل في القبر، لكن يلقن الرضيع الملك، وقيل: لا، بل يلهمه الله عزَّجَلَّ كما ألهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في المهد^(٢).
وعند الحنابلة فهل يلقن غير المكلف؟ وجهان، وهذا الخلاف مبني على نزول الملكين إليه^(٣).

وقد فصل القول في هذه المسألة الإمام السيوطي رَحْمَةُ اللَّهِ في (الحاوي)، قال رَحْمَةُ اللَّهِ: "اختلف في الأطفال، هل يفتنون في قبورهم ويسألهم منكر ونكير أو لا؟ على قولين شهيرين حكاهما ابن القيم في كتاب: (الروح)^(٤) عن أصحابه الحنابلة، ورأيتهما أيضاً للحنفية وللمالكية، ويخرجان من كلام أصحابنا الشافعية:
أحدهما: أنهم لا يسألون، وبه جزم النسفي رَحْمَةُ اللَّهِ من الحنفية، وهو مقتضى كلام ابن الصلاح، والنووي، وابن الرفعة، والسبكي رَحْمَةُ اللَّهِ، وصرح به الزركشي رَحْمَةُ اللَّهِ، وأفتى به الحافظ ابن حجر رَحْمَةُ اللَّهِ.

(١) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص: ١٥٢).

(٢) انظر: رد المحتار على الدر المختار (١٩١/٢)، حاشية الشرنبلالي المسماة غنية ذوي الأحكام في بغية

درر الأحكام (١٦٠/١)، الجوهرة النيرة (١٠٢/١).

(٣) انظر: كشف القناع (١٣٦/٢)، مطالب أولي النهى (٩٠٩/١)، الفروع (٢١٦/٢).

(٤) انظر: الروح، لابن القيم (٨٧-٨٨).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

والثاني: أنهم يسألون، رويناه عن الضحاك من التابعين، وجزم به من الحنفية البزازي، والبيكساري، والشيخ أكمل الدين رَحْمَهُ اللهُ، وهو مقتضى كلام ابن فورك، والمتولي، وابن يونس رَحْمَهُ اللهُ من أصحابنا، ونقله الشيخ سعد الدين التفتازاني رَحْمَهُ اللهُ: عن أبي شعاع رَحْمَهُ اللهُ، وجزم به من المالكية: القرطي رَحْمَهُ اللهُ في (التذكرة)، والفاكهاني، وابن ناجي، والأقفهسي رَحْمَهُ اللهُ، وصححه صاحب: (المصباح) في علم الكلام. قال: ذكر نقول القول الأول: قال النسفي رَحْمَهُ اللهُ في بحر الكلام: الأنبياء وأطفال المؤمنين ليس عليهم حساب، ولا عذاب القبر، ولا سؤال منكر ونكير. وقال النووي في (الروضة) من زوائده، وفي (شرح المهذب): إنما هو في حق الميت المكلف، أما الصبي ونحوه فلا يلحق. قال الزركشي في (الخادم): هذا تابع فيه ابن الصلاح رَحْمَهُ اللهُ؛ فإنه قال: لا أصل لتلقيه -يعني: لأنه لا يفتن في قبره-. وقال في موضع آخر في (الخادم): ما قاله ابن الصلاح والنووي رَحْمَهُمَا اللهُ مبني على أنه لا يسأل في قبره. انتهى.

وقد تابعهما على ذلك ابن الرفعة في (الكفاية)، والسبكي في (شرح المنهاج)، وسئل الحافظ ابن حجر رَحْمَهُ اللهُ عن الأطفال هل يسألون؟ فأجاب بأن الذي يظهر اختصاص السؤال بمن يكون مكلفاً. ثم ذكر نقول القول الثاني...^(١).

(١) انظر ذلك مفصلاً في (الحاوي للفتاوي)، للسيوطي (٢/٢١٢-٢١٥).

الدرر الساب إلى السبب النجاة

الجزء الثاني

عاشراً: أسباب النجاة والوقاية من عذاب البرزخ:

ذكر السيوطي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي (شرح الصدور) في باب: (باب من لا يسأل في القبر) جملة من الأعمال التي هي من أسباب الوقاية من عذاب البرزخ، مما صحَّ، ومما قيل (١).

وقال: "قال أبو القاسم السعدي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي كتاب: (الروح): ورد في الأخبار الصحاح أن بعض الموتى لا ينالهم فتنة القبر، ولا يأتيهم الفتانان، وذلك على ثلاثة أوجه: مضاف إلى عمل، ومضاف إلى حال بلاء نزل بالموت، ومضاف إلى زمان" (٢). قال الشيخ شمس الدين السفاريني رَحْمَةُ اللَّهِ: "وممن لا يسأل: الملائكة والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وأما الجن فالأدلة تعممهم، ويسألون؛ لأنهم مكلفون في الجملة، كما نص عليه علماؤنا وغيرهم" (٣).

وأجمل هنا أهم أسباب الوقاية والنجاة من عذاب البرزخ، فمن هذه الأسباب:

١ - الحذر من المعاصي المنصوص على أنها من أسباب عذاب البرزخ:

وقد تقدم بيان ذلك.

(١) انظر: شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص: ١٤٨-١٥٣).

(٢) المصدر السابق (ص: ١٤٨)، وانظر: لوامع الأنوار البهية، للسفاريني الحنبلي (١١/٢-١٢).

(٣) لوامع الأنوار البهية (١٢/٢).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

٢ - العلم بعاقبة كلِّ ذنبٍ وأسباب النجاة والوقاية منه:

وقد أرشدنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أسباب العافية والنجاة من عذاب البرزخ - كما سيأتي -.

٣ - محاسبة النفس والتنقيب عن عيوبها، وتجديد التوبة والإنابة إلى الله

عَزَّجَلَّ:

فمن أنفع الأسباب التي تقي العبد من عذاب البرزخ وما بعده: أن يجلس المرء عندما يريد النومَ لله عَزَّجَلَّ ساعةً يحاسبُ نفسه فيها، ثم يجددُ توبةً بينه وبين الله عَزَّجَلَّ، فينامُ على تلك التوبة، ويعزم ألا يعاود الذنب إذا استيقظ، ويفعلُ هذا كلَّ ليلة، فإذا مات من ليلته مات على توبة، وإن استيقظ استقبلَ يومه بنيةً صالحة.

وليس للعبد أنفع من هذه النوم، ولا سيما إذا أكثر من ذكرِ الله عَزَّجَلَّ، واستعمل السنن الواردة قبل النوم، فمن أراد الله عَزَّجَلَّ به خيرًا وفقه لذلك.

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«خُذُوا جُنَّتَكُمْ»، قالوا: يا رسول الله، أَمِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟ قال: «لا، وَلَكِنْ جُنَّتَكُمْ مِنْ النَّارِ قَوْلُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُجَنَّبَاتٍ وَمُعَقَّبَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» (١).

(١) أخرجه النسائي في (الكبرى) [١٠٦١٧]، واللفظ له، وفي (عمل اليوم والليلة) [٨٤٨]، والطبراني في (الأوسط) [٤٠٢٧]، وفي (الصغير) [٤٠٧]، والحاكم [١٩٨٥]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، وأقره الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٥٩٨]، وفي (الدعوات الكبرى) [١٣١]، =

الدرر السابغة النجاة

الجزء الثاني

وقد تقدم أن الإكثار من ذكر الله عزَّجَلَّ من خير الأعمال النافعة للعبد، والباقية.

٤ - الرباط في سبيل الله عزَّجَلَّ:

إن أسباب العافية والنجاة من عذاب البرزخ، فمن ذلك: الرباط في سبيل الله عزَّجَلَّ، كما جاء في الحديث: عن سلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأُجِرِيَ عليه رزقه، وأَمِنَ الْفَتَّانَ»^(١).

قال القاضي عياض رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "وقوله في فضل الرباط: «وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله فيه»: فضيلةٌ مختصةٌ به، أي: لا يشاركه فيها أحدٌ، وهي: أن عمله يجرى له أجره بعد موته. وقد جاء هذا مبيناً في غير مسلم بسند صحيح: «كُلُّ مَيِّتٍ يُحْتَمُّ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ يُنْمَى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

=والديلمي [٢٨٢٩]. قال المنذري (٢/٢٨١): "إسناده جيد قوي". وقال الهيثمي (١٠/٨٩): "رجاله في الصغير رجال الصحيح، غير داود بن بلال وهو ثقة" وللحديث شواهد. انظر: الدر المنثور (٥/٣٩٧)، وقد تقدم.

(١) صحيح مسلم [١٩١٣].

(٢) الحديث مروى عن فضالة بن عبيد بسند صحيح. وعن عقبة بن عامر بإسناد حسن. حديث فضالة بن عبيد: أخرجه ابن المبارك في (الجهاد) [١٧٤]، وسعيد بن منصور في (السنن) [٢٤١٤]، وأحمد [٢٣٩٥١]، وأبو داود [٢٥٠٠]، والترمذي [١٦٢١]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه البزار [٣٧٥٣]، وأبو عوانة [٧٤٦٣]، وابن حبان [٤٦٢٤]، والطبراني في (الكبير) [٨٠٢]، والحاكم =

الدرر والاسرار في الفقه

الجزء الثاني

وقوله: «وأجرى عليه رزقه»^(١) موافق لقوله عزَّجَلَّ في الشهداء: ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، والأحاديث السابقة أن أرواح الشهداء تأكل من ثمار الجنة.

وقد ضبطوا «أمن» بوجهين:

أحدهما: «أمن» بفتح الهمزة وكسر الميم من غير واو.

والثاني: «أومن» بضم الهمزة وبواو.

وأما «الفتان» فقال القاضي رَحْمَةُ اللَّهِ: رواية الأكثرين بضم الفاء، جمع فاتن.

قال: ورواية الطبري رَحْمَةُ اللَّهِ بالفتح.

وفي رواية أبي داود في (سننه): «أومن من فتاني القبر»^(٢)..

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحْمَةُ اللَّهِ: "وتكون للجنس، أي: يؤمن من كل ذي

فتنة. ورواه الطبري رَحْمَةُ اللَّهِ: بفتح الفاء؛ يعني به: فتان القبر. وكذلك رواه أبو داود

مفسراً بالإضافة إلى القبر"^(٣).

= [٢٤١٧]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضاً البيهقي في (شعب

الإيمان) [٣٩٨٢]. حديث: عقبة ابن عامر فيه ابن لهيعة. وهو بلفظ: «كل ميت يختم على عمله

إلا المرابط في سبيل الله؛ فإنه يجري عليه أجر عمله حتى يبعثه الله»، وفي رواية: «ويؤمن من فتان

القبر». أخرجه أحمد [١٧٣٥٩]، والدارمي [٢٤٦٩]، وأبو محمد الحارث [٦٢٨]، والطبراني في

(الكبير) [٨٤٨]. قال الهيثمي: (٢٨٩/٥): "رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن".

(١) «وأجرى عليه»: بصيغة المجهول، أي: أوصل إليه. «رزقه»، أي: من الجنة.

(٢) إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣٤٢/٦)، شرح النووي على صحيح مسلم (٦١/١٣).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧٥٥/٣-٧٥٦).

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ: "أو المراد فتان القبر من إطلاق صيغة الجمع على اثنين، أو على انهم أكثر من اثنين، فقد ورد أن فتاني القبر ثلاثة أو أربعة، وقد استدل غير واحد بهذا الحديث على أن المرابط لا يسأل في قبره كالشهيد"^(١).
وقيل: أراد الدجال. وقيل: الشيطان؛ فإنه يفتن الناس بجدعه إياهم وبتزيين المعاصي لهم^(٢).

قال الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "ومعنى: «جرى عليه عمله» كقوله: جرى عليه القضاء، أي: يقدر له من العمل بعد الموت، كما جرى منه قبل الممات، فجرى هنا بمعنى: قدر. ونحوه في المريض قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة، ثم مرض قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طليقاً»^(٣).
قال القاري رَحِمَهُ اللهُ في (المرقاة): "وكذا ورد في المسافر، والشيخ الكبير"^(٤).

(١) الديباج على صحيح مسلم (٤/٥٠٧).

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٤٥٨).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٨/٢٦٢٧). والحديث: بلفظ: «إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة، ثم مرض، قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طليقاً، حتى أطلقه، أو أَكْفَتَهُ إِلَيَّ» وقد أخرجه: معمر بن أبي عمرو راشد في (جامعه) [٢٠٣٠٨]، وأحمد [٦٨٩٥] والبيهقي في (الكبرى) [٦٥٤٦]. قال الهيثمي (٢/٣٠٣): "رواه أحمد وإسناده صحيح". قال المنذري: "إسناده حسن. وقوله: «أكفته إلي» بكاف ثم فاء ثم تاء مثناة فوق، معناه: أضمه إلي وأقبضه الترغيب والترهيب (٤/١٤٧).

(٤) مرقاة المفاتيح (٦/٢٤٥٨).

الدرر السابغ إلى سبيل النجاة

الجزء الثاني

وعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سَوْطِ أَحَدِكُمْ من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والرَّوْحَةُ يروحها العبد في سبيل الله، أو الغَدَوَةُ خير من الدنيا وما عليها»^(١).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «رباط شهر خير من صيام دهر، ومن مات مرابطاً في سبيل الله أمن من الفزع الأكبر، وَغُدِيَّ عَلَيْهِ بِرِزْقِهِ وَرِيحٍ من الجنة، ويجري عليه أجر المجاهد حتى يبعثه الله عَزَّوَجَلَّ»^(٢).

وعن العرباض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كل عمل ينقطع عن صاحبه إذا مات، إلا المرابط في سبيل الله؛ فإنه ينمي له عمله، ويجري عليه رزقه إلى يوم القيامة»^(٣).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "معناه: أن الرجل إذا مات لا يزداد عن ثواب ما عمل، ولا ينقص منه شيء إلا الغازي؛ فإن ثواب مرابطته ينمو ويتضاعف، وليس فيه

(١) صحيح البخاري [٢٨٩٢].

(٢) قال الحافظ المنذري: "رواه الطبراني ورواه ثقات"، ونحوه قول الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٢٩٠/٥). وقوله: «وغدي عليه برزقه وريح من الجنة» بناء: «غدي» و«ريح» إلى المفعول. «ويجري عليه أجر المرابط» ما دام في قبره «حتى يبعثه الله» يوم القيامة من الآمنين.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في (الجهاد) [٢٩٦]، وابن الأعرابي [١٩٧٠]، والطبراني في (الكبير) [٦٤١]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٥٦/٥). قال الهيثمي (٢٩٠/٥): "رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات".

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

ما يدل على أن عمله يزداد بضم غيره إليه، أو لا يزداد، فاندفع قول البعض هذا الحديث يكاد يخل بالحصر المذكور في حديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث»^(١) يريد: أن الحصر يدل على أن الثواب بانضمام الغير يجري له، كأنه قيل: ينقطع عمله المنضم إلى عمل الغير إلا عن ثلاث، والمرابطة ليس بداخلة فيها، فلا يخل بالحصر. قال: ولا يبعد أن يدخل ذلك تحت جنس الصدقة الجارية..؛ إذ المقصود نصرة المسلمين"^(٢). "قال في (المرقاة): وهو الأظهر"^(٣).

وعند ابن ماجه رَحِمَهُ اللهُ بسند صحيح: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «من مات مرابطاً في سبيل الله أجرى عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن من الفتان، وبعثه الله يوم القيامة آمناً من الفزع»^(٤).
وقال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "وفي هذا الحديث قيد ثان، وهو الموت حالة الرباط - والله أعلم -"^(٥).

(١) تقدم.

(٢) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢/٦٦٤)، فيض القدير (٥/٢٧).

(٣) مرقاة المفاتيح (١/٢٨٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه [٢٧٦٧]. قال الحافظ المنذري (٢/١٥٥): "رواه ابن ماجه بإسناد صحيح" وقال:

البوصيري في (الزوائد) (٣/١٥٥): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات".

(٥) تفسير القرطبي (٤/٣٢٥)، وانظر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص: ٤١٧).

الدرر والاسرار في سبيل النجاة

الجزء الثاني

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ فيما تقدم من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وإن مات»: "يعني: في حالة الرباط «جرى عليه عمله»، أي: أجر عمله، «الذي كان يعمل» في حال رباطه، وأجر رباطه" (١).

ومعنى (الرباط): الإقامة بالثغر مقويًا للمسلمين على الكفار، والثغر كلُّ مكانٍ يخيفُ أهله العدو.

قال القاضي أبو محمد ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: "والقول الصحيح هو أن الرباط هو الملازمة في سبيل الله عَزَّجَلَّ، أصلها من ربط الخيل، ثم سمي كل ملازم لثغر من ثغور الإسلام: مرابطًا، فارسًا كان أو راجلًا. واللفظة مأخوذة من الربط، وقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فذلك الرباط» (٢) إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل الله عَزَّجَلَّ، إذ انتظار الصلاة إنما هو سبيل من السبيل المنجية، والرباط اللغوي هو الأول، وهذا كقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس الشديد بالصرعة» (٣)، وكقوله: «ليس المسكين بهذا الطواف» (٤) إلى غير ذلك من الأمثلة، والمرابط في سبيل الله عَزَّجَلَّ عند الفقهاء: هو

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/٧٥٥).

(٢) يعني: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا أدلُّكم على ما يَمْحُو اللهُ به الخطايا، ويرْفَعُ به الدَّرَجَاتِ؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسْبَاغُ الوُضوءِ على المكاره، وكثرةُ الحُطَا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط» صحيح مسلم [٢٥١]، وقد تقدم.

(٣) صحيح البخاري [٦١١٤]، مسلم [٢٦٠٩].

(٤) وقامه: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس، فترده اللقمة واللقمتان، والتمر والتمرتان» قالوا، فما المسكين؟ يا رسول الله، قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له، فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئًا» صحيح مسلم [١٠٣٩]، أي: أن المسكين الكامل المسكنة هو المتعفف الذي =

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

الذي يشخص إلى ثغر من الثغور؛ ليرابط فيه مدة ما، قاله ابن المواز رَحِمَهُ اللهُ ورواه. فأما سكان الثغور دائما بأهليهم الذين يعتمرون ويكتسبون هنالك، فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمرابطين^(١).

وقال ابن خويز منداد رَحِمَهُ اللهُ: "وللرباط حالتان:

حالة يكون الثغر مأموناً منيعاً يجوز سكناه بالأهل والولد.

وإن كان غير مأمون جاز أن يرابط فيه بنفسه إذا كان من أهل القتال، ولا ينقل

إليه الأهل والولد؛ لئلا يظهر العدو فيسبي ويسترق - والله أعلم -"^(٢).

وبناء على ما تقدم فقد أوجز السيوطي رَحِمَهُ اللهُ تعريف (الرباط) بقوله: "هو

ملازمة ثغور المسلمين مدة على نية الجهاد، فارساً كان أو راجلاً، بخلاف سكان

الثغور دائماً بأهليهم الذين يعملون ويكتسبون هناك، فليسوا بمرابطين"^(٣).

والرباط فضله عظيم، وأجره كبير، وأفضله ما كان في أشد الثغور خوفاً. وهل

يدخل في ذلك: مرابطة رجال الأمن لحفظ أمن المسلمين، وحراسة مصالحهم في عموم

= لا يسأل، ولا يفتن له فيتصدق عليه. وأما الطواف فطوافه كالسبب له. وليس معناه نفي أصل

المسكنة عن الطواف، بل معناه: نفي كمال المسكنة، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ

قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]. انظر: إكمال المعلم، للقاضي

عياض (٥٧٢/٣)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٢٩/٧).

(١) المحرر الوجيز (٥٦٠/١)، وانظر: تفسير القرطبي (٣٢٣/٤-٣٢٤)، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة

(ص: ٤١٨).

(٢) تفسير القرطبي (٤/٣٢٤).

(٣) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للسيوطي (ص: ١٤٨).

المرشد إلى سبيل النجاة

الجزء الثاني

الجهات، الظاهر أن ذلك الفضل يشملهم، ولكن المطلوب منهم النيّة، واحتساب الأجر. وما يذكر في هذا السياق: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ»^(١).

وقال الله عَزَّجَلَّ مرشداً العباد ما فيه الفلاح والصلاح لأحوالهم من الأعمال الجليلة التي تنفع العبد في حاله وماله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٥ - الشهادة في سبيل الله عَزَّجَلَّ:

ومما ينجي من عذاب البرزخ وفتنته: الشهادة في سبيل الله عَزَّجَلَّ، كما جاء في الحديث: عن راشد بن سعد، عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»^(٢).

(١) الحديث مروى عن ابن عباس، وعن أنس. حديث ابن عباس: أخرجه الترمذي [١٦٣٩] وقال: "حسن". حديث أنس: أخرجه أبو يعلى [٤٣٤٦]. قال الهيثمي (٢٨٨/٥): "رواه أبو يعلى والطبراني في (الأوسط) بنحوه، إلا أنه قال: «لا يريان النار». ورجال أبي يعلى ثقات". والحديث له طرق أخرى.
(٢) أخرجه النسائي في (السنن) [٢٠٥٣]، وفي (الكبرى) [٢١٩١]، وذكره الردواني في (جمع الفوائد) [٦١٢٨]، وسنده صحيح. انظر: كنز العمال [١١٧٤١]، [٥٩٥/٤-٥٩٦]، البيان والتعريف (١٤٠/٢)، وقد تقدم.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كفى ببارقة السيوف» أي: بلمعائها، قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: البارقة: لمعان السيف^(١). «على رأسه» يعني: الشهيد. «فتنة» فلا يفتن في قبره ولا يسأل؛ إذ لو كان فيه نفاق لفر عند التقاء الجمع، فلما ربط نفسه لله عَزَّجَلَّ في سبيله، ظهر صدق ما في ضميره، وظهره اختصاص ذلك بشهيد المعركة، لكن أخبار الرباط تؤذن بالتعميم. وقد تقدم أن الصديق كذلك لا يفتن في قبره.

وعن المقدم بن معدي كرب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «للشاهد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»^(٢).

وقد تقدم أن من خصائص الشهيد: أن «أرواحهم في جوف جوف طيرٍ حُضِرٍ، لها قناديلٌ معلقةٌ بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل» الحديث^(٣).

(١) قال الراغب: "البارقة والأبيرق: السيف، للمعانه" المفردات في غريب القرآن، مادة: (برق) (ص: ١١٩).
(٢) أخرجه أحمد [١٧١٨٢]، وابن ماجه [٢٧٩٩]، والترمذي [١٦٦٣]، واللفظ له، وقال: "حديث صحيح غريب"، وقد تقدم.

(٣) تقدم.

الدرر والاسرار في سبيل النجاة

الجزء الثاني

وجاء في الحديث: عن عتبة بن عبد السلمي - وكان من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يحدث، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «القتلى ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ حتى إذا لقي العدو قاتلهم حتى يقتل فذلك الشهيد الممتحن، في خيمة الله عَزَّوَجَلَّ، تحت عرشه، ولا يفضلُه النبيون إلا بفضل درجة النبوة، ورجل مؤمن قرف على نفسه من الذنوب والخطايا، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو قاتل حتى قتل، فتلك مَصْمُصَةٌ مَحَّتْ ذنوبه وخطاياها، إن السيف مَحَّاءٌ للخطايا، وأدخل من أيِّ أبواب الجنة شاء؛ فإن لها ثمانية أبواب، ولجهنم سبعة أبواب، وبعضها أفضل من بعض، ورجل منافق جاهد بنفسه وماله في سبيل الله، حتى إذا لقي العدو قاتل حتى قتل فذلك في النار، إن السيف لا يمحو النفاق»^(١).

(١) أخرجه الطيالسي [١٣٦٣]، وأحمد [١٧٦٥٧]، والدارمي [٢٤٥٥]، وابن أبي عاصم في (الجهاد) [١٣٢]، وابن حبان [٤٦٦٣]، واللفظ له، والطبراني في (الكبير) [٣١٠]، والبيهقي في (الكبرى) [١٨٥٢٣]، قال الهيثمي (٢٩١/٥): "رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال: «وأدخل من أي أبواب الجنة شاء، ولها ثمانية أبواب وبعضها أفضل من بعض». ورجال أحمد رجال الصحيح خلا المثنى الأملوكي، وهو ثقة". وقال الحافظ المنذري (٢٠٨/٢): "رواه أحمد بإسناد جيد، والطبراني، وابن حبان في (صحيحه)، واللفظ له، والبيهقي. و«المتحن» - بفتح الحاء المهملة - هو المشروح صدره، ومنه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣]، أي: شرحها ووسعها، وفي رواية لأحمد: «فذلك المفتخر في خيمة الله تحت عرشه» ولعله تصحيف. و«فرق» - بكسر الراء - أي: خائف وجزع. و«الممصصة» - بضم الميم الأولى وفتح الثانية وكسر الثالثة وبصادين مهملتين - هي: الممصصة المكفرة".

الدرر والاسباب النجاة والسبائك الناجعة حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

٦ - من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة:

وهو من الأمور التي تقع قَدَرًا، لا كَسَبًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. وقد ورد أن الموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة من أسباب الوقاية من عذاب البرزخ، كما روي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر»^(١).

(١) أخرجه أحمد [٦٥٨٢]، والترمذي [١٠٧٤]، وقال: "هذا حديث غريب، وليس إسناده متصل". قال الحافظ ابن حجر: "وفي إسناده ضعف، وأخرجه أبو يعلى من حديث: أنس نحوه، وإسناده أضعف" فتح الباري (٢٥٣/٣). ومن أهل العلم من حسن الحديث من مجموع طرقه. قال الإمام الزيلعي: "قلت: وصله الطبراني في (معجمه)، فرواه من حديث: ربيعة بن سيف، عن عياض ابن عقبة الفهري، عن عبد الله بن عمرو فذكره، وكذلك رواه أبو يعلى الموصلي في (مسنده)، وله طريق آخر: رواه أحمد وإسحاق بن راهويه في (مسنديهما)، والطبراني في (معجمه) من حديث: بقية، حدثني معاوية بن سعيد التميمي، سمعت أبا قبيل، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وفي فتنة القبر» انتهى. وكذلك رواه عبد بن حميد في (مسنده) سواء، والحديث الذي أشار إليه الترمذي رواه: أبو داود والنسائي، في (الجنائز): عن ربيعة بن سيف، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لفاطمة: «لعلك بلغت معهم الكدا» الحديث. وليس لربيعة غير هذين الحديثين، مع أن فيه مقالاً". تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف (٤/٢٠-٢١)، وانظر: المقاصد الحسنة، للسخاوي (ص: ٦٧١-٦٧٢)، المغني عن حمل الأسفار (ص: ٢١١)، التذكرة، لأبي عبد الله القرطبي (ص: ٤٢٢-٤٢٣). قال المناوي: "وصله الطبراني فرواه من حديث: ربيعة بن عياض عن عقبة بن ابن عمرو فذكره، وهكذا أخرجه أبو يعلى، والحكيم الترمذي متصلًا، وخرجه أبو نعيم متصلًا من =

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال في (المرقاة): "وهذا يدل على أن شرف الزمان له تأثير عظيم، كما أن فضل المكان له أثر جسيم" (١).

وقال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "اعلم رحمك الله أن هذا الباب لا يعارض ما تقدم من الأبواب، بل يخصصها، ويبين من لا يسأل في قبره، ولا يفتن فيه، ممن يجري عليه السؤال، ويقاسي تلك الأهوال، وهذا كله ليس فيه مدخل للقياس، ولا مجال للنظر فيه، وإنما فيه التسليم والانقياد لقول الصادق المرسل إلى العباد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (٢).
وقد قيل: إذا قبض الله عَزَّجَلَّ عبدًا من عبيده، فوافق قبضه يوم الجمعة كان ذلك دليلًا لسعادته، وحسن مآبه" (٣).

قال الحكيم الترمذي رَحِمَهُ اللهُ: "فمن مات يوم الجمعة انكشف الغطاء عما له عند الله عَزَّجَلَّ؛ لأن يوم الجمعة لا تسجر فيه جهنم، وتغلق أبوابها، فإذا قبض الله عَزَّجَلَّ عبدًا من عبيده يوم الجمعة كان دليل سعادته، وحسن مآبه عند الله عَزَّجَلَّ، فيوم الجمعة يوم الله عَزَّجَلَّ الذي خلق فيه آدم وذريته، ويومه الذي تقوم فيه الساعة، فيميز بين الأحاب والأعداء، ويومه الذي يدعوهم إلى زيارته في جنات عدن، فلم يكن يعطي

=حديث: جابر. فلو عزاه المؤلف -السيوطي- لهؤلاء كان أجود، ومع ذلك ضعفه المنذري" فيض
القدير (٤٩٩/٥).

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٠٢١/٣).

(٢) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، لأبي عبد الله القرطبي (ص: ٤٢٣).

(٣) انظر: نوادير الأصول في أحاديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٤/١٦٢)، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للسيوطي (ص: ١٥١)، اللمعة في خصائص الجمعة، للسيوطي (ص: ٦١)، مرقاة المفاتيح (١٠٢١/٣)، فيض القدير (٤٩٩/٥).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

بركة هذا اليوم إلا من كتب له السعادة عنده؛ فلذلك يقيه فتنة القبر، على أن سبب فتنة القبر إنما هو لتمييز المنافق من المؤمن في البرزخ، من قبل أن يلقي الله عزَّجَلَّ؛ لأن كلا الصنفين صَلَّى عليهما، وفعل بهما سنته في الموتى، من الغسل والتكفين، فامتحننا بالسؤال؛ ليهتك المنافق من ستره بقوله: «لا أدري»؛ إذ ستر الله عزَّجَلَّ عليه نفاقه بجرمة ما أظهر من المنطق الجميل، فقال: لا إله إلا الله، محمد رسول الله..^(١).

قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ: "ومن تنمة ذلك أن «من مات يوم الجمعة له أجر شهيد»^(٢)، فكان على قاعدة الشهداء في عدم السؤال، فقد ورد النص بأن الشهيد لا يسأل، فكأنَّ الميت يوم الجمعة، أو ليلتها على منواله^(٣).

وقال اليافعي رَحِمَهُ اللهُ في (روض الرياحين): بلغنا أن الموتى لم يعذبوا ليلة الجمعة تشريفا لهذا الوقت.

قال: ويحتمل ذلك بعصاة المسلمين دون الكفار^(٤).

(١) نوادير الأصول في أحاديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١٦٢/٤).

(٢) ساق السيوطي في ذلك أحاديث، ولكن لا يخلو واحد منها من ضعف. انظر: شرح الصدور (ص: ١٥١-١٥٣)، وانظر: مرقاة المفاتيح (١٠٢١/٣). فحديث: «من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر» رواه الترمذي، وقال: غريب، ولم يذكر الشهادة، ورواه غيره بهذا اللفظ، وزاد بعضهم: وليلة الجمعة. وقد تقدم تخريجه. وينظر التفصيل في (تخريج أحاديث الكشاف)، للزيلعي [١٣٤٤] (٢١-١٩/٤)، وفي (المقاصد الحسنة) لشمس الدين السخاوي (ص: ٦٧١-٦٧٢).

(٣) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص: ١٥١)، قوت المعتزدي على جامع الترمذي (١/٣٢٤).

(٤) شرح الصدور (ص: ١٨١)، اللمعة في خصائص الجمعة، للسيوطي (ص: ٦٢).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقد قيل - كما في (بحر الكلام) -: "إن المسلم العاصي يعذب في قبره، ولكن يرفع عنه يوم الجمعة وليلتها، ثم لا يعود إليه إلى يوم القيامة، وإن مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة يكون له العذاب ساعة واحدة وضغطة القبر كذلك، ثم ينقطع عنه العذاب ولا يعود إليه إلى يوم القيامة"^(١).

٧ - المحافظة على قراءة سورة الملك والعمل بها:

ومما ينجي من العذاب في البرزخ: ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهي سورة تبارك الذي بيده الملك»^(٢).
وقد روي أنها المانعة والمنجية من عذاب القبر^(٣).

(١) بحر الكلام، لميمون بن محمد النسفي (ص: ٢٥١)، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص: ١٨١).
(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في (مسنده) [١٢٢]، وأحمد [٧٩٧٥]، وعبد بن حميد [١٤٤٣]، وابن ماجه [٣٧٨٦]، وأبو داود [١٤٠٠]، والترمذي [٢٨٩١]، وقال: "حديث حسن"، والبزار [٩٥٠٤]، ومحمد بن نصر المروزي في (مختصر قيام الليل) (ص: ١٦٣)، والنسائي في (الكبرى) [١٠٤٧٨]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٧١٠]، وابن حبان [٧٨٧]، وابن السني في (عمل يوم وليلة) [٦٨٣]، والحاكم [٢٠٧٥]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٢٢٧٦]، وفي (إثبات عذاب القبر) [١٥١].
(٣) انظر: نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار، لابن حجر (٥٣/٥). تفسير ابن كثير (١٧٥/٨)، الدر المنثور (٢٣١/٨)، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (٣٠/٢)، تنوير الحوالك شرح موطأ مالك (١٦٤/١)، فيض القدير (٤٥٣/٢)، مسند عبد بن حميد [٦٠٣]، المستدرک [٢٠٧٦]، المعجم الكبير، للطبراني [١١٦١٦]، [١٢٨٠١].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقد ورد ذلك في روايات متعددة ساقها السيوطي رَحِمَهُ اللهُ في (الدر المنثور)، وقال: في (تنوير الحوالك): "وعرف من مجموعها" أنها تجادل عنه في القبر، وفي القيامة معاً؛ لتدفع عنه العذاب، وتدخله الجنة"^(١).

و«شفعت» بمعنى: تشفع، وفي رواية أبي داود رَحِمَهُ اللهُ: «تشفع»^(٢).

وقال العلامة المظهري رَحِمَهُ اللهُ: "قوله: «شفعت لرجل»، هذا يحتمل أن يكون قد مضى في القبر؛ يعني: كان رجل يقرأ سورة الملك، ويعظم قدرها، فلما مات شَفِعت له حتى دُفِعَ عنه عذابُ القبر.

ويحتمل أن يكون الماضي هنا بمعنى: المستقبل؛ أي: تشفع لمن قرأها"^(٣).

وقد دلَّ هذا الحديثُ على أنَّ من حافظَ على قراءة (سورة الملك)، وداومَ على ذلك، وعَمِلَ بها فإن ذلك من أسباب النجاة من العذاب في البرزخ.

"وخصت بذلك؛ لافتتاحهما بخلق الحياة، وختمها بالماء الذي هو سبب الحياة، فأنتجت الشفاعة التي هي سبب الحياة الكاملة للمشفوع له، وأيضاً افتتاحها بعظام عظمتها، ثم بباهر قدرته وإتقان صنعته، ثم بدم من نازع في ذلك أو أعرض عنه، ثم بذكر عقابهم وما له عليهم من النعيم، ثم ختمها بما اختصها به من بين سائر السور،

(١) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك (١/١٦٤)، الدر المنثور (٨/٢٣١).

(٢) سنن أبي داود [١٤٠٠].

(٣) المفاتيح في شرح المصايح (٣/٩٢).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وهو الإنعام بالماء المعين الذي هو سبب الحياة المناسب لذلك، لكنه أثمر المعافاة عن سوء القطيعة بتشفيح هذه السورة في قارئها، وجعلها مانعة عنه منجية له^(١).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ: ﴿الْمَ

تَنَزِيلٌ﴾ السجدة، وَ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾»^(٢).

٨ - من أصيب بداءٍ في بطنه فكان سبباً في موته:

ومما ينجي من عذاب البرزخ: من يقتله بطنه، كما صحَّ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أنه قال: «من قتل بطنه لم يعذب في قبره»، وفي لفظ: «من يقتله بطنه، فلن يعذب في قبره»^(٣).

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٤٩٧/٦).

(٢) أخرجه ابن الجعد [٢٦١١]، وابن أبي شيبة [٢٩٨١٦]، وأحمد [١٤٦٥٩]، وعبد بن حميد [١٠٤٠]، والدارمي [٣٤٥٤]، والبخاري في (الأدب المفرد) [١٢٠٧]، والترمذي [٢٨٩٢]، ومحمد بن نصر المروزي في (مختصر قيام الليل) (ص: ١٦٣)، والنسائي في (الكبرى) [١٠٤٧٦]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٧٠٨]، والخراطي في (مكارم الأخلاق) [٩٥١]، والطبراني في (الصغير) [٩٥٣]، والحاكم [٣٥٤٥]، وقال: "صحيح على شرط مسلم" ووافقه الذهبي، كما أخرجه تمام [١٥٣٢]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٢٩/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٢٢٨]، والبغوي في (شرح السنة) [١٢٠٧].

(٣) الحديث أخرجه غير واحد عن خالد بن عرفة وسليمان بن سرد. وقد أخرجه الطيالسي [١٣٨٤]، وابن أبي شيبة [٨٦٨]، وأحمد [١٨٣١٠]، والترمذي [١٠٦٤]، وقال: "حسن غريب في هذا الباب، وقد روي من غير هذا الوجه". كما أخرجه النسائي في (السنن) [٢٠٥٢]، وفي (الكبرى) [٢١٩٠]، وابن قانع (٢٨٩/١)، وابن حبان [٢٩٣٣]، والطبراني في (الكبير) [٤١٠١] وقد =

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وهذا يحمل من أصيب بداءٍ في بطنه على أن يصبرَ ولا يجزعَ، وأن يحتسبَ الأجر عند الله عزَّ وجلَّ. قال العلامة المظهري رحمه الله: "قوله: «من قتلَه بطنُه لم يُعذَّب»، يعني: مَنْ مات لوجع البطن لم يُعذَّب في القبر، ولعل سببه: أن وجع البطن شديد يكون كفارة لذنوبه، فلا يكون له عذاب في القبر" (١).

قال العلامة المناوي رحمه الله: "وإذا لم يعذب فيه لم يعذب في غيره؛ لأنه أول منازل الآخرة، فإن كان سهلاً فما بعده أسهل" (٢).

وقال الطيبي رحمه الله: "قوله: «من قتلَه بطنُه» هو من الاستعارة التبعية، كما في

قول الشاعر:

***قتلَ البخلَ وأحيا السماحا (٣)

=أخرجه فيه من غير وجه، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٤١٧]، وفي (إثبات عذاب

القبر) [١٥٢].

(١) المفاتيح في شرح المصابيح (٤١١/٢).

(٢) فيض القدير (١٩٣/٦).

(٣) وهو من قول ابن المعتز، والشطر الأول: (جُمعَ الحقُّ لنا في إمامٍ ***). ديوان ابن المعتز (ص: ١٤١).

فقوله: (قتلَ البخلَ..). شبه البخل بالحي، فحذف المشبه به على سبيل المكنية، ونسبة القتل له قرينة.

وقوله: (وأحيا السماحا) السماح: استعارة بالكناية، و(وأحيا) قرينة. والشاهد فيه: مدار قرينة الاستعارة

التبعية على المفعول؛ فإن (القتل) و(الإحياء) الحقيقيين لا يتعلقان بالبخل والجود؛ لأنهما من المعاني

لا روح لهما، والقتل والإحياء إنما يتعلقان بالجسم ذي الروح فعدم صحة تسلط القتل على البخل،

والإحياء على الجود دليل على أن المراد بالقتل معنى يناسب البخل، وأن المراد بالإحياء معنى يناسب

الجود، والمناسب للأول: الإزالة، أي: أزال البخل، فشبه إزالة البخل بالإماتة، بجامع: اقتضاء كل

منهما إعداداً لما تعلق به، بحيث لا يظهر ذلك المتعلق في كلِّ، واستعير اسم المشبه به للمشبه، واشتق =

الدرر والاسرار النجاة والسائل الناجع حيا طيبنا فعتا

الجزء الثاني

شبه ما يلحق المبطون من إزهاق نفسه به بما يزهد النفس بالمحددات ونحوها،
والقرينة نسبة القتل إلى البطن^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خمس من قبض في شيء منهن فهو شهيد: المقتول في سبيل الله شهيد، والغرق في سبيل الله شهيد، والمبطون في سبيل الله شهيد، والمطعون في سبيل الله شهيد، والنفساء في سبيل الله شهيد»^(٣).

وعن ربيع الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادَ ابْنَ أَخِي جَبْرِ الْأَنْصَارِيِّ، فَجَعَلَ أَهْلَهُ يَبْكُونَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ جَبْرٌ: لَا تَوْذُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَصْوَاتِكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعْنَهُنَّ فَلْيَبْكِينَ مَا دَامَ حَيًّا، فَإِذَا وَجَبَ فَلْيَسْكُنَنَّ»، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا كُنَّا نَرَى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ عَلَى فِرَاشِكَ حَتَّى تَقْتَلَ فِي

=من (القتل): قتل بمعنى: أزال. والمناسب للثاني: الإكثار، أي: وأكثر السماحا، فشبه الإكثار بالإحياء
بجامع ظهور المتعلق في كل، واستعير اسم المشبه به للمشبه، واشتق من (الإحياء): أحيى بمعنى: أكثر
على طريق الاستعارة التصريحية التبعية" حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (٣/٣٦٦).

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٣٥٣).

(٢) صحيح البخاري [٦٥٣، ٧٢٠، ٢٨٢٩]، مسلم [١٩١٤].

(٣) أخرجه ابن المبارك في (الجهاد) [١٩٨]، والنسائي في (السنن) [٣١٦٣]، وفي (الكبرى) [٤٣٥٦]،
وأبو عوانة [٧٤٧٦]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٥١٠٥]، والطبراني في (الكبير) [٩٠٠].

الدرر والاسرار في سبيل النجاة

الجزء الثاني

سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْ مَا الشَّهَادَةُ إِلَّا فِي الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذْنٌ لِقَلِيلٍ، إِنَّ الطَّعْنَ وَالطَّاعُونَ شَهَادَةٌ، وَالْبَطْنَ شَهَادَةٌ، وَالنَّفْسَاءُ بِجُمُعٍ شَهَادَةٌ، وَالْحَرْقُ شَهَادَةٌ، وَالْغَرَقُ شَهَادَةٌ، وَالْهَدْمُ شَهَادَةٌ، وَذَاتَ الْجَنْبِ شَهَادَةٌ»^(١).

وفي (موطأ الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ): عن جابر بن عتيك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الشهداء سبعة، سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغرق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، والحرق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بِجُمُعٍ شهيد»^(٢).

وأما المبطون فهو صاحب داء البطن، وهو الإسهال.

وقيل: هو الذي به الاستسقاء وانتفاخ البطن. وعبارة ابن التين رَحِمَهُ اللهُ: أنه الذي

يكون به بطن منخرق، ويسمى: الاستسقاء

وقيل: هو الذي تشتكي بطنه.

وقيل هو الذي يموت بداء بطنه مطلقاً.

(١) أخرجه الطبراني في (الكبير) [٤٦٠٧]، قال الحافظ المنذري (٢/٢١٩): "رواه الطبراني، ورواته محتج بهم

في الصحيح". وقال الهيثمي: (٥/٣٠٠): "رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح".

(٢) الموطأ، للإمام مالك [٨٠٢]. قال ابن عبد البر: "هكذا هو عند يحيى، وجماعة من رواة الموطأ في كتاب

الجنائز، وليس عند القعني في كتاب الجنائز، وهو عنده في كتاب الجهاد" الاستذكار (٢/٥٣٦).

وقال: "هكذا رواه جماعة الرواة عن مالك فيما علمت لم يختلفوا في إسناده ومثله التمهيد لما في

الموطأ من المعاني والأسانيد (١٩/٢٠٣). قال الإمام النووي: "وهذا الحديث الذي رواه مالك صحيح

بلا خلاف، وإن كان البخاري ومسلم لم يخرجاه" شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/٦٢).

الدراسات والأساليب النحوية

والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

الجزء الثاني



وأما الغرق فهو الذي يموت غريقاً في الماء.
وصاحب الهدم: من يموت تحته.
وصاحب ذات الجنب معروف، وهي: قرحة تكون في الجنب باطنًا.
والحريق: الذي يموت بحريق النار^(١).
قال في (النهاية): "هو الذي يموت بمرض بطنه، كالاتسقاء^(٢)، ونحوه"^(٣).
وفي كتاب (الجنائز)، لأبي بكر المروزي عن شيخه شريح: أنه صاحب القولنج^(٤).
وقال غيره: هو صاحب الإسهال^(٥).

-
- (١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٦٢/١٣-٦٣)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣٤٤/٦)،
التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن (٤٥٩/١٧)
- (٢) الاستسقاء قيل: "هو عبارة عن تجمع سائل مصلي في التجويف البريتوني لا يكاد يبرأ منه" المعجم
الوسيط مادة: (سقى)، (٤٣٧/١)، و"التجويف البريتوني": هو غشاء مصلي يبطن جوف البطن،
ويتكون من طبقتين: جدارية وحشوية. وهو نسيج رابط. وعمله هو الحفاظ على الأحشاء الداخلية
في البطن، وإيصال الدم والسائل اللمفي والأعصاب إليها. ويسمى (الصفاق) انظر: الموسوعة
العربية العالمية (التهاب الصفاق).
- (٣) النهاية في غريب الحديث، مادة: (بطن) (١٣٦/١).
- (٤) انظر: تنوير الحوالك (١٨٢/١)، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (١٠٤/٢). و"القولنج": مرض
معوي مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح، وسببه التهاب القولون. والقولون: المعى الغليظ الضيق
الذي يتصل بالمستقيم" المعجم الوسيط (٧٦٧/٢).
- (٥) انظر: تحقيقنا لمنظومتي الشهداء: (داعي الهدى)، لأحمد المغربي، و(شرح منظومة الشهداء)، للأجهوري
(ص: ٨٨-٩٨).

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

قال ابن عابدين رَحِمَهُ اللهُ: "واختلف فيه، هل المراد به الاستسقاء أو الإسهال؟ قولان، ولا مانع من الشمول"^(١).
وقال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من يقتله بطنه» فيه قولان:

أحدهما: أنه الذي يصيبه الذرب، وهو الإسهال، تقول العرب: أخذته البطن: إذا أصابه الداء، وذرب الجرح: إذا لم يقبل الدواء، وذربت معدته: فسدت.
الثاني: أنه الاستسقاء، وهو أظهر القولين فيه؛ لأن العرب تنسب موته إلى بطنه، تقول: قتله بطنه، يعنون: الداء الذي أصابه في جوفه، وصاحب الاستسقاء قلَّ أن يموت إلا بالذرب فكأنه قد جمع الوصفين وغيرهما من الأمراض، والوجود شاهد للميت بالبطن أن عقله لا يزال حاضرًا، وذهنه باقياً إلى حين موته.
ومثل ذلك: صاحب السل.."^(٢).

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بجمع»: -بتثليث الجيم وإسكان الميم- قال ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ: "وأما المرأة تموت بجمع، ففيه قولان:

أحدهما: المرأة تموت من الولادة وولدها في بطنها قد تم خلقه.
وقيل: إذا ماتت من النفاس فهو شهيد، سواء أَلقت ولدها وماتت، أو ماتت وهو في بطنها.

(١) حاشية رد المحتار (٢/٢٥٢).

(٢) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص: ٤٢٥).

الدرر والاسرار في النجاة

الجزء الثاني

والقول الثاني: هي المرأة تموت عذراء قبل أن تحيض لم يمسه الرجال.
والأول أشهر في اللغة" (١).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "وحقيقة الجُمع والجِمع أنهما بمعنى: المفعول كالذخر والذبح. ومنه قولهم: ضربه بجمع كفه، أي: بمجموعها، وأخذ فلان بجمع ثياب فلان. فالعنى: ماتت مع شيء مجموع فيها غير منفصل عنها: حملاً أو بكاراً" (٢).
وقال ابن عابدين رَحِمَهُ اللهُ: "وكسر الكسائي رَحِمَهُ اللهُ الجيم. وقد تفتح الجيم أيضاً على قلة" (٣).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "وأما المرأة تموت بجمع فهو بضم الجيم وفتحها وكسرها، والضم أشهر. قيل: التي تموت حاملاً جامعة ولدها في بطنها. وقيل: هي البكر، والصحيح الأول" (٤).

وفي (أحكام الجنائز)، لإبراهيم بن يوسف البولوي رَحِمَهُ اللهُ: "فإن قيل فما وجه الجمع بين ما جاء في (الصحيحين)، وبين ما جاء في (موطأ الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ)؟

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٤٤/٥)، وانظر: الاستدكار (٦٩/٣)، التمهيد (٢٠٧/١٩)، الميسر في شرح مصابيح السنة (٣٧٨/٢)، وانظر: تحقيقنا لجامع الهدى بشرح منظومة الشهداء، لأحمد بن عبد الرزاق المغربي الرشدي [٢-٣]، (ص: ٣٧-٤٤).

(٢) الفائق في غريب الحديث والأثر (١/٢٣٢).

(٣) حاشية رد المحتار (٢/٢٥٢)، وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٣٤٨).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/٦٣).

الدرر السابغ إلى سبيل النجاة

الجزء الثاني

فالجواب: أنه يحتمل أن يكون عدد الشهداء وقت صدور الحديث محصوراً على خمسة، ثم يتفضل الله رَحْمَةً اللهُ، بالزيادة..^(١) أو يقال بأن ذلك لم يكن على سبيل المحصر. وقد تقدم أن عدم السؤال في البرزخ لهؤلاء إنما هو من الجري على قاعدة أن الشهداء لا يسألون.

وقد تقدم قول الإمام التُّورِيشِي رَحْمَةً اللهُ، وقول العلامة الطيبي رَحْمَةً اللهُ في أن من تقدم ذكره ممن أطلق عليه مسمى: (الشهيد) حكماً: أنه إنما يشارك الشهداء في نوع من أنواع المثوبات التي يستحقها الشهداء، ولم يرد به المساواة في سائر أنواع الفضيلة. فمن مات بالطاعون أم بوجع في البطن -مثلاً- فإنه ملحق بمن قتل في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ؛ لمشاركته إياهم في بعض ما ينال من الكرامة، بسبب ما كابده من الشدة، لا في جملة الأحكام والفضائل.

٩ - المحافظة على أداء العبادات، وفعل الخيرات:

ومما ينبغي من عذاب البرزخ: ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِن المِيتَ إِذَا وَضِعَ فِي قَبْرِهِ إِنَّهُ يَسْمَعُ خَفَقَ نَعَالِهِمْ حِينَ يُولُونَ عَنْهُ فَإِن كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَكَانَ الصِّيَامُ عَنْ يَمِينِهِ، وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَنْ شِمَالِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ، وَالصَّلَةِ، وَالْمَعْرُوفِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ.

(١) انظر: تحقيقنا لأحكام الجنائز، لإبراهيم بن يوسف البولوي (ص: ٣٤٦-٣٤٧).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجله فتقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل».

واللفظ عند الطبراني في (الأوسط): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والذي نفسي بيده، إنه ليسمع خفق نعالم حين يولون عنه، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصوم عن شماله، وفعل الخيرات والمعروف والإحسان إلى الناس من قبل رجله، فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ليس قبلي مدخل، فيؤتى عن يمينه، فتقول الزكاة: ليس من قبلي مدخل، ثم يؤتى عن شماله، فيقول الصوم: ليس من قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجله، فيقول فعل الخيرات والمعروف والإحسان إلى الناس: ليس من قبلي مدخل»^(١).

وقد دلت الأحاديث على أنَّ الصلاة، والزكاة، والصيام، وفعل الخيرات: من الصدقة، والصلة، وصنائع المعروف، والبر، والإحسان إلى الناس من أسباب النجاة من عذاب القبر وكرهه وفتنه.

(١) أخرجه عبد الرزاق في (المصنف) [٦٧٠٣]، وابن أبي شيبة [١٢٠٦٢]، وابن حبان [٣١١٣]، والطبراني في (الأوسط) [٢٦٣٠]، والحاكم [١٤٠٣]، والبيهقي في (إثبات عذاب القبر) [٦٧]، قال الهيثمي (٥٢- ٥١/٣): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وإسناده حسن"، وقد تقدم.

الدرر السنية إلى سبب النجاة

الجزء الثاني

١٠ - تحقيق التقوى لله عَزَّوَجَلَّ:

والجامع لما تقدم من أسباب الوقاية والنجاة من عذاب البرزخ: تحقيق التقوى لله عَزَّوَجَلَّ، بأداء ما أوجبه، وترك ما حرَّمه، والإكثار من التوبة والاستغفار، والنوافل، وفضائل الأعمال؛ فإن التقوى: صيانة للمرء عما يضره في الآخرة.

١١ - الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ من عذاب القبر:

تقدّم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يكثر من الاستعاذة من عذاب القبر في الصلاة وخارجها، مبيناً لأُمَّته أهمية هذا الدعاء، وأن الحرص على الدعاء، والالتجاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم الأسباب التي تنجي العبد من عذاب القبر وفتنته، ومن أعظم الأسباب المنجية من النوازل، والآفات، والأهوال.

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحرص بالغ الحرص على تعليم أُمَّته الدعاء الجامع لخيري الدنيا والآخرة، وعلى الاستعاذة من شرور وآفات قد تصيب المسلم؛ ليعصمهم الله عَزَّوَجَلَّ منها.

١٢ - خلاصة نافعة في ذكر أنواع الشهادة الحكيمة:

قالوا: الشهيد على ثلاثة أقسام:

الأول: شهيد الدنيا والآخرة.

والثاني: شهيد الدنيا.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

والثالث: شهيد الآخرة.

فشهيد الدنيا والآخرة هو الذي يقتل في قتال مع الكفار، مقبلاً غير مدبر؛ لتكون كلمة الله عَزَّوَجَلَّ هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، دون غرض من أغراض الدنيا.

قال في (المجموع): "واعلم أن الشهداء ثلاثة أقسام:

أحدها: شهيد في حكم الدنيا: وهو ترك الغسل والصلاة، وفي حكم الآخرة بمعنى: أن له ثواباً خاصاً، وهم أحياء عند ربهم يرزقون، وهذا هو الذي مات بسبب من أسباب قتال الكفار قبل انقضاء الحرب.

والثاني: شهيد في الآخرة دون الدنيا: وهو المبطون، والمطعون، والغريق، وأشباههم.

والثالث: شهيد في الدنيا دون الآخرة، وهو المقتول في حرب الكفار، وقد غلَّ من الغنيمة، أو قتل مدبراً أو قاتل رياء ونحوه، فله حكم الشهداء في الدنيا دون الآخرة"^(١).

وقال الخطيب رَحِمَهُ اللهُ فِي (المغني): وأما شهيد الآخرة: كالمقتول ظلماً من غير قتال، والمبطون إذا مات بالبطن، والمطعون إذا مات بالطاعون، والغريق إذا مات

(١) المجموع شرح المذهب (٢٦٤/٥)، وانظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٤٢/٥)، عمدة القاري (١٧٢/٥)، حاشية البجيرمي على الخطيب (٢٨١/٢)، فتح المعين (ص: ٢٢٦)، نهاية الزين (ص: ١٦١).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

بالغرق، والغريب إذا مات في الغربة، وطالب العلم إذا مات على طلبه، أو مات عشقاً، أو بالطلق، أو بدار الحرب، أو نحو ذلك. واستثنى بعضهم من الغريب: العاصي بغربته، كالأبق والناشزة. ومن الغريق: العاصي بركوبه البحر، كأنه كان الغالب فيه عدم السلامة أو استوى الأمران أو ركبه لشرب خمر. ومن الميتة بالطلق: الحامل بزنا. والظاهر كما قال الزركشي رَحِمَهُ اللهُ فيما عدا الأخيرة، وفي الأخيرة أيضاً أن ما ذكر لا يمنع الشهادة^(١).

ومن أنواع الشهادة الحكيمة: صاحب ذات الجنب - كما تقدم -، والحرق، والهدم، والموت بسبب السِّلِّ، ومن افترسه السبع، ومن صرع عن دابته في سبيل الله عَزَّجَلَّ، ومن وقصته فرسه أو بعيره وهو في سبيل الله عَزَّجَلَّ، ومن لدغته هامة وهو في سبيل الله عَزَّجَلَّ، ومن قتل دون أهله، ودون ماله، ودون دمه، ودون دينه، ودون مظلمته، والمائد في البحر، ومن سأل الشهادة بصدق، ومن قام إلى إمام جائر فأمره بمعروف، ونهاه عن منكر فقتله بسبب ذلك، والشريق، ومن تردى من رؤوس الجبال، والتمسك بالسنة في وقت الفتن، ومن دعا بدعوة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في مرضه، والموت بعد المواظبة على قيام رمضان، ومن قتله الخوارج.

(١) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٣٥/٢)، وانظر: تحفة المحتاج، لابن حجر الهيتمي (١٦٦/٣).

المرثاة والسبب النجاة

الجزء الثاني

والمرث، وهو من حمل من المعركة مستقر الحياة، بأن تكلم، أو أكل أو شرب، أو نام، أو باع أو ابتاع، أو طال بقاؤه عرفاً، ثم مات بعد ذلك. قال الجوهرى رَحِمَهُ اللهُ: "الرث: الشيء البالي، وجمعه: رثا. وقد رث الحبل وغيره يرث رثاثة. وفلان رث الهيعة، وفي هيئته رثاثة، أي: بذاذة. وأرث الثوب، أي: أخلق. قال: وأرثت فلان، وهو افتعل على ما لم يُسم فاعله، أي: حمل من المعركة رثيثا، أي: جريحا وبه رمق"^(١). والارتثا في اللغة من الإرث، وهو الشيء البالي، وسمي به مرتثا؛ لأنه قد صار خلقا في حكم الشهادة.

وقيل: مأخوذ من التريث، وهو الجرح.

وفي بعض كتب اللغة: ارتث فلان، أي حمل من المعركة رثيثا، أي: جريحا. وسمي مرتثا؛ لأنه صار خلقا في حكم الشهادة بما كلف به من أحكام الدنيا، أو وصل إليه من منافعها بعد انقضاء الحرب، فسقط حكم الدنيا، وترك الغسل، فيغسل، وهو شهيد في حكم الآخرة له ثواب الموعود للشهداء.

قال في (البدائع): "ثم المرث وإن لم يكن شهيدا في حكم الدنيا فهو شهيد في حق الثواب حتى إنه ينال ثواب الشهداء كالغريق، والحريق، والمبطون، والغريب إنهم شهداء بشهادة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم بالشهادة، وإن لم يظهر حكم شهادتهم في الدنيا"^(٢).

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (رث) (٢٨٢/١-٢٨٣).

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٣٢٢/١)، وانظر: مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر (١٨٩/١)، العناية شرح الهداية (١٤٨/٢)، مراقي الفلاح (ص: ٢٣١-٢٣٢)، حاشية الطحطاوي على مراقي =

الدر المنثور في السبل إلى النجاة

الجزء الثاني

وفي (الدر المختار): "فالمرثت شهيد الآخرة، وكذا الجنب ونحوه، ومن قصد العدو فأصاب نفسه، والغريق، والحريق، والغريب، والمهدوم عليه، والمبطون، والمطعون، والنفساء، والميت ليلة الجمعة، وصاحب ذات الجنب، ومن مات وهو يطلب العلم"^(١). وإذا استشهد الجنب غسل عند أبي حنيفة رَحْمَةُ اللَّهِ، وقالوا: لا يغسل، وبه قال الشافعي وأشهب رَحْمَةُ اللَّهِ^(٢).

و"أطلق الشهيد بطريق الاتساع على الغريق، والحريق، والمبطون، وطالب العلم، والمطعون، والغريب، وذات الطلق، وذات الجنب وغيرهم مما كان لهم ثواب المقتولين، كما أشير إليه في (المبسوط) وغيره، بَيَّنَّ الشهيد الحقيقي شرعاً، وهو الشهيد في أحكام الدنيا"^(٣).

وفي (المغني): "فأما من قتل ظلماً، أو قتل دون ماله، أو دون نفسه وأهله، ففيه روايتان:

=الفلاح (ص: ٦٢٦-٦٢٨)، العناية شرح الهداية (٢/١٤٦-١٤٧)، البناية على الهداية (٣/٢٦٤)، البحر الرائق (٢/٢١٣).

(١) رد المختار على الدر المختار (٢/٢٥٢).

(٢) البناية شرح الهداية (٣/٢٦٤)، وانظر: العناية شرح الهداية (٢/١٤٦)، منحة الخالق، لابن عابدين (٢/١٨٥).

(٣) مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر (١/١٨٨)، وانظر: المبسوط، لشمس الأئمة السرخسي (٢/٥١).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

إحدهما: يغسل. اختارها الخلال رَحْمَةُ اللَّهِ، وهو قول الحسن رَحْمَةُ اللَّهِ، ومذهب الشافعي ومالك رَحْمَتَا اللَّهِ؛ لأن رتبته دون رتبة الشهيد في المعتك، فأشبهه المبطون؛ ولأن هذا لا يكثر القتل فيه، فلم يجر إلحاقه بشهداء المعتك.

والثانية: لا يغسل، ولا يصلى عليه. وهو قول الشعبي والأوزاعي وإسحاق رَحْمَةُ اللَّهِ في الغسل؛ لأنه قتل شهيداً، أشبه شهيد المعتك، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قتل دون ماله فهو شهيد»^(١).

فأما الشهيد بغير قتل، كالمبطلون، والمطعون، والغرق، وصاحب الهدم، والنفساء، فإنهم يغسلون، ويصلى عليهم، لا نعلم فيه خلافاً، إلا ما يحكى عن الحسن رَحْمَةُ اللَّهِ: لا يصلى على النفساء؛ لأنها شهيدة..^(٢).

وفي (الإقناع): "ومن قتل مظلوماً حتى من قتله الكفار صبراً في غير الحرب ألحق بشهيد المعركة، والشهداء غير شهيد المعركة بضعة وعشرون: المطعون، والمبطلون، والغريق، والشريق، والحريق، وصاحب الهدم، وذات الجنب، والسل، وصاحب اللقوة^(٣)، والصابر في الطاعون، والمتردي من رؤس الجبال، ومن مات في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، [كمن مات في الحج، ومن مات في طلب العلم]."

(١) تقدم.

(٢) المغني، لابن قدامة (٣/٣٩٩).

(٣) - بلام مفتوحة، ففاف ساكنة-: داء يصيب الوجه، يعوج منه الشدق - كما في (العين)، مادة: (لقو) (٥/٢١٢)، وتهديب اللغة (٩/٢٢٧). وفي (مقاييس اللغة) (٥/٢٦٠): "داء يأخذ في الوجه يَعْوِجُ منه"، وقال المناوي: "مرض يعرض للوجه فيميله إلى أحد جانبيه، مرض ينحذب له شق الوجه إلى =

الدراسة والسبيل إلى النجاة والسائر في التاجعة حياة طيبة نافعة



الجزء الثاني



ومن طلب الشهادة بنية صادقة، وموت المرابط، وأمناء الله عزَّجَلَّ في الأرض، والمجنون، والنفساء، واللديغ، ومن قتل دون ماله، أو أهله، أو دينه، أو دمه، أو مظلمته، وفريس السبع، ومن خرَّ عن دابته. ومن أغربها: موت الغريب، وأغرب منه: العاشق إذا عف وكنتم...^(١). فهم شهداء في ثواب الآخرة، لا في أحكام الغسل والصلاة. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "وكلُّ متجرّد لله عزَّجَلَّ في جهاد نفسه فهو شهيد، مهما أدركه الموت، مقبلاً غير مدبر، فالمجاهد من جاهد نفسه وهواه، كما صرح به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والجهاد الأكبر: جهاد النفس، كما قال بعض الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر يعنون: جهاد النفس"^(٢).

وقد جاء بسط ذلك في مظانه.

وقد ذكر الإمام جلال الدين السيوطي رَحِمَهُ اللهُ في رسالة له بعنوان: (أبواب السعادة، في أسباب الشهادة) أنواعاً كثيرة من الشهادة الحكمية^(٣)، وجاء كذلك ذكر أنواع الشهادة الحكمية كذلك في تحقيقنا لشرح منظومتي الشهداء، (داعي الهدى

=جهة غير طبيعية، ولا يحسن التقاء الشفتين، ولا ينطبق إحدى العينين" التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٢٩١).

(١) الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (٢١٩/١)، وانظر: كشاف القناع (١٠١/٢).

(٢) إحياء علوم الدين (٢/٢٤٤) وانظر: مختصر منهاج القاصدين (ص: ١١٨).

(٣) كتاب: أبواب السعادة في أسباب الشهادة، لجلال الدين السيوطي، طبع في المكتبة القيمة، القاهرة، ط: ٢، سنة [١٤٠٧هـ].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

بشرح منظومة الشهداء)، لأحمد بن عبد الرزاق المغربي الرشيدي رَحِمَهُ اللهُ، و(شرح منظومة الشهداء)، لعلي بن محمد الأجهوري رَحِمَهُ اللهُ

قال القاري رَحِمَهُ اللهُ في (المرفاة): "وقد جمع شيخ مشايخنا الحافظ جلال الدين السيوطي رَحِمَهُ اللهُ ما ورد من أنواع الشهادة الحكيمة في كراسة منهم: الغريق، والحريق، والمهدوم، والغريب، والمرابط، ومن مات يوم الجمعة، أو ليلته، وغير ذلك.."^(١).

(١) مرقاة المفاتيح (٦/٢٤٦٩).

الدراسة في أسباب النجاة وَالْوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً



الجزء الثاني



المبحث الحادي عشر:

أسباب السعادة

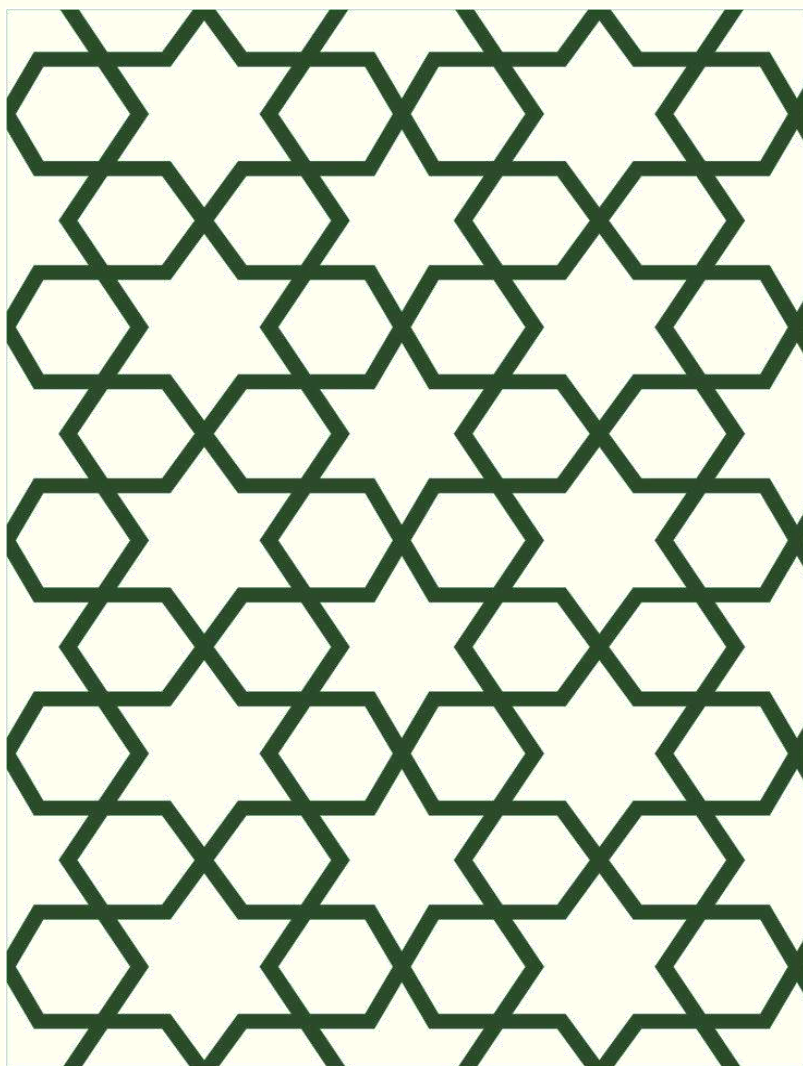
وتفاوت مراتبها

الإرشاد إلى أسباب النجاة
والوسائد التي جعلت حياة طيبة نافعة



الجزء الثاني

الإرشاد إلى أسباب النجاة



الدراسة السبيل إلى السعادة والرفاهية

الجزء الثاني



أولاً: الحياة الطيبة، والسعادة الرضية مطلب ينشده كل البشر:
إن الحياة الطيبة، والسعادة الرضية مطلب ينشده كل البشر، وهي ثمرة من ثمار
الاستقامة في الاعتقاد والعمل، المبني على نهج سليم.
وقليل من الملتزمين سبل السعادة، والساعين إلى الحياة الطيبة، من يسلك
طريقها القويم، وينهج نهجها السليم، من الأخذ بأسبابها، دون زيغ أو تعثر.
ولقد ضلَّ كثير من الناس طريق السعادة، فسلكوا طرقاً ملتوية، فظلت نفوسهم
حائرة، وانقضت أعمارهم في أوهام، ومتاهات، فباؤوا في دنياهم وفي الآخرة: بالصَّفقة
الكاسدة الخاسرة، قال الله عزَّجَل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً
مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
الظَّمْثَانِ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وقد توهم كثير من الناس أن السعادة في كثرة المال والبنون، ومنهم من يرى أنها
في الملك أو المنصب والشهرة والجاه.. إلى غير ذلك، فبذل في سبيل كل سعيه، فما
أدرك من بعد ذلك إلا سعادة زائفة، أشبه بالسراب.
وفي كتاب الله عزَّجَل نماذج ممن ضل سعيهم في الحياة الدنيا، فكانوا من الخاسرين،
قال الله عزَّجَل: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].
وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقد أخبر الله عَزَّجَلَّ عن فرعون وكيف أغواه ملكه، وعن قارون وكيف أشقاه ماله، وعن هامان وكيف أرداه جاهه وسلطانه.

وكم لنا في الآفاق من عبرة عن سوء خاتمة من بلغ من الشهرة منزلة عالية، ولكنه عاش في حياته مخذولاً، وظن كثيرون أنه من السعداء، وهو في غاية البؤس الشقاء، ثم مات ميتة سوء، فخرس الدنيا والآخرة.

أَيْنَ الْمَلُوكِ ذَوِي التَّيْجَانِ مِنْ يَمَنِ
وَأَيْنَ مَنْهُمُ أَكَالِيلُ وَتَيْجَانُ
وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شَدَادُ فِي إِرْمِ
وَأَيْنَ مَا حَازَهُ قَارُونُ مِنْ ذَهَبِ
حَتَّى قَضَوْا فَكَأَنَّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا

*** **

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت
أين الملوك التي كانت مسلطنة
أموالنا لذوي الميراث نجمعها

إن السعادة والنعيم مطلب وغاية لكل إنسان، فالكل يسعى ويجب من متاع الدنيا أن يكون له مسكن واسع، ومركب هنيء، ومال وافر، وطعام شهوي، وملابس فاخرة، وزوجة حسناء جميلة.

وقد ذكر الله عَزَّجَلَّ في كتابه الكريم جملة من الشهوات والملذات التي يستمتع بها الناس في حياتهم الدنيا، وتتطلبها الغرائز الإنسانية على سبيل الامتنان والتذكير بها، إلا أنه بين أن هناك ما هو أولى منها، وهو ما عند الله عَزَّجَلَّ في الآخرة؛ حثاً للإنسان

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

على عدم الاسترسال والإغراق في هذه الشهوات التي تحول بينه وبين ما هو أولى، كما أن الاسترسال في الشهوات له مضرار ظاهرة وباطنة وحسية ومعنوية وفردية واجتماعية، فلا ينبغي لهم أن يجعلوا كل همهم في هذا المتاع القريب العاجل، بحيث يشغلهم عن الاستعداد لما هو خير منه في الآجل. قال عزّ من قائل: ﴿رُزِيَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٥﴾ * قُلْ أُوْتِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤-١٥].

فهذا بيان لما فطر عليه الناس من حبِّ هذه الشهوات وتزينها في نفوسهم، وتمهيد لتذكيرهم بما هو خير منها، لا لبيان ذمِّها في نفسها كما قد يُتوهم؛ فإن الله عزَّ وجلَّ ما فطر الناس على شيء مذموم، ولا جعل دينه مخالفاً لفطرته، بل موافقاً لها كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

وقد تعلقت قلوب كثير من الناس بالمتاع الدنيوي العاجل، إلى أن صار غاية عندهم، فأفنوا في سبيله أنفسهم، وضيعوا حقوقاً وواجبات. يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨]، ويقول جلَّ وعلا: ﴿وَرُحْرُقًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٥].

وقال جلَّ وعلا: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ

ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

الرسالة السبيل إلى السعادة

الجزء الثاني

فمن الناس من شغلهم النعيم الدنيوي العاجل، فأفنوا في سبيله أنفسهم، وضيّعوا حقوقاً وواجبات. وقد توعد الله عزَّجَلَّ هؤلاء فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

وقال في المقابل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

ثانياً: السبيل الموصل إلى السعادة:

لا سعادة للعبد دون اتصاله بالله عزَّجَلَّ، وسلوكه صراطاً مستقيماً موصلاً إلى رضوان الله عزَّجَلَّ ومحبتة.

وقد بين الحقُّ جَلَّوَعَلَا أن الطريق إليه واحد لا تعدد فيه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه موصلاً لمن سلكه إليه، قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَلَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فوحد سبيله؛ لأنه في نفسه واحد لا تعدد فيه، وجمع السبل المخالفة؛ لأنها كثيرة متعددة.

فالطريق الموصل إلى الله عزَّجَلَّ، وإلى رضوانه وجنته واحد، وهذا مما اتفقت عليه الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وأما طرق الجحيم فأكثر من أن تحصى.

فمن أراد الهداية فعليه أن يسلك طريق الحقِّ الواضح والمختصر، وأن ينأى بنفسه عن طرقٍ ومتاهاتٍ ملتوية قد يضلُّ بها ويشقى. ولا بدَّ لكلِّ سالك من الاستضاءة بنور الوحي، واتباع منهج الله عزَّجَلَّ، وأن يصون نفسه عمَّا يضر في الآخرة، بالوقوف

الدراسة السبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

عند حدود الله عَزَّجَلَّ، والتزام ما أمر، واجتناب ما نهي، ولا يتحقق ذلك إلا بالعلم والفقهِ والتَّبَصُّر، والتَّمَسُّك بكتاب الله عَزَّجَلَّ، وسُنَّة نبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وتفرق السبل من الآفات التي تصيب العقل، وتشتت الفكر، فيضلُّ العقل، ويضيعُ الجهد، وينقضي العمرُ دون التَّبين والوضوح، كما تصيبُ هذه الآفة النفسَ بأمراض نفسيةٍ وجسديةٍ.

والحق الموصول إلى الهداية والسعادة طريقه واضح وميسر، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشبهات»^(١)، أما طريق الباطل فهو شائك ومهلك ومعسر.

لكنَّ الوصول إلى الحقِّ لا يكون إلا بالإخلاص والتَّجرد، والاهتداء بأنوار الوحي، والاحتراز من التَّفَرُّق في متاهاتٍ مُضِلَّة، ودروب ملتوية، حيث تنقضي الأعمال ولا يتبين للباحث الطريق الصحيح، بل يتيه في أقوال الفلاسفة والمفكرين الذين توسعوا في البحث، وهدم اللاحق ما أتى به السَّابِق، فتشعبت الأقوال واختلفت، وانغمس الباحثون في لجة تلك الصراعات الفكرية، فسقطوا في أودية الضلال.

وقد قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَلَّيْتُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

(١) صحيح البخاري [٥٢، ١٩٤٦]، مسلم [٤١٨١].

الرسالة السبيل النجاة

الجزء الثاني

وفي الحديث: خطَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطًّا، وخطَّ عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطًّا، ثم قال: «هذا صراط ربك مستقيماً، وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾^(١).

وفي الحديث أيضاً: عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقاً بعيداً، فإن أخذتم يمينا وشمالاً، لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً»^(٢).
وقد فصلت القول في ذلك في كتاب: (عقبات في طريق الهداية).

ثالثاً: أسباب السعادة:

إن من أسباب السعادة:

١ - أن يُعنى العاقلُ بسرورٍ لا ينقطع:

إن النعيم الحياة الدنيا يُرى ويُحسُّ، ولكنّه لا يدوم، ولا يكون إلا مشوباً بالمنغصات، أما ما عند الله عزَّ وجلَّ فهو أعظم وأبقى. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا

(١) أخرجه الحاكم وصححه [٢٩٣٨]، ووافقه الذهبي. قال الإمام الزيلعي: "رواه النسائي في (التفسير) أخبرنا يحيى بن حبيب ثنا حماد عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود.. الخ. ورواه ابن حبان في (صحيحه) في النوع الحادي عشر من القسم الثالث، والحاكم في (مستدركه) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه أحمد، وأبو داود الطيالسي، وإسحاق بن راهويه، والبخاري في (مسانيدهم). قال البزار: ورواه عن أبي وائل غير واحد. ورواه أبو يعلى الموصلي في (مسنده) وسنده عن حماد بن زيد عن عاصم ابن أبي النجود به. تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، للزيلعي (٤٤٦/١).

(٢) صحيح البخاري [٧٢٨٢].

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ [النساء: ٧٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

قال الشاعر:

أشدُّ الغمِّ عندي في سرورٍ تيقنُّ عنه صاحبه انتقالاً (١)
يعني: أن السرور الذي تيقن صاحبه الانتقال عنه هو أشدُّ الغمِّ؛ لأنه يراعي
وقت زواله، ولا يطيب له ذلك السرور، وهذا من أبلغ الكلام وأوعظه.
وإنما يُعنى العاقلُ بسرورٍ لا ينقطع، فيعمل في الدنيا صالحًا؛ ليحيا حياة طيبة،
ثم يوفى الأجر والثواب في الآخرة، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

٢ - مخالفة النفس، والهوى، والشيطان، وإصلاح النفس، والتخلق

بالأخلاق الفاضلة:

من أراد أن يسلك طريق السعادة فعليه أن يخالف النفس والهوى والشيطان،
وأن يتبع منهج الله عَزَّجَلَّ القويم، وشرعته المباركة، التي أنزلها ليُخرج الناس من
الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، فذلك السبيل الذي ينجو به الناس
من الغواية، وسلطان الهوى، فلا سبيل إلا بالاتباع، ولا نجاة إلا بالانقياد.

(١) ديوان المتنبي (ص: ١٤٠).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

٣ - تغذية الروح بالإيمان الذي يورث القناعة والاطمئنان، وتطهيرها من الأوضار والأدزان التي تورث النكد والشقاء:

من أراد سلوك طريق السعادة فلا بدَّ له من تغذية روحه بالإيمان، وتطهيرها من الأوضار والأدزان، وصيانة نفسه، والعناية والارتقاء بها وفق منهج الله عزَّ وجلَّ الذي فيه صلاحها وسعادتها.

وغياب الإيمان هو سبب الشقاء والنكد، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٣٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٣٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ نُجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣٧﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧].

وفي الحديث: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ» (١).

(١) الحديث مروى عن أنس، وعن زيد بن ثابت. حديث أنس: أخرجه هناد (٣٥٥/٢)، والترمذي [٢٤٦٥]، وأبو نعيم في (الحلية) (٣٠٧/٦). حديث زيد بن ثابت: أخرجه الطيالسي [٦١٧]، وأحمد [٢١٥٩٠]، وابن ماجه [٤١٠٥]، وابن حبان [٦٨٠]، والطبراني في (الكبير) [٤٨٩١]، وتمام [١٤٦١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٥٥]. قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص: ١٧٣٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث: زيد بن ثابت بإسناد جيد".

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: يَا بَنَ آدَمَ، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي؛ أَمَلًا صَدْرَكَ غِنَى، وَأَسَدًا فَفَرَكَ، وَإِلَّا تَفَعَلْ؛ مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا، وَمَلَأْتُ أَسَدًا فَفَرَكَ» (١).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

٤ - تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّوَجَلَّ:

إن أعظم أسباب النجاة والأمن والسعادة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّوَجَلَّ، الذي هو حقُّ الله عَزَّوَجَلَّ على العبيد، والبعد عن البدع والضلالات، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. والمراد بالظلم ها هنا: الشرك؛ لما روي في (الصحيح): أن الآية لما نزلت شقَّ ذلك على الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس ما تظنون إنما هو ما قال لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه: ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]» (٢).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٦٩٩]، وأحمد [٨٦٩٦]، وابن ماجه [٤١٠٧]، والترمذي [٢٤٦٦]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٣٩٣]، والحاكم [٣٦٥٧]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري [٣٢، ٤٦٢٩، ٦٩٣٧].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: قيل يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه، أو نفسه»^(١).

وهذه الشفاعة إنما هي لمن وَحَّدَ اللهُ عَزَّجَلَّ، مخلصًا له الدين، ولا تكون لمن أشرك بالله عَزَّجَلَّ. ويتفضل الله عَزَّجَلَّ على أهل التوحيد والإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، وهو النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليكرمه الله عَزَّجَلَّ بهذه الشفاعة، ويكرم أمته، وينال المقام المحمود الذي وعده الله عَزَّجَلَّ إياه في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. فمن وَحَّدَ اللهُ عَزَّجَلَّ توحيدًا خالصًا، وعمل عملاً صالحًا صادقًا: عاش عيشةً هنيئةً، ومات ميتةً سويةً، ودخل الجنة راضيًا مرضيًّا.

٥ - رسوخ الإيمان بقضاء الله عَزَّجَلَّ وقدره:

إن من أسباب النجاة والسعادة: رسوخ الإيمان بقضاء الله عَزَّجَلَّ وقدره، وأن الدنيا بقاؤها قليل، وعزیزها ذليل، وغنيها فقير، وشبابها يهرم، وحيها يموت، فالمغرور من اغتر بها، وهي دار ابتلاء واختبار، وليست دار إقامة، وأن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، وأن مع العسر يسرًا، وأن فرج الله عَزَّجَلَّ قريب. وفي الحديث:

(١) أخرجه البخاري [٩٩، ٦٥٧٠].

الرسالة السببية للحياة

الجزء الثاني

عن صهيبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (١).

ومن يسلك طريق الهداية فإن الله عَزَّجَلَّ يعينه ويوفقه، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۗ﴾ [محمد: ١٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۗ﴾ [التغابن: ١١]، أي: ومن يصدق بالله عَزَّجَلَّ، فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله عَزَّجَلَّ، فهو بذلك ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ ۗ﴾، أي: يوفق الله عَزَّجَلَّ قلبه إلى التسليم لأمره، والرضا بقضائه (٢).

وقيل: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وعن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۗ﴾ [التغابن: ١١]: «هو الذي إذا أصابته مصيبة رضي، وعرف أنها من الله عَزَّجَلَّ» (٣).

وقال الشيخ البقاعي رَحِمَهُ اللهُ: "أي: يزده هداية بما يجده له من التوفيق في كل وقت، حتى يرسخ إيمانه، فتنزاح عنه كل مصيبة؛ فإنه يتذكر أنها من الله عَزَّجَلَّ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيسلم بقضائه، فيصبر له، ويفعل ويقول ما أمر الله عَزَّجَلَّ به ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيخف عليه، ولا يعوقه عن شيء من

(١) صحيح مسلم [٢٩٩٩].

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٢١/٢٣).

(٣) صحيح البخاري (١٥٥/٦).

الدرر إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

المنجيات في يوم التغابن، بل يحصل له بسببها عدة أرباح وفوائد، فتكون حياته طيبة بالعافية الشاملة في الدينيات والكونيات؛ لأن بالعافية في الكونيات تطيب الحياة في الدنيا، وبالعافية في الدينيات تطيب الحياة في الآخرة، فتكون العيشة راضية، وذلك بأن يصير عمله صوابًا في سرائه وضرائه، فيترك كل فاحشة دينية، بدنية، وباطنة قلبية، ويترك الهلع في المصائب الكونية، كالخوف، والجوع، ونقص الأموال، والأنفس، والثمرات.."(١).

٦ - أن يُثَمِّن العبد ما عنده من نعمٍ لا تعدُّ ولا تحصى:

وعلى من أراد السعادة أن يُثَمِّن ما عنده من نعمٍ لا تعدُّ ولا تحصى؛ إذ عند كل إنسانٍ نعمٌ كثيرة، وآلاءٌ وفيرة؛ غير أنه لا يلتفت إلى ما لديه من أمنٍ وإيمانٍ، وراحةٍ واطمئنانٍ، ومن عافيةٍ وصحةٍ وسترٍ، وسمعٍ وبصرٍ وفكرٍ، وحواسٍ وأعضاءٍ لو عرضت عليه فيها ملايين لما رضي أن يقايضها بها، فمن ثَمَّن ما عنده من آلاءٍ ونعمٍ، وقوِّم ما يدرأ عنه من كروبٍ ونقم: اطمأنت نفسه، وسكنت جوارحه، وارتاح قلبه. قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أصبح منكم آمنًا في سربه، مُعَافَى في جسده، عنده قوت يومه؛ فكأنما حيزت له الدنيا»(٢).

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠/١٢٤-١٢٥).

(٢) أخرجه الحميدي في (مسنده) [٤٤٣]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٣٠٠]، وابن ماجه [٤١٤١]، والترمذي [٢٣٤٦]، وقال: "حسن غريب". وأخرجه أيضًا: الشهاب القضاعي [٥٤٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٧٨].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

٧ - أن يضع العبد نصب عينيه مصير من سلك طريق الشقاء، وعاقبة من سلك طريق السعادة والهناء:

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مبيِّناً مصير من سلك طريق الشقاء، وعاقبة من سلك طريق السعادة والهناء: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٦-١٠٨].

٨ - إخلاصُ النية في طلب الحقِّ، والاهتداء بأنوار الوحي:

إنَّ من أسباب الضلال والغواية: عدم إخلاص النية في طلب الحق، كمن يسلك طريق الالتزام من أجل غايات أخرى، كتحصيل منفعة دنيوية، أو الدنو من صاحب سلطان، أو من محبوب؛ ولذلك فإنَّ أمثال هؤلاء لا يسلكون طريقاً مستقيماً، بل يتقلَّبون بحسبِ المصالح.

٩ - السعيُّ إلى تكميلِ النَّفسِ بالعلمِ والمعرفة:

ويكون باتباع منهج من البحث سليم من الآفات؛ فإن المعرفة السليمة تُبصِّرُ السالك، وتنير له الدرب.

الدرر السنية إلى سبيل النجاة

الجزء الثاني

١٠ - السعي إلى المعالي في المجالات كافة:

والسعي إلى المعالي لا يكون إلا بتجنب ما يعيق سير المكلف، وقد يقتضي ذلك الهجرة والتضحية بالمحبب الآني من أجل هدف مرتقب، وغاية سامية.

١١ - اغتنام الوقت بما ينفع العبد:

إن من أنفع ما يشغل به العبد وقته: الإكثار من نوافل الطاعات، وتجنب المحظورات، والاشتغال بما ينفع المكلف في دنياه وآخريته من العلم والعمل.

١٢ - الإكثار من ذكر الله عز وجل:

قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُذُوا جُنَّتَكُمْ» قالوا: يا رسول الله، أَمِنْ عَدُوِّ قَدْ حَضَرَ؟ قال: «لا، وَلَكِنْ جُنَّتَكُمْ مِنَ النَّارِ قَوْلُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُجَنَّبَاتٍ وَمُعَقَّبَاتٍ، وَهِنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» (١).

(١) أخرجه النسائي في (الكبرى) [١٠٦١٧]، واللفظ له، وفي (عمل اليوم والليلة) [٨٤٨]، والطبراني في (الأوسط) [٤٠٢٧]، وفي (الصغير) [٤٠٧]، والحاكم [١٩٨٥]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، وأقره الذهبي. وأخرجه أيضاً: البيهقي في (شعب الإيمان) [٥٩٨]، وفي (الدعوات الكبرى) [١٣١]، والدلمي [٢٨٢٩]. قال المنذري (٢/٢٨١): "إسناده جيد قوي". وقال الهيثمي (٨٩/١٠): =

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

وقد تقدم أن الإكثار من ذكر الله عَزَّجَلَّ من خير الأعمال النافعة للعبد، والباقية. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "لا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب، أعني: طهارته من أدناس الدنيا؛ وأنسه بذكر الله عَزَّجَلَّ، وحبه لله جَلَّ وَعَلَا. وطهارة القلب لا تحصل إلا بالكفِّ عن شهوات الدنيا. والأنس لا يحصل إلا بكثرة الذكر، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة، ولا تحصل معرفة الله عَزَّجَلَّ إلا بدوام الفكر"^(١).

١٣ - ملازمة العلماء والصالحين وأصحاب الهمم العالية.

١٤ - الإكثار من ذكر الموت.

١٥ - أن يتجنب السلك المهلكات المتوعد عليها بالعذاب، والعقبات

التي تحول دون الهداية:

وقد أفردت من قبل بالبحث - كما تقرّر غير مرّة-، كما دُكر في هذا المصنف الكثير مما ينبغي على السالك تجنبه من المهلكات والعقبات.

ومن يحفظ جوارحه، وقلبه، ودينه فإن الله عَزَّجَلَّ يحفظه ويكون معه، قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "الحفيظ من العباد: من يحفظ جوارحه، وقلبه، ويحفظ دينه عن سطوة

= "رجاله في الصغير رجال الصحيح، غير داود بن بلال وهو ثقة" وللحديث شواهد. انظر: الدر

المنثور (٣٩٧/٥).

(١) جواهر القرآن (ص: ١٢).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

الغضب، وخلافة الشهوة، وخداع النفس، وغرور الشيطان؛ فإنه على شفا جرف هار، وقد اكتنفته هذه المهلكات المفضية إلى البوار" (١).

وقد عرف كلها من لسان الشارع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليسارع العبد إلى دفع الموبقات، وجلب المنجيات، بإصلاح النفس، والتخلق بالأخلاق الإلهية؛ فإن النفس طاغية، مؤدية إلى الإفلاس والخسار. وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار» (٢).

فلا ينبغي للعاقل أن يبقى مع النفس؛ فإنه إذا نزل عليه العذاب غضبًا للنفس لا يجد وليًا يتولاه، ولا نصيرًا ينصره، ولا ملجأ يفر إليه، فهذه حال المعرضين، وأما حال المقبلين القابلين للبلاغ والإرشاد فالله عَزَّجَلَّ يحفظهم مما يخافونه يوم المعاد" (٣). قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ولقد رأيت -والله- من أنفق عمره في العلم، إلى أن كبرت سنه، ثم تعدى الحدود، فهان عند الخلق، وكانوا لا يلتفتون إليه، مع غزارة علمه، وقوة مجاهدته.

(١) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى (ص: ١١٣).

(٢) صحيح مسلم [٢٥٨١].

(٣) روح البيان (٣٤٠/٨).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

ولقد رأيت من كان يراقب الله عَزَّجَلَّ في صبوته - مع قصوره بالإضافة إلى ذلك العالم - فعظم الله عَزَّجَلَّ قدره في القلوب، حتى علقته النفوس، ووصفته بما يزيد على ما فيه من الخير^(١).

ومن أسباب السلامة والعافية: أن يتحرى العبد أسباب النجاة من العلم بالمنجيات، والحرص عليها، ومن ذلك: ما تقدم ذكره في هذا المصنف، وما جاء في الكتب السابقة، كنهج الأبرار، وعقبات في طريق الهداية وغيرهما، وقد ذكر الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ في ربع المنجيات أنه يشتمل على عشرة كتب: كتاب: التوبة، وكتاب: الصبر والشكر، وكتاب: الخوف والرجاء، وكتاب: الفقر والزهد، وكتاب: التوحيد، والتوكل، وكتاب: المحبة والشوق والأنس والرضا، وكتاب: النية والصدق والإخلاص، وكتاب: المراقبة والمحاسبة، وكتاب: التفكر وكتاب ذكر الموت.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "وأما ربع المنجيات فأذكر فيه كل خلق محمود، وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين، وأذكر في كل خصلة حدها، وحقيقتها، وسببها الذي به تجتلب، وثمرتها التي منها تستفاد، وعلامتها التي بها تتعرف، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل"^(٢).

وذكر في (جواهر القرآن) العلوم المهمة، والنافعة، والمنجية للمكلف في حاله ومآله، قال: "وأشرفها: العلم بالله عَزَّجَلَّ، واليوم الآخر؛ لأنه علم المقصد، ودونه: العلم

(١) صيد الخاطر (ص: ٢٠٨).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/١).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

بالصراط المستقيم، وطريق السلوك، وهو معرفة تزكية النفس، وقطع عقبات الصفات المهلكات، وتحليلتها بالصفات المنجيات، وقد أودعنا هذه العلوم بكتب: (إحياء علوم الدين) ففي ربع المهلكات: ما تجب تزكية النفس منه، من الشره والغضب، والكبر والرياء والعجب، والحسد، وحب الجاه، وحب المال وغيرها.

وفي ربع المنجيات يظهر ما يتحلى به القلب من الصفات المحمودة، كالزهد، والتوكل، والرضا، والمحبة، والصدق، والإخلاص، وغيرها.

وبالجمله يشتمل كتاب: (الإحياء) على أربعين كتابًا، يرشدك كل كتاب إلى عقبة من عقبات النفس، وأنها كيف تقطع، وإلى حجاب من حجبها، وأنه كيف يرفع، وهذا العلم فوق علم الفقه والكلام وما قبله؛ لأنه علم طريق السلوك، وذلك علم آلة السلوك، وإصلاح منازل، ودفع مفسداته - كما يظهر -.

والعلم الأعلى الأشرف: علم معرفة الله عَزَّجَلَّ؛ فإن سائر العلوم تراد له ومن أجله، وهو لا يراد لغيره.. وذكر طريق التدرج والترقي فيه، ثم ذكر ما يتلوه في الشرف" (١).

وإن الله عَزَّجَلَّ قد أمر بجميع المحاسن الممدوحات المنجيات، ونهى عن جميع القبائح الموبقات المذمومات. والآيات في ذلك كثيرة، ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿* إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَائِي ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

(١) انظر: جواهر القرآن (ص: ٤١-٤٣).

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافعته

الجزء الثاني

قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذه أجمع آية في القرآن خير يمتثل، ولشر يجتنب (١). وعن قتادة رَحِمَهُ اللهُ: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله عَزَّجَلَّ به في هذه الآية، وليس من خلق كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهي الله عَزَّجَلَّ عنه وقدح فيه، وإنما نهي عن سفاسف الأخلاق ومذامها (٢). وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: "وقد قالت العلماء: إن أجمع آية للبر، والفضل، ومكارم الأخلاق: قوله عَزَّجَلَّ: ﴿* إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]" (٣). وقال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ اللهُ: "لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء، وهدى ورحمة للعالمين" (٤).

(١) أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) [٦٠٠٢]، وابن جرير الطبري في (التفسير) (٢٨٠/١٧)، والطبراني في (الكبير) [٨٦٥٨]، والحاكم [٣٣٥٨]، وقال: "على شرط الشيخين" ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في [٢١٧٣]. وانظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (١٩٧/٣)، تفسير القرطبي (١٦٥/١٠)، فضائل القرآن، لأبي العباس المستغفري (٧٦٢/٢)، أحكام القرآن، لابن العربي (١٥٥/٣)، شرح صحيح البخاري، لابن بطلال (٢٥٨/٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٨٠/١٧-٢٨١)، بحر العلوم (٢٨٨/٢)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٧٩/٣)، تفسير ابن كثير (٥٩٦/٤)، الدر المنثور (١٦٠/٥)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٤٠٧٣/٦)، أحكام القرآن، لابن العربي (١٥٥/٣).

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٣٣٤/٢٤).

(٤) تفسير البيضاوي (٢٣٨/٣).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وسبل النجاة باطنة وظاهرة، قد بينها الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لأقوامهم، والعلماء والمصلحون في كل زمان. قال الله عَزَّجَلَّ حكاية عن المؤمن: ﴿ وَيَقَوْمٌ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۗ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ۗ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۗ فَسَتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۗ ﴾ [غافر: ٤١-٤٤] (١).

١٦ - تحري أسباب المغفرة، والحصل المكفرة:

وستأتي الإشارة إلى جملة من الأسباب والحصل المكفرة.

رابعاً: التقوى تبلغ العبد أعلى درجات السعادة في الآخرة:

إن أعظم سعادة، وخير، وفوز، إنما هو في دخول جنة الله عَزَّجَلَّ، التي أعدها الله عَزَّجَلَّ لعباده الصالحين، والتي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ونعيم الله عَزَّجَلَّ مراتب، وأعظمها: رؤية الله عَزَّجَلَّ في الجنة، وهي الفوز الحقيقي، ومنتهى السعادة الكاملة للعبد، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۗ ﴾ [٢٣] إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ۗ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

(١) انظر: عنوان الدليل، لأبي العباس ابن البناء المراكشي (ص: ٧٩).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

فمن أحسن في هذه الحياة الدنيا فله الحسنى وزيادة، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦]، أي: الذين آمنوا بالله عَزَّجَلَّ ورسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأحسنوا بالقيام بما أوجبه الله عَزَّجَلَّ عليهم، وانتهوا عما حرمه عليهم، فإن الله عَزَّجَلَّ المثوبة الحسنى في الآخرة، وهي: الجنة، مع نعيم زائد يحصلون عليه وهم في الجنة، وهو رؤية الله عَزَّجَلَّ. إنَّ الله عَزَّجَلَّ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَأَعَدَّهَا لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ، وَخَصَّهْمُ فِيهَا بِمَزِيدٍ مِنَ الْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ، وَجَعَلَ لِعِبَادِهِ أَسْبَابًا لِلْفَوْزِ بِرِضْوَانِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَدَخُولِ جَنَّتهِ، وَلِيُغْنِمُوا جِوَارَ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، وَلِيَسْعِدُوا بِالنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَذَلِكَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَلَّ وَعَلَا، وَفَضْلِهِ وَمِنِّهِ وَكَرَمِهِ.

فمحبَّةُ الْجَنَّةِ؛ لكونها غايةً للسَّعادة الكاملة، والنَّعيم الدَّائم، ومحبَّتُها كذلك؛ لكونها دارٌ يلتقي فيها المحبون لقاءً دائماً لا فراق بعده، ويتحقَّقُ المقصودُ فيها من جوارِ أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وأعظم محبوب، ويغنمُ الصالحونَ بالنَّظرِ إلى وجهه الكريم جَلَّ وَعَلَا، والفوز بغاية الغايات، وأرفع المقامات.

"ولا شكَّ أن سعادة المؤمنين لا تعادها سعادة عندما يساقون معززين مكرَّمين زمراً إلى جنَّات النَّعيم، حتى إذا ما وصلوا إليها فتحت أبوابها، واستقبلتهم الملائكة الكرام يهنئونهاً بسلامة الوصول، بعدما عانوه من الكربات، وشاهدوه من الأهوال. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، أي: طابت

الرسائل والأسئلة النجاة

الجزء الثاني

أعمالكم وأقوالكم وعقائدكم، فأصبحت نفوسكم زاكية، وقلوبكم طاهرة؛ فبذلك استحققتم الجنات" (١).

"ونعيم الجنة يفوق الوصف، ويقصر دونه الخيال، ليس لنعيمها نظير فيما يعلمه أهل الدنيا، ومهما ترقى الناس في دنياهم، فسيبقى ما يبلغونه أمرًا هينًا بالنسبة لنعيم الآخرة.

وقد سأل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن بناء الجنة، فأسمعنا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الإجابة وصفًا عجبًا، يقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في صفة بنائها" (٢):
«لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَمَلَأْتُهَا الْمَسْكَ الْأَذْفَرَ، وَحَصَبًا وَهِيَ اللَّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتَرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ مِنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لَا يَبُؤُسُ، وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ» (٣).

(١) الجنة والنار، عمر بن سليمان الأشقر (ص: ١١٩).

(٢) المصدر السابق (ص: ١٤٧).

(٣) الحديث مروى عن أبي هريرة، وعن ابن عمر، وعن أبي سعيد، بألفاظ متقاربة. حديث أبي هريرة: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٠٧٥]، والطيالسي [٢٧٠٦]، وأحمد [٩٧٤٤]، والدارمي [٢٨٦٣]، وابن حبان [٧٣٨٧]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٦٩٩]، حديث ابن عمر: أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٣٩٩٢]، قال الهيثمي (٣٩٧/١٠): "رواه الطبراني بإسناد حسن الترمذي لرجاله. حديث أبي سعيد: عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «خلق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الجنة لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك». وفي رواية: «وحائط الجنة لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك وقال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقالت الملائكة: طوباك منزل الملوك». قال الهيثمي (٣٩٧/١٠): "رواه البزار مرفوعًا وموقوفًا، والطبراني في (الأوسط)، إلا أنه قال: عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ =

الدرر السابغ إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

قال الحافظ أبو نعيم رَحِمَهُ اللهُ: "الحمد لله.. الذي رَغَبْنَا فِي كِرَامَتِهِ وَجَنَّتَهُ بَعْدَ أَنْ حَلَّاهَا لَنَا وَرَغَبْنَا فِيهَا، فَهُوَ السَّلَامُ، وَدَارُهُ دَارُ السَّلَامِ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ سَارَعَ إِلَى طَاعَتِهِ، وَسَابَقَ إِلَى مَرْضَاتِهِ؛ لِيَحْظِيَ بِدُخُولِ دَارِهِ الَّتِي يُؤْمَنُ فِيهَا مِنَ الْآفَاتِ، وَيُسَلِّمُ فِيهَا مِنَ الْعَاهَاتِ، الَّتِي مِنْ دَخْلِهَا أَمِنَ مِنَ الْبَوَارِ، وَسَلِمَ مِنَ الدَّمَارِ، وَحَظِيَ بِجَوَارِ الْمَنَعِ الْجَبَّارِ.

وَفِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: الْحُثُّ عَلَى الْمَسَابِقَةِ إِلَى جَنَّتِهِ الْعَرِيضَةِ، وَسَاحَتِهِ الْفَسِيحَةِ، الَّتِي خَلَقَهَا عُذَّةً لِمَنْ وَحَدَهُ، وَالْقَى الشِّرْكَ وَعَبَدَهُ. قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿* وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وَقَالَ: ﴿* سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١]"(١).

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللهُ: "وَكَيْفَ يَقْدِرُ قَدْرُ دَارِ غَرَسَهَا اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا بِيَدِهِ، وَجَعَلَهَا مَقَرًّا لِأَحِبَّابِهِ، وَمَلَأَهَا مِنْ رَحْمَتِهِ وَكِرَامَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَوَصَفَ نَعِيمَهَا بِالْفَوْزِ الْعَظِيمِ، وَمَلَكَهَا بِالْمَلِكِ الْكَبِيرِ، وَأَوْدَعَهَا جَمِيعَ الْخَيْرِ بِحِذَافِيرِهِ، وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَأَفَةٍ وَنَقَصَ.

فَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ أَرْضِهَا وَتَرْتِبِهَا، فَهِيَ الْمَسْكُ وَالزَّعْفَرَانُ.
وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ سَقْفِهَا فَهُوَ عَرْشُ الرَّحْمَنِ.

=قال: «إن الله خلق جنة عدن بيده، لبنة من ذهب، ولبنة من فضة»، والباقي بنحوه، ورجال الموقوف

رجال الصحيح، وأبو سعيد لا يقول هذا إلا بتوقيف".

(١) بتصرف عن (صفة الجنة) (ص: ٢٩-٣٠).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني



- وإن سألت عن بلاطها، فهو المسك الأذفر.
- وإن سألت عن حصبتها، فهو اللؤلؤ والجوهر.
- وإن سألت عن بنائها، فلبنة من فضة، ولبنة من ذهب.
- وإن سألت عن أشجارها، فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة، لا من الحطب والخشب.
- وإن سألت عن ثمرها، فأمثال القلال، ألين من الزبد، وأحلى من العسل.
- وإن سألت عن ورقها، فأحسن ما يكون من رقائق الحلل.
- وإن سألت عن أنهارها، فأنهار: ﴿مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].
- وإن سألت عن طعامهم، ففاكهة: ﴿مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الواقعة: ٢٠-٢١].
- وإن سألت عن شراهم، فالتسنيم، والزنجبيل والكافور.
- وإن سألت عن آنيتهم فآنية الذهب والفضة في صفاء القوارير.
- وإن سألت عن سعة أبوابها فبين المصرعين مسيرة أربعين من الأعوام، وليأتين عليه يوم، وهو كظيظ من الزحام.
- وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها، فإنها تستفز بالطرب لمن يسمعها.
- وإن سألت عن ظلها، ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المجد السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وإن سألت عن سعتها، فأدنى أهلها يسير في ملكه وسرره وقصوره وبساتينه
مسيرة ألف عام.

وإن سألت عن خيامها وقبابها، فالخيمة الواحدة من درة مجوفة، طولها ستون
ميلاً من تلك الخيام.

وإن سألت عن علائها وجواسقها^(١) فهي: ﴿عُرْفٌ مِّن فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّبِينٌ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الزمر: ٢٠].

وإن سألت عن ارتفاعها، فانظر إلى الكوكب الطالع أو الغارب في الأفق الذي
لا تكاد تناله الأبصار.

وإن سألت عن لباس أهلها، فهو الحرير والذهب.

وإن سألت عن فرشهم فبطائنهم من استبرق مفروشة في أعلى الرتب.

وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم، فعلى صورة القمر.

وإن سألت عن أسنانهم، فأبناء ثلاث وثلاثين، على صورة آدم عليه السلام أبي
البشر.

وإن سألت عن أسماعهم، فغناء أزواجهم من الحور العين، وأعلى منه سماع

أصوات الملائكة والنبين، وأعلى منهما خطاب رب العالمين^(٢).

وينبغي أن يعلم أنه لا يقاس شيء من أحوال الآخرة على الدنيا. ولكن ذكر

لمحات عن الجنة وصفتها يدل على النعيم المرجو، وما أعدّه الله عزَّجَلَّ لعباده الصالحين،

(١) (الجوسق): القصر.

(٢) (٢٨٠-٥٧٨)، بتصرف يسير.

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافعته

الجزء الثاني

وأنة لا يقاس على نعيم الدنيا، فيبلغ المنعمون في الجنة غاية النعيم الذي لا ينقطع، وكمال السعادة. فلا يصلح القياس على نعيم الدنيا لا من حيث تركيب البدن، حيث يختلف عن الدنيا بما يتلاءم مع المنعم به، ولا من حيث ذات النعيم. وهذا معنى قول الله عزَّجَلَّ في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ذخرًا بَلَهَ ما أُطْلِعْتُمْ عليه، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]»^(١).

فما يخطر ببالك فإن الأمر في ذاته وحقيقته خلاف ذلك، وأرفع منه. أما ما في الدنيا من لمحات نعيمٍ آتٍ فهو يُقَرِّبُ ذلك؛ ليكون متقبلاً من حيث الإمكان، وإن اختلف في حقيقته عما في الدنيا.

والإنسان في الدنيا من حيث الخلق مركَّبٌ من كثيرٍ من الصِّفَات التي هي على طرفي نقيضٍ بين الخير والشرِّ، تتجاذبُهُ نوازعُ الخير ونوازعُ الشرِّ، والعقيدة تُوجِّهُ الإنسانَ إلى الميولِ الخيرة، والشيطان يزيِّنُ له الشَّهوات، ويغريه بنعيمٍ آتٍ سرعان ما ينقضي، وتبقى آثاره، فمن يتبع خطوات الشيطان فليس له من المملذات إلا ما حصل له في الدنيا على قلته وتكديره بالمنغصات، ثم يجني بعد ذلك جزاء ما قدمت يداه. أما في الجنة فيختلف الحال من حيث الخلق بما يتلاءم مع سعادة باقية لا تشوبها نوازع الشرِّ، كما قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّن غَلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٩﴾ أَدْخُلُوها بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٦٠﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي

(١) صحيح البخاري [٤٧٨٠]، مسلم [٢٨٢٤]. «بله ما أطلعتم عليه» أي: دعوا ما أطلعتم عليه من نعيم الجنة وعرفتموه من لذاتها؛ فإنه سهل يسير في جانب ما أدخرته لكم.

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

صُدُّوهُمْ مِّنْ غَلِّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرْرِ مُتَقَبِّلِينَ ﴿٤٨﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٩﴾ [الحجر: ٤٥-٤٨].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أول زمرة تَلِجُ الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يَبْصُقُونَ فيها، ولا يَمْتَخِطُونَ، ولا يَتَغَوَّطُونَ، آتيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوَّة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يُرى مَخُّ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبِّحون الله بكرة وعشيًا» (١).

وقد وعد الله عَزَّجَلَّ عباده المتقين بسعادة كاملة، وتتحقق هذه السعادة لكلِّ من الذكر والأنثى بالتساوي. أما الكيفية فيقصر في ذلك على ما ورد في النص، ويبقى في علم الله عَزَّجَلَّ ما طوي ذكره، ولا شك أن ذلك من الغيب. فهناك ما هو مسكوت عنه، ولا سيما بالنسبة للأنثى؛ لأنها مكرمة في الخطاب بما يتلاءم مع حالها من العفة والحياء والستر. فمهما تكلم المتكلمون فقد جانبوا الصواب؛ لأن الأمر غيبي، وتبقى الغاية، وهي كمال السعادة والنعيم متحققة بوعد من الخالق جَلَّ وَعَلَا، فما ذكر وراء ذلك فإنما هو تسور على الغيب، وحكم على أمر لم تتضح معالمه، وخفي منه ما

(١) صحيح البخاري [٣٢٤٥]، ونحوه في (مسلم) [٢٨٣٤]. «مجامرهم»: جمع مجمرة، وهي المبخرة سميت بذلك؛ لأنها يوضع فيها الجمر؛ ليفوح به ما يوضع فيها من البخور. «الألوَّة»: العود الهندي الذي يتبخر به. «رشحهم»: عرقهم كالمسك في طيب رائحته. «مخ سوقها»: ما داخل العظم من الساق. «قلب واحد» أي: كقلب رجل واحد. ولا تكليف في الجنة، ولكن أهلها يلهمون التسبيح والذكر.

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

خفي. وقد اختصر الحديث القدسي السابق ذلك: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

والقرآن إنما يعني بالمقاصد الشريفة والغايات النبيلة، ونحن بالنسبة للغيبيات إنما نقرأ النقل بالعقل، لكن ضمن ضوابط فهم النصوص من حيث عدم الخروج عن حدود اللغة أو التفسير فما دامت المقاصد متحققة فكفى.

أما الخوض فيما وراء ذلك فلا يثمر؛ لأننا لم نخط علمًا بمقومات السعادة في الآخرة، فما هو مطويٌّ أعظم في حقيقته مما لَوَّحَتْ به النصوص من الوصف، والنصوص تقرب ذلك وفي الوقت نفسه تذكر أنه فوق كل تصور.

فلا شك أن ما هو معدٌّ للمرأة -مثلاً- أعظم وأسمى مما يتصور، وهو يحقق لها من السعادة ما تصبو إليه كاملاً غير منقوص بما يتلاءم مع حالها. هذه الغاية التي تطلب بالنسبة للذكر والأنثى.

يقول الله عزَّجَلَّ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌّ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]. "هذا خبر مؤكد بلام القسم، يفيد بمقابلته أن نعيم الآخرة ليس كنعيم الدنيا لعباً ولهواً يعبث به العابثون، أو يتشاغلون ويتسلون به عن الأكدار والهموم، بل هو مما يقصده العاقل لفوائده ومنافعه الثابتة الدائمة"^(١).

وفي (الصحيحين): عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لِيكَ رَبَّنَا

(١) تفسير المنار (٧/٣٠٤).

الرسالة السبب النجاة

الجزء الثاني

وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً»^(١).

ويقول الله عزَّجَلَّ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فقوله جَدَّعَلَا: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]: أي: "دون ما يعده الناس فوزاً من حظوظ الدنيا؛ فإنها مع قطع النظر عن فنائها وتغيُّرها وتنعُّبها وتكدرها ليست بالنسبة إلى أدنى شيءٍ من نعيم الآخرة بمثابة جناح البعوض"^(٢). قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء»^(٣).

وقال الله عزَّجَلَّ في بيان حال كثيرٍ من النَّاس الذين يقدِّمون الحياة الدنيا على الآخرة، ويؤثرون متاعها العاجل على ما فيه نفعهم وصلاحهم في معاشهم ومعادهم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۗ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، "أي: ثواب الله عزَّجَلَّ في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دنية فانية، والآخرة شريفة

(١) صحيح البخاري [٦٥٤٩، ٧٥١٨]، مسلم [٢٨٢٩].

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٨٤/٤)، روح المعاني (٣٢٧/٥).

(٣) أخرجه الترمذي [٢٣٢٠] وصححه، كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٢٥٣/٣).

الرشاد والسبيل للحياة والسبيل للخلافة

الجزء الثاني

باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟!^(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي إنما تدم إذا أعقت أما أعظم منها، أو منعت لذة خيراً منها، وتحمد إذا أعانت على اللذة الدائمة المستقرة، وهي لذة الدار الآخرة ونعيمها الذي هو أفضل نعيم وأجله كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٥٦] وَلَا جَزَاءَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ [يوسف: ٥٦-٥٧]، وقال جلَّ وعَلَا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، وقال جلَّ وعَلَا: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، وقال جلَّ وعَلَا: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال العارفون بتفاوت ما بين الأمرين لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَعْرِفَ لَنَا خَطَلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٢-٧٣]، والله عزَّ وجلَّ إنما خلق الخلق لدار القرار، وجعل اللذة كلها بأسرها فيها كما قال الله جلَّ وعَلَا: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال جلَّ وعَلَا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(٢)، بله ما اطلعت، أي: غير ما اطلعت عليه، وهذا هو الذي قصده الناصح لقومه الشفيق عليهم حيث قال: ﴿يَقَوْمٌ أَتَّبِعُونَ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمٌ

(١) تفسير ابن كثير (٣٨٢/٨).

(٢) صحيح البخاري [٣٢٤٤، ٤٧٧٩، ٤٧٨٠، ٧٤٩٨]، مسلم [٢٨٢٤].

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ [غافر: ٣٨-٣٩] فأخبرهم أن الدنيا متاع يتمتع بها إلى غيرها، والآخرة هي المستقر والغاية^(١).

وتفيد النصوص أن هناك من اللذات ما يفوق بعضها الآخر، وأن العطاء الأكبر، والنعيم الأعظم الذي يتضاءل أمامه كل نعيم هو النظر إلى وجه الله الكريم؛ فعن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرْنَا إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ - يعني البدر - فَقَالَ: «إِنكُمْ سَتْرُونَ رَبِّكُمْ، كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»^(٢). وهذا العطاء للذكر والأنثى على التساوي، وهو فوق كل عطاء. فالمعايير في الآخرة مختلفة عنها في الدنيا، والحكم على الشيء فرع تصوره، ولا نملك تصورًا كاملاً عن أحوال الآخرة، فلا مجال للعقل إلا فيما هو مذكور من النصوص. أما ما هو مطويٌّ أو مسكوت عنه فإنَّ الخوض فيه تسوُّرٌ على ضوابط التفسير واللغة والقواعد العامة وهو من الخوض في الغيبات التي لا يستقل العقل بمعرفتها.

وفي (صحيح مسلم): عن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تَرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وَجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة،

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ١٥٦-١٥٧).

(٢) صحيح البخاري [٥٥٤، ٧٤٣٤]، مسلم [٦٣٣].

الدرر والاسرار في النجاة

الجزء الثاني

حدثنا يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، بهذا الإسناد. وزاد: ثم تلا هذه الآية: ﴿* لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] (١).

ومن أفضل الدعاء ما جاء عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه صَلَّى صلاة، فأوجز فيها، فقال له بعض القوم: لقد خففت أو أوجزت الصلاة، فقال: أما على ذلك، فقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما قام تبعه رجل من القوم هو أبي غير أنه كنى عن نفسه، فسأله عن الدعاء، ثم جاء فأخبر به القوم: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضاء بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين» (٢).

(١) صحيح مسلم [١٨١].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٤٤٢]، وأحمد [١٨٣٢٥]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢٧٦]، والبزار [١٣٩٢]، والنسائي [١٣٠٥]، وابن حبان [١٩٧١]، والطبراني في (الدعاء) [٦٢٤]، والحاكم [١٩٢٣]، وقال: "صحيح الإسناد". وأخرجه أيضاً: تمام [١٣٨٧]، والبيهقي في (الدعوات الكبير) [٢٥١].

الدراسة والسبيل إلى النجاة



الجزء الثاني

قال الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "قيد النظر باللذة، لأن النظر إلى الله تعالى إما نظر هيبه وجلال في عرصات القيامة، وإما نظر لطف وجمال في الجنة؛ ليؤذن بأن المطلوب هذا"^(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "إن أفضل نعيم الآخرة وأجله وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسماع خطابه، كما في (صحيح مسلم): عن صهيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وتنجنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهمْ عَزَّوَجَلَّ»^(٢). فبين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم ربهمْ في الجنة، لم يعطهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وإنما كان ذلك أحب إليهم؛ لأن ما يحصل لهم به من اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرّة العين فوق ما يحصل لهم من التمتع بالأكل والشرب والحوار والعين، ولا نسبة بين اللذتين والنعيمين البتة. ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في حق الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [المطففين: ١٥-١٦]. فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار، وعذاب الحجاب عنه جَلَّ وَعَلَا، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما في الجنة. ونعيم التمتع برؤيته، وذكر الله عَزَّوَجَلَّ هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة فقال في حق الأبرار: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٩٣٣/٦)، وانظر: مرقاة المفاتيح (١٧٣٥/٥)، فيض القدير (١٤٦/٢).

(٢) صحيح مسلم [١٨١].

الدراسات والأساليب العلمية والوسائل التكنولوجية الحديثة

الجزء الثاني

لَفِي نَعِيمٍ ﴿٣٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٣٥﴾ خِتْمُهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٣٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِنَ تَسْنِيمٍ ﴿٣٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٣٨﴾ [المطففين: ٢٢-٢٨].

ولقد هضم معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يعذبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلى بعض، وكل هذا عدول عن المقصود إلى غيره، وإنما المعنى ينظرون إلى وجه ربهم، ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم لمحجوبون. ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦].

وتأمل كيف قابل الحق جَلَّ وَعَلَا ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤] مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم، ثم قال: فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجله وأعظمه هو الله عَزَّوَجَلَّ. والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية، فقابل بذلك قولهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾ [المطففين: ٣٢]. فالنظر إلى الرب جَلَّ وَعَلَا مراد من هذين الموضوعين ولا بد، إما بخصوصه، وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتاملان غير إرادة ذلك، خصوصاً أو عمومًا.

ثم قال: فصل: (في أن لذة النظر إلى وجه الله يوم القيامة تابعة للتلذذ بمعرفته ومحبته في الدنيا) وكما أنه لا نسبة لنعيم ما في الجنة إلى نعيم النظر إلى وجه الأعلى جَلَّ وَعَلَا، فلا نسبة لنعيم الدنيا إلى نعيم محبته ومعرفته والشوق إليه والأنس به، بل لذة

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافعته

الجزء الثاني

النظر إليه جَلَّ وَعَلَا تابعة لمعرفة بهم ومحبتهم له؛ فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة. فكلمة كان المحب أعرف بالمحبوب، وأشد محبة له كان التذاهد بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في بيان ما يستفاد من قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]. قال: "إنه متضمن لكنز من الكنوز، وهو أن يطلب كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه. وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به وإلا فهو مضمحل منقطع، فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلى خلقه ومشيتته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب لا يجب لأجله فمحبتته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه، فاجتمع ما يراد منه كله في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]، واجتمع ما يراد له كله في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، فليس وراءه جَلَّ وَعَلَا غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سرٌّ عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يجب ويراد فمراد لغيره، وليس المراد المحبوب

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (ص: ٣٢-٣٣)، بتصرف.

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني



لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك، وزال عنه، وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو الله عَزَّجَلَّ ظفر بنعمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد.

العبد دائما متقلب بين أحكام الأوامر، وأحكام النوازل، فهو محتاج، بل مضطر إلى العون عند الأوامر، وإلى اللطف عند النوازل، وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كمل القيام بالأوامر ظاهراً وباطناً ناله اللطف^(١).

فإذا تبين لك ذلك علمت أن الجنة هي الغاية المرجوة لكل من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى، فإذا تحقَّق العبدُ بذلك أحبَّ الجنةَ وما يوصل إليها، وكره النَّارَ وما يوصل إليها، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

خامساً: الأسباب التي تعين على التلذذ بالأعمال الصالحة:

وهناك من الأسباب ما يعين على التلذذ بالأعمال الصالحة:

(١) الفوائد، لابن القيم (ص: ٢٠٢).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

١ - مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ وإخلاص العمل له:

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: "الحق جَلَّ وَعَلَا أقرب إلى عبده من حبل الوريد؛ لكنه عامل العبد معاملة الغائب عنه، البعيد منه، بِقَصْدِ نِيَّتِهِ^(١)، ورفع اليدين إليه، والسؤال له.

فقلوب الجُهَّال تستشعر البعد؛ ولذلك تقع منهم المعاصي؛ إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفوا الأكف عن الخطايا، والمتيقظون علموا قربهم، فحضرتهم المراقبة، وكفتهم عن الانبساط^(٢).

ولولا نوع تغطية على عين المراقبة الحقيقية، لما انبسطت كف بأكل، ولا قدرت عين على نظر. ومن هذا الجنس: «إِنَّهُ لَيَغَانُ عَلَيَّ قَلْبِي»^(٣).

(١) يعني: بإخلاص نيته في التوجه واللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومن كان هذا حاله فإنه يعاين العناية واللفظ، ويتحقق من قرب الله عَزَّوَجَلَّ منه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]. وخير مقام في العبادة هو مقام الإحسان المبين في الحديث، وهو «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» صحيح البخاري [٥٠، ٤٧٧٧]، مسلم [٨، ٩، ١٠]، فهو المقام الذي يتحقق فيه قرب المحب من محبوبه.

(٢) والمعنى: أن تحقق المراقبة قد حملهم على فعل الخيرات، والاجتهاد في الطاعات، وعلى ترك المعاصي والمنكرات.

(٣) صحيح مسلم [٢٧٠٢]، وتمامه: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله، في اليوم مائة مرة». «ليغان»: أي: يغطي عليه. وأصله من الغين، وهو الغطاء والحائل بينك وبين الشيء، ومنه قيل للغيم: غين. انظر: شرح السنة، للبعوي (٧٠/٥). قال القاضي رَحِمَهُ اللهُ: قيل: المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه، فإذا فتر عنه أو غفل عد ذلك ذنبًا واستغفر منه. وقيل: سببه اشتغاله =

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

ومتى تحققت المراقبة حصل الأناقة؛ وإنما يقع الأناقة بتحقيق الطاعة؛ لأن المخالفة توجب الوحشة، والموافقة مبسطة المستأنسين، فيا لذة عيش المستأنسين! ويا خسارة المستوحشين!"^(١).

٢ - مجاهدة النفس:

قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال ثابت البناني رَحِمَهُ اللهُ عن الصلاة: كابدت^(٢) الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة.

وروي عن عتبة الغلام رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: كابدت الصلاة عشرين سنة، ثم تلذذت بها باقي عمري^(٣).

=بالنظر في مصالح أمتهم وأمورهم ومحاربة العدو ونحو ذلك، فيشتغل بذلك فيراه ذنباً، وإن كانت هذه الأمور من أعظم الطاعات، وأفضل الأعمال فهي نزول عن عالي درجته ورفيع مقامه من حضوره مع الله عزَّوجلَّ ومراقبته وفراغه مما سواه، فيستغفر لذلك. وقيل غير ذلك. انظر: إكمال المعلم، للقاظمي عياض (٩٦/٨)، شرح النووي على صحيح مسلم (٢٣/١٧-٢٤).

(١) صيد الخاطر (ص: ٢١٣).

(٢) «كابدت» - بالموحدة - أي: كنت أفعل الصلاة بمشقة وتعب.

(٣) انظر: تاريخ الإسلام (٣٤٧/١٠)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٦٦/١)، صفة الصفوة (٢٢١/٢).

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

وكان أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللهُ يقول: أهل الليل في ليهم ألد من أهل اللهو في لهوهم (١).

وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللهُ: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من لذيد العيش لجالدونا عليه بالسيوف (٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "وهذه اللذة والتنعم بالخدمة إنما تحصل بالمصابرة والتعب أولاً، فإذا صبر عليه وصدق في صبره أفضى به إلى هذه اللذة. وقال أبو زيد: سقت نفسي إلى الله عَزَّجَلَّ وهي تبكي، فما زلت أسوقها حتى انسقت إليه وهي تضحك" (٣).

قال العلماء رَحِمَهُمُ اللهُ: "معنى حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات في رضى الله عَزَّجَلَّ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإيثار ذلك على عرض الدنيا" (٤).
قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "كلما ذاق العبد حلاوة الصلاة كان انجذابه إليها أوكد، وهذا يكون بحسب قوة الإيمان" (٥).

(١) انظر: صفة الصفوة (٣٨٣/٢)، إحياء علوم الدين (٣٥٨/١)، لطائف المعارف، لابن رجب (٤٥/١)، (٣٢٤)، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٥٠٣/٢)، تاريخ دمشق (١٤٦/٣٤).
(٢) انظر: صيد الخاطر (ص: ٢٩٩)، و(ص: ٤٥٧)، إغاثة اللهفان (١٩٧/٢)، الجواب الكافي (ص: ١٢١)، و(ص: ٢٣٣)، الزهد الكبير (ص: ٨١).

(٣) طريق المهجرتين (ص: ٣٢١).

(٤) انظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٣/٢)، فتح الباري، لابن حجر (٦١/١).

(٥) مجموع الفتاوى (٦٠٦/٢٢).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

ومجاهدة النفس والهوى تقرب العبد إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون في حفظ الله عَزَّوَجَلَّ ورعايته. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "مخالفة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم على الله لأبره، فيقضي له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاته من هواه". وقال: "إذا تأملت السبعة الذين يظلمهم الله عَزَّوَجَلَّ في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى"^(١).

٣ - تدبر آيات القرآن الكريم، ومعرفة أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته:

إنَّ تدبُّرَ آيات القرآن الكريم، والتعرُّفَ على أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته مما يحقق في المكلفِ أجلاً المقاصد، فلا أنفع للعبد من العلم الصحيح بفاطر السموات والأرض والذي لا يتحقق إلا بمعرفة أسمائه وصفاته وتدبر آياته.

كما أنَّ العلم بأسماءِ الله جَلَّوَعَلَا وصفاته يستلزم عبادته ومحبته وخشيته، ويوجب تعظيمه وإجلاله؛ فكلما ازداد العبد معرفة بأسماءِ الله وصفاته ازداد إيمانه، وقوي يقينه. والعلم بالله جَلَّوَعَلَا وأسمائه، وصفاته أشرف العلوم عند المسلمين، وأجلها على الإطلاق؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم، والمعلوم في هذا العلم هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد تقدم أن معرفة المكلف لأسماءِ الله جَلَّوَعَلَا وصفاته، وتدبرها وعقل معانيها من علامات محبة العبد لله عَزَّوَجَلَّ وتوفيقه له، فمن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

(١) روضة المحبين (١/٤٨٤-٤٨٥).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

٤ - الإكثار من النوافل:

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحَبَبْتَهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَبَدَهُ الَّذِي يَبْطِشُ بِهِ، وَرَجْلَهُ الَّذِي يَمْشِي بِهِ، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدَتْ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: "المراد بهذا الكلام أن من اجتهد بالتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالفرائض، ثم بالنوافل قربه إليه، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله عَزَّوَجَلَّ على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ ومحبه وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدًا له بعين البصيرة"^(٢).

٥ - مجالسة العلماء، ومصاحبة الصالحين من أرباب العزائم والهمم،

ومنافستهم في الأعمال الصالحة:

فإن رؤية المجدين تبعث في النفس الهمة لتقليدهم والتشبه بهم.

(١) صحيح البخاري [٦٥٠٢]، قوله: «ما ترددت»: كناية عن اللطف والشفقة وعدم الإسراع بقبض روحه.

و«مساءته»: إساءته بفعل ما يكره.

(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (ص: ٣٤٥-٣٤٦).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

٦ - التنوع في العبادات وفي صفاتها.

.....

٧ - الذكر، والدعاء، والتضرع إلى الله عَزَّجَلَّ:

وخير ذكر لله عَزَّجَلَّ: ما كان على الوجه الرشيد الذي يستضاء فيه بأنوار الوحي من الكتاب، وصحيح السنة.

وبذكر الله عَزَّجَلَّ تطمئن القلوب، وتنشرح الصدور، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

والدعاء يقرب العبد من مولاه، وقد قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد جاء بيان ذلك في غير موضع.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "إن ذكر الله عَزَّجَلَّ من أكبر العون على طاعته؛ فإنه يجيبها إلى العبد ويسهلها عليه ويلذذها له، ويجعل قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل". وقال: "إن ذكر الله عَزَّجَلَّ يسهل الصعب، ويسر العسير، ويخفف المشاق، فما ذكر الله عَزَّجَلَّ على صعب إلا

الرسالة السببية في العناية والوسائد التي اجتمع فيها طيبتنا فاعتبرنا

الجزء الثاني

هان، ولا على عسير إلا تيسر، ولا مشقة إلا خفت، ولا شدة إلا زالت، ولا كربة إلا انفرجت" (١).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ فِي (جواهر القرآن): "لا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب، أعني: طهارته من أدناس الدنيا؛ وأنسه بذكر الله عَزَّجَلَّ، وحبه لله جَلَّوَعَلَا. وطهارة القلب لا تحصل إلا بالكفِّ عن شهوات الدنيا. والأُنْس لا يحصل إلا بكثرة الذكر، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة، ولا تحصل معرفة الله عَزَّجَلَّ إلا بدوام الفكر" (٢).

وقد أرشد الله عَزَّجَلَّ العباد إلى خير الدعاء وأنفعه:

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٣) أَوْلَيْكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ [البقرة: ٢٠١-٢٠٢].

وقال جَلَّوَعَلَا مرشداً العباد إلى أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

[آل عمران: ١٦].

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٧٦-٧٧).

(٢) جواهر القرآن (ص: ١٢).

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعنا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيْمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّفْنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَعَآئِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيْعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَذَا التُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْلَبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ مخبراً عن قيل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرْتَهُ﴾ [القصص: ١٦].. إلى غير ذلك.

ومن الأذكار المحببة: ما بينه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده»^(١).

(١) صحيح البخاري [٦٤٠٦، ٦٦٨٢، ٧٥٦٣]، مسلم [٢٦٩٤]. قوله: «خفيفتان»: سهلتان. «ثقلتان»: في وزن ثوابهما. «حبيبتان»: محبوبتان، أي: أن الله جَلَّ وَعَلَا يقبلهما، ويوصل الخير لقاتلتهما ويكرمه.

الدرر والاسرار في سبب النجاة

الجزء الثاني

ومن ذلك: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده»^(١).

وفي رواية: «أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. لا يضرك بأيهن بدأت»^(٢)... إلى غير ذلك.

ومن الخير: الدعاء بما أرشد إليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جوامع كلمه مما يعمُّ خير الدنيا والآخرة، ومن ذلك: ما تقدم: مما روته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: دخل عَلِيٌّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا أصلي، وله حاجة، فأبطأت عليه، قال: «يا عائشة: بِجَمَلِ الدُّعَاءِ وَجَوَامِعِهِ»، فلما انصرفت قلت: يا رسول الله، وما جَمَلُ الدُّعَاءِ وَجَوَامِعُهُ؟ قال: «قولي: اللهم إني أسألك من الخير كله، عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك مما سألك به محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأعوذ بك مما تعوذ منه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما قضيت لي من قضاء فاجعل عاقبته رُشْدًا»^(٣).

(١) صحيح مسلم [٢٧٣١].

(٢) صحيح مسلم [٢١٣٧].

(٣) أخرجه الطيالسي [١٦٧٤]، وابن أبي شيبة [٢٩٣٤٥]، وإسحاق بن راهويه [١١٦٥]، وأحمد [٢٥٠١٩]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٣٩]، واللفظ له، وابن ماجه [٣٨٤٦]، وأبو يعلى [٤٤٧٣]، وابن حبان [٨٦٩]، والطبراني في (الدعاء) [١٣٤٧]، والحاكم [١٩١٤]، وصححه، والبيهقي في (الدعوات الكبير) [٢٠٢]، وقد تقدم.

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

وهذا من جوامع الكلم والدعاء.

وقيل: هو أجمع ما ورد في الدعاء؛ فإن فيه سؤال كل خير، والاستعاذة من كل شر. وقد تقدم بيان ذلك.

فمن الخير العظيم الذي ينفع العبد في إصلاح حاله وماله: الدعاء بما دعا به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والاستعاذة مما استعاذ منه، وقد تقدم ذكر جملة من الأحاديث من جوامع كلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كما تقدم أن الإكثار من ذكر الله عزَّ وجلَّ من خير الأعمال النافعة للعبد، والباقية. ومن جوامع دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَبِّ أَعْيِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَانصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ لِي الْهُدَى لِي، وَانصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا، لَكَ ذَكَارًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُحِبًّا، إِلَيْكَ أَوَاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَاسْأَلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي»^(١).

ومن دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ، وَالْأَعْمَالِ، وَالْأَهْوَاءِ»^(٢).

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الترمذي [٣٥٩١] وحسنه، وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في (السنة) [١٣]، وابن حبان [٩٦٠]، والطبراني [٣٦]، والحاكم [١٩٤٩] وصححه. كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٢٣٧/٧). وفي بعض الروايات زيادة: «والأدواء».

الدراسة إلى سبب النجاة

الجزء الثاني



وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «اللهم أحسنْتَ خُلُقِي، فَأَحْسِنْ خُلُقِي»^(١).
ومن دعائه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللهم اجعل لي في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً...»
الحديث^(٢)...
وجاء في الحديث: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ»^(٣).. إلى غير ذلك.

(١) أخرجه أحمد: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [٢٤٣٩٢]، قال الهيثمي (٢٠/٨): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح".

(٢) صحيح مسلم [٧٦٣].

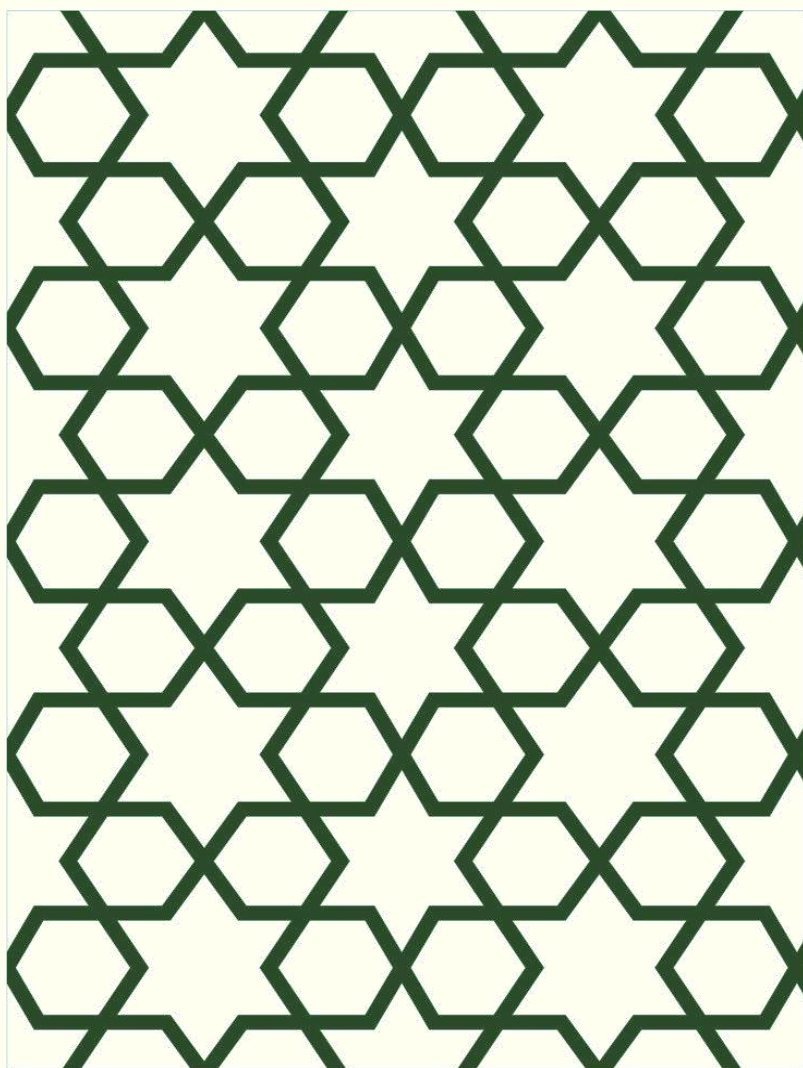
(٣) صحيح مسلم [٢٨٦٧].

الإرشاد إلى أسباب النجاة
والوسائد التي جعلت حياة طيبة نافعة



الجزء الثاني

الإرشاد إلى أسباب النجاة



ملحق في بيان

ما تقدم بسطه من المنجيات

الدراسة إلى سبب النجاة
وَالْوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ حِينَ إِطْبِيقِ نَافِعَةٍ
الجزء الثاني



وفي هذا الملحق:

إجمال لما تقدم بسطه من المنجيات مع بعض الزيادات
والفوائد؛ وذلك استكمالاً لجوانب البحث.

الدراسة والسبب النجاة وَالْوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً



الجزء الثاني



المبحث الثاني عشر:

تحري أسباب المغفرة، والعافية،

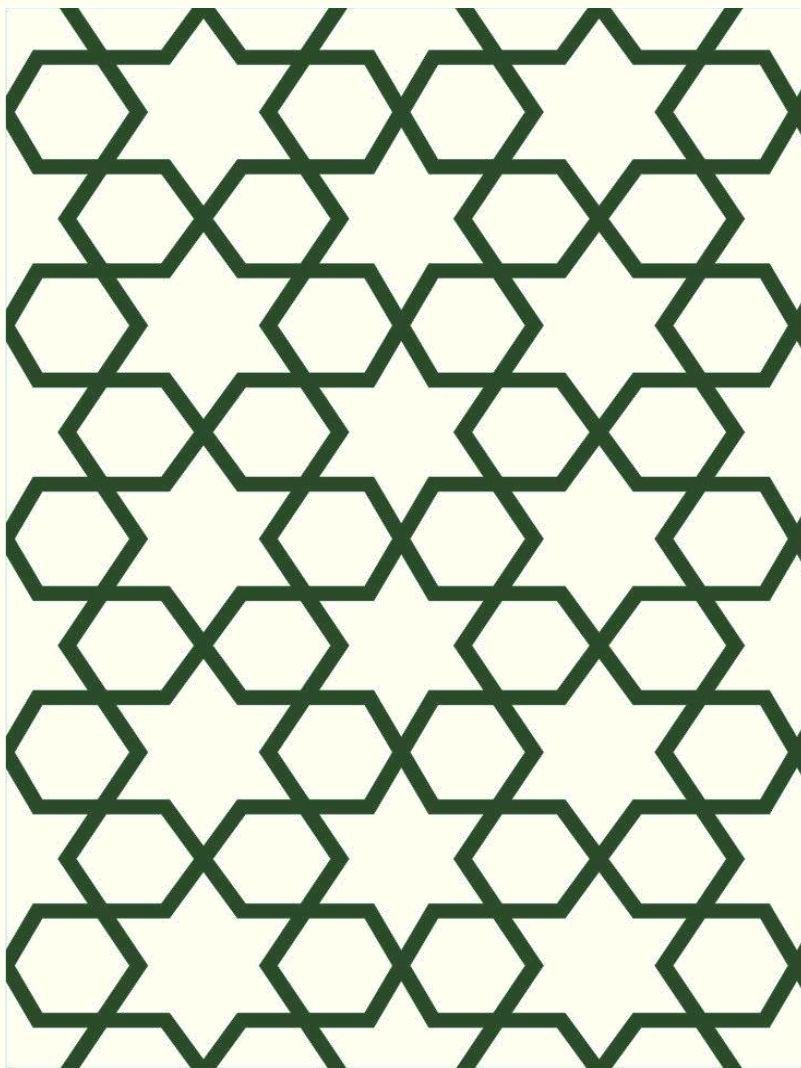
والخصال المكفرة

الإرشاد إلى أسباب النجاة
والمسائل التي اجتاحت حياة طيبة نافعاً



الجزء الثاني

الإرشاد إلى أسباب النجاة



الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

إن الأسباب الموصلة إلى المغفرة، والخصال المكفرة كثيرة، وتحريها مستلزم للعلم بها، والحرص على العمل بها من أسباب النجاة والسعادة للعبد. وقد أرشد الله عزَّوجلَّ، ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العباد إلى أعمال يسيرة وكثيرة؛ لنيل المغفرة، وحسن العاقبة.

وقد أفردت بالبحث قديماً وحديثاً: ومن النافعة في هذا الباب:

أ. الخصال المكفرة للذنوب المقدمة والمؤخرة، للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

رتبه على أربعة أبواب، مشتملة على الأحاديث الواردة فيه، والآثار.

ب. تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش، للسيوطي رَحِمَهُ اللهُ:

وذكر أنه بلغ فيه سبعين خصلة.

وهو مبسوط، و(بزوغ الهلال): مختصر منه.

ج. بزوغ الهلال، في الخصال الموجبة للظلال، للسيوطي رَحِمَهُ اللهُ:

وهو مختصر من السابق، تتبع فيه: الأحاديث الواردة في الخصال، الموجبة لظل

العرش، واستوعب شواهداها، ثم لخص مرة بعد أخرى، واقتصر فيه على متن الحديث.

د. أسباب المغفرة: لأبي بكر، محمد بن منصور الفقيه، الحنفي رَحِمَهُ اللهُ:

رتب على: ثلاثة وثمانين باباً^(١).

هـ. المنهل العذب الزلال في الخصال الموجبة للظلال، لشمس الدين محمد

بن عبد الرحمن بن أبي بكر السخاوي رَحِمَهُ اللهُ.

(١) انظر: كشف الظنون (١/١).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

و. موجبات الرحمة، وعزائم المغفرة: لشهاب الدين، أبي العباس، أحمد بن أبي بكر بن محمد، الشهير بابن الرداد، الزبيدي، الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: وهو مرتب على: أحد وعشرين كتاباً في: الفضائل، والأذكار، والعبادات في عمل اليوم، والليل (١).

ز. ومن الكتب النافعة في بيان أسباب المغفرة: كتاب: (البحار الزاخرة في أسباب المغفرة)، للدكتور السيد بن حسين العفاني.
ح. ترطيب الأفواه بذكر من يظلمهم الله عَزَّوَجَلَّ، للدكتور السيد بن حسين العفاني.

والنصوص في بيان أسباب المغفرة كثيرة في الكتاب والسنة، ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].
وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿* وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١٣٢] الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْعَظِيمِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [١٣٤] وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا يَلْحَقُهُ الذُّنُوبُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ [١٣٥] أُولَٰئِكَ جَزَاءُ

(١) انظر: المصدر السابق (٢/١٨٩٨).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَيْن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

وقال جلَّ وعلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتٍ التَّعِيمِ﴾ [المائدة: ٦٥].

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٦-٢٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال: ٧٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِئِن أَذَقْتَهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ١٠-١١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِيطِينَ وَالْقَنِيطَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ

كَرِيمٍ ﴿١١﴾ [يس: ١١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ

قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ [الحجرات: ٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ

الْمَغْفِرَةُ ﴿٣٢﴾ [النجم: ٣٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنَ

رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ [التغابن: ٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ

حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ [التغابن: ١٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَضَعِ اللَّهُ بُرْءَانَهُ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ [الطلاق: ٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ

عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا مَعَهُ ﴿٨﴾ [التحریم: ٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ [الملك: ١٢].

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

ومن مكفرات الذنوب:

الإيمان والعمل الصالح، والتوحيد، ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والاتباع والبعث عن الابتداع، والتقوى، وأداء العبادات، والمحافظة على أركان الإسلام، والإخلاص في الأقوال والأفعال، واجتناب الكبائر، وترك الإصرار على الصغائر، والإكثار من فعل الحسنات.

والمحافظة على الصوات الخمس، وصلاة الجمعة، والمحافظة على صلاة الفجر والعصر، وصلاة أربعين يومًا في جماعة يدرك التكبيرة الأولى، وصلاة الفجر في جماعة، والذكر بعدها حتى تشرق الشمس، ثم صلاة ركعتين، والسجود لله عَزَّوَجَلَّ، والقنوت، والخشوع، والصلاة في الصف الأول، والصفوف المتقدمة، ووصل الصفوف، وغسل الجمعة، والإكثار من النوافل، ومن ذلك: صلاة ثنتي عشرة ركعة غير الفريضة في كل يوم، والمحافظة على أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها، والمحافظة على الوضوء بعد الحدث ثم الصلاة بعده ركعتين، والمحافظة على عبادة الخفاء، والعبادة في وقت الفتن. ومن وافق تأمينه تأمين الملائكة.

وإسبأغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطأ إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، والأذان، ومتابعة المؤذن، ومن قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيت بالله ربًّا، وبمحمد رسولًا، وبالإسلام دينًا.

والإكثار من الذكر، وقراءة القرآن، والمحافظة على الأذكار أدبار الصلوات، ومن سبح الله عَزَّوَجَلَّ في دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، وحمد الله عَزَّوَجَلَّ ثلاثًا وثلاثين، وكبر الله

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

عَزَّجَلَّ ثلاثاً وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال: تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياهم وإن كانت مثل زبد البحر.

ومجالس الذكر، والمداومة على قراءة سورة الإخلاص، وقراءة آية الكرسي دبر كل صلاة، والذكر في السوق، وإذا أوى إلى فراشه، ودعاء الليل عند التَّعَاثُرِ من النوم، وفي وقت التنزل الإلهي، وقراء سورة الملك، ومن الأذكار الواردة في ذلك: قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومن قال: سبحان الله وبحمده، في يوم مائة مرة، حطت خطاياهم، وإن كانت مثل زبد البحر.

وقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ومن كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، والبكاء من خشية الله عَزَّجَلَّ. ومن أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة.

والدعاء، وخير الدعاء وأنفعه للعبد: ما كان الرشيد الذي يستضاء فيه بأنوار الوحي، وهو الذي جاء في كتاب الله عَزَّجَلَّ، وفيما أرشد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته إليه من جوامع كلمه. فمن الخير العظيم الذي ينفع العبد في إصلاح حاله ومآله: الدعاء بما دعا به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والاستعاذة مما استعاذ منه.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

واغتنام الأوقات الفاضلة بالطاعات: ومن ذلك: صيام رمضان، وقيامه، وقيام ليلة القدر، وصوم يوم عرفة، وصوم عاشوراء، وصيام التطوع، ومن ختم له بصيام يوم، ومن فطر صائماً، والسحور.

والصلاة في الحرمين، وبيت المقدس.

والحج المبرور، والعمرة، ورفع الصوت بالإهلال والتكبير في الحج، والطواف

بالبیت، وشرب ماء زمزم بنية المغفرة.

والصدق، والقول السديد، ومجاهدة النفس والشيطان والهوى.

ومن حفظ ما بين لحيته، وما بين رجليه، والتوكل، واليقين، والاستقامة، والحياء،

وتعليم الناس الخير، والنصح لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم.

والصدقة والإنفاق في سبيل الله عز وجل.

والأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم، والصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم.

وبناء مسجد.

والصبر، ومن ذلك: صبر العبد على ما يصيبه من الابتلاء، والصبر على موت

الولد، وحمد الله عز وجل عند فقد الولد، والصبر والاحتساب على فقد الصفي، والصبر

على تربية البنات، والإحسان إليهن، والصبر على فقد البصر، والصبر على الصرع،

والصبر على الحمى، والصبر على ما يصيب العبد من مرض، ويكون سبباً في موته،

والصبر على الظلم.

والثبات في زمن الفتن والمحن واختلاط الأمور، والثبات في زمن الدجال.

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

والعدل في الأمور كلها، والإمام المقسط، والقاضي العادل، والعامل بالحق على الصدقات، والخازن الأمين.

ومحبة المسلمين وإرداة الخير لهم، وعدم الإيذاء، وإفشاء السلام، وردده، والمصافحة بين المسلمين، وإجابة الدعوة، وبذل النصيحة، والتجاوز عن الناس، ومن ذلك: إنظار المعسرين، والتجاوز عنهم، والعفو والصفح، وحسن الخلق، ولين الجانب، والذب عن عرض المسلم، وكظم الغيظ، والبعد عن الغيبة والنميمة، ومن أقال مسلمًا، والرحمة بالخلق، والعفة، ومن ترك المراء وإن كان محققًا، ومن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وترك سؤال الناس، والبعد عن الغش، والحسد، والأخلاق الذميمة، والحب في الله عَزَّوَجَلَّ، والأمانة وعدم الخيانة، والوفاء بالوعد، والبراءة من الكبر، والغرور، والغلول، وسائر الصفات الذميمة، وأكل الحلال، والسماحة في البيع والشراء، والتقاضي والقضاء، وطلاقة الوجه، والكلمة الطيبة، والتحلل من المظالم، وصلة الرحم، والطاعم الشاكر.

ومن جمع بين صيام وإطعام مسكين، واتباع جنازة، وعيادة مريض في يوم واحد، وبر الوالدين، وكفالة اليتيم، ومن عال جاريتين، والمرأة المطيعة لزوجها، والمرأة الولود الودود العنود، وتربية الأم لبناتها، وستر المسلم في الدنيا، وصحبة الصالحين، الهجرة إلى دار الإسلام، وترك أرض السوء الذي يجاهر فيها بالمعاصي، وصحبة الصالحين والذاكرين، وحضور مجالس العلم.

والجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ومن ذلك: رمي العدو، والثبات عند الهزيمة، ومبادأة الكفار إذا التقى الجيشان، ومن جهَّز غازيًا، ومن خلف غازيًا في أهله، والشهادة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، والرباط في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، والإعتاق.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

والشيب في الإسلام مع صلاح العمل، وعبادة المريض، ومن غسل ميتًا فستره،
ومن كفّن ميتًا، وكذا الصلاة على الميت، واتباع الجنائز.
وسقي الماء لكل محتاج من الناس والحيوان، وغرس الأشجار.
والشكر، والإحسان، وأعمال البر، وصنائع المعروف، ومن ذلك: إسماع الأصم،
وهداية الأعمى، ودلالة المستدل على حاجته، وإعانة الضعيف، وإرشاد الضال،
والإحسان إلى الحيوان.

وحسن الظن بالله عزّ وجلّ، ومحبة لقاءه، وترك حسنات جارية من آثار باقية، قال
الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ
مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢]، وقد جاء في الحديث الشريف: «من سن في الإسلام سنة حسنة،
فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن
سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير
أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١).

وجاء في كتاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هرقل -عظيم الروم- يدعو إلى الإسلام:
«سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم،
وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين...»
الحديث^(٢).

(١) صحيح مسلم [١٠١٧].

(٢) صحيح البخاري [٧، ٢٩٤١، ٤٥٥٣]، مسلم [١٧٧٣].

الدرر السبب إلى السبب النجاة

الجزء الثاني

والتصدق عن الميت، والحج عنه.

والتوبة النصوح، والاستغفار.. إلى غير ذلك مما تقدم ذكره، ومما جاء بسطه في

مطانه.

وقد تقدم من أحاديث الظلال: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سبعة يُظْلَهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يوم لا ظلَّ إلا ظلُّهُ: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه» (١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كما في (صحيح مسلم) - : «من أنظر مُعْسِرًا أو وَضَعَ

عنه، أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ» (٢).

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (الفتح): "قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سبعة..» "ظاهره اختصاص

المذكورين بالثواب المذكور، ووجهه الكرماني رَحِمَهُ اللَّهُ بما مُحَصَّلَه: أن الطاعة إما أن تكون بين العبد وبين الرب جَلَّ وَعَلَا، أو بينه وبين الخلق، فالأولى باللسان، وهو الذكر، أو بالقلب، وهو المعلق بالمسجد، أو بالبدن، وهو الناشئ في العبادة، والثاني عام، وهو العادل، أو خاص بالقلب، وهو التحاب، أو بالمال، وهو الصدقة، أو بالبدن، وهو العفة.

(١) صحيح البخاري [٦٦٠، ١٤٢٣، ٦٤٧٩، ٦٨٠٦]، مسلم [١٠٣١]، وقد تقدم.

(٢) صحيح مسلم [٣٠٠٦].

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

وقد نظم السبعة العلامة أبو شامة رَحِمَهُ اللهُ، عبد الرحمن بن إسماعيل، فيما أنشدناه أبو إسحاق التنوخي إذناً، عن أبي الهدى أحمد بن أبي شامة، عن أبيه سماعاً من لفظه، قال [من الطويل]:

وقال النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى: إِنَّ سَبْعَةَ يُظِلُّهُمُ اللهُ الْكَرِيمُ بِظِلِّهِ
مُحِبُّ عَفِيفٌ نَاشِئٌ مُتَّصِدٌ وَبَاكِ مُصَلٍِّ وَالْإِمَامُ بَعْدَهُ

ووقع في (صحيح مسلم) من حديث: أبي اليسر مرفوعاً: «من أنظر معسراً أو وضع له أظله الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله»، وهاتان الخصلتان غير السبعة الماضية، فدلَّ على أن العدد المذكور لا مفهوم له، وقد ألفت هذه المسألة على العالم شمس الدين بن عطاء الرازي المعروف بالهروي رَحِمَهُ اللهُ لما قدم القاهرة، وادعى أنه يحفظ صحيح مسلم فسألته بحضرة الملك المؤيد عن هذا وعن غيره فما استحضر في ذلك شيئاً، ثم تتبع بعد ذلك الأحاديث الواردة في مثل ذلك فزادت على عشر خصال، وقد انتقيت منها سبعة وردت بأسانيد جياد، ونظمتها في بيتين تذييلاً على بيتي أبي شامة رَحِمَهُ اللهُ، وهما:

وزِدْ سَبْعَةَ: إِظْلَالَ غَازٍ وَعَوْنَهُ وَإِنظَارَ ذِي عُسْرٍ وَتَخْفِيفَ حَمَلِهِ
وَإِزْفَادَ ذِي عُرْمٍ وَعَوْنَ مُكَاتِبٍ وَتَاجِرِ صِدْقٍ فِي الْمَقَالِ وَفِعْلِهِ

فأما (إظلال الغازي) فرواه بن حبان وغيره من حديث: عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأما (عون المجاهد) فرواه أحمد والحاكم من حديث: سهل بن حنيف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأما (إنظار المعسر)، والوضيعة عنه ففي صحيح مسلم - كما ذكرنا -.

الدرر السبعة إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

وأما (إِرْفَادُ الْغَارِمِ)، و(عَوْنُ الْمَكَاتِبِ) فرواهما أحمد، والحاكم من حديث: سهل بن حنيف المذكور.

وأما (التاجر الصدوق) فرواه البغوي في (شرح السنة) من حديث: سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأبو القاسم التيمي من حديث: أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - والله أعلم - .
ونظمته مرة أخرى فقلت في السبعة الثانية:

وَتَحْسِينُ خُلُقٍ، مَعَ إِعَانَةِ غَارِمٍ خَفِيفٌ يَدٍ حَتَّى مُكَاتَبِ أَهْلِهِ
وَحَدِيثُ: (تَحْسِينُ الْخُلُقِ) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِإِسْنَادٍ
ضَعِيفٍ، ثُمَّ تَتَبَعْتُ ذَلِكَ فَجَمَعْتُ سَبْعَةَ أُخْرَى، وَنَظَمْتُهَا فِي بَيْتَيْنِ آخَرَيْنِ، وَهَمَا:
وَرِذْ سَبْعَةٌ: حُزْنٌ، وَمَشْيٌ لِمَسْجِدٍ وَكُرْهُ وَضُوءٍ، ثُمَّ مُطْعَمٌ فَضْلِهِ
وَآخِذٌ حَقًّا، بِأَذَلٍّ، ثُمَّ كَافِلٌ وَتَاجِرٌ صِدْقٍ فِي الْمَقَالِ وَفَعْلِهِ
ثُمَّ تَتَبَعْتُ ذَلِكَ فَجَمَعْتُ سَبْعَةَ أُخْرَى، وَلَكِنْ أَحَادِيثُهَا ضَعِيفَةٌ، وَقُلْتُ فِي آخِرِ
البيت:

***تَرَبُّعٌ بِهِ السَّبْعَاتِ مِنْ فَيْضِ فَضْلِهِ

وقد أوردت الجميع في (الأمالي)، وقد أفردته في جزء سميته: (معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال)^(١).

تنبيه: ذكر الحافظ ابن حجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ ذَكَرَ الرِّجَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ لَا مَفْهُومَ لَهُ، بَلْ يَشْتَرِكُ النِّسَاءُ مَعَهُمْ فِي مَا ذَكَرَ، إِلَّا إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْإِمَامِ الْعَادِلِ: الْإِمَامَةُ

(١) فتح الباري، لابن حجر (٢/١٤٣-١٤٤).

الدرر والاسرار في سبيل النجاة والسائر الناجحة حياة طيبة نافعة



الجزء الثاني



العظمى، وإلا فيمكن دخول المرأة حيث تكون ذات عيال فتعدل فيهم، وتخرج: خصلة ملازمة المسجد؛ لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من المسجد، وما عدا ذلك فالمشاركة حاصلة لمن حتى الرجل الذي دعت المرأة فإنه يتصور في امرأة دعاها ملك جميل -مثلاً- فامتنت؛ خوفاً من الله عز وجل مع حاجتها، أو شاب جميل دعاها ملك إلى أن يزوجه ابنته -مثلاً- فخشي أن يرتكب منه الفاحشة فامتنت مع حاجته إليه^(١). وجاء في فضل الحُبِّ في الله عز وجل: ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، الْيَوْمَ أَظْلُهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»^(٢).

وجاء في فضل الشهيد: ما رواه عتبة بن عبد السلمي -وكان من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يحدث، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «القتلى ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله عز وجل حتى إذا لقي العدو قاتلهم حتى يقتل فذلك الشهيد الممتحن، في خيمة الله عز وجل، تحت عرشه، ولا يفضلُه النبيون إلا بفضل درجة النبوة، ورجل مؤمن قرف على نفسه من الذنوب والخطايا، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو قاتل حتى قتل، فتلك مَصْمُصَةٌ مَحَّتْ ذُنُوبَهُ وَخَطَايَاهُ، إِنَّ السِّيفَ مَحَّاءٌ لِلْخَطَايَا، وَأَدْخَلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ؛ فَإِنَّ لَهَا ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ، وَلِجَهْنَمِ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ، وَبَعْضُهَا أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ، وَرَجُلٌ مَنَافِقٌ جَاهِدَ بِنَفْسِهِ

(١) فتح الباري، لابن حجر (٢/١٤٧).

(٢) صحيح مسلم [٢٥٦٦]، وقد تقدم.

الرسالة السبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

وماله في سبيل الله، حتى إذا لقي العدو قاتل حتى قتل فذلك في النار، إن السيف لا يمحو النفاق»^(١).

والتجاوز عن السيئات ورد في أعمال كثيرة، منها: ما جاء: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه»^(٢).

وعند مسلم: عن أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسراً، فكان يأمر غلمانَه أن يتجاوزوا عن المعسر»، قال: «قال الله عَزَّ وَجَلَّ: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه»^(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من أعتق رقبة مسلمة، أعتق الله بكلِّ عضو منه عضواً من النار، حتى فرجه بفرجه»^(٤).

وفي رواية عند مسلم: «من أعتق رقبةً مؤمنةً، أعتق الله بكلِّ إربٍ منها إرباً منه من النار»، و(الإرب) هو العضو.

وقد تقدم أن إخلاص النية في فعل الخير، ودفع الضرر والشر عن الخلق قد يكون سبباً لمغفرة الذنوب، كما في حديث: الرجل الذي أحرَّ غصن شوك عن الطريق فشكر

(١) تقدم.

(٢) صحيح البخاري [٢٠٧٨].

(٣) صحيح مسلم [١٥٦١].

(٤) صحيح البخاري [٦٧١٥]، مسلم [١٥٠٩].

المرشد إلى السبب النجاة

الجزء الثاني

الله له، فغفر له، وحديث: الذي سقى كلبًا يأكل الثرى من العطش فَشَكَرَ اللهُ، فغفر له... إلى غير ذلك.

ومن أسباب العافية: النظر بعين البصيرة إلى العاقبة، فقد جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِأَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَعُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَعُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ» (١).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: "هذا الحديث يحث على مراعاة العواقب؛ فإن التعب إذا أعقب الراحة هان، والراحة إذا أثمرت النصب فليست راحة، فالعاقل من نظر في المال لا في عاجل الحال. وقد قالت الحكماء: لا تنال الراحة بالراحة، وقل أن يلمع برق لذة إلا وتقع صاعقة ندم" (٢).

ومن أسباب العافية والهداية: الإيمان، والتوحيد، والثقة بالله عَزَّجَلَّ، واجتناب الشرك.

(١) صحيح مسلم [٢٨٠٧].

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/٣٠٩-٣١٠).

الهداية إلى سبب العافية

الجزء الثاني

ومن أعظم أسباب العافية والهداية: محبة الله عَزَّوَجَلَّ، ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وامتنال ما أمرا به، واجتناب ما نهي عنه.

ومن أسباب العافية والهداية: التوبة والإجابة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٤-٥٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

ومن أسباب العافية والهداية والتوفيق: التمسك والاعتصام بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

الدراسة السبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى الْوَحْيِ وَاللَّهُ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨].

فالقرآن الكريم هو الهادي إلى الصراط المستقيم، وهو جبل الله المتين، من قال به صدق، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ آيَاتِنَا وَالذِّكْرَ الْحَكِيمَ الَّذِي أَنزَلْنَا يُدْخِلُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ الْوَسْطَىٰ وَالَّذِينَ لَا يَتَّبِعُونَ آيَاتِنَا وَالذِّكْرَ الْحَكِيمَ الَّذِي أَنزَلْنَا يُدْخِلُ اللَّهُ فِي عَذَابِهِ الْغُيُوبَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١-٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يَكُن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء: ٩٠].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقول تعالى ذكره: إن هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرشد ويسدد من اهتدى به. ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله عَزَّ وَجَلَّ الذي بعث به أنبياءه، وهو الإسلام، يقول جل ثناؤه: فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين به إلى قصد السبيل التي ضل عنها سائر أهل الملل المكذبين به. كما حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، قال:

الرسالة السبيل النجاة

الجزء الثاني

التي هي أصوب: هو الصواب وهو الحق؛ قال: والمخالف هو الباطل. وقرأ قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ ۝۳﴾ [البينة: ٣]، قال: فيها الحق ليس فيها عوج. وقرأ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝۱﴾ [الكهف: ١-٢] يقول: قيماً مستقيماً.

قوله: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: ويبشر أيضاً مع هدايته من اهتدى به للسبيل الأqvص: الذين يؤمنون بالله ورسوله، ويعملون في دنياهم بما أمرهم الله عَزَّجَلَّ به، وينتهون عما نهاهم عنه. بأن ﴿لَهُمْ أَجْرًا﴾ من الله عَزَّجَلَّ على إيمانهم وعملهم الصالحات. ﴿كَبِيرًا ۝۱﴾، يعني: ثواباً عظيماً، وجزاء جزياً، وذلك هو الجنة التي أعدّها الله تعالى لمن رضي عمله" (١).

وحفظ القرآن الكريم والعمل به من أعظم المنجيات يوم القيامة؛ فإن القرآن يرفع القارئ الحافظ لآياته، والمتمسك به، وينفع كذلك والديه.

قال الإمام أبو محمد الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ (٢):

وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَوْثَقُ شَافِعٍ وَأَغْنَى غَنَاءٍ وَاهْبَاءٌ مُتَفَضِّلًا
وَحَيْرٌ جَلِيسٌ لَا يَمَلُّ حَدِيثُهُ وَتَرْدَادُهُ يَزْدَادُ فِيهِ تَحْمُلًا
وَحَيْثُ الْفَتَى يَرْتَاغُ فِي ظُلُمَاتِهِ مِنْ الْقَبْرِ يَلْقَاهُ سَنًا مُتَهَلِّلًا
هُنَالِكَ يَهْنِيهِ مَقِيلًا وَرَوْضَةً وَمِنْ أَجْلِهِ فِي ذِرْوَةِ الْعِزِّ يُجْتَلَى
يُنَاشِدُ فِي إِرْضَائِهِ لِحَبِيبِهِ وَأَجْدِرُ بِهِ سُؤْلًا إِلَيْهِ مُوَصَّلًا

(١) تفسير الطبري (١٧/٣٩٢-٣٩٣).

(٢) متن الشاطبية [١٠-١٩]، (ص: ٢).

الدرر والاسرار في السبل النجاة

الجزء الثاني

فَيَا أَيُّهَا الْقَارِي بِهِ مُتَمَسِّكًا مُجَلًّا لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ مُبِحِّجًا
 هَيْنًا مَرِيئًا وَالِدَاكَ عَلَيْهِمَا مَلَابِسُ أَنْوَارٍ مِنَ التَّاجِ وَالْحُلَا
 فَمَا ظَنُّكُمْ بِالنَّجْلِ عِنْدَ جَزَائِهِ؟ أَوْلَيْكَ أَهْلُ اللَّهِ وَالصَّفْوَةُ الْمَلَا
 أُوْلُو الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ وَالصَّبْرِ وَالتَّقَى خَلَاهُمْ بِهَا جَاءَ الْقُرْآنُ مُفَصَّلًا
 عَلَيْكَ بِهَا مَا عِشْتَ فِيهَا مُنَافِسًا وَبِعَ نَفْسِكَ الدُّنْيَا بِأَنْفَاسِهَا الْعَلَا

وقد روي بإسناد فيه ضعف: عن زَبَّانِ بن فائد، عن سهل بن معاذ الجهني، عن أبيه، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من قرأ القرآن وعمل بما فيه، أُلِّسَ وَالِدَاهُ تَاجًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم، فما ظنكم بالذي عمل بهذا؟»^(١).

ومعناه صحيح، ويشهد له حديث: عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: كنت عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسمعتَه يقول: «يلقى القرآن صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك؟ فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم وراء كل تجارة. فيعطى الملك يمينه، والخلد بشماله، ويوضع

(١) أخرجه أحمد [١٥٦٤٥]، وأبو داود [١٤٥٣]، وأبو يعلى [١٤٩٣]، والحاكم [٢٠٨٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٧٩٧]، والبخاري في (شرح السنة) [١١٧٩]. قال الهيثمي (١٦٢/٧): "روى أبو داود بعضه، ورواه أحمد، وفيه زيان بن فائد، وهو ضعيف".

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان بم كسينا هذه؟ فيقال بأخذ ولدكما القرآن» (١).

والتمسك بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أماناً من الزيغ والضلال. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله» (٢).

وفي (موطأ الإمام مالك رحمه الله) «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسنة نبيه» (٣).

ومن أسباب العافية والهداية: الإكثار من الدعاء والاستغفار، فهذا دأب الصالحين المهتدين، كما قال الله عز وجل في وصف حالهم في سؤالهم الثبات على طاعته: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [ال عمران: ٨].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٠٠٤٥]، وأحمد [٢٢٩٥٠]، والدارمي [٣٤٣٤]، ومحمد بن نصر المروزي في (قيام الليل) (ص: ١٧١)، وابن الضريس في (فضائل القرآن) [٩٩]، والبغوي في (شرح السنة) [١١٩٠]، وقال: "حسن غريب". قال الهيثمي (١٥٩/٧): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح". وقد حسن إسناده كذلك الحافظ ابن كثير في (تفسيره) (١٥٢/١).

(٢) صحيح مسلم [١٢١٨].

(٣) موطأ الإمام مالك [٣٣٣٨]. قال ابن عبد البر: "وهذا الحديث محفوظ معروف مشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم عند أهل العلم شهرة يكاد يستغنى بها عن الإسناد، وروي في ذلك من أخبار الأحاد أحاديث من أحاديث: أبي هريرة، وعمرو بن عوف.. انظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٣٣٢-٣٣١/٢٤).

الدرر والاسرار في سبيل النجاة

الجزء الثاني

وكان إبراهيم عليه السلام أمةً، شاكراً لأنعم الله عز وجل، سائلاً المولى جل وعلا الثبات على طاعته، فكان يكثر من الدعاء ويقول كما أخبر الله عز وجل عنه: ﴿لَيْن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [٣٦] رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي ﴿٥١﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٥١﴾ [إبراهيم: ٣٩-٤١].

ومن دعاء نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى»^(١).

وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سألت عائشة -أم المؤمنين- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، بأي شيء كان نبي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(٢).

وعن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قل: اللهم اهدني وسددني، واذكر، بالهدى هدايتك الطريق، والسداد، سداد السهم»، وحدثنا ابن

(١) صحيح مسلم [٢٧٢١].

(٢) صحيح مسلم [٧٧٠].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

نمير، حدثنا عبد الله يعني ابن إدريس، أخبرنا عاصم بن كليب، بهذا الإسناد قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قل: اللهم إني أسألك الهدى والسداد» ثم ذكر بمثله (١). وقال الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: علمني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلمات أقولهن في الوتر: «اللهم اهديني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت.. الخ» الحديث (٢). ومن دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي، وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت» (٣). وعند النسائي بسند صحيح: «اللهم اهديني لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق.. الخ» الحديث (٤).

(١) صحيح مسلم [٢٧٢٥].

(٢) حديث الحسن: أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٧٠٥]، وأحمد [١٧١٨]، والدارمي [١٦٣٤]، وأبو داود [١٤٢٥]، والترمذي وحسنه [٤٦٤]، والبزار [١٣٣٧]، والنسائي [١٧٤٥]، وأبو يعلى [٦٧٨٦]، وابن الجارود [٢٧٢]، وابن خزيمة [١٠٩٥]، وابن حبان [٩٤٥]، والطبراني في (الكبير) [٢٧٠١]، والحاكم [٤٨٠١]، والبيهقي في (السنن الكبرى) [٤٢٩٨]. قال العراقي: "أخرجه أبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي من حديث الحسن، وإسناده صحيح". المغني عن حمل الأسفار (ص: ١٨٣).

(٣) صحيح مسلم [٧٧١].

(٤) سنن النسائي [٨٩٦]، وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الدعاء) [٤٩٩]، وفي (مسند الشاميين) [٢٩٧٤].

الرسائل والأساليب النجاة

الجزء الثاني

ومن دعائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، واجعلنا هداةً مهتدين» (١).
ومن دعائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «.. رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، واغسل حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي،
واهدِ قلبي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وسدد لساني، وَأَسْأَلُ سَخِيمَةَ قَلْبِي» (٢).

وعن معاذ بن رفاعه بن رافع الأنصاري، عن أبيه، رفاعه بن رافع، قال: سمعت
أبا بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول على منبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سمعت رسول الله
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: فبكى أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين ذكر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم سُرِّي
عنه، ثم قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في هذا الْقَيْظِ عَامِ الْأَوَّلِ: «سلوا
الله العفو والعافية، واليقين في الآخرة والأولى» (٣).

وعبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يقول: لم يكن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدع هؤلاء
الدعوات حين يصبح وحين يمسي: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٤٤٢]، وأحمد [١٨٣٢٥]، والنسائي [١٣٠٥]، وابن حبان [١٩٧١]، والحاكم [١٩٢٣] وقال: "صحيح الإسناد". وأخرجه أيضًا: تمام [١٣٨٧]. وعند أحمد، وتمام بلفظ: «واجعلنا هداة مهتدين».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٣٩٠]، وأحمد [١٩٩٧]، وابن حميد [٧١٧]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٦٥]، وابن ماجه [٣٨٣٠]، وأبو داود [١٥١٠]، والترمذي [٣٥٥١] وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: الحاكم [١٩١٠] وقال: "صحيح الإسناد".

(٣) أخرجه أحمد [٦]، واللفظ له، والترمذي [٣٥٥٨]، وقال: "حسن غريب"، كما أخرجه البزار [٣٤]، وأبو يعلى [٨٦]، والبغوي في (شرح السنة) [١٣٧٧]. قال المنذري (٤/١٣٧): "رواه الترمذي من رواية: عبد الله بن محمد بن عقيل، وقال: حديث حسن غريب، ورواه النسائي من طرق، وعن جماعة من الصحابة، وأحد أسانيده صحيح".

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»، قال: يعني: الخسف (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ دَعْوَةٍ يَدْعُو بِهَا الْعَبْدُ أَفْضَلَ مِنْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْمَعَاْفَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» (٢).

وعن أبي مالك الأشجعي عن أبيه أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَقُولُ حِينَ أَسْأَلُ رَبِّي؟ قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي» - وَيَجْمَعُ أَصَابِعَهُ إِلَّا الْإِبْهَامَ-؛ «فَإِنْ هُوَ لَاءَ تَجْمَعُ لَكَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ» (٣).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: «قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفْوٌ تَحِبُّ الْعَفْوَ فَاغْفِرْ عَنِّي» (٤).

(١) أخرجه أحمد [٤٧٨٥]، واللفظ له، وعبد بن حميد [٨٣٧]، والبخاري في (الأدب المفرد) [١٢٠٠]، وأبو داود [٥٠٧٤]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٣٢٥]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٥٦٦]، وابن حبان [٩٦١]، والطبراني في (الكبير) [١٣٢٩٦]، وابن السني [٤٠]، والحاكم [١٩٠٢]، وقال: "صحيح الإسناد" كما أخرجه البيهقي في (الدعوات) [٣٢]، والضياء [٢٣٨].

(٢) أخرجه ابن ماجه [٣٨٥١]، في (الزوائد) (١٤٣/٤): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات". قال المنذري (١٣٧/٤): "رواه ابن ماجه بإسناد جيد".

(٣) صحيح مسلم [٢٦٩٧].

(٤) أخرجه إسحاق بن راهويه [١٣٦١]، وأحمد [٢٥٣٨٤]، وابن ماجه [٣٨٥٠]، والترمذي [٣٥١٣]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه النسائي في (الكبرى) [٧٦٦٥]، وفي (عمل اليوم والليلة) =

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ عَنْ فِرَاشِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَلْيَنْفِضْهُ بِصِنْفَةِ إِزَارِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلْفَهُ عَلَيْهِ بَعْدَ، فَإِذَا اضْطَجَعَ فَلْيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتَ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، فَإِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مَبْتَلَى، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، لَمْ يَصِبْهُ ذَلِكَ الْبَلَاءُ»^(٢).

وفي ثنايا هذا المصنف الكثير من الأدعية الجامعة والنافعة.

ومن أسباب العافية والهداية: شكر المنعم على نعمه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

= [٨٧٢]، وابن السني في (عمل اليوم والليلة) (١/٦٩٠)، والحاكم [١٩٤٢]، وقال: "صحيح علي

شرطهما" وأخرجه أيضًا: القضاعي [١٤٧٦]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٤٢٦].

(١) أخرجه الترمذي [٣٤٠١]، وقال: "وفي الباب عن جابر، وعائشة، وحديث: أبي هريرة حديث حسن،

وروى بعضهم هذا الحديث، وقال: فلينفضه بداخلة إزاره". وقوله: «بصنفه إزاره» أي: جانبه الذي

لا هدب له.

(٢) أخرجه الترمذي [٣٤٣٢]، وقال: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه"، كما أخرجه الطبراني في

(الدعاء) [٧٩٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤١٢٩].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ: "يعني بذلك جل ثناؤه: واذكروا الله أيها المؤمنون عند المشعر الحرام بالثناء عليه، والشكر له على أياديه عنكم، وليكن ذكركم إياه بالخضوع لأمره، والطاعة له والشكر على ما أنعم عليكم من التوفيق، لما وفقكم له من سنن إبراهيم خليله عَلَيْهِ السَّلَام بعد الذي كنتم فيه من الشرك، والحيرة، والعمى عن طريق الحق، وبعْد الضلالة، كذكره إياكم بالهدى، حتى استنقذكم من النار به بعد أن كنتم على شفا حفرة منها، فنجاكم منها.

وذلك هو معنى قوله: ﴿كَمَا هَدَاكُمْ﴾^(١).

وقال جَلَوَعَلَا: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧]، وقال جَلَوَعَلَا: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [النمل: ٦٢].

ومن أسباب العافية والهداية: ذكرُ الله عَزَّوَجَلَّ على الدَّوام، والاستعانةُ به، واللجوءُ إليه في كشف الضُّرِّ والسوء، قال جَلَوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾ [٢٣] إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

ومن أسباب العافية والهداية: المسارعة إلى الاستجابة لله عَزَّوَجَلَّ، ولسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يحال بين المرء وقلبه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا

(١) تفسير الطبري (٤/١٨٣).

المرشد إلى سبب النجاة

الجزء الثاني

لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۗ ﴿[الأنفال: ٢٤]

والمراد بالاستجابة: تزكية النفس بالعلم والطاعة والامتثال.

ومن أسباب العافية: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في الطاعات، ومجاهدة النفس

والشيطان والهوى، والإكثار من النوافل التي تقرب من الله سبحانه.

ومن أسباب العافية والهداية: الاحتراز عن مضلات الهداية، والحرص على

اغتنام ما يقابلها من صالح الأعمال... إلى غير ذلك مما تقدم بيانه.

الدراسة والسبب النجاة وَالْوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً



الجزء الثاني



المبحث الثالث عشر:

الابتلاء بالفتن

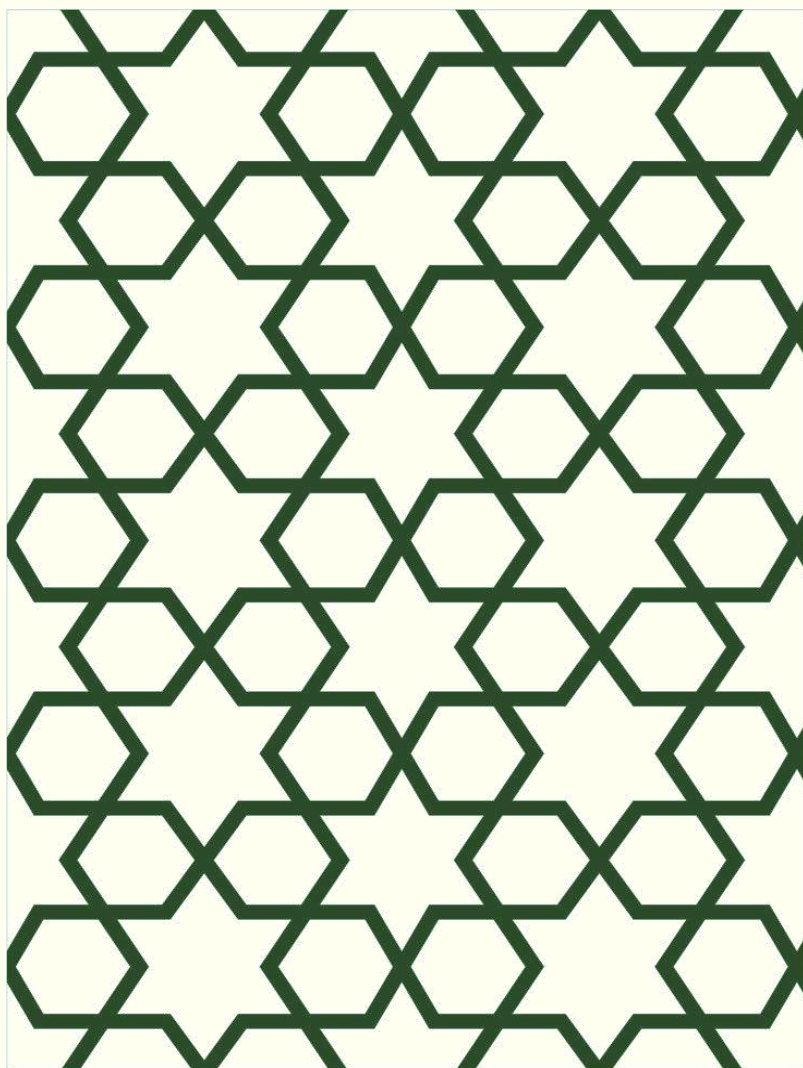
وأسباب النجاة منها

الدراسة إلى أسباب النجاة
وَالْوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً



الجزء الثاني

الإرشاد إلى أسباب النجاة



الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

أولاً: وقوع الفتن من الابتلاء الذي يحص الصادق عن الكاذب:

إن من يتأمل واقع المسلمين يجد أنهم يمرون بفتن عظيمة، ومحن جسيمة، تعاضم خطرهما، وتطير شررها، تنوعت أسبابها، واختلفت موضوعاتها. إن الناظر في حال العالم اليوم، وخاصةً في بلاد المسلمين، على مستوى أفرادهم ومجتمعاتهم يجد أنهم يمرون بفتنٍ عظيمةٍ، ومحنٍ جسيمةٍ، تعاضم خطرهما، وتطير شررها، تنوعت أسبابها، واختلفت موضوعاتها.

وقد جاء الشارع الحكيم بالتحذير من غوائل الفتن، وشورها ومدلهماتهما. ومن دلائل التوفيق: أن يستقيم المرء على دين الله، ويثبت عليه أيام حياته، وعلى كل حالاته: في حال السراء والضراء، وفي حال الشدة والرخاء، فيكون عابداً شاكراً لله في حال السراء، وصابراً محتسباً في حال الضراء.

والابتلاء - كما تقدم - سنة الله عز وجل في خلقه حتى يتحقق فيهم معنى التكليف المتفرع عن العبودية لله عز وجل. قال الله عز وجل: ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِشْيءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُواْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

والفتنة بهذا المعنى هي الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب، قال الله عز وجل:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال جل وعلا: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ

فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَالِسُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿الْم ١﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت: ١-٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت: ١١].

ومن آثار الفتنة: ضلال الكثيرين:

فلا تظهر فتنة إلا وينتكس رجال، ويسقط آخرون، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿كُلُّ مَا رَدُّوا
إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩١]، أي: كلما عرض لهم بلاء هلكوا فيه (١).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ
أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١].
ويثبت الله عَزَّجَلَّ الذين آمنوا، ويعصمهم من آفات تلك الفتن، كما قال جَلَّ وَعَلَا:
﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ
الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ومن آثار الفتنة: الصد والإضلال:

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ
قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَآءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧].

(١) تفسير الطبري (٨ / ٢٨)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٣ / ١٠٢٩).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

وقال جل وعلا: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

ومن آثار الفتنة: اشتباه الحق بالباطل، وظهور الفساد:

قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، أي: شبهة في الحق والباطل، وظهور الفساد في الأرض^(١).

وأما ما جاء في التحذير من الفتنة: فقد قال الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقال: ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فهذا تنبيه بالغ في التحذير من الفتنة.

وأما ما جاء في إقبال الفتنة ونزولها كمواقع القطر: فقد أخرج مسلم: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فَتَنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ، يَصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيَمْسِي كَافِرًا، أَوْ يَمْسِي مُؤْمِنًا وَيَصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بَعْرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(٢).

وقد تقدم بيان ذلك.

وعن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا فَرَعًا يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَلُ لِّلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ، فَتَحِ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»

(١) تفسير الطبري (١٤/٨٦-٨٧)، وانظر: تفسير الرازي (١٥/٥١٨).

(٢) صحيح مسلم [١١٨]، وقد تقدم.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

مثل هذه»، وحلق بإصبغه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فقلت يا رسول الله: أهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثرت الخبث» (١).
وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: أشرف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُطْمٍ من أطام المدينة، فقال: «هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر» (٢).

و(الأُطْمُ) -بضم الهمزة والطاء- هو القصر والحسن، وجمعه: أطام، ومعنى: (أشرف): علا وارتفع. والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم، أي: إنها كثيرة وتعم الناس لا تختص بها طائفة. وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بين المسلمين والتي يقتل بعضهم فيها بعضًا (٣).

وعن كُرْزِ بن عُلْقَمَةَ الخَزَاعِيِّ، قال: قال رجل: يا رسول الله، هل للإسلام من منتهى؟ قال: «نعم، أيما أهل بيت من العرب أو العجم أراد الله بهم خيرًا أدخل عليهم الإسلام، ثم تقع الفتن كأنها الظُّلُّ، ثم تعودون فيها أساودَ صَبًّا، يضرب بعضهم رقاب بعض» (٤).

(١) صحيح البخاري [٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥]، مسلم [٢٨٨٠].

(٢) صحيح البخاري [١٨٧٨، ٢٤٦٧]، مسلم [٢٨٨٥].

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/٧-٨).

(٤) أخرجه الطيالسي [١٣٨٦]، والحميدي [٥٨٤]، ونعيم بن حماد في (الفتن) [٧]، وابن أبي شيبة [٣٧١٢٦]، وأحمد [١٥٩١٧]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢٣٠٥]، وابن حبان [٥٩٥٦]، والطبراني [٤٤٢]، والحاكم [٨٤٠٣]، وقال: "صحيح الإسناد". قال الهيثمي (٣٠٥/٧): "رواه أحمد، والبخاري، والطبراني بأسانيد، وأحدها رجاله رجال الصحيح".

الرسائل والأسباب النجاة

الجزء الثاني

وقوله: «أَسَاوِدٌ صَبَّاءٌ»^(١)، يعني: الحيَّة السوداء إذا أراد أن ينهشَ ارتفعَ ثم انصبَّ، فهو يرتفع ثم يميل ويلتوي وقت النهش؛ ليكون أنكى في اللدغ، وأشدَّ صبًّا للسم.

وقد أطلع الله عزَّ وجلَّ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على كثير من البلايا والفتن التي ستبتلى بها الأمة الإسلامية في مُقْبِلِ الزمان؛ ولذلك فإنَّ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطال في تحديث الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عن تلك الفتن، وبيانِ المخرج منها، كما جاء في الحديث: عن أبي زيد عمرو بن أخطب، قال: «صَلَّى بنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفجر، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت

(١) قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لتعودن أساود صبا»، أي: حيات. والأساود جمع أسود. قال أبو عبيد: هي حية فيها سواد، وهي أخبث الحيات. ويقال له: أَسْوَدُ سَالِحٌ؛ لأنه يَسْلُخُ جِلْدَهُ كُلَّ عام، وقال ابن الأعرابي: معناه: جماعات، جمع سواد من الناس، يعني: فرقًا مختلفين، وهي جمع: سوادٍ من النَّاسِ، أي: جماعة، ثم أَسْوَدَةٌ، ثم أَسَاوِدُ جَمْعُ الجَمْعِ. و(الأسود): العظيم من الحيات، وقد غلب حتى اختلط بالأسماء، ف قيل في جمعه: الأساود. وقد حكى الأصمعي كأنه من (السودان)، أي: من الحيات. وقيل: الصُّبُّ جمع: صَبُوب، على أن أصله: صُبُّبٌ كرسول ورُسُل، ثم خَفَّفَ كُرْسُلًا، وذلك أن الأسود إذا أراد أن ينهش ارتفع، ثم انصبَّ على الملدوغ. ويُروى: «صُبِّي» على وزن (حُبْلَى). انظر في ذلك: الفائق في غريب الحديث والأثر (٢/٢٠٨)، مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/٢٣٠)، فتح الباري، لابن رجب (١/١٠٩)، فتح الباري، لابن حجر (٦/٣٤٨)، تهذيب اللغة (١٣/٢٤)، النهاية في غريب الحديث (٣/٥).

الدرر السابغ إلى السبب النجاة

الجزء الثاني

العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وما هو كائن». فأعلمنا أحفظنا^(١).

وعن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «قام فينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقامًا، ما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة، إلا حدث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأذكروه، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه»^(٢).

وقد اجتهد كثير من الصحابة في التعرف على الفتن التي ستعصف بالأمم، وتبين طريق النجاة منها، ومن هؤلاء، بل في مقدمتهم: حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقد صح عنه أنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «أخبرني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة»^(٣).

وقال: والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة، فيما بيني وبين الساعة، وما بي إلا أن يكون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسرَّ إلي في ذلك شيئًا، لم يُحدِّثه غيري، ولكن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: وهو يُحدِّث مجلسًا أنا فيه عن الفتن، فقال رسول الله

(١) صحيح مسلم [٢٨٩٢].

(٢) صحيح مسلم (٢٣) [٢٨٩١].

(٣) صحيح مسلم (٢٤) [٢٨٩١].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وهو يعد الفتن: «منهن ثلاث لا يكدن يذرن شيئاً، ومنهن فتن كرياح الصيف منها: صغار، ومنها: كبار»^(١).

وقد حذرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مضلات الفتن ومسبباتها، فقال: «إن مما أخشى عليكم: شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى»^(٢).
وفي رواية: «ومضلات الفتن»^(٣).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لأَحَدَثْتُكُمْ حَدِيثًا لا يحدثكم أحد بعدي، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من أشراط الساعة: أن يقل العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنا، وتكثر النساء، ويقل الرجال، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد»^(٤).

(١) صحيح مسلم (٢٢) [٢٨٩١]. قوله: «لا يكدن يذرن شيئاً»، أي: لعظمتهم، وقوله: «فتن كرياح الصيف»، أي: فيها بعض الشدة، وإنما خص الصيف؛ لأن رياح الشتاء أقوى. انظر: كشف المشكل (٣٩٩/١).

(٢) أخرجه أحمد [١٩٧٧٣]، والبخاري [٣٨٤٤]، والطبراني في (الصغير) [٥١١]. قال المنذري (١٠١/٣): "بعض أسانيدهم رجاله ثقات". وقال الهيثمي (١٨٨/١): "رجاله رجال الصحيح؛ لأن أبا الحكم البناي الراوي عن أبي برزة بينه الطبراني فقال: عن أبي الحكم هو الحارث بن الحكم، وقد روى له البخاري وأصحاب السنن". كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٣٢/٢)، والبيهقي في (الزهد الكبير) [٣٧١].

(٣) أخرجه أحمد [١٩٧٧٢]. قال الهيثمي (٣٠٥/٧-٣٠٦): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح".

(٤) صحيح البخاري [٨١].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

والسبب في قلة الرجال، وكثرة النساء كما جاء ذلك مبيّنًا في بعض الأحاديث: الحروب التي تقع في ذلك الزمان. وقد كثُر في الأحاديث إخبار الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكثرة القتل في آخر الزمان، وليس المرادُ به قتلَ المسلمين للكفار، وإنما هو قتلُ بعض المسلمين لبعض، وفي كثيرٍ من الأحيان لا تُعرفُ أسبابُ ذلك القتل ولا أهدافه^(١). ففي الحديث: «إن بين يدي الساعة لأَيَّامًا، يَنْزِلُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الْهَرْجُ، وَالْهَرْجُ: الْقَتْلُ»^(٢).

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ الْهَرْجَ، قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: الْقَتْلُ، إِنَّهُ لَيْسَ بِقَتْلِكُمُ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ قَتْلُ بَعْضِكُمْ بَعْضًا، حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ، وَيَقْتُلَ أَخَاهُ، وَيَقْتُلَ عَمَّهُ، وَيَقْتُلُ ابْنَ عَمِّهِ، قَالُوا: وَمَعْنَا عَقُولُنَا يَوْمئِذٍ؟ قَالَ: إِنَّهُ لَتَنْزِعِ عَقُولُ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيَخْلَفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ؟ يَحْسَبُ أَكْثَرَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ»^(٣).

(١) انظر: القيامة الصغرى (ص: ١٦٦-١٦٧).

(٢) صحيح البخاري [٧٠٦٢، ٧٠٦٤، ٧٠٦٦]، مسلم [٢٦٧٢].

(٣) أخرجه نعيم بن حماد في (الفتن) [٦٨]، وابن أبي شيبة [٣٧٣٨٤]، وأحمد [١٩٤٩٢]، وابن ماجه [٣٩٥٩]، والبخاري [٣٧٣٨٤]: عن أسيد بن المششم قال: حدثنا أبو موسى حدثنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكره. قال البوصيري في (الزوائد) (٧٠/٨): "رواه أبو بكر ابن أبي شيبة ومسدّد، ورواه ثقات". و«يخلف»: أي: يقوم، «هباء من الناس»: أي: ناس بمنزلة الغبار، أي: حثالة من الناس وأرذلهم.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وفي رواية: «فكسروا قسيكم، وقطّعوا أوتاركم، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دخل على أحد منكم بيته فليكن كخير ابني آدم»^(١).

وعند الحاكم: عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «إياك والفتن لا يشخص لها أحد، فوالله ما شخص منها أحد إلا نسفته كما ينسف السيل الدمن، إنها مُشْبِهَةٌ مُقْبِلَةٌ، حتى يقول الجاهل: هذه تُشْبِهُ مُقْبِلَةً، وتَتَبَيَّنْ مُدْبِرَةً، فإذا رأيتموها، فاجتمعوا في بيوتكم، واكسروا سيوفكم، وقطّعوا أوتاركم، وغطوا وجوهكم»^(٢).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: قوله: «تُشْبِهُ مُقْبِلَةً، وتَتَبَيَّنْ مُدْبِرَةً»: "أي: أنها إذا أقبلت شَبَّهَتْ على القوم وأَرَكْتُمْ أنهم على الحق حتى يدخلوا فيها ويركبوا منها ما لا يجوز، فإذا أدبرت وانقضت بان أمرها، فعلم من دخل فيها أنه كان على الخطأ"^(٣).
والشبهة: الالتباس. وأمور مُشْتَبِهَةٌ ومُشَبَّهَةٌ: مشكلة يشبه بعضها بعضاً^(٤).

(١) أخرجه نعيم بن حماد في (الفتن) [٣٤٣]، وابن أبي شيبة [٣٧١٢٢]، وأحمد [١٩٦٦٣]، وابن ماجه [٣٩٦١]، وأبو داود [٤٢٥٩]، والترمذي [٢٢٠٤]، وقال: "حسن غريب". وأخرجه أيضاً: الروياني [٥٨٥]، وابن حبان [٥٩٦٢]، والطبراني في (الأوسط) [٨٥٦٣]، والحاكم [٨٣٦٠]، والبيهقي [١٦٨٠٠]: عن أبي موسى.

(٢) أخرجه معمر في (جامعه) [١٣٧٩]، ونعيم بن حماد في (الفتن) [١٣٧٩]، والحاكم [٨٣٨٥]، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضاً: أبو نعيم في (الحلية) (٢٧٣/١). و«الدمن»: السماد المتلبد والبعر.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (شبه) (٤٤٢/٢).

(٤) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (شبه) (١٩٣/٤).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، ومن يُشْرِفَ لها تَسْتَشْرِفُهُ، ومن وجد ملجأً أو معاذاً فليعد به» وفي لفظ: «مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا»^(١). فقوله: «مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا»: بفتح المثناة والمعجمة وتشديد الراء، أي: تَطَلَّعَ لها بأن يَتَصَدَّى وَيَتَعَرَّضَ لها ولا يُعْرِضُ عنها.

قوله: «تستشرفه» أي: تهلِكُه بأن يُشْرِفَ منها على الهلاك. يقال: اسْتَشْرَفْتُ الشَّيْءَ: عَلَوْتُهُ وَأَشْرَفْتُ عَلَيْهِ. يريد مَنْ انْتَصَبَ لها انْتَصَبَتْ له، ومن أَعْرَضَ عنها أَعْرَضَتْ عنه. وحاصله أن مَنْ طَلَعَ فيها بِشَخْصِهِ قَابَلَتْهُ بِشَرِّهَا. ويحتمل أن يكون المراد: مَنْ حَاطَرَ فيها بنفسه أَهْلَكَتُهُ، ونحوه قول القائل: مَنْ غَالَبَهَا غَلَبَتْهُ^(٢).

وعن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنا جلوساً عند عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الفتن؟ قلت أنا كما قاله: قال: إنك عليه أو عليها لجريء، قلت: «فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره، تكفرها الصلاة والصوم والصدقة، والأمر والنهي»، قال: ليس هذا أريد، ولكن الفتنة التي تموج كما يموج البحر، قال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً، قال: أيكسر أم يفتح؟ قال: يكسر، قال: إذا لا يغلق أبداً، قلنا: أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم،

(١) صحيح البخاري [٣٦٠١، ٧٠٨١، ٧٠٨٢]، مسلم [٢٨٨٦].

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٣١/١٣).

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

كما أن دون العَدِ اللَّيْلَةَ، إني حدثته بحديث ليس بالأغاليط فهبنا أن نسأل حذيفة، فأمرنا مسروقًا فسأله، فقال: الباب عمر (١).

وكانه مَثَلُ الْفِتَنِ بَدَارٍ، ومَثَلُ حَيَاةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِيَابٍ لَهَا مَغْلَقٌ، ومَثَلُ مَوْتِهِ بَفَتْحِ ذَلِكَ الْبَابِ، فما دامت حياة عمر موجودة فهي الباب المغلق، فإذا مات عصفت بالناس رياحُ الفتن، وانفتح ذلك الباب فخرج ما في تلك الدَّارِ. وكان حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد علم أن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقتل شهيدًا، ولكنه كره أن يخاطبه بالقتل (٢).

وفي (المراقبة): "أن الكلام لم يكن من باب الصريح، بل من قبيل الرمز والتلويح، لكن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن لا يخفى عليه الإشارة فضلًا عن العبارة، بل هو أيضًا من أصحاب الأسرار، وأرباب الأنوار" (٣).

وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عَوْدًا عَوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدٌ مِرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًّا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يَنْكُرُ مِنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» (٤).

(١) صحيح البخاري [٥٢٥، ١٤٣٥، ١٨٩٥، ٣٥٨٦، ٧٠٩٦]، مسلم [١٤٤].

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٥/٢)، فتح الباري، لابن حجر (٦٠٦/٦).

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٤٢٧/٨).

(٤) صحيح مسلم [١٤٤]. و"مربادًا": - بكسر الميم وبالبدال المشددة -: من ازبادًا كاحمًا، أي: صار كلون الرماد، من الرُّبْدَةِ لون بين السواد وَالْعَبْرَةَ، وهو حال أو منصوب على الدم. و«مجحياً»: بضم ميم =

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

شَبَّهَ القلب الذي لا يعي خيراً بالكوز المُنْحَرِفِ الذي لا يثبت الماء فيه. ذلك أن الرجل إذا تبع هواه، وارتكب المعاصي، دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمةً، وإذا صار كذلك افْتُتِنَ وزال عنه نور الإسلام. والقلب مثل الكوز فإذا انكَبَّ انصَبَّ ما فيه ولم يدخله شيء بعد ذلك (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ويل للعرب من شر قد اقترب، أفلح من كف يده» (٢).

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: "والإمساك في الفتنة سنة ماضية واجب لزومها، فإن ابتليت فقدم نفسك دون دينك، ولا تعن على فتنة بيد، ولا لسان، ولكن اكفف يدك ولسانك وهواك - والله المعين -" (٣).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء، فصار الأكابر رَحِمَهُ اللهُ عاجزين عن إطفاء الفتنة وكف أهلها. وهذا شأن الفتن كما

=وسكون جيم وخاء مكسورة وياء آخر الحروف مشددة، وقد تخفف. وفي (النهاية): وروي بتقديم الخاء على الجيم، أي: مائلاً منكوساً" مرقاة المفاتيح (٣٣٧٨/٨)، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (خجى) (١٢/٢).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٣ / ٢).

(٢) أخرجه نعيم بن حماد في (الفتن) [٣٤٤]، وابن أبي شيبة [٣٧٢٥٢]، وأحمد [٩٦٩١] بإسناد صحيح، وأبو داود [٤٢٤٩]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٦٥/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٩٤٥]، والديلمى [٧١٤٢].

(٣) طبقات الحنابلة (٢٧/١)، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص: ٨٩).

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]. وإذا وقعت الفتنة لم يسلم من التلوث بها إلا من عصمه الله عَزَّوَجَلَّ^(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بينما نحن حول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ ذكر الفتنة، فقال: «إذا رأيتم الناس قد مرجت عهدوهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا» وشبك بين أصابعه، قال: فقلت إليه، فقلت: كيف أفعال عند ذلك، جعلني الله فداك؟ قال: «الزم بيتك، واملِك عليك لسانك، وخذ بما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة»^(٢).

وعند أبي داود رَضِيَ اللَّهُ بَلْفُظ: «كيف بكم وبزمان» أو «يوشك أن يأتي زمان يغربل الناس فيه غربلة، تبقى حثالة من الناس، قد مرجت عهدوهم، وأماناتهم، واختلفوا، فكانوا هكذا»، وشبك بين أصابعه، فقالوا: وكيف بنا يا رسول الله؟ قال: «تأخذون ما تعرفون، وتذرون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم، وتذرون

(١) منهاج السنة النبوية (٣٤٣/٤).

(٢) أخرجه أحمد من غير وجه، كما أخرجه ابن ماجة [٣٩٥٧]، وأبو داود [٤٣٤٣]، والنسائي في (الكبرى) [٩٩٦٢]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٢٠٥]، والطبراني (٩/١٣)، [٤]، وأخرجه أيضاً: الحاكم [٧٧٥٨] وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. والحديث قد روي عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من غير وجه. قال العراقي (ص: ٦٩٨): "أخرجه أبو داود، والنسائي في (اليوم والليلة) بإسناد حسن".

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

أمر عامتكم». قال أبو داود رَحِمَهُ اللهُ: هكذا روي عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير وجه (١).

وكذلك روي عن طائفة من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، قالوا: لم يأت تأويلها بعد، إنما تأويلها في آخر الزمان (٢).

وروي عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة، ولم تلبسوا شيئا، ولم يذق بعضكم بأس بعض، فأمروا وانهموا. فإذا اختلفت القلوب والأهواء، وألبستم شيئا، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤ ونفسه، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية (٣).

وتحتاج الأمة في الفتن عندما يلتبس الحق بالباطل أن ترجع لأهل العلم الراسخ، والنظر الثاقب، وتحذر من خطيب مصقع (٤)، وواعظ جاهل يشوه الحقائق، ويغطي العقل بلهب العواطف.

(١) سنن أبي داود [٤٣٤٢].

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/٢٥٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١١/١٤٤)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٤/١٢٢٧)، تفسير ابن كثير

(٣/٢١٤)، الدر المنثور (٣/٢١٦)، السنن الكبرى، للبيهقي [٢٠١٩٤].

(٤) يقال: (خطيب مصقع) - بكسر الميم -، أي: بليغ ماهر بالخطبة. و(مسقع) - بالسين - مثل مصقع.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقد روي عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ: "الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل" (١).

و"كان الحسن رَحِمَهُ اللهُ يبصر من الفتنة إذا أقبلت كما نبصر نحن منها إذا أدبرت" (٢).

وقد جاء في الحديث: عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مَنْافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ» (٣).

وعند (أبي يعلى): عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ مَا يَهْلِكُ هَذِهِ الْأُمَّةَ كُلِّ مَنْافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ» (٤).

وقوله: «كل منافق عليم اللسان» "أي: كثير علم اللسان، جاهل القلب والعمل، اتخذ العلم حرفة يتأكل بها، ذا هيبة وأبهة، يتعزز ويتعاضم بها، يدعو الناس إلى الله عَزَّجَلَّ ويفر هو منه، ويستتبح عيب غيره ويفعل ما هو أقبح منه، ويظهر للناس

(١) أخرجه ابن سعد في (الطبقات) (١٢٢/٧)، والبخاري في (التاريخ الكبير) (٣٢١/٤)، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٤/٩).

(٢) المجالسة (٨٦/٦).

(٣) أخرجه أحمد [١٤٣]، وابن حميد [١١]، والبخاري [٣٠٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٤١]، قال الهيثمي (١٨٧/١): "رواه البخاري وأحمد وأبو يعلى، ورجاله موثقون" عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري [٣٥١٤]، والطبراني في (الكبير) [٥٩٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٩] عن عبد الله بن بريدة، عن عمران بن حصين. قال الهيثمي (١٨٧/١): "رواه الطبراني في (الكبير) والبخاري، ورجاله رجال الصحيح".

(٤) معجم أبي يعلى [٣٣٤].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

التَّسْكُ والتَّعَبْدُ، ويسارر ربّه بالعظائم إذا خلا به ذئب من الذئاب لكن عليه ثياب، فهذا هو الذي حذر منه الشَّارِعُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا؛ حذرًا من أن يخطفك بحلاوة لسانه، ويحركك بنار عصيانه، ويقتلك بنتن باطنه وجنانه. قال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: والمنافقون أخبثُ الكفرة وأبغضهم إلى الله تعالى وأمقتهم عنده؛ لأنهم خلطوا بالكفر تمويهًا وتدليسًا، وبالشُّكر استهزاء وخداعًا؛ ولذلك أنزل فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] انتهى.

وكان يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللهُ يقول لعلماء الدنيا: يا أصحاب القصور قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأبوابكم ظاهرية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآثمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية، فأين المحمدية والعلمية؟! وأكثر علماء الزمان ضربان: ضرب منكبٌ على حطام الدنيا لا يمل من جمعه، وتراه شهره ودهره يتقلب في ذلك كالهج في المزابل يطير من عذرة إلى عذرة، وقد أخذت دنياه بمجامع قلبه، ولزمه خوف الفقر وحب الإكثار، واتخذ المال عدة للنوائب، لا يتنكر عليه تغلب الدنيا، وضرب هم أهل تصنع ودهاء وخداع وتزين للمخلوقين وتملق للحكام؛ شحًا على رئاستهم، يلتقطون الرخص، ويخادعون الله بالحيل، ديدنهم المداهنة وساكن قلوبهم المنى، طمأنينتهم إلى الدنيا، وسكونهم إلى أسبابها، اشتغلوا بالأقوال عن الأفعال، وسيكافئهم الجبار المتعال" (١).

(١) فيض القدير (٢/٤١٩)، الكشف، للزمخشري (١/٥٤).

الدُّرَرُ وَالسُّبُلُ إِلَى السَّعَادَةِ وَالرَّحْمَةِ الجزء الثاني

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم، فإذا كان العلماء فجرة، والعباد جهلة عمت المصيبة بهما، وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة"^(١).
قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء"^(٢).

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: "اتقوا فتنة العابد الجاهل والعالم الفاجر؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون"^(٣).
"وقد كان يقال: إن مثل الفتنة كمثل الدرهم الزيف يأخذه الأعمى ويراه البصير"^(٤).

وقال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: قد رأينا والله أقوامًا يسرعون إلى الفتن، وينزعون فيها، وأمسك أقوام عن ذلك هيبة لله عَزَّجَلَّ، ومخافة منه، فلما انكشفت إذ الذين أمسكوا أطيب نفسًا، وأثلج صدورًا، وأخف ظهورًا من الذين أسرعوا إليها، وينزعون فيها، وصارت أعمال أولئك حزازات على قلوبهم كلما ذكروها، وإيم الله لو أن الناس يعرفون من الفتنة إذا أقبلت كما يعرفون منها إذا أدبرت لعقل فيها جيل من الناس كثير، والله ما

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٦٠).

(٢) منهاج السنة (٣/٣٤٣).

(٣) شعب الإيمان [١٧٥٢]، أخلاق العلماء (ص: ٨٧)، الزهد والرقائق، لابن المبارك (١٨/٢)، المعجم، لابن المقرئ [٥٥]، أخبار الشيوخ وأخلاقهم (ص: ١٨٦)، صفحات مشرقة من حياة السلف (ص: ١١٤)، موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل [٤٢٤٢].

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٩/٣٠٣٣)، الدر المنثور، للسيوطي (٦/٤٥٠).

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

بعثت فتنة قط إلا في شبهة وريبة، إذا شبت رأيت صاحب الدنيا لها يفرح ولها يحزن ولها يرضى ولها يسخط، ووالله لئن تشبث بالدنيا وحدث عليها ليوشك أن تلفظه وتقضى منه" (١).

وقد كان حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يكثر من سؤال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الفتن حتى لا يقع فيها، ففي الصحيح عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: كان الناس يسألون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم» قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دَخْنٌ»، قلت: وما دخنه؟ قال: «قوم يهدون بغير هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنَكِّرُ»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها»، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ فقال: «هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا»، قلت: فما تأمري إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» (٢).

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني (٣٣٦/٢).

(٢) صحيح البخاري [٣٦٠٦، ٧٠٨٤]، مسلم [١٨٤٧].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

و(الدَّخْنُ) أصله: أن تكون في لون الدَّابَّةِ كُدُورَةٌ إلى سواد. قالوا: والمراد هنا أن لا تصفو القلوب بعضها لبعض، ولا يزول حُبُّهَا، ولا ترجع إلى ما كانت عليه من الصفاء^(١).

وقوله: «دعاة على أبواب جهنم من أجاهم إليها قذفوه فيها» قال العلماء: هؤلاء من كان من الأمراء يدعو إلى بدعة أو ضلال. وفي حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذا: لزوم جماعة المسلمين وإمامهم، ووجوب طاعته وإن فسق وعمل المعاصي، من أخذ الأموال وغير ذلك، فتجب طاعته في غير معصية^(٢).

وفي حديث: العَرَبَاضُ بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَمَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْتِمَسْكِ بِالْإِسْلَامِ، وَطَاعَةِ الْإِمَامِ، وَالتَّزَامِ سُنَّةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسُنَّةِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، فَعَنِ الْعَرَبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعَيْونُ، وَوَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مَوْدَعٌ؟ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٣).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٣٦/١٢ - ٢٣٧).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢٣٧/١٢).

(٣) أخرجه أحمد [١٧١٤٥]، والدارمي [٩٦]، وابن ماجه [٤٣]، وأبو داود [٤٦٠٧]، والترمذي [٢٦٧٦] وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه البزار [٤٢٠١]، وابن حبان [٥]، والطبراني في (الكبير) =

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» (١).

فأرشد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ إِلَى كَيْفِيَةِ التَّصَرُّفِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْفِتَنِ، حَيْثُ يَخْفَى الْحَقُّ، وَتُضْطَرُّ الْأُمُورُ، فَقَدْ دَعَا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى اجْتِنَابِ الصَّرَاعِ وَالْقِتَالِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ، وَالِاعْتِزَالِ فِي مَكَانٍ نَائٍ، يَرعى الرَّجُلُ الْغَنَمَ فِي قِمَمِ الْجِبَالِ، فَإِنْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ سِيُوفُ الْمُتَحَارِبِينَ، فَقَدْ أُمِرَ بِأَنْ يَمْتَنِعَ عَنِ الدَّفَاعِ عَنِ نَفْسِهِ، وَلَوْ كَانَ فِي هَذَا هَلَاكُهُ (٢).

وقد جاء في الحديث: عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِيْمَ اللَّهُ، لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، وإن السعيد لمن جنب الفتن، ولمن ابتلي فصر فواها» (٣).

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنهَا سَتَكُونُ فِتْنٌ: أَلَا تَمُ تَكُونُ فِتْنَةُ الْقَاعِدِ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي

= [٦١٨]، والحاكم [٣٢٩]، وقال: "صحيح ليس له علة"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي

في (السنن) [٢٠٣٣٨].

(١) صحيح مسلم [٨٦٧].

(٢) القيامة الصغرى (ص: ١٧٢).

(٣) أخرجه أبو داود [٤٢٦٣]، والبخاري [٢١١٢]، والطبراني [٥٩٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (١/١٧٥). قال

البخاري: "وإسناده حسن". و«واها» كلمة معناها التلهف، وقد توضع للإعجاب بالشيء.

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

إليها. ألا، فإذا نزلت أو وقعت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه»، قال فقال رجل: يا رسول الله أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: «يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاء، اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟» قال: فقال رجل: يا رسول الله أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين، أو إحدى الفتين، فضريني رجل بسيفه، أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: «يبوء بأثمه وإثمك، ويكون من أصحاب النار»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والذي نفسي بيده لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَتَلَ، وَلَا يَدْرِي الْمَقْتُولُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ قُتِلَ»^(٢).

وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الحديث الذي رواه أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(٣). فهذا تحذير بالغ من حمل السلاح عند الفتنة واختلاط الحق.

(١) صحيح مسلم [٢٨٨٧].

(٢) صحيح مسلم [٢٩٠٨].

(٣) صحيح البخاري [٣١، ٦٨٧٥]، مسلم [٢٨٨٨].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "وقد اختلف العلماء في قتال الفتنة، فقالت طائفة: لا يقاتل في فتن المسلمين، وإن دخلوا عليه بيته وطلبوا قتله فلا يجوز له المدافعة عن نفسه؛ لأن الطالب متأول، وهذا مذهب أبي بكر الصحابي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وغيره. وقال ابن عمر وعمران بن الحصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وغيرهما: لا يدخل فيها، لكن إن قصد دفع عن نفسه فهذان المذهبان متفقان على ترك الدخول في جميع فتن الإسلام. وقال معظم الصحابة والتابعين وعامة علماء الإسلام: يجب نصر المحق في الفتن، والقيام معه بمقاتلة الباغين كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَنِي نَعْمَانَ﴾ الآية [الحجرات: ٩]. وهذا هو الصحيح. وتُتَأَوَّلُ الأحاديث على من لم يظهر له المحق، أو على طائفتين ظالمتين لا تأويل لواحدة منهما، ولو كان كما قال الأولون لظهر الفساد، واستطال أهل البغي والمبطلون - والله أعلم -" (١).

وقال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: "والصواب أن يقال: إن الفتنة أصلها: الابتلاء وإنكار المنكر واجب على كل من قدر عليه، فمن أعان المحق أصاب، ومن أعان المخطئ أخطأ، وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها" (٢). ولا شك أن تبيين الحق والصواب في مثل هذه الظروف التي تقع فيها الفتن، وتظهر فيها الأهواء صعبٌ جدًّا، والأقرب إلى السلامة هو البعد والاعتزال؛ كيلا يصيب المسلم دمًا حرامًا، ولا يؤذي مسلمًا - والله أعلم بالصواب -" (٣).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٠/١٨)، وانظر: نيل الأوطار (٥/٣٩٣).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٣١/١٣)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٩١/٢٤).

(٣) القيامة الصغرى (ص: ١٧٤).

الدرر والاسرار في السبب النجاة

الجزء الثاني

ومن علامات الساعة: كثرة الفتن، وتكالب أمم الكفر على هذه الأمة، ففي الحديث: عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قِصْعَتِهَا»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»^(١).

و«الْوَهْنُ»: الضعف، وكأنه أراد بالوهن ما يوجب به؛ ولذلك فسره بحب الدنيا وكراهة الموت، وهما متلازمان فكأنهما شيء واحد، يدعوهم إلى إعطاء الدنيا في الدين من العدو المبين، ونسأل الله العافية فقد ابتلينا بذلك^(٢)، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وفي الحديث: قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنْ أَمْتَكُمْ هَذِهِ جَعَلَ عَافِيَتَهَا فِي أَوْلَهَا، وَسَيَصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تَنْكُرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرْفَقُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مَهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ

(١) أخرجه الطيالسي [١٠٨٥]، وابن أبي شيبة [٣٧٢٤٧]، وأحمد [٢٢٣٩٧] بسند حسن، وأبو داود [٤٢٩٧]، والرويانى [٦٥٤]، وأبو نعيم في (الحلية) (١/١٨٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٨٧]، والدليمي [٨٩٧٧].
(٢) مرقة المفاتيح (٨/٣٣٦٦).

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فَلتأته مَنِيئُهُ وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يجب أن يُؤتى إليه»^(١).

إنَّ اعتصامَ هذه الأمة بدينها ووحدها حاجزٌ يقفُ دون مطامعِ أعدائها، فمهما كان مكرُّ الأعداء وقوتهم فإنهم لن ينالوا من هذه الأمة نيلاً إذا كان أبنائها متحدين، وتمسكين بكتاب الله عزَّجَلَّ وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وواضح من الحديث السابق أنَّ وحدة الأمة عِصمةٌ لها من أعدائها، فإذا أصبح بأسها بينها، ووقعت الفرقة والاختصام فيما بينها سلطَ الله عليها أعداءها، وتلك نتيجةٌ حتميةٌ؛ لأن قوتها في هذه الحال لا تتجهُ إلى الأعداء، بل إلى نفسها، فتدقِّرُ نفسها بنفسها، مما يُطمعُ أعداءها فيها^(٢).

(١) صحيح مسلم [١٨٤٤]. قال الإمام النووي: قوله: "«وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضا» هذه اللفظة رويت على أوجه، أحدها: وهو الذي نقله القاضي عن جمهور الرواة: «يرقق» بضم الياء وفتح الراء ويقافين، أي: يصير بعضها رقيقاً، أي: خفيفاً؛ لعظم ما بعده، فالثاني يجعل الأول رقيقاً. وقيل: معناه يشبه بعضها بعضاً. وقيل: يدور بعضها في بعض ويذهب ويجيء. وقيل: معناه: يسوق بعضها إلى بعض بتحسينها وتسويلها. والوجه الثاني: «فيرقق» بفتح الياء وإسكان الراء وبعدها فاء مضمومة. والثالث: «فيدفق» بالمدال المهملة الساكنة وبالفاء المكسورة، أي: يدفع ويصب، والدفق: الصب. قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وليأت إلى الناس الذي يجب أن يُؤتى إليه» هذا من جوامع كلمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويديع حكمه، وهذه قاعدة مهمة فينبغي الاعتناء بها، وأن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يجب أن يفعلوه معه". شرح النووي على صحيح مسلم (٢٣٣/١٢).

(٢) انظر: القيامة الصغرى (ص: ١٨٦).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

ثانياً: أسباب الوقاية والنجاة من الفتنة:

١ - الاستقامة والثبات على دين الله عَزَّوَجَلَّ في سائر الأحوال: في حال السراء والضراء، وفي حال الشدة والرِّخاء - كما تقدم-.

وقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل ربه عَزَّوَجَلَّ الثبات، كما جاء في الحديث: عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول: «يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك»، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يُقَلِّبُهَا كيف يشاء»^(١).

وقد نجى الله عَزَّوَجَلَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من فتنة النساء بما حصَّن به نفسه من قبل من الإيمان والتقوى، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

٢ - أن يستعيد المسلم من الفتنة ما ظهر منها وما بطن:

وقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيد بالله جَلَّوَعَلَا من الفتنة، وأمر أمته باتخاذ أسباب الوقاية من الفتنة، واللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والإكثار من الدعاء. والاستعاذة بالله جَلَّوَعَلَا من الفتنة من أعظم أسباب الوقاية من آفاتنا وخطرها؛ ولذلك حرص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تذكير أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وإرشاد أمته في مناسبات متعددة، إلى أهمية الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ من الفتنة، ومن ذلك:

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعَوَّدُوا بالله من الفتنة، ما ظهر منها وما بطن»^(٢).

(١) تقدم.

(٢) صحيح مسلم [٢٨٦٧].

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ البلاء، وَدَرْكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ»^(١).

وعن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: تعوذوا بكلمات كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعوذ بهن: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من أن أُرَدَّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وعذاب القبر»^(٢). وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول في دعائه: «اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»^(٣).

٣ - غرس العقيدة الصحيحة في نفوس الناشئة، وتعليم الناس أصول الاعتقاد، وما حَدَّثَ به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحاديث في الفتن، وتحذيره من الخوض فيها، وبيان صورها وآثارها، وكيفية التعامل مع كل حادثة، وإزالة اللبس والاشتباه عن العامة، والتحذير من دعاة الفتنة، ورد شبه أهل الباطل.

(١) صحيح البخاري [٦٦١٦].

(٢) صحيح البخاري [٦٣٧٤].

(٣) الحديث رواه غير واحد، وهو مروى عن ابن عباس، ومعاذ بن جبل وغيرهما. حديث ابن عباس: أخرجه أحمد [٣٤٨٤]، وعبد بن حميد [٦٨٢]، والترمذي [٣٢٣٣]، وقال: "حسن غريب". حديث معاذ بن جبل: أخرجه الترمذي [٣٢٣٥]، وقال: "حسن صحيح".

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

٤ - اعتقاد أن كل ما يصيب الإنسان من فتنة وبلاء إنما هو بقضاء الله عزَّجَلَّ وقدره: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]. فالإيمان بالله عزَّجَلَّ وقضائه وقدره من أسباب هداية القلوب، ولا سيما في وقت تزيغ فيه قلوب كثير من الناس.

٥ - الوحدة والائتلاف، وترك التنازع والاختلاف، والاعتصام بالكتاب والسنة؛ ولزوم الجماعة، قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال جلَّ وعلا: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسنة نبيه» (١) - كما تقدم في بيان أسباب العافية والهداية.

٦ - تقوى الله عزَّجَلَّ: قال طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ رَحِمَهُ اللهُ: "اتَّقُوا الْفِتْنَةَ بِالتَّقْوَى، فقال بكر بنُ عَبْدِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ: "أَجْمَلُ لَنَا التَّقْوَى فِي يَسِيرٍ، فقال: التَّقْوَى: العملُ بطاعة الله

(١) تقدم.

الرسالة السبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

على نُورٍ من الله؛ رَجَاءَ رَحْمَةِ اللهِ، والتَّقْوَى: رك معاصي الله على نور من الله مخافة عذاب الله" (١).

٧ - الحرصُ على العبادة أيام الفتن:

إن من الأمور التي يدفع بها المسلم الفتن: الحرص على العبادة، وقد بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضل العبادة أيام الفتن، واختلاط الأمور فقال: «العبادة في الهَرْج كهجرة إِيَّيَّ» (٢).

قال الإمام النووي رَحْمَةُ اللهِ: "المراد بالهَرْج هنا: الفتن، واختلاط أمور الناس. وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها ويشتغلون عنها، ولا يتفرغ لها إلا أفراد" (٣).

وقد جاء في الحديث: عن معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: سمعت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك» (٤).

(١) الزهد الكبير، للبيهقي [٩٦٥] [٣٥١/١]، وانظر: الرسالة التبوكية (ص: ١٣).

(٢) صحيح مسلم [٢٩٤٨].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/٨٨-٨٩).

(٤) صحيح البخاري [٣٦٤١]، مسلم [١٠٣٧]. وفي (صحيح مسلم) [١٩٢٠]: عن ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نحوه.

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الغرباء في آخر الزمان الذين يصلحون إذا فسد الناس، وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»^(١).
وإذا عمت الفتن اشتغلت القلوب، وإذا تعبد حينئذ متعبد دلَّ على قوة اشتغال قلبه بالله عَزَّجَلَّ فيكثر أجره^(٢).

قال القاضي أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وجهُ تمثيله بالهجرة: أنَّ الزمنَ الأوَّلَ كان الناسُ يَفرونَ فيه من دار الكفر وأهله إلى دار الإيمان وأهله، فإذا وقعت الفتنُ تَعَيَّنَ على المرء أن يفرَّ بدينه من الفتنة إلى العبادة، ويهجر أولئك القوم، وتلك الحالة، وهو أحدُ أقسام الهجرة"^(٣).

وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حائثًا أُمَّتَهُ على المبادرة والمصارعة إلى الخيرات قبل فوات الأوان: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»^(٤).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فالمتمسك بالعبادة في ذلك الوقت، والمنقطع إليها، المعتزل عن الناس، أجره كأجر المهاجر إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه يناسبه من حيث إن المهاجر فرَّ بدينه عن من يصدده عنه إلى الاعتصام بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

(١) صحيح مسلم [١٤٥].

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢/٤٢).

(٣) عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي (٩/٥٣).

(٤) صحيح مسلم [١١٨]، وقد تقدم.

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافعته

الجزء الثاني

وكذلك هو المنقطع للعبادة فرّ من الناس بدينه إلى الاعتصام بعبادة ربه جَلَّ وَعَلَا، فهو على التحقيق قد هاجر إلى ربه، وفر من جميع خلقه" (١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي بيان ما ينبغي أن يحرص عليه المسلم وقت الفتن: "وليتخذ وردًا من (الأذكار) في النهار ووقت النوم، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله عَزَّجَلَّ بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه. وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة؛ فإنها عمود الدين. وليكن هَجِيرَاهُ (٢): (لا حول ولا قوة إلا بالله)؛ فإنها بما تحمل الأثقال، وتكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال. ولا يسأم من الدعاء والطلب؛ فإن العبد يستجاب له ما لم يعجل، فيقول: قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي. وليعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا، ولم ينل أحد شيئا من حَتْمِ الْخَيْرِ نَبِيٌّ فَمَنْ دُونَهُ إِلَّا بِالصَّبْرِ" (٣).

٨ - البعد عن الذنوب والمعاصي، وهجر مجالس اللهو واللغو والغيبة والنميمة، فما نزل بلاء إلا بذنب، وقد قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣٠٩/٧).

(٢) أي: كلامه ودأبه وشأنه ودَيْدَنَهُ.

(٣) مجموع الفتاوى (١٣٧/١٠)، أمراض القلب (ص: ٢٧).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني



٩ - أن يحرص المسلم على الكسب الطيب وإن قل.

١٠ - التبين والتبصر في تحري الحق، والحلم والأناة، والصبر على البلاء:

قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا أحب أحدكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا، فلينظر

فإن كان رأى حلالاً كان يراه حراماً فقد أصابته الفتنة، وإن كان يرى حراماً كان يراه حلالاً فقد أصابته» (١).

وعند حلول الفتن تزيغ أبصاراً عن الحق، وتبصره أخرى، وفيها تتبدل الأحوال، وتختبر عقول الرجال، ويمتحن الإيمانُ أيما امتحان. وفي زماننا فتنٌ كثيرةٌ عاصفةٌ لا يسلم من شرها إلا من ثبته الله عزَّ وجلَّ، فرزقه بصيرةً وفرقانا، فأبصر الحق، وأنصف الخلق، واحترز عن النفاق والمداهنة، كما جاء في الحديث: «إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، وإن السعيد لمن جنب الفتن، ولمن ابتلي فصبر فواها» (٢).

وقال الله جلَّ وعلا: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "فأمره بالصبر، وأخبره أن وعد الله حق،

(١) أخرجه نعيم بن حماد في (الفتن) [١٣٠]، وابن أبي شيبة [٣٧٣٤٣]، والحاكم [٨٤٤٣]، وقال: "صحيح الإسناد على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضاً: أبو نعيم في (الحلية) (٢٧٢/١).

(٢) تقدم.

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

وأمره أن يستغفر لذنبه. ولا تقع فتنة إلا من ترك ما أمر الله به، فإنه جَلَّ وَعَلَا أمر بالحق، وأمر بالصبر، فالفتنة إما من ترك الحق، وإما من ترك الصبر" (١).

وفي الحديث: «ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني» (٢)، يعني: أن الأمراء يفضلون عليكم غيركم في العطايا والولايات والحقوق، فاصبروا على ما يسومكم به أمراء الجور، حتى تلقوني يوم القيامة على الحوض، فتنصفون ممن ظلمكم، وتجازون على صبركم.

إن التروي والأناة والتبصر كل ذلك مما يجعل المسلم يبصر حقائق الأمور، ويقف على أبعادها وعواقبها، كما قال عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وصف الروم: «إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ویتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك»، قال ذلك عقب سماعه قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس» (٣).

١١ - الحذر من الشائعات، والروايات الواهية، ونقل الأخبار المكذوبة، وقد حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك فقال: «كفى بالمرء كذباً أن يُحدِّث بكلِّ ما

(١) الاستقامة (ص: ٣٨-٣٩).

(٢) صحيح البخاري [٢٣٧٦، ٢٣٧٧، ٣١٤٧، ٣١٦٣، ٣٧٩٢، ٣٧٩٣، ٣٧٩٤، ٤٣٣٠، ٤٣٣١، ٧٠٥٧]، مسلم [١٠٥٩، ١٠٦١، ١٨٤٥].

(٣) صحيح مسلم [٢٨٩٨].

الدراسة السبيل إلى النجاة والمسائل الناجمة عنها طيبة نافعة

الجزء الثاني

سَمِعَ»^(١)، أي: إذا لم يتثبت؛ لأنه يسمع عادةً الصدق والكذب، فإذا حَدَّثَ بكلِّ ما سمع لا محالة يكذب. وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالتَّثَبُّتِ في النقل، ولا سيما في أخبار المجاهيل والفساق كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦].

١٢ - البعد عن التعرض للفتن والخوض فيها حتى يأمن المسلم على نفسه من آفاتهما وآثارها: وقد تقدم قول حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إياك والفتن، لا يَشْخَصُ لها أحد، فو الله ما شَخَصَ منها أحد إلا نسفته كما ينسف السَّيْلُ الدِّمْنَ».

١٣ - رُدُّ المسائل إلى التَّأْصِيلِ العِلْمِيِّ القائم على منهج شرعي، والالتفاف حول العلماء الربانيين الراسخين؛ فإن الالتفاف حولهم يعد سبيلاً مهماً من سبل النجاة من الفتن على مختلف أنواعها وأشكالها، كما يعين على الأمن من الزيغ والضلال، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

فهذا تنبيه بالغ إلى العباد في عدم الخوض فيما لا علم لهم به، وما لا يدركون آثاره. فإذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، ولا سيما في المصالح العامة المتصلة بالأمن أو الخوف، فينبغي أن لا يتعجلوا في حكم من غير تبين ولا تثبت، بل يردونه إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى العلماء الراسخين من أهل العلم والرأي والنصح والبصيرة والرزانة، الذين يعرفون المسائل ومقاصدها وأبعادها وآثارها، فيدركون المصالح وضدها.

(١) تقدم.

الدرر والاسرار في النجاة

الجزء الثاني

وفيه: النهي عن العجلة والتسرع في الحكم، وفي نشر الأخبار وإشاعتها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر.

ومن صفات مرضى القلوب: التعجل في النقل من غير تبين ولا تثبت ولا نظر، ومن صفاتهم: الإرجاف، والكذب أو التحريف. قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهٖ﴾ [النساء: ٨٣].

وقد تقدم أن الفتنة إذا أقبلت عرفها العلماء، فإذا أدبرت عرفها العامة ولكن بعد الفوات.

- ١٤ - التَّمييز بين العلماء الرَّبَّانِيين العاملين وبين من سواهم من المضلِّين.
- ١٥ - أن يحرص العلماء على البيان عند حاجة الناس، وأن يحدروا العامة من الرؤساء الجهال، كما تقدم بيان ذلك في عقبة (كتمان الحق).
- ١٦ - مناصحة أئمة المسلمين وعامتهم:

جاء في (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ): "باب قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الدين النصيحة: لله عزَّجَلَّ، ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأئمة المسلمين، وعامتهم، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١]: حدثنا مسدد، قال: حدثنا يحيى، عن إسماعيل، قال: حدثني قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «بايعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»^(١).

(١) صحيح البخاري (٢١/١) [٥٧].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وعن تميم الداري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»^(١).

قال ابن بطلال رَحِمَهُ اللهُ: "والنصيحة فرض يجزئ فيه من قام به، ويسقط عن الباقي، والنصيحة لازمة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أنه يقبل نصحه ويطاع أمره، وأمن على نفسه المكروه. وأما إن خشي الأذى فهو في سعة منها.

قال أبو بكر الآجري رَحِمَهُ اللهُ: ولا يكون ناصحاً لله عَزَّوَجَلَّ، ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأئمة المسلمين، وعامتهم، إلا من بدأ بالنصيحة لنفسه، واجتهد في طلب العلم والفقه؛ ليعرف به ما يجب عليه، ويعلم عداوة الشيطان له، وكيف الحذر منه، ويعلم قبيح ما تميل إليه النفس حتى يخالفها بعلم.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين: فهي على قدر الجاه والمنزلة عندهم، فإذا أمن من ضرهم فعليه أن ينصحهم، فإذا خشي على نفسه فحسبه أن يغير بقلبه، وإن علم أنه لا يقدر على نصحهم فلا يدخل عليهم، فإنه يغشهم ويزيدهم فتنة ويذهب دينه معهم.

وقد قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: ربما دخل العالم على الملك ومعه شيء من دينه فيخرج وليس معه شيء، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: يصدقه في كذبه، ويمدحه في وجهه"^(٢).

(١) صحيح مسلم [٥٥].

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطلال (١٢٩-١٣١).

الدرر السابغ إلى السبيل النجاة

الجزء الثاني

وقد جاء في الحديث: عن كعب بن عُجْرَةَ أنه قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعِيدُكَ بِاللَّهِ يَا كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ مِنْ أَمْراءِ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي، فَمَنْ غَشِيَ أَبْوابَهُمْ فَصَدَّقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظَلَمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَا يَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضُ، وَمَنْ غَشِيَ أَبْوابَهُمْ أَوْ لَمْ يَغْشَ وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ فِي كَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعْنَهُمْ عَلَى ظَلَمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَسَيَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضُ»^(١).

قوله: «فمن دخل عليهم»، أي: من العلماء وغيرهم، «وأعانهم على ظلمهم»، أي: بالإفتاء ونحوه. «فليس مني ولست منه»، أي: بيني وبينهم براءة ونقض ذمة.

قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: "(النصيحة): كلمة يعبر بها عن جملة هي: إرادة الخير للمنصوح له، قال: وأصل النصح في اللغة: الخلوص، يقال: نصحت العسل: إذا خلصته من الشمع. فمعنى النصيحة لله عَزَّوَجَلَّ: صحة الاعتقاد في وحدانيته، وإخلاص النية في عبادته، والنصيحة لكتاب الله جَلَّ وَعَلَا: الإيمان به والعمل بما فيه. والنصيحة لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه.

والنصيحة لأئمة المؤمنين: أن يطيعهم في الحق، وأن لا يرى الخروج عليهم بالسيف إذا جاروا.

(١) أخرجه الترمذي [٦١٤]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضاً: الطبراني في (الكبير) [٢١٢]. قال الهيثمي (٢٣٠/١٠): "رواه الترمذي باختصار، ورواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله ثقات".

الإرشاد إلى سبب النجاة والسبب إلى النجاة طيبة نافعة

الجزء الثاني

والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم" (١).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "وأما النصيحة لأئمة المسلمين: فمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه، ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتَأَلُّفُ قلوب الناس لطاعتهم. قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: "ومن النصيحة لهم: الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة، وأن لا يُعْرَوُا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يُدْعَى لهم بالصلاح" (٢).

وقد جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا أراد الله بالأمر خيرًا جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه» (٣). قال الحافظ أبو نُعَيْمٍ رَحِمَهُ اللهُ: "ومن نَصَحَ الولاة والأمرء اهْتَدَى، ومن غَشَّهْمُ غَوَى واعتَدَى" (٤).

(١) معالم السنن (٤/ ١٢٦). وانظر المعنى مفصلاً في (تعظيم قدر الصلاة)، لأبي عبد الله محمد بن نصر

المروزي (٢/ ٦٩١)، (جامع العلوم والحكم) (١/ ٢٢٠-٢٢٥).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٣٨).

(٣) أخرجه أحمد [٢٤٤١٤]، وأبو داود [٢٩٣٢]. قال الإمام النووي في (رياض الصالحين) (ص: ٢٢٧):

"رواه أبو داود بإسناد جيد على شرط مسلم". وأخرجه أيضاً: البزار [٢٦١]، قال الهيثمي (٥/ ٢١٠):

"رواه أحمد، والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح". وأخرجه أيضاً: ابن حبان [٤٤٩٤]، والبيهقي

[٢٠٣٢٠].

(٤) فضيلة العادلين (ص: ١٣٩).

الرسائل والأسبيل النجاة والسائل التاجع حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: وأما مناصحة ولاة الأمر فلم يختلف العلماء في وجوبها إذا كان السلطان يسمعها ويقبلها. ولما رأى العلماء أنهم لا يقبلون نصيحًا، ولا يريدون من جلسائهم إلا ما وافق هواهم زاد البعد عنهم والفرار منهم^(١).
وفي الحديث: عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ثلاث لا يُغْلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله عَزَّجَلَّ، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة»^(٢).

وعن طارق بن شهاب أن رجلاً سأل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد وضع رجله في العُزْر^(٣)، أي: الجهاد أفضل قال: «كلمة حق عند سلطان جائر»^(٤).
١٧ - الإخلاص لله عَزَّجَلَّ في سائر الأقوال والأعمال.

١٨ - البعد والحذر من دعاة الفتنة، وأئمة الضلال، وأصحاب البدع والأهواء ومناهجهم: قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي عَائِيَتِنَا فَأَعْرِضْ

(١) الاستذكار (٥٧٩/٨).

(٢) تقدم.

(٣) «العُزْر» هو بفتح الغين المعجمة ثم راء ساكنة ثم زاي، وهو ركاب كور البعير إذا كان من جلد أو خشب. وقيل: هو الكور مطلقاً، كالركاب للسرّج. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٩٧/٨). قال ابن عبد البر: «العُزْر لا يكون إلا في الرحال على الجمال، وهو بمنزلة الركاب من السروج من جمل وغيره» الاستذكار (٥٢٧/٨).

(٤) أخرجه أحمد [١٨٨٢٨]، والنسائي [٤٢٠٩]، والدولابي في (الكنى والأسماء) [٤٢٧]، والضياء في (المختارة) [١٢٢]. قال المنذري (٣/١٥٨) بعد عزوه للنسائي: «إسناده صحيح».

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ [الأنعام: ٦٨].

وهذا لا بد منه وقت الفتن؛ لأن كثيرين يخوضون بغير علمٍ فيؤدي خوضهم الى أنواعٍ من البلاء، والتفرق، والتصرفات الطائشة، وقد يفضي الى سفك الدماء، وقتل الناس بعضهم بعضاً بغير حقِّ.

١٩ - البصيرة التامة بحقيقة الحياة الدنيا، وإيثار الحياة الباقية على الحياة الفانية.

٢٠ - البصيرة التامة بحقيقة الإنسان وضعفه وحاجته ومآله.

٢١ - التفقه في الدين، ومجالسة العلماء الربانيين؛ فإن الأخذ عنهم يورث

استقامة في الفكر والسلوك.

٢٢ - تجنُّب صحبة المضلِّين والمبطلين، والحرص على صحبة أهل الصلاح

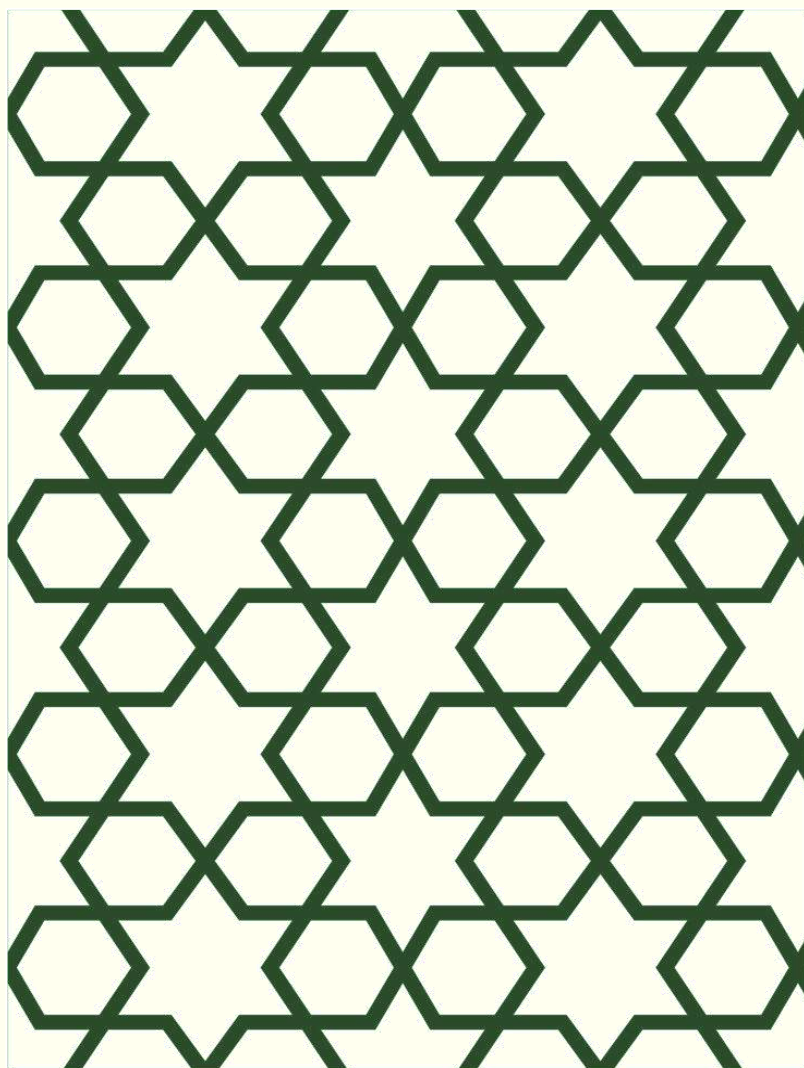
والعدل والاستقامة.

الدراسة إلى أسباب النجاة
والمسائل التي أوجعت حينا لا طيبتنا فاعترا



الجزء الثاني

الإرشاد إلى أسباب النجاة



الدراسة والسبب النجاة

وَالْوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً



الجزء الثاني



المبحث الرابع عشر:

اجتناب أعمال

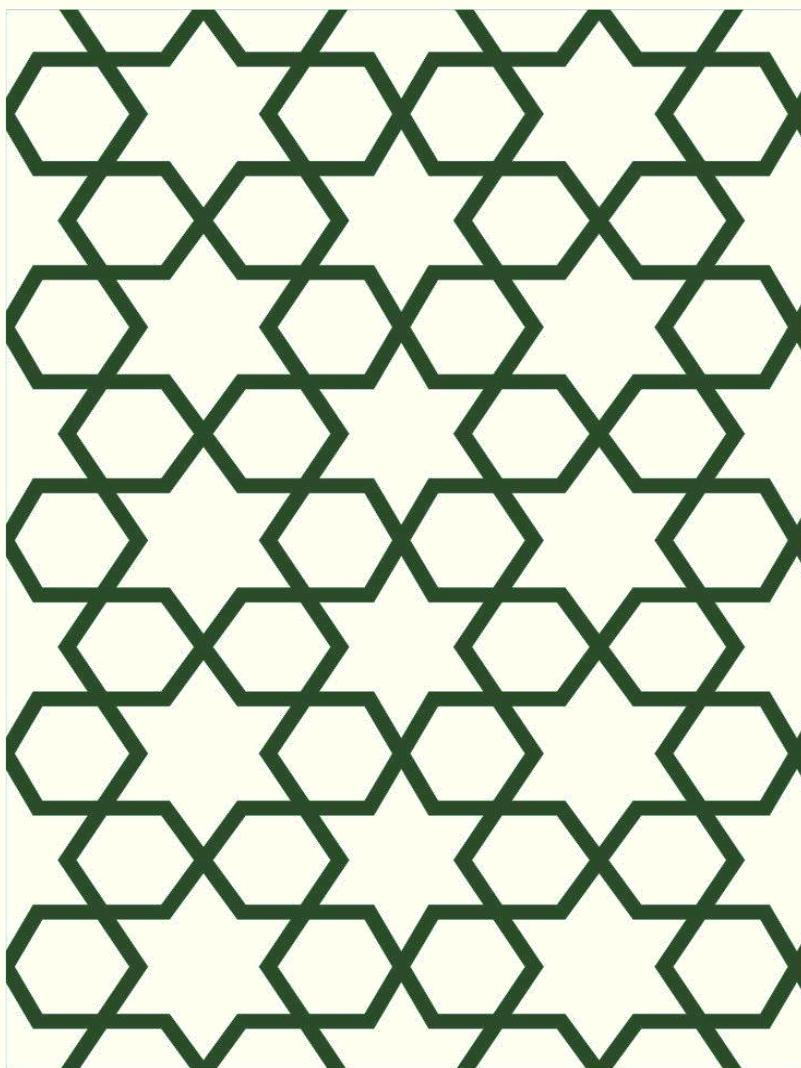
أهل النار

الإرشاد إلى أسباب النجاة
والمسائل التي أوجعت حياة طيبة نافعاً



الجزء الثاني

الإرشاد إلى أسباب النجاة



المرشد إلى سبب النجاة والوسائل التي تجتنب حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

إنَّ من أسباب النجاة من أهوال يوم القيامة: اجتناب أعمال أهل النار، وقد أفردتُ هذا الموضوع بالبحث؛ لأهميته، وقد ذكرتُ من قبل أن هذا الكتاب قد جاء مرشدًا لأسباب النجاة العامة، متتمًا لما تقدم إفراده بالبحث من الموضوعات ذات الصلة، ومذكّرًا بالأعمال الجليلة التي خصت بمزيد من الفضل، والتي هي من أسباب النجاة، وحسن العاقبة، والتي ترفع العبد درجات في الآخرة. وإنَّ ما تُوعَد عليه بالنَّار لا ينفكُ عن أسباب النجاة، كما هو بين؛ ولذلك فإني أذكر بموضوعاته هنا، مع الإحالة في البيان والشرح إلى كتاب: (نهج الأبرار في اجتناب ما تُوعَد عليه بالنار).

وقد جاء في مقدمة الكتاب: أنَّ النَّاسَ يفزعون عند اشتداد الحرِّ إلى ظلِّ ظليلٍ، أو مكانٍ باردٍ، ويهيئون ما يعينهم من الوسائل على تخفيف شدَّة الحرِّ. هذا حال النَّاسِ في اتخاذ أسباب الوقاية من حرِّ الشَّمسِ في الدُّنيا، وقد علموا أنَّ الدُّنيا ليست دارَ قرارٍ، وأنهم راحلون منها، فهلاً تفكَّروا في نارِ الآخرة، واتخذوا أسباب السَّلامة والوقاية منها؟ وقد علموا أنَّ الآخرة هي الدَّارُ الباقية. وقد حدَّرنا الله عزَّ وجلَّ من نارِ الآخرة، وأمرنا باتخاذ أسباب الوقاية منها، ولا تكون الوقاية إلَّا بالعلم والعمل، فلا بدَّ للمكلف من معرفة المهلكات وآثارها، حتى يتجنبها ويحترز عنها.

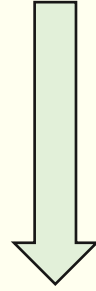
وحيث إنَّ ما تُوعَد عليه بالنَّار في نصوص الكتاب والسُّنة هو من الكبائر الموبقات، وهو سبيل العصاة والمفسدين الفُجَّار، وأن ما يقابله من نهج الأبرار في الاعتقاد والسلوك من المنجيات من النَّار، كان لزامًا على كل مكلف عاقل يطلبُ

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

الهداية والنَّجاة أن يفقه ما قد يكون سبباً لشقائه فيتجنبه، وما يكون طريقاً لسعادته فيسلكه، وأن يتخذ من الأسباب ما ينجيه من النَّار في الآخرة، ويبعده عنها، فمن أراد الله عَزَّجَلَّ به خيراً وفقه لذلك، فرزقه بصيرةً وفرقاناً، فأبصرَ الحقَّ، وأنصفَ الخلقَ، وتجاوزَ العقبات التي تحولُ دونَ الهداية؛ للارتقاء إلى يفاع الاستبصار، ولاستنقاذ النَّفس من دَرَكاتِ النَّار.

ومن أسباب النجاة والعافية: اجتنابُ كلِّ ما جاء فيه وعيد بالعذاب، مما جاء بيانه مفصلاً في كتاب: (نهج الأبرار في اجتناب ما تُوعَد عليه بالنار).
أما موضوعات الكتاب التي ينبغي التنبه لخطر وآثار مواجهة ذنب منها، فهي على النحو التالي:



الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وَالْوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً



ما توعده عليه بالنار		
١ - الكفر.	٢ - الشرك.	٣ - النفاق.
٤ - السحر.	٥ - قاتل النفس بغير حق.	٦ - الاعتداء في القتل بعد العفو أو الصلح.
٧ - شرب الخمر.	٨ - الكِبْر.	٩ - ترك الصلاة..
١٠ - ترك الزكاة.	١١ - الإفطار في رمضان من غير عذر.	١٢ - الزنا.
١٣ - الربا.	١٤ - الفرار من الرِّحْف.	١٥ - ترك جهاد الأعداء عند تعينه.
١٦ - الانتحار.	١٧ - الرياء.	١٨ - ترك العمل بالعلم.
١٩ - كتمان الحق.	٢٠ - الغرور.	٢١ - الظلم.
٢٢ - أكل مال اليتيم.	٢٣ - قطع السِّدْر الذي يُظِلُّ النَّاسَ.	٢٤ - تعذيب الحيوان.
٢٥ - المكر والخديعة.	٢٦ - الأمن من مكر الله واليأس من رحمته.	٢٧ - الإفساد في الأرض والحراقة وقطع الطريق.

الدراسة والسبيل إلى النجاة

والوسائل التي جعلت حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

٢٨ - السرقة.	٢٩ - الغلول.	٣٠ - التطفيف في الكيل والبخس في الميزان.
٣١ - الشرب في آنية الذهب والفضة.	٣٢ - المجاهرة بالمعاصي ومحبة الحمد من غير فعل.	٣٣ - الخيانة.
٣٤ - البخل.	٣٥ - الجلوس في المجالس التي يُكْفَر ويستهزأ فيها بالدين وأهله.	٣٦ - عقوق الوالدين.
٣٧ - قطيعة الأرحام.	٣٨ - النياحة على الميت.	٣٩ - التصوير الذي يقصد منه مضاهاة خلق الله عَزَّوَجَلَّ.
٤٠ - تغيير خلق الله عَزَّوَجَلَّ.	٤١ - سرور بعض الناس بالقيام له.	٤٢ - الممتنعون من الهجرة الواجبة.
٤٣ - الإضرار في الوصية.	٤٥ - الفرق الضالة.	٤٦ - طلب المرأة الطلاق أو الخلع من زوجها بدون بأس.
٤٧ - نقض العهود والمواثيق.	٤٨ - الكذب.	٤٩ - الغيبة والنميمة.

الدراسة السبيل إلى النجاة



الجزء الثاني



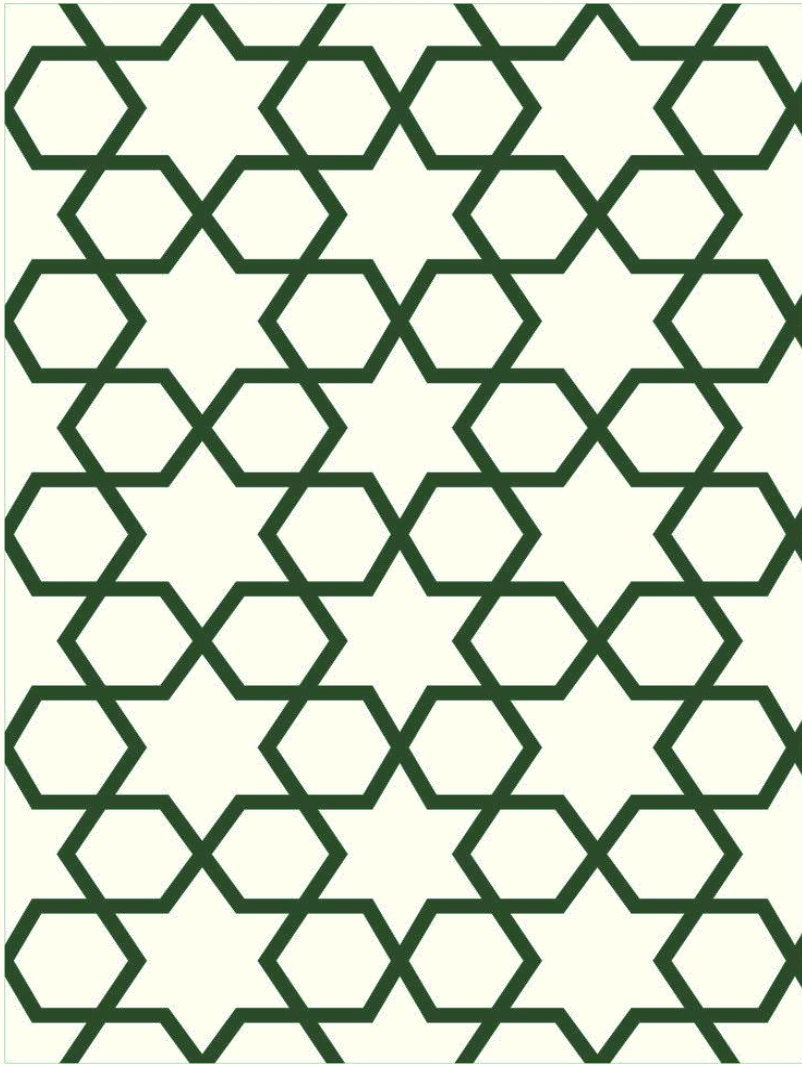
٥٠ - البهتان والإفك.	٥١ - قذف المحصنات.	٥٢ - المجادلة بالباطل.
٥٣ - السب واللعن.	٥٤ - التألي على الله عَزَّوَجَلَّ.	٥٥ - عموم الذنوب والمعاصي، وتعدي حدود الله عَزَّوَجَلَّ.
٥٦ - اتباع الهوى.	٥٧ - الابتداع في الدين.	٥٨ - ترك ركن من أركان الإسلام من غير عذر.
٥٩ - اتباع خطوات الشيطان.	٦٠ - الإعراض عن الهدى، ومقابلة نعم الله عَزَّوَجَلَّ بالجحود والنكران.	٦١ - الغفلة.
٦٢ - التحايل لأخذ حق الغير.	٦٣ - أكل المال الحرام.	-

الدراسة إلى أسباب النجاة
والمسائل التي أوجعت حياة طيبة نافعاً



الجزء الثاني

الإرشاد إلى أسباب النجاة



الدراسة والسبب النجاة والوسائد الناجعة حيا لا طيبة نافع



الجزء الثاني



المبحث الخامس عشر:

تجاوز العقبات

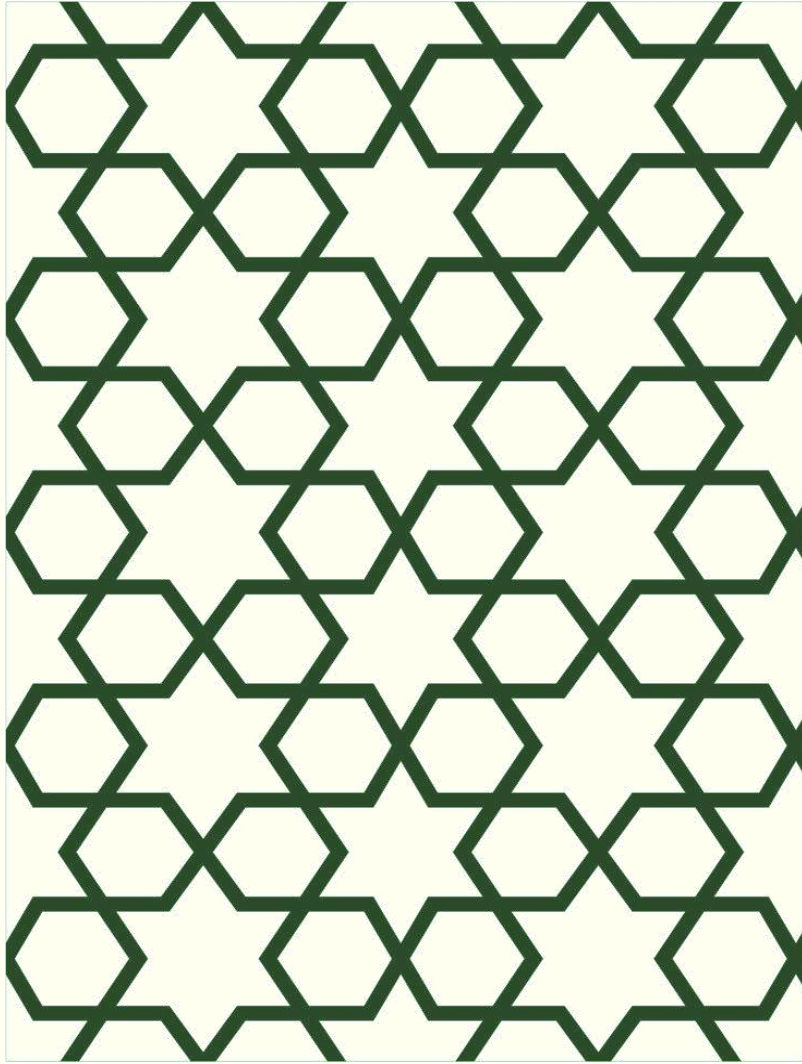
التي تحول دون الهداية

الهدى إلى أسباب النجاة وَالْوَسَائِلَ الَّتِي جَعَلَتْ حَيَاةَ طَيْبَتِنَا فَعْتَرًا



الجزء الثاني

الإرشاد إلى أسباب النجاة



الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافع



الجزء الثاني

إنَّ من أعظم نِعَمِ الله عَزَّجَلَّ على العبد أن يوفِّقه إلى استخلاص الحَقِّ من بين اضطرابِ الفرق، وتباينِ المسالك، وأن يتجاوزَ العقباتِ التي تحوّلُ دونَ الهداية؛ للارتقاءِ إلى يفاعِ الاستبصار، ولاستنقاذِ النَّفسِ من دَرَكَاتِ النَّارِ.

وإنَّ الهدايةَ أفضلُ مطلوبٍ، وأسمى مرغوبٍ، ولكنَّ طريقها محفوفٌ بالمكاره، فلا ينالُ سِلْعَةَ الله جَلَّ وَعَلَا الغالية إلاَّ من جاهد نفسه، وخالفَ الشيطانَ والهوى، وتجاوزَ الصوارفَ والعقبات، وسلكَ طريقَ الفلاح والنَّجاة.

والتفريطُ أو التساهلُ في طلب الهداية مفضٍ إلى التَّحسر والنَّدَم، حيثُ يكون المفرِّطُ من الخائبين الخاسرين، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتَنِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨]، فالعاقلُ من اختارَ طريقَ السَّعادة، واعتبرَ بغيره، والغافلُ من سلكَ طريقَ الشَّقَاء، واعتبرَ به غيره.

والهدايةُ طريقُها واضحٌ، ولكن قد تحوّلُ دونه صوارفٌ وعوائقٌ وموانعٌ تصرفُ المكلفَ عن الحَقِّ، أو تعيقُ الفكرَ عن سديدِ النَّظر، فلا تَسَلِّمُ المعرفةُ - والحالة هذه - من الآفاتِ، وبالتالي لا يصلُ السالكُ إلى الاقتناعِ والهداية.

والآفاتُ أو العوائقُ قد تكونُ نفسيةً كالعجب، والتَّكبر، والحسد، والرياء أو حبِّ الظُّهور، والغضب، والخجل أو الحياء المذموم المانع من السؤال عن المهمات، والتَّعصب، والحسد، والحقد، واتباع الهوى، والشُّعور بالكمال.. إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه.

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

وينبغي الاحتراز عن الآفات القلبية؛ فإنها من أهم أسباب الانتكاس بعد الهداية، والاعوجاج بعد الاستقامة. "فقد يكون الخطأ أو الجنوح الفكري عن الحقيقة ناشئاً عن الوهم الذي يحدثه الخوف أو الطمع أو الشهوة العارمة أو الغضب، أو حاجة من حاجات النفس، أو يحدثه عدم اتزان فكري؛ لخلل عارض أو دائم أو نحو ذلك من الأعراض والأمور النفسية. وقد ضرب الله عَزَّجَلَّ مثلاً لذلك بما حدث للمؤمنين في غزوة الأحزاب بسبب ما تعرضوا له من خوف شديد فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٠﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ٩-١٠]. فالاضطراب النفسي الذي أحدثه الخوف الشديد جعل الأبصار تزيع، والبصر متى زاغ فسدت رؤيته، فرأى غير الحقيقة، وجعل الأفكار تضطرب، ومع الاضطراب تأتي الأوهام. فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١١﴾﴾ هي لا شك حالة نفسية عارضة جلبها اختلال وظائف النفس بسبب شدة الخوف الطارئ، وهي ما يشمله العفو للعدو القائم. وقد حمى الله عَزَّجَلَّ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من زيغ البصر وطغيانه رغم عظم المشهد الذي رآه عند سدره المنتهى فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿٧﴾﴾ [النجم: ١٧]، فقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ أي: ما انحرف ولا اضطرب. وقوله: ﴿وَمَا طَغَى ﴿٧﴾﴾: زاد في الرؤية على الحقيقة شيئاً" (١).

(١) انظر: بصائر للمسلم المعاصر (ص: ٩٦) فما بعد.

الدراسة السبيل إلى النجاة

والوسائد التي اجتمعت حياطة طيبة نافعة

الجزء الثاني

ومنها: عقبات وآفات خارجيّة، كالإعلام المضلل، والبيئة الفاسدة والتربية السيئة.

ومن الآفات: ما يظهر في سلوك المكلف كاتّباع الهوى، والإسراف، والبطالة، والفتور، واتّباع الظنّ المنهي عنه، وصحبة أهل الباطل، وتعاطي المسكرات.. الخ.
ومنها: آفات في طريق الدعوة ينعكس أثرها على المتلقّي، كسوء التبليغ، وكتمان الحق.

ومنها: ما يكون دائراً بين أمرين: أحدهما: محمود، والآخر: مذموم، كالحياء -مثلاً- فما يعنينا هنا: الشّق الثاني من حيث كونه عائقاً عن الهداية.
وتحصّل مما تقدّم أن العقبات منها ما هو ماديّ محسوس، ومنها ما هو معقول.
ومن أراد الهداية فإنّ أمامه من العقبات والعوائق ما قد يعرفه، وما قد يجهره.
وهذه العقبات تتفاوت من حيث الأثر، فبعضها أصعب من بعض، وأعظم خطراً، وهذا بالنظر إلى حقيقة هذه الصوارف.

أما أثرها بالنسبة للسالكين فقد تحول دون تحقيق المراد أو بلوغ الغاية، وهي الهداية، وهذا الضلال عن الهداية ناشئ عن ضعف البصيرة في الدّين، والبعد عن تعاليمه، وضعف الهمة في طلب الهداية.

ولا يخفى أنّ العلم بهذه العقبات ومآلاتها من سبل الوقاية من آفاتنا وخطرها على المكلف في سيره إلى الله عزّ وجلّ.

قال ابن القيم رحمه الله: "وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد". وقال: "فإذا كان السير ضعيفاً، والهمة ضعيفة، والعلم بالطريق ضعيفاً، والقواطع الخارجة

الدراسة السبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

والداخلة كثيرة شديدة فإنه جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، إلا أن يتداركه الله عَزَّجَلَّ برحمة منه من حيث لا يحتسب فيأخذ بيده، ويخلصه من أيدي القواطع" (١).

وقد فرَّق ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ بين العوائق والعلائق، وأوضح أن كلاً منهما قد يكون عقبةً في طريق المكلف وسيره إلى الله عَزَّجَلَّ، ومن معوقات الهداية ما لم يتجاوز المكلف تلك العقبات، ويصحح المسار. فقال رَحِمَهُ اللهُ: "وأما (العوائق) فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها، فإنها تعوق القلب عن سيره إلى الله عَزَّجَلَّ، وتقطع عليه طريقه، وهي ثلاثة أمور: (شرك وبدعة ومعصية)، فيزول عائق الشرك: بتجريد التوحيد، وعائق البدعة: بتحقيق السنة، وعائق المعصية: بتصحيح التوبة. وهذه العوائق لا تتبين للعبد، يأخذ في أهبة السفر، ويتحقق بالسير إلى الله عَزَّجَلَّ، والدار والآخرة، فحينئذ تظهر له هذه العوائق، ويحس بتعويقها له بحسب قوة سيره، وتجرده للسفر، وإلا فما دام قاعداً لا يظهر له كوامنها وقواطعها.

وأما (العلائق) فهي كل ما تعلق به القلب دون الله عَزَّجَلَّ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من ملاذ الدنيا وشهواتها، ورياستها، وصحبة الناس والتعلق بهم. ولا سبيل له إلى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى، وإلا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع؛ فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه، وآثر عندها منه، وكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره، وكذا بالعكس،

(١) طريق المجرتين (ص: ١٨٥).

الرسالة إلى السبيل النجاة والسؤال والتأجيل طيبة نافعة

الجزء الثاني

والتعلق بالمطلوب هو شدة الرغبة فيه، وذلك على قدر معرفته به، وشرفه وفضله على ما سواه^(١).

كما فرّق بين العوائق والعلائق بأن (العوائق) هي: (الحوادث الخارجية)، و(العلائق) هي التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها^(٢).

وهذه دراسة أتناول فيها العقبات - ما كان منها من العوائق أو العلائق التي تكون في طريق الهداية -؛ ليكون كلُّ مسلمٍ على حذرٍ وبينةٍ وبرهانٍ من خطرها وآثارها، فيحترز عن مضلات الهداية، ويبصر طريق الحق، ويعرض عن سبيل الغواية، والذكرى تنفع المؤمنين، وتنبئ بصائر السالكين.

وقد أرسل الله عزَّ وجلَّ الرسل عليهم السلام لهداية الناس إلى طريق النجاة، وجعل للبشر من الحواس ما يهديهم في عالم المحسوسات، فجعل لهم أعينًا، وميزهم بالنطق، ثم أودع فيهم خصائص القدرة على إدراك الخير والشر، والهدى والضلال، والحق والباطل، وبين لهم طريق الخير وطريق الشر، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وقال جلَّ وعلا: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۗ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۗ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۗ ۝١٠ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۗ ۝١١﴾ [البلد: ٨-١١].

وعقبة جمع: عَقَبَات، والعقبة، بالتحريك. أصلها: المرقى الصعب من الجبال. وعقبة الجبل: الطَّرْف في أعلى الجبل، يقال: وقف حمار الشَّيخ في العقبة.

(١) الفوائد، لابن القيم (ص: ١٥٤).

(٢) المصدر السابق (ص: ١٤٥).

الدرر والاسرار النجاة

الجزء الثاني

"ويقال: اقتحم فلان عقبة أو وهدة: رمى بنفسه على شدة يريد اجتيازها وتخطيها"^(١).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "والاقتحام: الدخول والمجازرة بشدة ومشقة. والفُحمة: الشدة"^(٢).

وجعل الصَّالحة عقبة، وعملها اقتحامًا لها؛ لما في ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس"^(٣).

وقال ابن جزي رَحِمَهُ اللهُ: "الاقتحام الدخول بشدة ومشقة، والعقبة عبارة عن الأعمال الصالحة المذكورة بعد، وجعلها عقبة استعارة من عقبة الجبل؛ لأنها تصعب ويشق صعودها على النفوس"^(٤).

(١) المعجم الوسيط، مادة: (قحم) (٧١٧/٢).

(٢) "الفُحمة": الشدة" المغرب، مادة: (قحم) (ص: ٣٧٣). "الفُحمة السنَّة الشديدة. يقال: أصابت الأعراب الفُحمة إذا أصابهم قحط" الصحاح، للجوهري (٢٠٠٦/٥). وقال الزمخشري: "ركب قحمة من القحم، وهي عظام الأمور التي لا يركبها كل أحد. ووقعوا في القحمة وهي السنة الشديدة. وركب قحمة الطريق: ما صعب منها على سالكه، وللخصومة قحْم. وأقْتَحَمَ عَقْبَةً أو وَهْدَةً أو نَهْرًا: رمى بنفسه فيها على شدة ومشقة". أساس البلاغة (٥٤/٢).

(٣) الكشاف (٧٥٦/٤).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٤٨٤/٢).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: "وفي العقبات تظهر مقدره السابرة^(١). و(الافتحام): الدخول العسير في مكان أو جماعة كثيرين، يقال: اقتحم الصف، وهو افتعال للدلالة على التكلف مثل اكتسب، فشبه تكلف الأعمال الصالحة باقتحام العقبة في شدته على النفس ومشقته، قال جَلَوْنَا: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت: ٣٥]. والافتحام: ترشيح لاستعارة العقبة لطريق الخير، وهو مع ذلك استعارة؛ لأنّ تراحم الناس إنما يكون في طلب المنافع كما قال:

*** والمورد العذب كثير الرّحام^(٢).

وأفاد نفي الافتحام أنه عدل على الاهتداء؛ إيثاراً للعاجل على الآجل، ولو عزم وصبر لاقتحم العقبة^(٣). وبناء على ما تقدّم فإنّ المعنى الاصطلاحي المراد من العقبات هنا: ما يعترض السّالّكين من الصّعاب، والموانع، والعوائق التي قد تحول دون تحقيق المراد أو بلوغ الغاية، وهي الهداية. ومن مسالك الهداية: فقه العقبات؛ لتجنبها والاحتراز عنها.

(١) يقال: سبر الشيء: استخرج كنه أمره، وسبر الشيء: قاس غوره؛ ليتعرف على عمقه ومقداره، وسبر قدرته: اختبره وجربه.

(٢) عجز لبيت من الشعر، لبشار بن برد في (ديوانه) (٤/١٩٢)، وصدرة: يزدحم الناس على بابه^{***}.

(٣) التحرير والتنوير (٣٥٦/٣٠).

المرشاد إلى سبيل النجاة

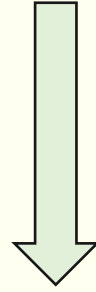
الجزء الثاني

ومن أراد سلوك طريق الهداية فإنَّ الله عَزَّجَلَّ يُعِينُهُ على تجاوز العقبات؛ لأنَّ الهداية من الهادي: الدلالة على الطريق الموصل إلى المطلوب، والتوفيق لسلوك ذلك الطريق، ومن العبد: معرفة الحق والعمل به، والله جَلَّ وَعَلَا هو الهادي، والعبد هو المهتدي.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في تفسير: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]:
"والصراط المستقيم يتضمن: معرفة الحق، والعمل به" (١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "والهداية معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله عَزَّجَلَّ عالماً بالحق عاملاً به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء" (٢).

وهالك الإشارة إلى هذه العقبات التي تقدم بسط القول فيها في كتاب: (عقبات في طريق الهداية وسبل الوقاية والعلاج منها):



(١) منهاج السنة النبوية (١/١٩).

(٢) شفاء العليل (ص: ٥٣).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

والوسائد التي اجتمعت حياطة طيبة نافعة

الجزء الثاني

عقبات في طريق الهداية

١ - الشيطان.	٢ - الكفر بالله عَزَّجَلَّ.	٣ - الشرك بالله عَزَّجَلَّ.
٤ - النفاق.	٥ - البدعة.	٦ - اتباع الهوى.
٧ - الذنوب والمعاصي.	٨ - الإعراض عن الهدى.	٩ - الشك والحيرة.
١٠ - حب الدنيا والتنازع على حطامها.	١١ - رفقاء السوء.	١٢ - الجهل.
١٣ - التقليد الأعمى.	١٤ - سوء التبليغ.	١٥ - القدوة السيئة.
١٦ - كتمان الحق.	١٧ - التفريط في تحري الحق.	١٨ - اشتباه الحقيقة.
١٩ - كثرة أهل الباطل.	٢٠ - التقديس (اعتقاد العصمة في غير المعصوم).	٢١ - المسكرات.
٢٢ - المجادلة بالباطل.	٢٣ - المفهوم الخاطئ للاستقامة.	٢٤ - الافتتان بعلوم الفلسفة.
٢٥ - اتباع الظن المنهي عنه.	٢٦ - العجب والكبر.	٢٧ - الغرور.

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

وَالْوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً



٢٨ - الحسد.	٢٩ - الغضب.	٣٠ - الخجل أو الحياء المذموم.
٣١ - فَقَدْ مَحَبَّةَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.	٣٢ - الرضا عن النفس.	٣٣ - التعصب.
٣٤ - العشق المحرم.	٣٥ - الغفلة.	٣٦ - عدم الاعتراف بالخطأ.
٣٧ - اليأس والقنوط..	٣٨ - الخوف المذموم.	٣٩ - البيئة الفاسدة والتربية السيئة.
٤٠ - الإعلام المضلل.	٤١ - الفقر المنسي والغنى المطغي.	٤٢ - الفتور.
٤٣ - البطالة.	٤٤ - التسرع في الحكم على الأشياء.	٤٥ - ترك المشورة.
٤٦ - الطائفية والحزبية.	٤٧ - التعلل بالابتلاءات.	٤٨ - تفرق السبل.
٤٩ - الاشتغال بالمفضول عن الفاضل.	٥٠ - الإسراف في المباحات.	٥١ - الاستدراج.
٥٢ - آفات اللسان.	٥٣ - الظلم.	٥٤ - الفتن.
٥٥ - المكر والخداع	-----	-----

الدراسة والسبب النجاة

وَالْوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً



الجزء الثاني



المبحث السادس عشر:

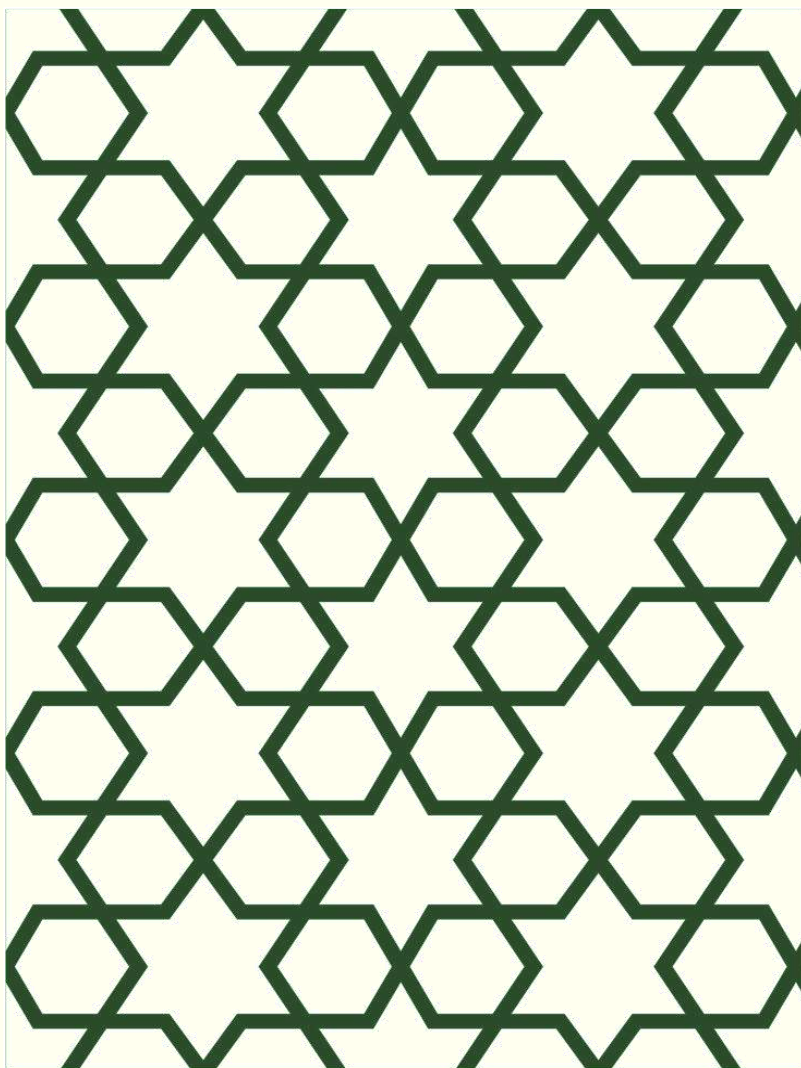
التربية الوقائية

الإرشاد إلى أسباب النجاة
والوسائل التي جعلت حياة طيبة نافعة



الجزء الثاني

الإرشاد إلى أسباب النجاة



الدراسة السبيل للحياة والوسائد الناجمة عنها



الجزء الثاني

إن موضوع (التربية الوقائية) عام ومتنوع، يندرج تحته فروع كثيرة، وتكمن أهميته من حيث إنه ينذر بالخطر، ويحشد الكوادر كل على حسب طاقته واختصاصه؛ لتفادي وقوعه بالسبل الممكنة، والطرق المتاحة، وبحكمة وروية، وعلم وبصيرة. فهو يعمل على تفادي خطر مرتقب قد لاحت نذر وقوعه، وهذا الخطر قد يصيب الفرد، أو يهدد وحدة الأسرة، أو حتى أمن المجتمع. فينبغي أخذ أسباب الوقاية من قبل عقلاء الأمة؛ لتجنب وقوعه؛ لأنه إذا وقع قد يستفحل خطره، ويعسر علاجه، فالوقاية من الخطر قبل وقوعه خير من التماس سبل العلاج بعد الوقوع.

ومن هنا فقد كان الاهتمام بهذه الموضوع جدياً لأهميته؛ لأن مجتمعاتنا بحاجة إلى العافية من كثير من أمراض منها ما هو مصطنع ومعد من قبل أعداء الأمة، وأئمة الضلال والفساد، وهو مرتقب يأتي على النحو الذي قد أعد له، وفي الوقت المقرر، ويستهدف الفرد والأسرة والمجتمع، وقد يصرف البعض عن الهداية، ويعيق الفكر عن سديد النظر، ومن هذه الأمراض: سوء التبليغ، والغلو والتطرف، والتعصب، وتصدر كثير من الجهال منابر الدعوة، والمفاهيم الخاطئة للاستقامة والالتزام؛ ولذلك فقد نما التطرف إلى حدٍ كبير، وأصاب الأمة ما أصابها من البلاء والركود. ومن الأمراض: الخمر وسائر المسكرات، والإعلام المضلل، إلى غير ذلك

ولا شك أن الوقاية خير من العلاج، فهي تحصن الإنسان الذي يسلك طريق الهداية من أن تناله الآفات أو ينحرف عن طريق الحق، كما أن (التربية الوقائية) لا تحصن الفرد فحسب، ولكنها تحصن الأسرة، وحصن المجتمع.

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

وتكون التربية الوقائية بتحديد الخطر، وتعريفه، والتبصير بآثاره وعاقبته، وفي المقابل التوجيه إلى الطريق الصحيح.

وقد أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ باتخاذ أسباب الوقاية لأنفسنا ولأهلينا من نار الآخرة، ومن السبل الموصلة إليها، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦].

ومن وسائل تحقيق ذلك: تعزيز مفهوم مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في نفوسهم، من خلال الترغيب والترهيب، والوعظ والتوجيه والإرشاد، حتى تكون مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ حاضرة في نفوسهم، وتكون الحصن الحصين لمواجهة المغريات، والملاذ الآمن لتجاوزها، والمعتصم لمجابهة نوازع النَّفس، وكبح شهواتها، والأمل في مقاومة وسائل الشَّيطان وأعدائه ومخالبه. ومن وسائل تحقيق ذلك أيضاً: تطهير البيوت من المنكرات، والتربية السليمة التي تبنى على الاعتقاد الصحيح، وملاحظة المؤثرات الخارجية والنفسية والسلوكية. ونقطة الارتكاز التي تنبعث منها هذه الاتجاهات الإصلاحية هي بناء سياج الأخلاق، وتربية السلوك، وبقظة الضمير.

تلك هي رسالة الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فبالأخلاق تستقيم السياسة، ويثمر الإصلاح، وينمو الاقتصاد، وتسعد النفس، ويحظى القانون بالاحترام والتقدير. وحتى يظل المجتمع متماسكاً، ودور الأسرة فيه إيجابياً يجب التصدي للتيارات الفكرية، والإمدادات السرطانية الزاحفة التي تعمل في دأب وعناء على التشكيك في ثوابت الأمة وعلمائها.

الإرشاد إلى سبب النجاة والوسائل التي تجعل حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

وتكون الوقاية من ذلك الخطر من خلال التبصير والتنوير بالمنهج الإصلاحي في التشريعات الإسلامية؛ حرصاً على كيان الأمة من التفكك والدوبان؛ وعلى أبنائها من الزيغ أو الانحراف. وهذا البناء السليم إنما يرتكز على أسس ومقومات، من نحو: الرقابة الإيجابية والتوجيه والإرشاد.

وإنَّ النَّاسَ يَفْزَعُونَ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْحَرِّ إِلَى ظِلِّ ظَلِيلٍ، أَوْ مَكَانٍ بَارِدٍ، وَيَهَيِّئُونَ مَا يَعْينُهُم مِنَ الْوَسَائِلِ عَلَى تَخْفِيفِ شِدَّةِ الْحَرِّ. هذا حال النَّاسِ فِي اتِّخَاذِ سَبَابِ الْوَقَايَةِ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ دَارَ قَرَارٍ، وَأَنْهُمْ رَاحِلُونَ مِنْهَا، فَهَلَّا تَفَكَّرُوا فِي نَارِ الْآخِرَةِ، وَاتَّخَذُوا سَبَابِ السَّلَامَةِ وَالْوَقَايَةِ مِنْهَا؟ وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ الدَّارُ الْبَاقِيَةُ.

وقد حذّرنا الله عَزَّجَلَّ مِنْ نَارِ الْآخِرَةِ، وَأَمَرْنَا بِاتِّخَاذِ سَبَابِ الْوَقَايَةِ مِنْهَا، وَلَا تَكُونُ الْوَقَايَةُ إِلَّا بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَالْإِنْسَانُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَكْلُوفٌ وَرَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّاعِي هُوَ الْحَافِظُ الْمُؤْتَمِنُ الْمَلْتَمِزُ صِلَاحَ مَا قَامَ عَلَيْهِ وَمَا هُوَ تَحْتَ نَظَرِهِ، وَكُلُّ مَنْ كَانَ تَحْتَ نَظَرِهِ شَيْءٌ فَهُوَ مُطَالَبٌ بِالْعَدْلِ فِيهِ، وَالْقِيَامُ بِمُصَالِحِهِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهِ وَمُتَعَلِّقَاتِهِ، فَإِذَا أَرَادَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَفْقَهُ الْأَخْطَارَ الَّتِي قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لَشِقَاؤِهِ، وَأَنْ يَكُونَ عَلَى دَرَايَةِ بِالْمُنْجِيَاتِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ سَعَادَتِهِ وَنَجَاتِهِ، وَأَنْ يَتَّخِذَ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا يَنْجِيهِ مِنَ الْآفَاتِ وَالْأَخْطَارِ، وَيُبْعِدَهُ عَنْهَا، فَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِهِ خَيْرًا وَفَقَهُ لِدَلِّكَ، فَرَزَقَهُ بَصِيرَةً وَفِرْقَانًا، فَأَبْصَرَ الْحَقَّ، وَأَنْصَفَ الْخَلْقَ، وَتَحَمَّلَ

الدراسة السبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

الأمانة على وفق الشرع، وتجاوز الآفات التي تحول دون الهداية؛ للارتقاء إلى يفاع الاستبصار، ولاستنقاذ النفس من دركات النار.

والحديث عن الأسرة له جوانب متعددة يتحمل أمانة بيانها والتبصير بها: العالم الناقد البصير، وخبير الاقتصاد، ورجل القانون..، فلكل من هؤلاء وغيرهم موقف ومقال..

فالأسرة هي المنطلق الحقيقي للبناء الحضاري والفكري للأمة. وتنمية المجتمع ليست بمعزل عن بناء الأسرة، وسعادة النفس رهن بالاستقرار الأسري.

وإن صلاح البيوت أمانة عظيمة، ومسؤولية جسيمة ينبغي على كل مسلم ومسلمة أدائها كما أمر الله عزَّجَلَّ، والسير بها على وفق ما شرع.

وينبغي التنبه إلى الخطر الذي قد يهدد كيان الأسرة قبل حدوثه، وتحصين الأسرة من الآفات التي قد تصيبها أو قد تصيب آفة منها أحد أفرادها. وهذه الحصانة المسبقة هي ما نسميه بالتربية الوقائية.

وقد أمرنا الله عزَّجَلَّ باتخاذ أسباب الوقاية لأنفسنا ولأهلينا من نار الآخرة، ومن السبل الموصلة إليها، فقال جلَّ وعلا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وفي زمن كثرت فيه المغريات، وازدادت فيه سبل الانحراف، وفي عصر الأجهزة الذكيَّة والإنترنت والفضائيات، باتت نوازع الشرِّ والانفلات تتقاذف أبنائنا، فأصبح من الضروري: تعزيز المراقبة الذاتِيَّة لدى الأولاد والطلاب وترسيخها، واتباع أمثل

الرسالة والسبيل النجاة

والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

الأدوات والسُّبُل لغرسها لديهم وتنميتها؛ حتى يتمكنوا من مواجهة طوفان الشرِّ، ولبناء منظومةٍ قيميةٍ تقوي يقينهم بدينهم وثقافتهم.

ومن وسائل تحقيق ذلك: تعزيز مفهوم مراقبة الله عزَّجَل في نفوسهم، من خلال الترغيب والترهيب، والوعظ والتوجيه والإرشاد، حتى تكون مراقبة الله عزَّجَل حاضرة في نفوسهم، وتكون الحصن الحصين لمواجهة المغريات، والملاذ الآمن لتجاوزها، والمعتصم لمجابهة نوازع النَّفس، وكبح شهواتها، والأمل في مقاومة وسائل الشَّيطان وأعدائه ومخالبه. ومن وسائل تحقيق ذلك أيضًا: تطهير البيوت من المنكرات، والتربية السليمة التي تبنى على الاعتقاد الصحيح، وملاحظة المؤثرات الخارجية والنفسية والسلوكية. ونقطة الارتكاز التي تنبعث منها هذه الاتجاهات الإصلاحية هي بناء سياج الأخلاق، وتربية السلوك، ويقظة الضمير.

تلك هي رسالة الدعوة إلى الله عزَّجَل، فبالأخلاق تستقيم السياسة، ويثمر الإصلاح، وينمو الاقتصاد، وتسعد النفس، ويحظى القانون بالاحترام والتقدير. وحتى يظل المجتمع متماسكًا، ودور الأسرة فيه إيجابيًا يجب التصدي للتيارات الفكرية، والإمدادات السرطانية الزاحفة التي تعمل في دأب وعناء على التشكيك في الثوابت، وذلك من خلال التبصير والتنوير بالمنهج الإصلاحي في التشريعات الإسلامية؛ حرصًا على كيان الأمة من التفكك والذوبان؛ وعلى أبنائها من الزيغ أو الانحراف.

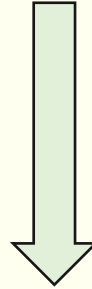
وهذا البناء السليم إنما يرتكز على أسس ومقومات، من نحو: الرقابة الإيجابية والتوجيه والإرشاد.

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

فموضوع (التربية الوقائية) من أهم الموضوعات التي ينبغي أن يُعنى بها؛ لأنه يعالج الأخطار التي قد تصيب الفرد، أو تهدد وحدة الأسرة، وأمن المجتمع. ولا سيما ما يُرَّجى له أو يخشى وقوعه في القريب، فينبغي أخذ أسباب الوقاية؛ لتجنب وقوعه؛ لأنه إذا وقع قد يستفحل خطره، ويعسر علاجه، فالوقاية من الخطر قبل وقوعه خير من العلاج بعد وقوعه.

ومن سُنَّة الله عزَّ وجلَّ في الأمم أنَّه لا يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]. وموضوع (التربية الوقائية) عام، وقد أفردت بالبحث منه في كتاب مستقل موضوع: (التربية الوقائية من آفات التفكك الأسري)، مبيِّناً سبل الوقاية من الأخطار المحدقة التي يخشى وقوعها، وقد جاءت موضوعاته مرتبة على النحو التالي:



الدُّرَرُ وَالرُّسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً

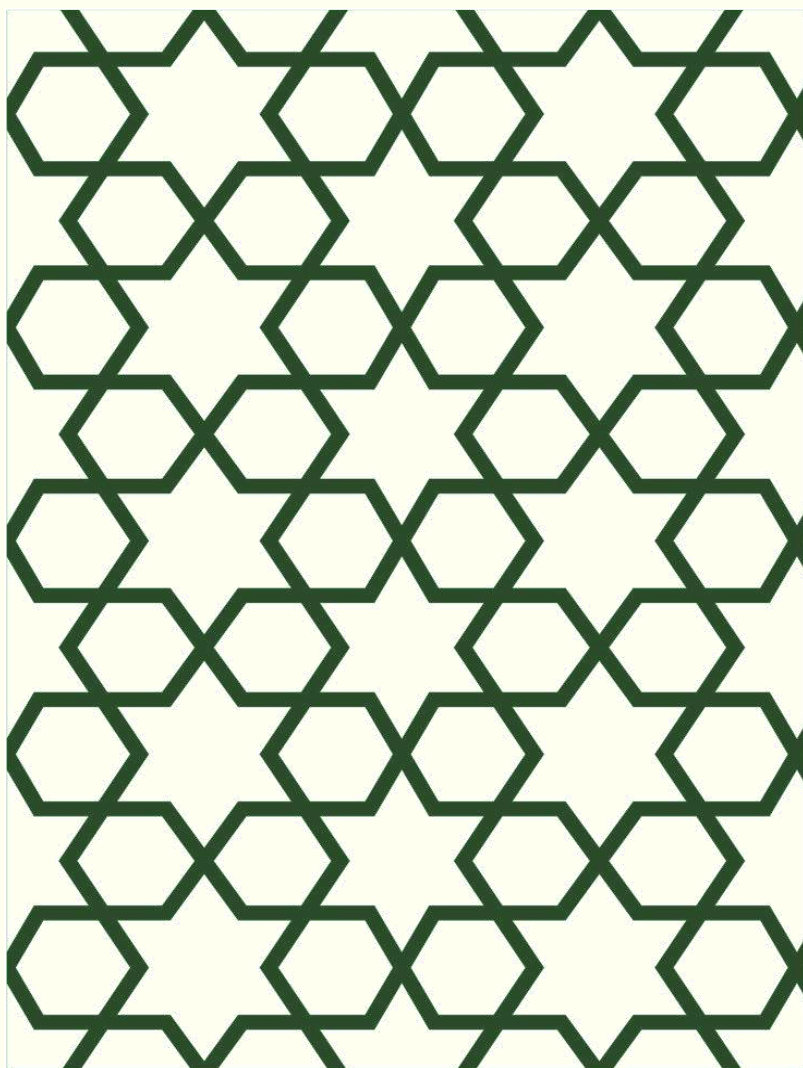
الجزء الثاني



التربية الوقائية		
الأسرة أنموذجاً		
١ - البيئة الفاسدة والتربية السيئة.	٢ - القدوة السيئة.	٣ - خيانة أحد الزوجين.
٤ - انشغال أحد الزوجين عن الآخر.	٥ - الظلم والتسلط والعنف الأسري.	٦ - الفساد الأخلاقي من خلال وسائل الإعلام والتواصل.
٧ - فساد المحيط الاجتماعي.	٨ - شيوع المفاهيم الخاطئة.	٩ - سوء الاختيار.
١٠ - الجانب المادي والأثر الاقتصادي.	١١ - التعجل في حسم أي خلاف.	١٢ - التنبه لخطورة السائقين والخدامات في البيوت.
١٣ - إهمال العناية الشخصية.	١٤ - الطلاق.	١٥ - عدم التحرز من مخاطر الهجرة وآثارها.

الدراسة إلى أسباب النجاة
والمسائل التي أوجعت حياة طيبة نافعاً
الجزء الثاني

الدراسة إلى أسباب النجاة



الدراسة والسبب النجاة وَالْوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً



الجزء الثاني



المبحث السابع عشر:

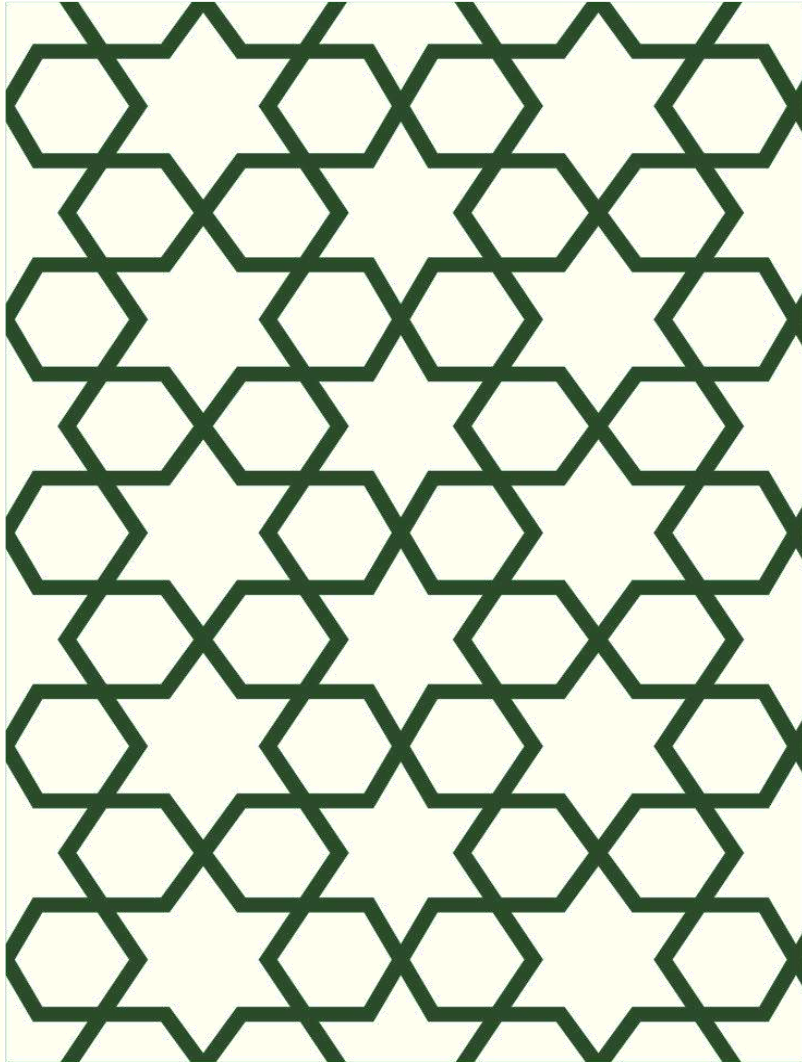
**طلب العلم وتحري الحق
والتلازم بين العلم والعمل**

الهدى إلى السبيل النجاة وَالْوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً



الجزء الثاني

الإرشاد إلى أسباب النجاة



الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

إن أعظم أسباب السلامة والعافية وحسن العاقبة: العلم والعمل، فالعلم بالذنب وعاقبته سبيل لتفاديه خطره وآثاره، والعلم بالفتن سبيل للوقاية من آثارها.. إلى غير ذلك، والعلم بالمنجيات، والتفقه في الدين سبيل لسلوك طريق الهداية، وسلامة الاعتقاد والعمل.

إن العلم من أفضل ما يكتسبه الإنسان، ومن أجل ما يتعبد به العبد ربه جَلَّ وَعَلَا، وهو ميراث الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وحلية الأولياء، ومن أعظم أسباب الرفعة في الدنيا والآخرة؛ قال الله عَزَّجَلَّ في بيان فضل العلم والعلماء: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، أي: يرفع الله عَزَّجَلَّ العالم على غير العالم إذا أخلص النية والقصد لله عَزَّجَلَّ، فيحجب إلى الخلق، ويحمده الناس من غير أن يتعرض هو لذلك، أو يطلبه، أو يكون من قصده، فيكون مكرماً في الدنيا والآخرة؛ لسلامته من غوائل الرياء.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "يرفع الله عَزَّجَلَّ المؤمن العالم على المؤمن غير العالم، ورفعة الدرجات تدل على الفضل؛ إذ المراد به كثرة الثواب، وبها ترتفع الدرجات، ورفعتها تشمل: الرفعة المعنوية في الدنيا: بعلو المنزلة، وحسن الصيت، والحسنية في الآخرة: بعلو المنزلة في الجنة" (١).

(١) فتح الباري، لابن حجر (١/١٤١).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وعن زيد بن أسلم رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ [يوسف: ٧٦] قَالَ: بِالْعِلْمِ (١).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] واضح الدلالة في فضل العلم؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يأمر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم. وأول كلمة أنزلت من القرآن الكريم هي ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» (٢).

وعن معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ يَرُدَّ اللهُ بِهِ خَيْرًا يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يَعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ» (٣).

وفي لفظ: «مَنْ يَرُدَّ اللهُ بِهِ خَيْرًا يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ، وَلَا تَزَالَ عَصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يِقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَاهُمْ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

(١) رواه ابن وهب: عن مالك. انظر: تفسير القرآن من الجامع، لابن وهب (١/١٣٦)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٧/٢١٧٧)، مسند الموطأ، للجوهري (ص: ٨٣)، حديث الزهري (ص: ٥٢٠)، جامع بيان العلم وفضله (١/٦١٩)، شرح السنة، للبغوي (١/٢٧٢)، فتح الباري، لابن حجر (١/١٤١)، الدر المنثور (٤/٥٦١).

(٢) صحيح مسلم [٢٦٩٩].

(٣) صحيح البخاري [٧١، ٣١١٦، ٧٣١٢]، مسلم [١٠٣٧].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ): قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ: "باب: العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم، «وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقاً يطلب به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة»، وقال جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْهَا إِلَّا الْعُلَمَاءُ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما العلم بالتعلم»، وقال أبو ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لو وضعتم الصمصامة^(١) على هذه -وأشار إلى قفاه- ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن تجيزوا علي لأنفذتها»، وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ﴿كُونُوا رَبَّنِيَّيْنَ﴾ [آل عمران: ٧٩]: «علماء فقهاء. ويقال: الرباني: الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كبارها»^(٢).

(١) بالمهملتين الأولى مفتوحة، أي: السيف الصارم الذي لا ينثني أو الذي له حد واحد. «وأشار إلى قفاه» وفي رواية: «إلى القفا» وهو مقصور: مؤخر العنق يذكر ويؤنث. «ثم ظننت أني أنفذ» بضم الهمزة وكسر الفاء؛ أي: أمضي «كلمة» نكرها؛ لتشمل القليل والكثير. «سمعتها من النبي». وفي رواية: «من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» أي: ظننت أني أقدر على إنفاذها وتبليغها، «قبل أن تجيزوا» بضم التاء المثناة التحتية وكسر الجيم، أي: الصمصامة «علي» أي: على قفائي، أراد به قبل أن تقطعوا رأسي، «لأنفذتها» أي: لأمضيت تلك الكلمة.

(٢) صحيح البخاري (٢٤/١).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

والوسائل التي تجعل حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

قال ابن المنير رَحِمَهُ اللهُ: "أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به فهو متقدم عليهما؛ لأنه مصحح للنية المصححة للعمل فنبه الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: إن العلم لا ينفع إلا بالعمل تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه. وقوله البخاري رَحِمَهُ اللهُ: (فبدأ بالعلم) أي: حيث قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، ثم قال: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]"^(١).

يعني: أن الشيء يعلم أولاً، ثم يقال ويعمل به، فالعلم مقدم عليهما بالذات، وكذا مقدم عليهما بالشرف؛ لأنه عمل القلب، وهو أشرف أعضاء البدن^(٢).

قال المهلب رَحِمَهُ اللهُ: "العمل لا يكون إلا مقصوداً لله عَزَّجَلَّ إلا بمعنى متقدم عليه، وهو علم ما وعد الله عليه من الثواب، وإخلاص العمل لله عَزَّجَلَّ، فحينئذ يكون العمل مرجو النفع؛ إذ تقدمه العلم، ومتى خلا العمل من النية، ورجاء الثواب عليه، وإخلاص العمل لله عَزَّجَلَّ فليس بعمل، وإنما هو كفعل المجنون الذي رفع عنه القلم. وقد بين ذلك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»^(٣).

وبالعلم ارتقت أممٌ، وسادت قيّمٌ، وبنيت أمجادٌ وصناعاتٌ، وشيدت ممالك وحضاراتٌ، فكَم من أمةٍ فاقت بالعلم وسادت! وكَم من أمةٍ تأخرت بالجهل وبادت! وهو يرفع صاحبه في الحياة، ويبقى له أجرًا وذخراً بعد الوفاة؛ عن أبي هريرة، أن رسول

(١) فتح الباري، لابن حجر (١/١٦٠)، عمدة القاري (٢/٣٩)، مصابيح الجامع (١/١٩٠).

(٢) الكواكب الدراري، لشمس الدين الكرمانلي (٢/٢٩-٣٠).

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/١٥١).

الدرر والاسرار النجاة والسائل الناجع حيا طيبنا فعتا

الجزء الثاني

الله صلى الله عليه وسلم، قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١).

والعلماء الربانيين ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وحراس الدين، والمبلغون الموقعون عن الله عَزَّجَلَّ في خلقه؛ فلهذا كان لهم أجر المجاهد في سبيل الله عَزَّجَلَّ^(٢)، وأجر الحاجِّ الدَّاهِبِ إلى بيت الله عَزَّجَلَّ^(٣)، ويستغفر لهم كل مخلوق على وجه الأرض^(٤)، وحق لهم

(١) صحيح مسلم [١٦٣١].

(٢) جاء في الحديث: «من جاء مسجدي هذا، لم يأتِه إلا لخير يتعلمه أو يعلمه، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك، فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره» أخرجه ابن أبي شيبة [٧٥١٧]، وأحمد [٩٤١٩]، وابن ماجه [٢٢٧]. قال البوصيري في (في زوائد ابن ماجه) (٣١/١) "هذا إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رواته". وأخرجه أيضاً: أبو يعلى [٦٤٧٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٥٧٥]. قال السندي: "وجه مشاهمة طلب العلم بالمجاهد في سبيل الله عَزَّجَلَّ: أنه إحياء للدين، وإذلال للشيطان، وإتباع النفس، وكسر ذرى اللذة، كيف وقد أبيض له التخلف عن الجهاد فقال جَلَّوَلَا: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢] الآية؟" حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١٠٠/١).

(٣) جاء في الحديث: «من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه كان له كأجر حاج تاماً حجته» أخرجه الطبراني [٧٤٧٣]. قال الهيثمي (١٢٣/١): "رجاله موثقون كلهم". وقال العراقي في تخريج أحاديث (الإحياء) (ص: ١٧٤٠): "إسناده جيد" كما أخرجه الحاكم [٣١١]، قال الذهبي: "على شرط البخاري" كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٩٧/٦)، وابن عساكر (٤٥٦/١٦).

(٤) جاء في الحديث: «من سلك طريقاً يتنغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها؛ رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر» أخرجه أحمد =

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

ذلك؛ فلقد ورثوا هذا الدين، وبلغوه إلى الخلق أجمعين، وميزوا فيه الصحيح من السقيم، فهم أئمة الهدى، يدعون الناس إلى الخير والصلاح، ويبينون لهم أمر دينهم ودينهم، ويدعونهم بالحجة والبيان، فيرشدون الأنام، وينشرون المحبة والسلام، ويرتقون بالمحب في مدارج الكمال، ويصرونه بعقبات الطريق، فالعالم يدلُّ على الله عزَّ وجلَّ بمقاله وسلوكه، ويكون سببًا للظفر بالحق، والفلاح في الدنيا والآخرة، فكم من تائه عن الصراط المستقيم أرشده!

والعالم أكثر طاعة وخشية وإخلاصًا لله عزَّ وجلَّ، كما قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

فإذا كان كذلك أحبه الله عزَّ وجلَّ محبة تفوق محبة الطائع العابد غير العالم، فليس العالم كغير العالم، فإذا أحبه الله عزَّ وجلَّ حبه إلى عباده.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "باب: (توقير العلماء والكبار وأهل الفضل وتقديمهم على غيرهم، ورفع مجالسهم، وإظهار مرتبتهم): قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو البصري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَوْمُ الْقَوْمِ أَقْرُوهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَأَقْدَمُهُمْ قِرَاءَةً، فَإِنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُمْ

= [٢١٧١٥]، والدارمي [٣٥٤]، وابن ماجه [٢٢٣]، وأبو داود [٣٦٤١]، والترمذي [٢٦٨٢] وقال: "لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة، وليس هو عندي بم متصل. ثم أورد له إسنادًا، وقال: هذا أصح". وأخرجه أيضًا: ابن الأعرابي [١٥٦٤]، وابن حبان [٨٨]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٥٧٤].

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

سواء، فليؤمهم أقدامهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء، فليؤمهم أكبرهم سنًا، ولا تؤمن الرجل في أهله، ولا في سلطانه، ولا تجلس على تكريمته في بيته إلا أن يأذن لك، أو بإذنه»^(١).

وفي رواية له: «فأقدمهم سلمًا» [بكسر السين وسكون اللام] بدل «سنًا»، [ويفسر السلم بقوله: أي: إسلامًا. والمراد «بسلطانه» محل ولايته، أو الموضع الذي يختص به. «وتكريمته» [يفتح التاء وكسر الراء]: وهي ما ينفرد به من فراش وسرير ونحوهما. وعنه قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول: «استووا، ولا تختلفوا، فتختلف قلوبكم، ليلني منكم أولو الأحلام والنهي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(٢)»^(٣).

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإذا كان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لهم حق التبجيل والتعظيم والتكريم، فلمن ورثهم نصيب من ذلك، أن يبجل ويعظم ويكرم.

وتوقير العلماء توقير الشريعة؛ لأنهم حاملوها، وبإهانة العلماء تهان الشريعة؛ لأن العلماء إذا ذلوا وسقطوا أمام أعين الناس؛ ذلت الشريعة التي يحملونها، ولم يبق لها قيمة عند الناس، وصار كل إنسان يحتقرهم ويزدرهم فتضيع الشريعة.

(١) صحيح مسلم [٦٧٣].

(٢) صحيح مسلم [٤٣٢].

(٣) رياض الصالحين، للإمام النووي (ص: ١٣٩-١٤٠) بتصريف يسير.

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافع

الجزء الثاني

كما أن ولاة الأمر من الأمراء والسلاطين يجب احترامهم وتوقيرهم تعظيمهم وطاعتهم، حسب ما جاءت به الشريعة؛ لأنهم إذا احتقروا أمام الناس، وأذلوا، وهون أمرهم؛ ضاع الأمن وصارت البلاد فوضى، ولم يكن للسلطان قوة ولا نفوذ.

فهذان الصنفان من الناس: العلماء والأمراء، إذا احتقروا أمام أعين الناس فسدت الشريعة، وفسدت الأمن، وضاعت الأمور، وصار كل إنسان يرى أنه هو العالم، وكل إنسان يرى أنه هو الأمير، فضاعت الشريعة وضاعت البلاد؛ ولهذا أمر الله عز وجل بطاعة ولاة الأمور من العلماء والأمراء فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

ونضرب لكم مثلاً: إذا لم يعظم العلماء والأمراء؛ فإن الناس إذا سمعوا من العالم شيئاً قالوا: هذا هين، قال فلان خلاف ذلك. أو قالوا: هذا هين هو يعرف ونحن نعرف، كما سمعنا عن بعض السفهاء الجهال، أنهم إذا جودلوا في مسألة من مسائل العلم، وقيل لهم: هذا قول الإمام أحمد بن حنبل، أو هذا قول الشافعي، أو قول مالك، أو قول أبي حنيفة، أو قول سفيان، أو ما أشبه ذلك قال: نعم، هم رجال ونحن رجال. لكن فرق بين رجولة هؤلاء ورجولة هؤلاء، من أنت حتى تصادم بقولك، وسوء فهمك، وقصور علمك، وتقصيرك في الاجتهاد، وحتى تجعل نفسك ندّاً لهؤلاء الأئمة رَحِمَهُمُ اللَّهُ؟ فإذا استهان الناس بالعلماء كل واحد يقول: أنا العالم، أنا النحرير، أنا الفهامة، أنا العلامة، أنا البحر الذي لا ساحل له وصار كل يتكلم بما شاء، ويفتي بما شاء؛ لتمزقت الشريعة بسبب هذا الذي يحصل من بعض السفهاء.

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وقال: فإذا لم يوقر العلماء ولم يوقر الأمراء؛ ضاع الدين والدنيا. نسأل الله العافية" (١).

ومنذ أكرم الله عزَّجَلَّ هذه الأمة ببعثة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأفواج الدعاة المصلحين يتعاقبون فيها، علماء ربانيون، ودعاة مصلحون، داعين إلى الحق، ومرشدين للخلق، حاكمين بالقسط، آمرين بالمعروف، وناهين عن المنكر. قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم، المتضلعون منه" (٢). وقال أبو السعود رَحِمَهُ اللهُ: "الراسخون في العلم: المتدبرون في الأشياء على ما ينبغي" (٣).

إن العلماء الربانيين هم مصابيح الهدى، فكم كشف الله بهم من غمة! وكم أزاح بهم من ملمة! ولا عجب فهم خلفاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمته، والمُحْيُونَ لما مات من سنته. والناس إن خلو من العلماء الربانيين تخطفتهم شياطين الإنس والجن، وتقاذفتهم الضلالات والفتن.

قال الشيخ محمد بن محمد المختار الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: "العلماء، وما أدراك ما العلماء؟ أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، أهل الرحمة والرضا، بهم يُتْحَدَى ويُهْتَدَى ويُتَّقَدَى. كم طالب علم علموه! وتائه عن صراط الرشده أرشده! وحائر عن سبيل الله بصروه ودلوه! بقاؤهم في العباد نعمة ورحمة، وقبضهم وموتهم عذاب ونقمة قال

(١) شرح رياض الصالحين، لمحمد بن صالح العثيمين (٣/٢٢٩-٢٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/٢٧٩).

(٣) تفسير أبي السعود (٧/٤١).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جَهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا» (١).

فما أقرب الطريق على العلماء إلى جنة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته، حملوا الكتاب والسنة، وأحيوا منارات الدين والملة، فالله أعلم كم بذلوا، وكم ضحوا من أجل هذا العلم المبارك، والخير الكبير!

وإذا أحب الله عبدًا من عباده حُب إلى قلبه العلماء، ومن أحب قومًا حشر معهم. جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ -أي: ليس عنده كثير صلاة، ولا صلاح، ولا صيام، يحب الصالحين وليس عنده كثير من الصلاح، ويجب العلماء وليس عنده العلم، يحب القوم ولما يلحق بهم- فقال: «المرء مع من أحب» (٢).

فمن أحب العلماء حشر مع الأتقياء السعداء: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وإذا أحب الله عَزَّوَجَلَّ عبدًا حُب إلى قلبه أوليائه: العلماء فأحبهم في الله عَزَّوَجَلَّ، ودعا لهم، واعتقد فضلهم، وكان خير معين لهم.

(١) صحيح البخاري [١٠٠]، مسلم [٢٦٧٣].

(٢) صحيح البخاري [٦١٦٩، ٦١٧٠]، مسلم [٢٦٤٠].

الدراسة والسبيل إلى النجاة

والوسائل التي تجعل حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

ولكن ينبغي التمييز بين العلماء الربانيين العاملين، ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، فلا يداهنون ولا ينافقون، يصلحون ولا يفسدون، يجمعون ولا يفرقون، وبين من سواهم؛ فإن الأمة تحتاج في الفتن عندما يلتبس الحق بالباطل أن ترجع لأهل العلم الراسخين، وتحذر من خطيب مصقع، وواعظ جاهل يشوه الحقائق، ويغطي العقل بلهب العواطف، كما تقدم بيان ذلك في (الفتن).

فإذا تخلى العالم عن الأمانة، وساء منه القصد والديانة، وكان جامعًا للعلم بلا عمل، مفارقًا للقيم الإنسانية، يكتم الحق، ويغش الخلق^(١)، فمثل هذا قد توعدده الله عز وجل بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].
وحذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أولئك المضلين فقال: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»^(٢).

(١) إن كتمان العلم، وتقاعس أهله عن بيان الحق، والسكوت والمداهنة والنفاق - مع القدرة على البيان - صاد عن الحق؛ لما في ذلك من التعمية والتلبيس على العامة.

(٢) أخرجه أحمد [٢٢٣٩٣]. قال الهيثمي (٢٣٩/٥): "رواه أحمد ورجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: الدارمي [٢١٥]، وأبو داود [٤٢٥٢]، والترمذي [٢٢٢٩]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه ابن أبي عاصم [٤٥٦]، وابن حبان [٧٢٣٨]، والحاكم [٨٣٩٠] وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (٢٨٩/٢)، والشهاب [١١٦٦]. كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [١٨٦١٧].

الدراسة السبب النجاة والسائل الناجع حياة طيبة نافع

الجزء الثاني

ومن هنا حرص أسلافنا أن لا يأخذوا العلم إلا عن الثقات الأمناء، قال ابن سيرين رَحِمَهُ اللهُ: "إن هذا العلم دين، فانظروا عَمَّنْ تأخذون دينكم" (١).

والحاصل أن كتمان الحق في الدين محذور إذا أمكن إظهاره، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من سئل عن علم فكتمه أجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» (٢).

والسكوت عن بيان الحق وإظهاره قد يكون سبباً في امتناع وصوله إلى كثيرين. قال ابن الوزير رَحِمَهُ اللهُ: "ولو أن العلماء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ تركوا الذبَّ عن الحق؛ خوفاً من كلام الخلق، لكانوا قد أضعوا كثيراً، وخافوا حقيراً" (٣).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: "ومنهم من يترك التكلم بالحق والإرشاد إليه؛ مخافة الضرر من تلك الدولة وأهلها، بل وعامتها؛ فإنه لو تكلم بشيء خلاف ما قد علموا عليه ونشروه في الناس لخشى على نفسه وأهله وماله وعرضه، ومنهم من يترك التكلم بالحق؛ محافظة على حظ قد ظفر به من تلك الدولة من مال وجاه" (٤).

وقال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ سبب رواج البدع "أن يعمل بها العوام وتشيع فيها وتظهر، فلا ينكرها الخواص، ولا يرفعون لها رؤوسهم، وهم قادرون على الإنكار فلم

(١) مقدمة صحيح مسلم (١٤/١).

(٢) أخرجه الطيالسي [٢٦٥٧]، وابن أبي شيبة [٢٦٤٥٣]، وأحمد [٧٥٧١]، وأبو داود [٣٦٥٨]، والترمذي [٢٦٤٩]، وقال: "حسن". وأخرجه أيضاً: البزار [٩٢٩٧]، وأبو يعلى [٦٣٨٣]، وابن الأعرابي [٧٣]، وابن حبان [٩٥]، والطبراني في غير موضع، والحاكم [٣٤٤] وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضاً: تمام [١٥٥٧]، والشهاب [٤٣٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦١٢].

(٣) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (٢٤/١) (٢٢٣/١).

(٤) أدب الطلب ومنتهى الأرب (ص: ٦٢).

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

يفعلوا، فالعامي من شأنه إذا رأى أمرًا يجهل حكمه يعمل العامل به فلا ينكر عليه أحد، اعتقد أنه جائز وأنه حسن، أو أنه مشروع بخلاف ما إذا أنكر عليه فإنه يعتقد أنه عيب، أو أنه غير مشروع، أو أنه ليس من فعل المسلمين. هذا أمر يلزم من ليس بعالم بالشريعة؛ لأن مستنده الخواص والعلماء في الجائز أو غير الجائز. فإذا عَدِمَ الإنكار ممن شأنه الإنكار، مع ظهور العمل وانتشاره وعدم خوف المنكر ووجود القدرة عليه، فلم يفعل، دل عند العوام على أنه فعل جائز لا حرج فيه^(١).

والمداهنة أثرها عظيم في التلبس على كثير من العامة، وفيها ما فيها من الغش والنفاق. والمداهنة هي أن ترى منكراً وتقدر على دفعه ولم تدفعه؛ حفظاً لجانب مرتكبه، أو جانب غيره، أو لقلة مبالاة الدين^(٢).

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: "فقد -والله- عم الفساد، وظهرت البدع، وخفيت السنن، وقلَّ القوال بالحق، بل لو نطق العالم بصدق وإخلاص لعارضه عدة من علماء الوقت، ولمقتوه وجهلوه -فلا حول ولا قوة إلا بالله-"^(٣).

وقال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "هذا هو ذلك الزمان الذي قد استولى فيه الباطل على الحق، وتغلب فيه العبيد على الأحرار من الخلق، فباعوا الأحكام، ورضي

(١) الاعتصام (٥٩٧/٢).

(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٦٤٥)، دستور العلماء (٣/١٦٤)، قواعد الفقه (ص: ٤٧٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (١١/١٠٢).

الدراسة السبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

بذلك منهم الحكام، فصار الحكم مكسًا، والحق عكسًا لا يوصل إليه ولا يقدر عليه. بدلوا دين الله، وغيروا حكم الله، سمَّعون للكذب أكالون للسحت" (١).

فمن شأن دعاة الباطل: التلبيس على الناس، وإظهار الباطل في صورة الحق، ومزج الحق بالباطل بالكتمان والتعمية، لكن منهج أهل الحق: العمل على بيانه وتمييزه عن الباطل، هذا هو منهجهم في تشخيص المرض، ثم المعالجة بالدواء الشافي؛ حيث يردون المخالف إلى أدلة واضحة، وحجج قاطعة، ومقدمات مسلمة. وأساس ذلك رسوخ العقيدة التي تحمل الباحث على الصدق والموضوعية والإنصاف، وعلى عموم الأخلاق الفاضلة، وعلى الالتزام بأداب الخطاب والمناظرة. وتحارب الغش والخداع والتزوير والتغريب والمكر والتلبيس والخيانة، وهذه الأوصاف القبيحة لا تكون حُلُقًا للمسلم بحال؛ لأنَّ طهارة نفسه المكتسبة من الإيمان والعمل الصالح تأبى أن تتجانس مع هذه الأخلاق الدميمة.

قال ابن النحاس الدمشقي رَحِمَهُ اللهُ: "فإذا نظرنا إلى فساد الرعية وجدنا سببه: فساد الملوك، وإذا نظرنا إلى فساد الملوك وجدنا سببه: فساد العلماء والصالحين، وإذا نظرنا إلى فساد العلماء والصالحين وجدنا سببه: ما استولى عليهم من حب المال والجاه" (٢).

وفي (تفسير المنار): "وأما أعمال النفاق الدنيوية في أيام الملوك والأمراء الظالمين الفاسقين، فإنها تكون أكثر رواجًا ونتائجًا من أعمال الصادقين المخلصين. ولا دليل

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص: ١٢٢٨).

(٢) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الجاهلين (ص: ٦٨).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

على فساد الملوك والأمراء والرؤساء أدل من تقييهم للمنافقين المتملقين منهم، وإبعادهم للناصحين الصادقين عنهم" (١).

ومحبة العلماء لا تعني: التقديس، والاتباع من غير تبصر؛ فإن الشارع يقرر أن كل إنسان يؤخذ من قوله ويرد، وأنه لا عصمة لأحد إلا لمن عصمه الله عزَّجَل، وهو النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذلك فإنَّ تعامل الباحث مع العلماء وأهل الفضل ينبغي أن يكون بمسلك صحيح، وبمنهج دقيق من النظر والبحث والنقد، فينبغي أن نفرق بين التقدير والتقدير، وأن نتعامل مع أهل العلم والفضل بالتقدير، مع إنزال كل منهم منزلته؛ لأنهم درجات، دون تقديس ودون تبخيس، فالتقدير يجعلك تقدر ذلك العالم؛ لعلمه، وذلك الفاضل؛ لفضله، وتنزله منزلته، فلا تقع في التبخيس، وإذا تكلم بخلاف الحق ترد قوله مع معرفتك لقدره.

والفتنة والابتلاء تجعل الكثيرين على المحك، فتسقط الأفضة، وتبرز ما كان خفيًا.. فكم أسقطت المحن أقومًا، ورفعت آخرين؟! كما قال الله عزَّجَل: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

وينبغي للعالم والواعظ أن لا يخالف فعله قوله، ولقد أجاد من قال:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم (٢)

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (٤٦٤/١٠).

(٢) وهذا البيت من (الطويل) يروي لأبي الأسود الدؤلي، ويروي للمتوكل الليثي، وقيل: للأخطل، وقيل للطرماح، وقيل: لسابق البربري، وقيل: لغيرهم. وهو من شواهد سيبويه (٤٢/٣)، وفي (ديوان أبي الأسود) (ص: ٢٣٣). شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة، بغداد [١٣٧٣هـ].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وقال الآخر:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طيب يداوي الناس وهو مريض (١)
وذكر الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ (علامات) لعلماء الآخرة، منها:

١ - أن لا يطلب الدنيا بعلمه؛ فإن أقل درجات العالم: أن يدرك حقارة الدنيا وخستها، وكدورتها، وانصرامها، وعظم الآخرة، ودوامها، وصفاء نعيمها، وجلالة ملكها، ويعلم أنهما متضادتان، وأنهما كالضرتين، مهما أرضيت إحداها أسخطت الأخرى، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداها خفت الأخرى، وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء، والآخر فارغ، فبقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلئ يفرغ الآخر؛ فإن من لا يعرف حقارة الدنيا، وكدورتها، وامتزاج لذاتها بألمها، ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل؛ فإن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك.

٢ - ومنها: أن لا يخالف فعله قوله، بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال

(١) أضواء البيان (١/٤٦٣). وفي بعض المصادر: (وهو عليل). وفي (شعب الإيمان) [١٧٨١، ٦٩٢١]: أخبرنا أبو حازم الحافظ، أخبرنا أبو عمرو بن مطر قال: حضرت مجلس أبي عثمان الحيري الزاهد، فسكت حتى طال سكوته، ثم أنشأ يقول: [من الطويل] (وغير تقي يأمر الناس بالتقى**طبيب يداوي والطبيب مريض). قال: فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج. وانظر: تفسير ابن كثير (١/٢٥٠)، وانظر: تفسير القرطبي (١/٣٦٧).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا في قصة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

٣ - ومنها: أن يكون منقبضاً عن السلاطين، فلا يدخل عليهم ألبتة ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً، بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه؛ فإن الدنيا حلوة خضرة، وزمامها بأيدي السلاطين.

والمخالط لا يخلو عن تكلف في طيب مرضاتهم، واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة... إلى غير ذلك (١).

وقد استخلف عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فانقشع عنه الشعراء والخطباء، وثبت معه الزهاد والفقهاء، وقالوا: ما يسعنا فراقه حتى يخالف فعله قوله (٢).

إن الانتفاع بالعلم لا يكون إلا بالعمل به؛ لأنَّ السلاح لا ينفع الإنسان إن ملكه ولم يستخدمه، فإذا دهمه خطر، فإن كان جاهلاً ضرَّه جهله، وإن كان عالماً لم ينفعه علمه؛ لأنه لم يعمل به، فلا خير في قول لا يصدقه العمل.

والعمل بالعلم هو أبلغُ وسائل الدعوة والتأثير، فهو أدعى لقبول الناس؛ لأنَّ لسان العمل أنطق وأبلغ من لسان القول، والأعمال أعلى صوتاً من الأقوال؛ لأنَّ القول يحسنه كثيرون، وإنما يتفاضل الناس بالأعمال، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/٦٠...).

(٢) انظر: تاريخ دمشق، لابن عساکر (٤٥)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٢١/٤٤٢)، تذكرة الحفاظ (١/٩٠).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني



والعامل بعلمه يملك مجامع القلوب، ويكتب له القبول.
وقد امتدح الله عز وجل مَنْ يُصَدِّقْ عَمَلُهُ قَوْلَهُ فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].
وذمَّ مَنْ لَا يُصَدِّقْ عَمَلُهُ قَوْلَهُ فقال: ﴿* أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

ومن الوعيد الشديد في علماء السوء الذين يخادعون الناس: ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مررت ليلة أسرى بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال: خطباء من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون»^(١).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ:

(١) أخرجه الطيالسي [٢٠٦٠]، وابن أبي شيبه [٣٦٥٧٦]، وأحمد [١٢٢١١]، وعبد بن حميد [١٢٢٢]، والبخاري [٧٢٣١]، وأبو يعلى [٣٩٩٢]، قال الهيثمي (٢٧٦/٧): "أحد أسانيد أبي يعلى رجاله رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٥٣]، والطبراني في (الأوسط) [٨٢٢٣]، وأبو نعيم في (الحلية) [٣٨٦/٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٧]، والضياء [٢٦٤٦] وقال: "إسناده صحيح".

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافعته

الجزء الثاني

أَيُّ فُلَانٍ مَا شَأْنُكَ؟! أَلَيْسَ كُنْتُ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟! قَالَ:
كُنْتُ أَمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَأُكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»^(١).

والعبد يسأل عن علمه فيم فعل فيه، كما جاء في الحديث: عن أبي برزة الأسلمي
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَسْأَلَ
عَنْ عَمَلِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ عَمَلِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ
أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»^(٢).

وكان أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إِنَّمَا أَحْشَى مِنْ رِيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَدْعُونِي
عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، فَيَقُولُ لِي: يَا عُوَيْرُ، فَأَقُولُ: لَبِيكَ رَبِّي، فَيَقُولُ لِي: مَا عَمَلْتَ
فِي مَا عَلِمْتَ؟»^(٣).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَكُونُ عَامِلًا حَتَّى تَكُونَ مُتَعَلِّمًا، وَلَا تَكُونُ بِالْعِلْمِ
عَامِلًا حَتَّى تَكُونَ بِهِ عَامِلًا»^(٤).

(١) صحيح الإمام البخاري [٣٠٩٤، ٦٦٨٥]، مسلم [٧٦٧٤]. و(الأقتاب): الأعماء. و(الاندلاق):
خروج الشيء من مكانه بسرعة.

(٢) أخرجه الترمذي [٢٤١٧]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه أبو يعلى [٧٤٣٤]، وأبو نعيم في
الحلية (٢٣٢/١٠).

(٣) شعب الإيمان [١٧١١]، تعظيم قدر الصلاة، للمروزي [٨٤٩]، جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد
البر [١٢٠٤]، وسنده قوي.

(٤) سنن الدارمي [٣٠١]، جامع بيان العلم وفضله [١٢٣٩]، وأخرجه أيضًا: ابن عساكر (١٤٧/٤٧).

الدرر والاسباب النجاة والسائل الناجع حياة طيبة نافعة



الجزء الثاني



وقد كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيدُ بالله عَزَّجَلَّ من علمٍ لا ينفع، فكان يقولُ في دعائه معلِّمًا أمته هذا الدعاء: «اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»^(١).

وفيه: الحرصُ من كلِّ مسلمٍ على عِلْمٍ ينفعُه في دنياه وآخرته، ويصلحُ حاله، والاحترازُ عن علمٍ لا ينفعُه، بل يضرُّه ويضلُّه.

والعلمُ النَّافع لا بدَّ فيه من الإخلاص، كما جاء في الحديث: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»^(٢).

وعن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»^(٣).

(١) صحيح مسلم [٢٧٢٢].

(٢) أخرجه ابن ماجه [٢٥٤]، قال البوصيري في (زوائد) (٣٧/١): "هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٧٧]، والحاكم [٢٩٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٥].

(٣) أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٦٨١]. قال الهيثمي (١٨٥/١): "رجاله موثقون". وأخرجه أيضًا: الديلمي [٦٤١٩].

الدراسة السبب النجاة والسبب النجاة طيبة نافع



الجزء الثاني



وقال الله عَزَّجَلَّ ذَمًّا لِيَهُودِ الَّذِينَ عَلِمُوا وَلَمْ يَعْمَلُوا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]، أي: مثل الذين حملوا التوراة، علموها وكلفوا العمل بها. ثم لم يعملوا بها أو لم ينتفعوا بما فيها كمثل الحمار يحمل أسفارًا، أي: كتبًا من العلم يتعب في حملها ولا ينتفع بها. وكذلك هؤلاء -اليهود- في حملهم الكتاب الذي أوتوه، ولم يعملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرّفوه وبدّلوه، فهم أسوأ حالًا من الحمير؛ لأن الحمار لا يفهم له، وهؤلاء لهم فهم؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤدِّ حقه، ولم يراعِه حق رعايته" (١). وقد شبه الله عَزَّجَلَّ عالمَ السوء الذي لم ينتفع بعلمه بالكلب فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [١٧٥] وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمراد بهذا المثل: أن من لم يزجره علمه عن القبيح، صار القبيح عادة له ولم يؤثر فيه علمه شيئًا، فيصير حاله كحال الكلب اللاهث؛ فإنه إن طُرد لهث، وإن تُرك لهث، فالحالتان عنده سواء. وهذا أخسُّ أحوال الكلب

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٢٧).

الدرر والاسرار في النجاة

الجزء الثاني

وأبشعها، فكذلك من يرتكب القبائح مع جهله ومع علمه، فلا يؤثر علمه شيئاً، وكذلك مثل من لا يرتدع عن القبيح بوعظ ولا زجر ولا غيره، فإن فعل القبيح يصير عادة، ولا ينزجر عنه بوعظ ولا تأديب ولا تعليم، بل هو متبع للهوى على كل حال، فهذا كل من اتبع هواه، ولم ينزجر عنه بوعظ ولا غيره" (١).

وقد كان الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يحرصون على العلم والحفظ والفهم، ولكن اهتمامهم بالعمل أبلغ.

ويدل على ذلك: ما جاء في (صحيح مسلم): عن عمرو بن أوس، قال: حدثني عَنبَسَةُ بن أبي سفيان، في مرضه الذي مات فيه بِحَدِيثٍ يَسْأَرُ إِلَيْهِ، قال: سمعت أُمَّ حَبِيبَةَ، تقول: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ صَلَّى اثْنَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ». وفي رواية: «تَطَوُّعًا» (٢). قالت أُمُّ حَبِيبَةَ: «فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مِنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». وقال عَنبَسَةُ: «فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مِنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ أُمَّ حَبِيبَةَ». وقال عمرو بن أوس: «مَا تَرَكْتُهُنَّ مِنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عَنبَسَةَ»، وقال التُّعْمَانُ بنُ سالم: «مَا تَرَكْتُهُنَّ مِنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عَمْرِو بْنِ أَوْسٍ» (٣).

ويدل على ذلك أيضاً: ما جاء عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرءوننا القرآن - كعثمان بن عفان وابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أنهم كانوا إذا تعلموا

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (٢٠٤/١).

(٢) التطوع يخرج الفرض؛ يعني: من صلى اثني عشر ركعة في يوم وليلة تطوعاً بعد أدائه الفريضة حصل له هذا الوعد.

(٣) صحيح مسلم [٧٢٨].

الدراسة السبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً^(١).

وذكر الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ فِي (الموطأ): أن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مَكَثَ عَلَى سورة البقرة، ثَمَانِي سِنِينَ يَتَعَلَّمُهَا^(٢).

فينبغي لطالب العلم والهداية والنجاة أن لا يترك العمل؛ لأن العبرة بالعمل، والعلم بلا عمل حجة على صاحبه، فكم من أناس يَعْلَمُونَ ولا يَعْمَلُونَ، وقد غرَّهم ما عندهم من بعض العلوم والمعارف؟! فكان ذلك الغرور والعُجْب سبباً لضلالتهم؛ لأن العُجْب قد يحمل صاحبه على تعظيم نفسه حتى تستولي عليه الغفلة، ويفرح بما هو عليه، ويستغني بما عنده، وربما يصل إلى (غرور العلم) الصَّارِف عن الآيات والحجج، والصادِّ عن الهداية، وهو سببٌ في خلق نزعة الإلحاد والجحود، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]، كما بينت ذلك في كتاب: (عقبات في طريق الهداية).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلَّت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة"^(٣). وذلك بسبب متابعتهم للضلال، وتزيينه، ونفاقهم ومداهنتهم، وإضلالهم للناس. وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "قد اندرس علم الدين

(١) انظر: تفسير الطبري (٨٠/١)، تفسير ابن كثير (٨/١)، المحرر الوجيز (٩/١)، الإكليل في المتشابه والتأويل (ص: ٤٧)، مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية (ص: ٩).

(٢) موطأ الإمام مالك [٦٩٥].

(٣) إحياء علوم الدين (٥٩/١).

الدراسة السبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

بتلبس العلماء السوء، فالله جَلَّ وَعَلَا المستعان، وإليه الملاذ في أن يعيدنا من هذا الغرور" (١).

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "فأما أهل العلم، فالمغتربون منهم فرق: منهم فرق أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، واغترتوا بعلمهم، وظنوا أنهم عند الله بمكان، لعلموا أن العلم إنما يراد لمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها، فهي علوم لا تتراد إلا للعمل، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝﴾ [الشمس: ٩]، ولم يقل: قد أفلح من تعلم كيف يزيها، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم، فلينكر ما ورد في العالم الفاجر، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقوله: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل، فواظبوا على الطاعات الظاهرة، وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم؛ ليمحوا عنها الصفات الذميمة، من الكبر، والحسد، والرياء، وطلب العلا، وإرادة السوء للأقران والنظراء، وطلب الشهرة في البلاد والعباد، فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا، ونسوا قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (٢).

(١) المصدر السابق (٢١/١).

(٢) صحيح مسلم [٢٥٦٤].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

وفرقه أخرى: علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم^(١). وقال في (بداية الهداية): "واعلم أن الناس في طلب العلم على ثلاثة أحوال: رجل طلب العلم ليتخذه زاده إلى المعاد، ولم يقصد به إلا وجه الله عزَّجَلَّ والدار الآخرة؛ فهذا من الفائزين.

ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة، وينال به العز والجاه والمال، وهو عالم بذلك، مستشعر في قلب ركاكة حاله وخسة مقصده، فهذا من المخاطرين. فإن عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه من سوء الخاتمة، وبقي أمره في خطر المشيئة؛ وإن وفق للتوبة قبل حلول الأجل، وأضاف إلى العلم العمل، وتدارك ما فرط به من الخلل التحق بالفائزين؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ورجل ثالث استحوذ عليه الشيطان؛ فاتخذ علمه ذريعة إلى التكاثر بالمال، والتفاخر بالجاه، والتعزز بكثرة الأتباع، يدخل بعلمه كل مدخل رجاء أن يقضى من الدنيا وطره، وهو مع ذلك يضممر في نفسه أنه عند الله بمكانة؛ لاتسامه بسمة العلماء، وترسمه برسومهم في الزي والمنطق، مع تكالبه على الدنيا ظاهرًا وباطنًا، فهذا من الهالكين، ومن الحمقى المغرورين؛ إذ الرجاء منقطع عن توبته لظنه أنه من المحسنين^(٢).

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣٨٨)، بتصرف، موعظة المؤمنين (ص: ٢٦٠)، مختصر منهاج القاصدين (ص: ٢٣٩).

(٢) بداية الهداية، لأبي حامد الغزالي (ص: ٢٦-٢٧).

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

ومن تأمل حال كثير من المسلمين في هذا العصر وجد أنهم قد ركنوا إلى الظلمة المستكبرين، ووثقوا بهم أكثر من ثقتهم برهم عزَّجَل، ومالوا إليهم كل الميل، وتسابقوا على إرضائهم - ولو بسحق إخوانهم -، وهذا من أعظم أسباب الذل والخذلان، وتخلف نصر الله عزَّجَل عن المسلمين، وتسلط أعدائهم عليهم؛ فإن من عادة الظلمة المستكبرين أن يزدادوا علوًا وجورًا كلما زين لهم علماء سوء قبيح أفعالهم.

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: "قد كان عبد الله بن علي ملكًا جبارًا، سفاكًا للدماء، صعب المراس، ومع هذا فالإمام الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ يصدعه بمر الحق، لا كَحَلْق من علماء سوء الذين يُحَسِّنُونَ للأمرء ما يقتحمون به من الظلم والعسف، ويقلبون لهم الباطل حقًا - قاتلهم الله - أو يسكتون مع القدرة على بيان الحق"^(١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: "إني رأيت كثيرًا ممن شغلته نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم عاد ذلك عليهم بالقدح في الأصول.

ولما رأيت رأي نفسي في العلم حسنًا، فهي تقدمه على كل شيء، إلا أني رأيت نفسي واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصحت بها: فما الذي أفادك العلم؟! أين الخوف؟! أين القلق؟! أين الحذر؟! أو ما سمعت بأخبار أخيار الأخبار في تعبدهم واجتهادهم؟!

أما كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد الكل، ثم إنه قام حتى ورمت قدماه؟!^(٢)

(١) سير أعلام النبلاء (١٢٥/٧).

(٢) جاء في الحديث: عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أَتُكَلِّفُ هذا؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «أفلا أكون عبدا شكورا» =

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني



أما كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شجي النشيج^(١)، كثير البكاء؟!
أما كان في خد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطان من آثار الدموع؟!
أما كان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحتم القرآن في ركعة؟!
أما كان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع، ويقول:
يا دنيا غري غيري؟!^(٢).
وقال سفيان بن عيينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "العلم إن لم يَنْفَعَكَ يَضُرُّكَ"^(٣).
وقال: "ليس العالم الذي يعرف الخير والشر، إنما العالم الذي يعرف الخير فيتبعه،
ويعرف الشر فيجتنبه"^(٤).

= صحيح البخاري [١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١]، مسلم [٢٨١٩]. وفي رواية: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا
قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسول
الله أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «يا عائشة أفلا أكون عبدا
شكورا» صحيح البخاري [٤٨٣٧]، صحيح مسلم [٢٨٢٠].

(١) النشيج: صوت معه توجع وبكاء، كما يردد الصبي بكاءه في صدره. وقد نشج ينشج.

(٢) صيد الخاطر (ص: ٨٥).

(٣) الزهد، لأحمد بن حنبل [٦١١]، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١١/١٩٢)، الطبقات الكبرى
(٤٨/١).

(٤) حلية الأولياء (٧/٢٧٤)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١١/١٩١ - ١٩٢).

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

وقال وكيع رَحِمَهُ اللهُ: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به، وكنا نستعين على طلبه بالصوم^(١). وعنه أيضًا أنه قال: استعينوا على الحفظ بترك المعصية^(٢). وعن الشعبي رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به^(٣). وعن إبراهيم بن إسماعيل بن مُجَمِّع رَحِمَهُ اللهُ قال: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به^(٤).

وعن أحمد رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: ما كتبت حديثًا إلا وقد عملت به حتى مرَّ بي في الحديث أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احتجم وأعطى أبا طيبة دينارًا، فاحتجمتُ وأعطيتُ الحجاجَ دينارًا^(٥).

(١) جامع بيان العلم وفضله (٧٠٨/١)، (١٠٣١/٢)، المخلصيات (٣١٠/٢)، (١٤٩/٤)، فتح المغيث (٢٨٢/٣).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص: ٣٩).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٧٠٨/١)، فتح المغيث (٢٨٢/٣).

(٤) شعب الإيمان [١٦٥٩، ١٧٤١]، اقتضاء العلم العمل، للخطيب (ص: ٩٠)، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢٥٨/٢)، الشذا الفياح (٤٠٦/١)، شرح التبصرة والتذكرة (٤٣/٢)، فتح المغيث (٥٨٨/٢). وزاد البيهقي والخطيب عن الحسن بن صالح أنه قال: كنا نستعين على طلبه بالصوم.

(٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٤٤/١)، سير أعلام النبلاء (٢١٣/١١)، (٢٩٦/١١)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (١٠٢٣/٥)، الشذا الفياح (٤٠٦/١)، شرح التبصرة والتذكرة (٤٣/٢)، فتح المغيث (٢٨٣/٣)، تدريب الراوي (٥٨٨/٢).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

وقال بعض الحكماء: العلم خادم العمل، والعمل غاية العلم، فلولا العمل لم يطلب علم ولولا العلم لم يطلب عمل، ولأن أدع الحق جهلاً به أحب إلي من أن أدعه زهداً فيه (١).

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: العلم يهتف بالعمل فإن أجابه حل وإلا ارتحل (٢).
وقال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللهُ: كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى صلاته، وإلى سَمْتِهِ، وإلى هيئته، ثم يأخذون عنه (٣).

قال ابن السَّمَّان رَحِمَهُ اللهُ: كم من شيء إذا لم ينفع لم يضر، لكن العلم إذا لم ينفع ضر (٤).

وقال أبو عبد الله الروذباري رَحِمَهُ اللهُ: من خرج إلى العلم يريد العلم لم ينفعه العلم، ومن خرج إلى العلم يريد العمل بالعلم نفعه قليل العلم (٥).

(١) اقتضاء العلم العمل (ص: ١٥).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٧٠٦/١)، فتح المغيث (٢٨٢/٣). وفي (اقتضاء العلم العمل) (ص: ٣٦)، وتاريخ دمشق (٦٦/٥٦) نحوه عن ابن المنكدر.

(٣) انظر: الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (١٦/٢)، صفة الصفوة (٥٠/٢)، التعديل والتجريح، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، للباقي (٢٩١/١)، الآداب الشرعية، لابن مفلح (١٤٩/٢).

(٤) انظر: تاريخ بغداد (٣٣٠/٧)، سير أعلام النبلاء (٣٢٩/٨)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٩٥٩/٤).

(٥) انظر: تاريخ بغداد (٥٥٢/٥)، تاريخ دمشق (١٨/٥).

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

وقال بعض العلماء: خير العلم ما نفع، وخير القول ما ردع. وقال بعض الأدباء:
ثمرة العلوم العمل بالعلوم^(١).

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: "والناس في العلم طبقات، موقعهم من العلم بقدر درجاتهم في العلم به. فحقق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله عَزَّجَلَّ في استدراك علمه نصًّا واستنباطًا، والرغبة إلى الله في العون عليه؛ فإنه لا يُدرك خيرًا إلا بعونه. فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصًّا واستدلالًا، ووقفه الله عَزَّجَلَّ للقول والعمل بما علم منه: فاز بالفضيلة في دينه وديناه، وانتفت عنه الرِّيب، ونُورَت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة.

فنسأل الله المبتدئ لنا بنعمه قبل استحقاقها، المديمها علينا مع تقصيرنا في الإتيان إلى ما أوجب به من شكره بها، الجاعلنا في خير أمة أخرجت للناس: أن يرزقنا فهمًا في كتابه، ثم سنة نبيه، وقولًا وعملاً يؤدي به عنا حقه، ويوجب لنا نافلة مزيدة"^(٢).

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق: سفيان عن أبي حيان التيمي عن رجل قال:
كان يقال العلماء ثلاثة: عالم بالله وعالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشى الله جَلَّ وَعَلَا ويعلم الحدود والفرائض. والعالم بالله عَزَّجَلَّ ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله، ولا يعلم الحدود ولا

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٧٦).

(٢) الرسالة (ص: ١٩).

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

الفرائض. والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله
جَلَّ وَعَلَا^(١).

وقد قيل: صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس:
العلماء والأمرء.

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها؟^(٢)

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "العلماء ثلاثة: عالم استنار بنوره واستنار به الناس، فهذا
من خلفاء الرسل وورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وعالم استنار بنوره، ولم يستنر به غيره، فهذا
إن لم يفرط كان نفعه قاصراً على نفسه، فبينه وبين الأول ما بينهما، وعالم لم يستنر
بنوره ولا استنار به غيره، فهذا علمه وبال عليه، وبسطته للناس فتنة لهم، وبسطة الأول
رحمة لهم"^(٣).

والحاصل أن العمل بالعلم من أعظم أسباب زيادة العلم وحفظه وثباته، وهو من
التقوى، وهو أبلغ وسائل الدعوة والتأثير في المدعويين. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَعْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَعَامِنُوا

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٣١٨٠/١٠)، وانظر: تفسير ابن كثير (٥٤٥/٦)، الدر المنثور

(٢٠/٧)، تاريخ ابن معين (رواية الدوري) (٥٣٧/٣)، مجموع الفتاوى (٥٣٩/٧).

(٢) ديوان عبد الله بن المبارك (ص: ٦٧).

(٣) مدارج السالكين (٢٨٢/٣).

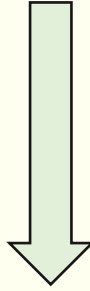
الدُّرَرُ وَالْأَسْبَابُ إِلَى النَّجَاةِ وَالْوَسَائِلُ إِلَى النَّجَاتِ طَبِيبَةٌ نَافِعَةٌ

الجزء الثاني

بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴿[الحديد: ٢٨] (١).

والعمل بالعلم من أسباب النجاة، وزيادة الحسنات، ورفعة الدرجات، وبقي الإنسان من سوء الخاتمة، ومن الحزني في الدنيا والآخرة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣]. وقد قرَنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بين الإيمان والعمل في نصوص كثيرة. كما أن ترك العمل بالعلم إضاعه له، فما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل، فترك العمل من أسباب الضلال والإضلال، والعذاب في الآخرة. وقد فصلت القول في ذلك في كتاب: (تهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار).

وهذه إشارة إلى الموضوعات ذات الصلة مما تقدم تفصيل القول فيها:



(١) مفتاح دار السعادة (١/١٧٢).

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني



طلب العلم وتحري الحق	
أهم الموضوعات ذات الصلة:	
محبة العلم والعلماء الربانيين.	ملازمة العلماء والأخذ عنهم.
اقتفاء أثر العلماء واتباع نهجهم في العلم والعمل.	
الابتداع عقبة في طريق الهداية.	الوقاية من آفة الابتداع والعلاج.
المفاسد المترتبة على اتباع الهوى.	سبل الوقاية من هذا الداء والعلاج
مظاهر الإعراض عن الحق وأسبابه ومضاره.	الوقاية من خطر الإعراض والعلاج.
الشك من حيث كونه من المضلات عن الهداية.	الوقاية من هذا الداء والعلاج.
بيان خطورة الجهل وأقسامه.	الوقاية من آفات الجهل والعلاج.
التقليد وبيان المذموم منه.	الوقاية من آفة التقليد للأباء والأشياخ والعلاج.
أثر القدوة الحسنة في التبصير والهداية، وأثر القدوة السيئة في الإفساد والإضلال.	الوقاية من آفات القدوة السيئة والعلاج.
تبليغ العلم، وبيان آفات الكتمان ومضاره.	الوقاية من آفة الكتمان والعلاج.

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني



التفريط في تحري الحق من المضلات عن الهداية.	الوقاية من آفات التفريط في تحري الحق والعلاج.
بيان خطورة الشُّبهات.	سبل الوقاية من الشبهات والعلاج.
خطورة الاغترار بكثرة دعاة الباطل وأهله.	سبل الوقاية من آفة الاغترار بكثرة أهل الباطل والعلاج.
مظاهر التقديس المذموم وآفاته وكونه من المضلات.	أسباب الوقاية من آفة التَّقديس المذموم والعلاج.
شروع مفاهيم خاطئة للاستقامة.	الوقاية من آفات المفاهيم الخاطئة لمعنى الاستقامة والعلاج.
خطورة الافتتان بعلوم الفلسفة.	الوقاية من الافتتان بعلوم الفلسفة والعلاج.
اتباع الظن المنهي عنه.	الوقاية من آفات الظن المنهي عنه والعلاج.
السلامة من آفات النفس وأمراض القلوب.	الوقاية من من آفات النفس وأمراض القلوب.
فَقُدَّ محبَّة الله تعالى ورسوله أو ضعفها أو تأخرها.	سبل الوقاية من آفات فَقُدَّ محبَّة الله ورسوله والعلاج.
ضعف الهمة، والرضا عن النفس من حيث كونه عقبة.	أسباب الوقاية من آفة الرضا عن النفس والعلاج.

الدُّرُوسُ وَالسُّبُلُ إِلَى نَجَاةِ النَّفْسِ وَالْوَسَائِلُ الَّتِي جَعَلَتْ حَيَاةَ طَبِيبِنَا فِعْتًا

الجزء الثاني

الوقاية من آفات البيئة الفاسدة والتربية السيئة والعلاج.	البيئة الصالحة.
وسائل الوقاية والتحرر مما يعترى السالكين من الفتور.	الفتور من أسباب الضلال.
سبل الوقاية من التسرع في الحكم دون تبصر وروية والعلاج.	التأني في الحكم على الأشياء.
الوقاية من آفة تفرق السبل والعلاج.	تفرق السبل وبيان كونه عقبة في طريق الهداية.
الوقاية من آفة الغزو الفكري وإمداداته السرطانية والعلاج.	الغزو الفكري، وهيمنة ثقافته على أكثر وسائل الإعلام.
الوقاية من الآفات في هذا الباب والعلاج.	أهمية العمل بالعلم، وبيان خطورة ترك العمل.
<p>من كتاب:</p> <p>١ - المحبة صورها وأحكامها في ضوء الكتاب والسنة.</p> <p>٢ - عقبات في طريق الهداية.</p> <p>٣ - نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار.</p>	

الدراسة والسبب النجاة
والوسائد الناجعة حيا طيبة نافع
الجزء الثاني



نهاية الجزء الثاني

والكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

فهرسبب المصادر والمراجع

١. أبواب السعادة في أسباب الشهادة، لجلال الدين السيوطي، ط: ٢، المكتبة القيمة، القاهرة [١٤٠٧هـ].
٢. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، لأبي العباس شهاب الدين البوصيري، ط: ١، دار الوطن، الرياض [١٤٢٠هـ].
٣. إتمام الدراية لقراء النقاية، للسيوطي، تحقيق: د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، د. عبد الرقيب صالح الشامسي، وفضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ، دار الضياء، الكويت [١٤٣٧هـ].
٤. آثار ابن باديس، دار ومكتبة الشركة الجزائرية [١٣٨٨هـ].
٥. الاجتهاد، للجويني، دار القلم، دار العلوم الثقافية، دمشق، بيروت [١٤٠٨هـ].
٦. الإجماع، لابن المنذر، ط: ١، دار الآثار للنشر والتوزيع، القاهرة [١٤٢٥هـ].
٧. أحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، مطبعة السنة المحمدية، بدون تاريخ.
٨. أحكام الجنائز، لإبراهيم بن يوسف البولوي، ومعه: تنوير المستبصر الفائز ببيان أحكام الجنائز، تحقيق ودراسة وشرح: د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، مصطفى محمود سليخ، دار الضياء، الكويت [١٤٣٥هـ].
٩. الأحكام الشرعية الكبرى، لابن الخراط، ط: ١، مكتبة الرشد، الرياض [١٤٢٢هـ].
١٠. أحكام القرآن، لابن الفرس الأندلسي، ط: ١، دار ابن حزم، بيروت [١٤٢٧هـ].
١١. أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
١٢. أحكام القرآن، للكيا الهراسي الشافعي، ط: ٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].
١٣. أحكام أهل الذمة، لابن القيم، ط: ١، رمادى للنشر، الدمام [١٤١٨هـ].
١٤. إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.
١٥. أخبار الشيوخ وأخلاقهم، لأبي بكر المؤودي، دار البشائر الإسلامية، بيروت [١٤٢٦هـ].
١٦. الاختيار لتعليل المختار، لعبد الله بن محمود الموصلبي الحنفي مطبعة الحلبي، القاهرة [١٣٥٦هـ].

الدراسات والبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية.

الجزء الثاني

١٧. أخلاق العلماء، للآجري، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية.
١٨. الأخلاق والسير في مداواة النفوس، لابن حزم، ط: ٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت [١٣٩٩هـ].
١٩. آداب الشافعي ومناقبه، لأبي محمد عبد الرحمن الرازي ابن أبي حاتم، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
٢٠. الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح، عالم الكتب.
٢١. آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، للإمام النووي، دار الفكر، دمشق [١٤٠٨].
٢٢. آداب النفوس، للحارث المحاسبي، دار الجيل، بيروت.
٢٣. أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، دار مكتبة الحياة، بدون طبعة [١٩٨٦م].
٢٤. أدب الطلب ومنتهاى الأرب، للشوكاني، دار ابن حزم، لبنان [١٤١٩هـ].
٢٥. أدب المفتي والمستفتي، لابن الصلاح، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة [١٤٢٣هـ].
٢٦. الأذكار، للإمام النووي، دار الفكر، بيروت [١٤١٤هـ].
٢٧. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، لأحمد بن محمد القسطلاني، المطبعة الأميرية، مصر [١٣٢٣هـ].
٢٨. إرشاد الفحول، محمد بن علي الشوكاني، دار الكتاب العربي [١٤١٩هـ].
٢٩. الإرشاد الى قواطع الادلة في أصول الاعتقاد، لإمام الحرمين الجويني، دار السعادة، مصر [١٣٦٩هـ].
٣٠. أساس البلاغة، للزمخشري، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].
٣١. أساليب الخطاب في القرآن لكریم، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، وزارة الأوقاف، الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].
٣٢. الاستذكار، لابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ].
٣٣. الاستقامة، لابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة [١٤٠٣هـ].
٣٤. استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، لأبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، دار الصحابة للتراث بطنطا [١٤١١هـ].
٣٥. أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].

الدراسات والأساليب النحوية والوسائد الناجحة لجياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

٣٦. أسنى المطالب في شرح روض الطالب، لتركيا الأنصاري، دار الكتاب الإسلامي، بدون طبعة وبدون تاريخ.
٣٧. الأشباه والنظائر، لابن نجيم، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].
٣٨. الأشباه والنظائر، لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، ط: ١، دار الكتب العلمية [١٤١١هـ].
٣٩. الأشباه والنظائر، لجلال الدين السيوطي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١١هـ].
٤٠. الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].
٤١. أصناف المغرورين، لأبي حامد الغزالي، مكتبة القرآن للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
٤٢. إغاثة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، للدمياطي، دار الفكر [١٤١٨هـ].
٤٣. الاعتصام، للشاطبي، دار ابن عفان، السعودية [١٤١٢هـ].
٤٤. أعلام الحديث، لأبي سليمان الخطابي، ط: ١، جامعة أم القرى، مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي [١٤٠٩هـ].
٤٥. إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١١هـ].
٤٦. الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملتن، ط: ١، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية [١٤١٧هـ].
٤٧. الأعمال الكاملة للجنيد البغدادي (تاج العارفين)، ط: ٢، دار الشروق، القاهرة [١٤٢٦هـ].
٤٨. الأعمال الكاملة لمحمد عبده وجمال الدين الأفغاني، للأستاذ الدكتور محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة [١٩٦٨م].
٤٩. إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية، مكتبة المعارف، الرياض.
٥٠. آفات اللسان وسبل الوقاية والعلاج منها، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط: ١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ].
٥١. الإفساد في الأرض صوره وأسبابه وسبل الوقاية منه، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط: ١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].
٥٢. اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي، ط: ٤، المكتب الإسلامي، بيروت [١٣٩٧هـ].

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

٥٣. الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، للخطيب الشربيني، دار الفكر، بيروت.
٥٤. الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، لموسى بن أحمد الحجاوي المقدسي، ثم الصالحي، دار المعرفة، بيروت.
٥٥. الإكليل في استنباط التنزيل، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠١هـ].
٥٦. الإكليل في المتشابه والتأويل، لابن تيمية، دار الإيمان للطبع والنشر، الإسكندرية، مصر.
٥٧. إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، للقاضي عياض، تحقيق: الأستاذ الدكتور يحيى إسماعيل، دار الوفاء، المنصورة، مصر [١٤١٩هـ].
٥٨. الإلماع، للقاضي عياض، دار التراث، المكتبة العتيقة، القاهرة/تونس [١٣٧٩هـ].
٥٩. أمراض القلب وشفائها، لابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة [١٣٩٩هـ].
٦٠. أهوال القبور، لابن رجب، ط: ١، دار الغد الجديد، المنصورة، مصر [١٤٢٦هـ].
٦١. إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، لإسماعيل بن محمد أمين الباباني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٦٢. الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة، لابن الجوزي، مكتبة مدبولي، القاهرة [١٤١٥هـ].
٦٣. إيقاظ الهمم في شرح الحكم، لابن عجيبة، دار المعارف، القاهرة.
٦٤. إيقاظ همم أولي الأبصار، لصالح بن محمد العمري المعروف بالفلاحي المالكي، دار المعرفة، بيروت.
٦٥. الباعث على إنكار البدع والحوادث، لأبي شامة، دار الهدى، القاهرة.
٦٦. البحار الزاخرة في أسباب المغفرة، للدكتور السيد بن حسين العفاني، ط: ١، مكتبة ابن تيمية، ومكتبة العلم بجدة [١٤١٧هـ].
٦٧. بحر الدموع، لابن الجوزي، دار الفجر للتراث [١٤٢٥هـ].
٦٨. البحر الرائق شرح كنز الدقائق، لابن نجيم، ط: ٢، دار الكتاب الإسلامي، بدون تاريخ.
٦٩. بحر الكلام، لميمون بن محمد النسفي، ط: ٢، مكتبة دار الرففور، دمشق [١٤٢١هـ].
٧٠. البحر المحيظ في أصول الفقه، للزركشي، ط: ١، دار الكنتي [١٤١٤هـ].
٧١. بداية الهداية، لأبي حامد الغزالي، مكتبة مدبولي، القاهرة [١٤١٣هـ].
٧٢. البداية والنهاية، لابن كثير، دار إحياء التراث العربي [١٤٠٨هـ].

الدراسات والبحوث في الفقه والسنة النبوية طيبة نافعة

الجزء الثاني

٧٣. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين، أبو بكر بن مسعود الكاساني، ط: ٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٦هـ].
٧٤. بدائع الفوائد، لابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت.
٧٥. بذل الماعون في فضل الطاعون، لابن حجر العسقلاني، دار العاصمة، الرياض.
٧٦. البر والصلة، لأبي عبد الله المروزي، ط: ١، دار الوطن، الرياض [١٤١٩هـ].
٧٧. بريقة محمودية، لأبي سعيد محمد بن محمد بن مصطفى الخادمي الحنفي، مطبعة الحلبي [١٣٤٨هـ].
٧٨. بستان العارفين، للإمام النووي، دار الريان للتراث.
٧٩. بشرى الكتيب بقاء الحبيب، لجلال الدين السيوطي، ط: ١، دار يعرب للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق [١٤٢٥هـ].
٨٠. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة [١٣٩٣هـ].
٨١. بصائر للمسلم المعاصر، لعبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق.
٨٢. بلغة السالك لأقرب المسالك المعروف بمحاشية الصاوي على الشرح الصغير، لأبي العباس أحمد بن محمد الخلوتي، الشهير بالصاوي، دار المعارف، بدون تاريخ.
٨٣. البناية شرح الهداية، لبدر الدين العيني، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان [١٤٢٠هـ].
٨٤. بهجة النفوس شرح مختصر البخاري، لابن أبي جمرة، ط: ١، مطبعة الصدق الخيرية، القاهرة.
٨٥. البيان في مذهب الإمام الشافعي، لأبي الحسين يحيى بن أبي الخير العمراني، ط: ١، دار المنهاج، جدة [١٤٢١هـ].
٨٦. البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، لأبي الوليد ابن رشد القرطبي، ط: ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٤٠٨هـ].
٨٧. التاج والإكليل لمختصر خليل، لأبي عبد الله محمد بن يوسف العبدري الغرناطي، المواق المالكي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٦هـ].
٨٨. تاريخ ابن معين (رواية الدوري)، لأبي زكريا يحيى بن معين، ط: ١، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة [١٣٩٩هـ].

الدراسات والبحوث في الفقه والسنة النبوية

الجزء الثاني

٨٩. تاريخ إربل، للمبارك بن أحمد اللخمي الإربلي، المعروف بابن المستوفي، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، العراق [١٩٨٠م].
٩٠. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤١٣هـ].
٩١. تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة [١٣٥٤هـ].
٩٢. التاريخ الكبير، لمحمد بن إسماعيل البخاري، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد.
٩٣. تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٤٢٢هـ].
٩٤. تاريخ دمشق، لابن عساكر، دار الفكر [١٤١٥هـ].
٩٥. تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت.
٩٦. تبصرة الحكام في أصول الأفضية ومناهج الأحكام، لإبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين، ط: ١، مكتبة الكليات الأزهرية [١٤٠٦هـ].
٩٧. التبصرة، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٦هـ].
٩٨. التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، دار ابن حزم، بيروت [١٤١٤هـ].
٩٩. تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، للزيلعي، ط: ١، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، القاهرة [١٣١٣هـ].
١٠٠. التحرير شرح التحرير في أصول الفقه، لعلاء الدين المرادوي، ط: ١، مكتبة الرشد، الرياض [١٤٢١هـ].
١٠١. تحرير ألفاظ التنبيه، للإمام النووي، ط: ١، دار القلم، دمشق [١٤٠٨هـ].
١٠٢. التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية [١٩٨٤هـ].
١٠٣. تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، للقاضي البيضاوي، ط: وزارة الأوقاف الكويت.
١٠٤. تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج، لابن الملتن، ط: ١، دار حراء، مكة المكرمة [١٤٠٦هـ].
١٠٥. تحفة المحتاج في شرح المنهاج، لابن حجر الهيتمي، المكتبة التجارية الكبرى، بدون طبعة [١٣٥٧هـ].
١٠٦. تحفة المودود بأحكام المولود، لابن القيم، مكتبة دار البيان، دمشق [١٣٩١هـ].
١٠٧. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، لجلال الدين السيوطي، ط: ١، دار طيبة، الرياض [١٤٢٧هـ].

الدراسات والبحوث في الفقه والسنة النبوية والسنة النبوية والسنة النبوية

الجزء الثاني

١٠٨. تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].
١٠٩. التذكرة الحمدونية، لمحمد بن الحسن بن حمدون، دار صادر، بيروت [١٤١٧هـ].
١١٠. تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، للقاضي بدر الدين محمد بن إبراهيم ابن جماعة الكنايني الشافعي، دار البشائر الإسلامية، بيروت [١٤٣٣هـ].
١١١. التذكرة الفخرية، للصاحب بهاء الدين الإربلي، ط: ١، دار البشائر، دمشق [١٤٢٥هـ].
١١٢. التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، لأبي عبد الله القرطبي، ط: ١، دار المنهاج، الرياض [١٤٢٥هـ].
١١٣. التذكرة في الوعظ، لابن الجوزي، دار المعرفة، بيروت [١٤٠٦هـ].
١١٤. تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير، لأبي الحسن علي بن أحمد الحرالي الأندلسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط [١٤١٨هـ].
١١٥. الترغيب والترهيب، للمنذري، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].
١١٦. تسلية أهل المصائب، لمحمد بن محمد، شمس الدين المنبجي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٦هـ].
١١٧. تشنيف المسامع بجمع الجوامع، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ط: ١، مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، توزيع المكتبة المكية [١٤١٨هـ].
١١٨. التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسماءه وتصرفت معانيه، ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، الشركة التونسية للتوزيع [١٩٧٩م].
١١٩. التعديل والتجريح، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، لأبي الوليد الباجي، ط: ١، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض [١٤٠٦هـ].
١٢٠. التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].
١٢١. تعظيم قدر الصلاة، لأبي عبد الله محمد بن نصر المروزي، ط: ١، مكتبة الدار، المدينة المنورة [١٤٠٦هـ].
١٢٢. تغليق التعليق، لابن حجر، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان/الأردن [١٤٠٥هـ].
١٢٣. تفسير ابن أبي حاتم، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض [١٤١٩هـ].
١٢٤. تفسير ابن باديس، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٦هـ].
١٢٥. تفسير ابن عادل (اللباب في علوم الكتاب)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت [١٤١٩هـ].

الإرشاد إلى سبب النجاة

والوسائل التي اجتمعت حياطة طيبة نافعة

الجزء الثاني

١٢٦. تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، طبع دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٣هـ].
١٢٧. تفسير ابن فورك، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية [١٤٣٠هـ].
١٢٨. تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٢٩. تفسير البحر المحيط، لأبي حيان، دار الفكر، بيروت [١٤٢٠هـ].
١٣٠. تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢٠هـ].
١٣١. تفسير البقاعي (نظم الدرر)، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].
١٣٢. تفسير البيضاوي، دار الفكر، بيروت [١٤١٦هـ].
١٣٣. تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
١٣٤. تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢٢هـ].
١٣٥. تفسير الثوري، لأبي عبد الله سفيان بن سعيد الثوري الكوفي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].
١٣٦. تفسير الثوري، لأبي عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].
١٣٧. تفسير الراغب الأصفهاني، جزء: ١، ط: ١، كلية الآداب، جامعة طنطا [١٤٢٠هـ]، جزء: ٢، ٣، ط: ١، دار الوطن، الرياض [١٤٢٤هـ]، جزء: ٤، ٥، ط: ١، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى [١٤٢٢هـ].
١٣٨. تفسير الزمخشري (الكشاف)، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٧هـ].
١٣٩. تفسير السيوطي (الدر المنثور)، دار الفكر، بيروت [١٩٩٣].
١٤٠. تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، مؤسسة الرسالة [١٤٢٠هـ].
١٤١. تفسير القاسمي (محاسن التأويل)، دار الكتب العلمي، بيروت [١٤١٨هـ].
١٤٢. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع [١٤٢٠هـ].
١٤٣. التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة.
١٤٤. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، دار الشعب، القاهرة [١٣٧٢].

الدراسات والبحوث في الفقه الجزء الثاني

١٤٥. تفسير القشيري (لطائف الإشارات)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
١٤٦. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عن النسخة الأصلية من المطبعة البهية المصرية [١٣٠٢هـ].
١٤٧. تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر [١٣٦٥هـ].
١٤٨. التفسير المسند، للإمام أبي بكر بن موسى بن مردويه، ط: ١، دار ابن عساكر [١٤٤٢هـ].
١٤٩. تفسير المنار، لمحمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب [١٩٩٠م].
١٥٠. تفسير المهامبي (تبصير الرحمن وتيسير المنان)، طبعة بولاق بمصر.
١٥١. تفسير النسفي، دار الكلم الطيب، بيروت [١٤١٩هـ].
١٥٢. تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٦هـ].
١٥٣. تفسير آيات الأحكام، محمد علي السائس، المكتبة العصرية [٢٠٠٢].
١٥٤. تفسير غريب ما في الصحيحين، لأبي عبد الله الحميدي، ط: ١، مكتبة السنة، القاهرة [١٤١٥هـ].
١٥٥. تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين، للراغب الأصفهاني، دار مكتبة الحياة، بيروت [١٩٨٣م].
١٥٦. تقريب التهذيب، لابن حجر، ط: ١، دار الرشيد، سوريا [١٤٠٦هـ].
١٥٧. التقرير والتحبير لأبي عبد الله، شمس الدين ابن أمير حاج، ط: ٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].
١٥٨. تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الجاهلين، لابن النحاس الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٧هـ].
١٥٩. التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح، لأبي عبد الله محمد بن بهادر الزركشي، ط: ١، مكتبة الرشد، الرياض [١٤٢٤هـ].
١٦٠. تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، للسيوطي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر [١٣٨٩هـ].
١٦١. التنوير شرح الجامع الصغير، محمد بن إسماعيل الصنعاني، مكتبة دار السلام، الرياض [١٤٣٢هـ].
١٦٢. تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار، لابن جرير الطبري، مطبعة المدني، القاهرة.
١٦٣. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لابن مسكويه، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.

الرسائل والأساليب النحوية والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

١٦٤. تهذيب الأسماء، للنووي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٦٥. تهذيب التهذيب، لابن حجر، دار الفكر، بيروت [١٤٠٤].
١٦٦. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٠هـ].
١٦٧. تهذيب اللغة، للأزهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت [٢٠٠١م].
١٦٨. التوايين، لابن قدامة المقدسي، دار ابن حزم [١٤٢٤هـ].
١٦٩. التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، عالم الكتب، القاهرة [١٤١٠هـ].
١٧٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة [١٤٢٠هـ].
١٧١. الثبات عند الممات، لابن الجوزي، ط: ١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت [١٤٠٦هـ].
١٧٢. جامع العلوم والحكم، لابن رجب، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٢٢هـ].
١٧٣. جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية [١٤١٤هـ].
١٧٤. الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، مجلس دائرة المعارف العثمانية بمجدر آباد الدكن، الهند [١٢٧١هـ].
١٧٥. جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، دار نضضة مصر للطباعة، القاهرة.
١٧٦. الجنة والنار، لعمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن [١٤١٨هـ].
١٧٧. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، دار العاصمة، السعودية [١٤١٩هـ].
١٧٨. الجواب الكافي، لابن قيم الجوزية، دار المعرفة، المغرب [١٤١٨هـ].
١٧٩. جواهر القرآن، لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، بيروت [١٤٠٦هـ].
١٨٠. الجوهرة النيرة، لأبي بكر بن علي الحدادي العبادي الزبيدي، ط: ١، المطبعة الخيرية [١٣٢٢هـ].
١٨١. حاشية البجيرمي على الخطيب، دار الفكر [١٤١٥هـ].
١٨٢. حاشية الجمل على المنهج لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، سليمان الجمل، دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ.
١٨٣. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، لابن عرفة الدسوقي المالكي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
١٨٤. حاشية السندي على سنن ابن ماجه، دار الجيل، بيروت، بدون طبعة.
١٨٥. حاشية السندي على سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب [١٤٠٦هـ].

الدراسة والسبب النجاة

والوسائل التي تجعل حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

١٨٦. حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار)، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية [١٤٢٤هـ].
١٨٧. حاشية السيوطي على سنن النسائي، ط: ٢، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب [١٤٠٦هـ].
١٨٨. حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت.
١٨٩. حاشية الشيخ محمد الشنواني على مختصر ابن أبي جمرة، مصطفى البابي الحلبي، مصر [١٣٥٣هـ].
١٩٠. حاشيتا قليوبي وعميرة، دار الفكر، بيروت [١٤١٥هـ].
١٩١. الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، لأبي الحسن الماوردي ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].
١٩٢. الحاوي للفتاوي، للسيوطي، دار الفكر، بيروت [١٤٢٤هـ].
١٩٣. الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي، ط: ٢، دمشق/بيروت [١٤١٣هـ].
١٩٤. الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، لتركيا الأنصاري، ط: ١، دار الفكر المعاصر، بيروت [١٤١١هـ].
١٩٥. الحدود في الأصول، لأبي الوليد الباجي، ط: ١، مؤسسة الزعيبي، بيروت، حمص [١٣٩٢هـ].
١٩٦. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، دار السعادة، مصر [١٣٩٤هـ].
١٩٧. حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء، لأبي بكر الشاشي القفال، مؤسسة الرسالة، دار الأرقم، بيروت، عمان [١٩٨٠م].
١٩٨. الحماسة البصرية، لعلي بن أبي الفرج، عالم الكتب، بيروت.
١٩٩. الحوادث والبدع، لأبي شامة، مطبعة النهضة الحديثة بمكة [١٤٠١هـ].
٢٠٠. الحيوان، للجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
٢٠١. خزنة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي، دار ومكتبة الهلال، بيروت [٢٠٠٤م].
٢٠٢. الخيانة صورها وأحكامها وآثارها في ضوء الكتاب والسنة، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط: ١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].
٢٠٣. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، دار القلم، دمشق.
٢٠٤. الدر المنضود في الصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود، لابن حجر الهيتمي، ط: ١، دار المنهاج، جدة [١٤٢٦هـ].

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

٢٠٥. دره تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، السعودية [١٤١١هـ].
٢٠٦. درر الحكام شرح غرر الأحكام، ملا خسرو، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، بدون طبعة، وبدون تاريخ.
٢٠٧. درر المعرفة من تفسير الإمام ابن عرفة، جمعها: نزار حمادي، دار الإمام ابن عرفة، تونس، ودار الضياء الكويت [١٤٣٤هـ].
٢٠٨. دستور العلماء، دار الكتب العلمية، لبنان [١٤٢١هـ].
٢٠٩. دقائق أولي النهى لشرح المنتهى المعروف بشرح منتهى الإيرادات، لمنصور بن البهوتي الحنبلي، عالم الكتب [١٤١٤هـ].
٢١٠. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر البيهقي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].
٢١١. دلائل النبوة، للبيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].
٢١٢. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن علان البكري، دار المعرفة، بيروت [١٤٢٥هـ].
٢١٣. الديباج على صحيح مسلم، للسيوطي، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية [١٤١٦هـ].
٢١٤. ديوان ابن المعتز، دار صادر، بيروت، من غير تاريخ.
٢١٥. ديوان أبي الطيب المتنبي مع العرف الطيب، لليازجي، دار الأرقم، بيروت.
٢١٦. ديوان أبي العتاهية، ط: ١، دار بيروت للطباعة والنشر [١٤٠٦هـ].
٢١٧. ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت [١٤٠٣هـ].
٢١٨. ديوان امرئ القيس، دار المعرفة، بيروت [١٤٢٥هـ].
٢١٩. ديوان بشار بن برد، مجمع اللغة العربية بمصر [١٣٧٣ هـ، ١٣٧٦ هـ، ١٣٨٦ هـ]، والجزء (١): صدر هذا الكتاب من وزارة الثقافة، بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية [٢٠٠٧]، والجزء (٢، ٣، ٤)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
٢٢٠. ديوان طرفة بن العبد، ط: ٣، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٣هـ].
٢٢١. ديوان مالك بن الربيع، مستل من مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ١٥، ج: ١، تحقيق: د. نوري القيسي.

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني

٢٢٢. الذخيرة، للقرائي، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٩٩٤م].
٢٢٣. الذريعة إلى مكارم الشريعة، لأبي القاسم الراغب الأصفهاني، دار السلام، القاهرة [١٤٢٨هـ].
٢٢٤. ذم الهوى، لابن الجوزي، نسخة مصطفى عبد الواحد.
٢٢٥. رد المختار على الدر المختار، لابن عابدين، دار الفكر، بيروت [١٤١٢هـ].
٢٢٦. الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب، لمحمد بن محمود بن أحمد البابرقي، ط: ١، مكتبة الرشد [١٤٢٦هـ].
٢٢٧. الرسالة القشيرية، لعبد الكريم بن هوازن القشيري، دار المعارف، القاهرة.
٢٢٨. الرسالة، للإمام الشافعي، مكتبة الحلبي، القاهرة [١٣٥٨هـ].
٢٢٩. رسائل الجنيد البغدادي، ط: ١، دار اقرأ، دمشق/بيروت [١٤٢٥هـ].
٢٣٠. الرعاية لحقوق الله، لأبي عبد الله الحارث المحاسبي، ط: ٤، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٣١. روح المعاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الألويسي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].
٢٣٢. الروح، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٣٣. روضة الطالبين وعمدة المفتين، للإمام النووي، ط: ٣، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان [١٤١٢هـ].
٢٣٤. روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم محمد بن حبان، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٣٥. روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].
٢٣٦. زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٢٢هـ].
٢٣٧. زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٥هـ].
٢٣٨. الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، لأبي منصور الأزهري الهروي، دار الطلائع.
٢٣٩. الزهد والرقائق، لابن المبارك، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٤٠. الزهد والورع والعبادة، لابن تيمية، مكتبة المنار، الأردن [١٤٠٧هـ].
٢٤١. زهر الأكم في الأمثال والحكم، للحسن بن مسعود بن محمد، نور الدين اليوسي، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب [١٤٠١هـ].
٢٤٢. الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي، دار الفكر [١٤٠٧هـ].

الرسالة السبيل النجاة

الجزء الثاني



٢٤٣. سبل السلام، للصنعاني، دار الحديث، القاهرة، بدون طبعة وبدون تاريخ.
٢٤٤. سبل الهدى والرشاد، لمحمد بن يوسف الصالحي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٤هـ].
٢٤٥. سبيل الوصول إلى عنوان الأصول (في الأصول)، وهو شرح وتحقيق ودراسة لعنوان الأصول في أصول الفقه، لأبي حامد المطرزي. مطبوع في دار الضياء، الكويت، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ومصطفى محمود سليخ، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].
٢٤٦. السراج المنير، للخطيب الشربيني الشافعي، مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة [١٢٨٥هـ].
٢٤٧. السراج الوهاج على متن المنهاج، لمحمد الزهري الغمراوي، دار المعرفة، بيروت.
٢٤٨. سير أعلام النبلاء، للذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٣هـ].
٢٤٩. سير السلف الصالحين، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني، دار الراجية للنشر والتوزيع، الرياض.
٢٥٠. سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، لعبد الله بن عبد الحكم، ط: ٦، عالم الكتب بيروت [١٤٠٤هـ].
٢٥١. شجرة المعارف، عز الدين بن عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
٢٥٢. الشذا الفياح، لإبراهيم بن موسى، مكتبة الرشد [١٤١٨هـ].
٢٥٣. شرح ابن عباد على الحكم، مركز الأهرام، القاهرة [١٤٠٨هـ].
٢٥٤. شرح ابن عباد على الحكم، مركز الأهرام، القاهرة [١٤٠٨هـ].
٢٥٥. شرح الأربعين النووية، لعبد الرؤوف المُنَاوِي، رسالة: ماجستير في كلية الحديث الشريف والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة [١٤٣٦هـ].
٢٥٦. شرح التبصرة والتذكرة (ألفية العراقي)، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٣هـ].
٢٥٧. شرح التلويح على التوضيح، لسعد الدين مسعود بن عمر الفتازاني، مكتبة صبيح، القاهرة، بدون طبعة.
٢٥٨. شرح الحكم العطائية، للشرنوبلي، ط: ٢، دار ابن كثير، دمشق/بيروت [١٤١٠هـ].
٢٥٩. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، ط: ١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة [١٤٢٤هـ].
٢٦٠. شرح الزركشي على مختصر الخرق، ط: ١، دار العبيكان، الرياض [١٤١٣هـ].
٢٦١. شرح السنة، للبعغوي، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت [١٤٠٣هـ].

الرسالة والسبيل النجاة

الجزء الثاني

٢٦٢. شرح الشيخ زكريا الأنصاري للرسالة القشيرية مع حاشية نتائج الأفكار القدسية، للشيخ مصطفى العروسي، دار الطباعة، القاهرة أوائل رجب من سنة ألفو تسعين ومائتين من هجرة سيد الكونين.
٢٦٣. شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، لجلال الدين السيوطي، ط: ١، دار المعرفة، بيروت [١٤١٧هـ].
٢٦٤. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن)، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة، الرياض) [١٤١٧هـ].
٢٦٥. شرح الكوكب المنير، لأبي البقاء محمد بن أحمد الفتوح، مكتبة العبيكان [١٤١٨هـ].
٢٦٦. الشرح الممتع على زاد المستنقع، لمحمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي [١٤٢٢هـ].
٢٦٧. شرح رياض الصالحين، لمحمد بن صالح العثيمين، دار الوطن، الرياض [١٤٢٦هـ].
٢٦٨. شرح شعر المتنبي، لابن الإفليبي، ط: ١، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٢هـ].
٢٦٩. شرح شواهد المغني، للسيوطي، منشورات دار الحياة، بيروت، بلا تاريخ.
٢٧٠. شرح صحيح البخاري، لابن بطال، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض [١٤٢٣هـ].
٢٧١. شرح مختصر خليل للخرشي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
٢٧٢. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، دار الفيحاء، عمان [١٤٠٧هـ].
٢٧٣. شفاء العليل، لابن القيم، دار المعرفة، بيروت، [١٣٩٨هـ].
٢٧٤. الصحاح، للجوهري الفارابي، ط: ٤، دار العلم للملايين، بيروت [١٤٠٧هـ].
٢٧٥. صفة الجنة، لأبي نعيم الأصبهاني، دار المأمون، دمشق.
٢٧٦. صفة الصفوة، لابن الجوزي، دار الحديث، القاهرة [١٤٢١هـ].
٢٧٧. صفحات مشرقة من حياة السلف، سفيان الثوري، لأبي ياسر الزهراني، دار الخضير، المدينة النبوية المنورة.
٢٧٨. صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، لعبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.
٢٧٩. الصوم تربية وجهاد، د. محمد عبد الله دراز، ط ١، تحقيق أحمد مصطفى فضيلة، تقديم حسين محمد مخلوف، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة.

الدراسات الإسلامية والفقهية

الجزء الثاني

٢٨٠. الصوم تربية وجهاد، د. محمد عبد الله دراز، ط ١، تحقيق أحمد مصطفى فضيلة، تقديم حسين محمد مخلوف، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة.
٢٨١. صيد الخاطر، لابن الجوزي، دار القلم، دمشق [١٤٢٥هـ].
٢٨٢. طبقات الأولياء، لابن الملتن، ط: ٢، مكتبة الخانجي، بالقاهرة [١٤١٥هـ].
٢٨٣. طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع [١٤١٣هـ].
٢٨٤. طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة، عالم الكتب، بيروت [١٤٠٧هـ].
٢٨٥. طبقات الشافعيين، لابن كثير، مكتبة الثقافة الدينية [١٤١٣هـ].
٢٨٦. الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٠هـ].
٢٨٧. الطبقات الكبرى، للشعراني، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر [١٣١٥هـ].
٢٨٨. طرح التثريب في شرح التقريب، لأبي الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي، وأكملة ابنه، الطبعة المصرية القديمة.
٢٨٩. طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب، لعبد العزيز الدريني، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
٢٩٠. عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي، لابن العربي المالكي، ودار الكتب العلمية، بيروت، من غير تاريخ.
٢٩١. عالم الجن والشياطين، للدكتور عمر بن سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت [١٤٠٤هـ].
٢٩٢. العبر في خبر من غير، للذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٩٣. العبودية، لابن تيمية، ط: ٧، المكتب الإسلامي، بيروت [١٤٢٦هـ].
٢٩٤. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق [١٤٠٩هـ].
٢٩٥. عقبات في طريق الهداية، وسبل الوقاية منها، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط: ٢، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].
٢٩٦. العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٤هـ].
٢٩٧. العلم، لمحمد بن صالح العثيمين، مكتبة نور الهدى، المملكة العربية السعودية.
٢٩٨. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٩٩. عنوان الدليل، لأبي العباس ابن البناء المراكشي، ط: ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٩٩٠م].

الرسالة السببية النجاة

الجزء الثاني

٣٠٠. العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، لابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٥هـ].
٣٠١. عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].
٣٠٢. غاية البيان شرح زيد ابن رسلان، لشمس الدين الرملي، دار المعرفة، بيروت.
٣٠٣. غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، للسفاريني الحنبلي، مؤسسة قرطبة، مصر [١٤١٤هـ].
٣٠٤. الغرر البهية في شرح البهجة الوردية، لتركيا الأنصاري، المطبعة الميمنية، القاهرة، بدون تاريخ.
٣٠٥. غريب الحديث، لابن قتيبة الدينوري، مطبعة العاني، بغداد [١٣٩٧هـ].
٣٠٦. غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي، دار الفكر [١٤٠٢هـ].
٣٠٧. غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ط: ١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد-الدين [١٣٨٤هـ].
٣٠٨. غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، لأبي العباس أحمد بن محمد مكّي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].
٣٠٩. الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري، ط: ٢، دار المعرفة، لبنان.
٣١٠. الفتاوى الحديثية، لابن حجر الهيتمي، دار الفكر، من غير تاريخ.
٣١١. الفتاوى الفقهية الكبرى، لأحمد بن محمد بن حجر الهيتمي، المكتبة الإسلامية.
٣١٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، دار المعرفة، بيروت [١٣٧٩هـ].
٣١٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية [١٤١٧هـ].
٣١٤. فتح البيان في مقاصد القرآن، لمحمد صديق خان، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت [١٤١٢هـ].
٣١٥. فتح المغيث، للسخاوي، مكتبة السنة، مصر [١٤٢٤هـ].
٣١٦. الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية، لابن علان، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
٣١٧. فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل، دار الفكر، بدون تاريخ.
٣١٨. الفروع، لابن مفلح الحنبلي، مؤسسة الرسالة [١٤٢٤هـ].
٣١٩. الفروق (أنوار البروق في أنواع الفروق)، لأبي العباس شهاب الدين القرافي، عالم الكتب، بيروت، بدون طبعة.

الدراسات والأساليب النحوية

والوسائد الناجمة حيا طيبة نافعته

الجزء الثاني

٣٢٠. الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، طبعة دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
٣٢١. فضائل القرآن، لأبي العباس المستغفري، ط: ١، دار ابن حزم، بيروت [٢٠٠٨م].
٣٢٢. فضائل القرآن، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ط: ١، دار ابن كثير، دمشق/بيروت [١٤١٥هـ].
٣٢٣. فضيلة العادلين من الولاة، لأبي نعيم، ط: ١، دار الوطن، الرياض [١٤١٨هـ].
٣٢٤. الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، لأحمد بن غنيم النفراوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
٣٢٥. الفوائد، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت [١٣٩٣هـ].
٣٢٦. فيض القدير شرح الجامع الصغير، لعبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر [١٣٥٦].
٣٢٧. قاعدة في المحبة، لابن تيمية، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.
٣٢٨. قصيدة عنوان الحكم، لأبي الفتح علي بن محمد البُشتي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط: ١، [١٤٠٤هـ].
٣٢٩. قواطع الأدلة في الأصول، لأبي المظفر السمعاني، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].
٣٣٠. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٣١. قواعد الفقه، للبركتي، الصدف بيلشرز، كراتشي [١٤٠٧هـ].
٣٣٢. القواعد والفوائد الأصولية، علاء الدين البعلبي المعروف بابن اللحام، المكتبة العصرية [١٤٢٠هـ].
٣٣٣. قوت القلوب في معاملة المحبوب، لأبي طالب المكي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٦هـ].
٣٣٤. قوت المغتذي على جامع الترمذي، لجلال الدين السيوطي، رسالة الدكتوراة في جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة [١٤٢٤هـ].
٣٣٥. القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع، لشمس الدين السخاوي، ط: مكتبة المؤيد، الطائف، السعودية، ودار البيان، دمشق.
٣٣٦. القيامة الصغرى، لعمر بن سليمان الأشقر، ط: ٤، دار النفائس، الأردن، مكتبة الفلاح، الكويت [١٤١١هـ].
٣٣٧. الكافي في فقه أهل المدينة، لابن عبد البر، مكتبة الرياض الحديثة، [١٤٠٠هـ].

الرسائل والأسبب النجاة

الجزء الثاني

٣٣٨. الكافية في الجدل، للجويني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة [١٣٩٩هـ].
٣٣٩. الكبائر، للذهبي، ط: ٢، بتحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة الفرقان [١٤٢٤هـ].
٣٤٠. الكتاب، لسيبويه، ط: ٣، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤٠٨هـ].
٣٤١. الكسب، لأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، عبد الهادي حرصوني، دمشق [١٤٠٠].
٣٤٢. كشاف القناع عن متن الإقناع، لمنصور بن يونس البهوتي الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٤٣. كشف الأسرار شرح أصول البزدوي، لعبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري الحنفي، دار الكتاب الإسلامي، بدون طبعة.
٣٤٤. كشف الظنون، لحاجي خليفة، مكتبة المثنى، بغداد [١٩٤١م].
٣٤٥. كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي دار الوطن، الرياض.
٣٤٦. الكشكول، لمحمد بن حسين الحارثي العاملي الهمداني، بهاء الدين، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].
٣٤٧. الكليات، لأبي البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٣٤٨. كنز الدقائق، لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي، ط: ١، دار البشائر الإسلامية، ودار السراج، بيروت، المدينة المنورة [١٤٣٢هـ].
٣٤٩. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، لمحمد بن يوسف الكرمانلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٠١هـ].
٣٥٠. اللباب في شرح الكتاب، لعبد الغني الغنيمي الدمشقي الميداني، المكتبة العلمية، بيروت.
٣٥١. لسان الحكام في معرفة الأحكام، لأبي الوليد ابن السَّحْنَةَ الثقفي الحلبي، ط: ٢، البابي الحلبي، القاهرة [١٣٩٣هـ].
٣٥٢. لطائف المعارف، لابن رجب، ط: ١، دار ابن حزم، بيروت [١٤٢٤هـ].
٣٥٣. لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح، لعبد الحق الدهلوي، دار النوادر، دمشق [١٤٣٥هـ].
٣٥٤. اللمعة في خصائص الجمعة، للسيوطي، ط: ٢، دار الكتب العلمية [١٤٠٧هـ].
٣٥٥. لوامع الأنوار البهية لشمس الدين السفاريني، ط: ٢، مؤسسة الخافقين، دمشق [١٤٠٢هـ].

الدراسات والبحوث في اللغة

الجزء الثاني



٣٥٦. المبدع في شرح المقنع، لابن مفلح، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].
٣٥٧. المبسوط، لشمس الأئمة السرخسي، دار المعرفة، بيروت [١٤١٤هـ].
٣٥٨. متن الشاطبية، (حزب الأمامي ووجه التهاني في القراءات السبع)، لأبي محمد القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيبي الشاطبي، ط: ٤، مكتبة دار الهدى، ودار الغوثاني للدراسات القرآنية [١٤٢٦هـ].
٣٥٩. متن القصيدة النونية، لابن القيم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة [١٤١٧هـ].
٣٦٠. متن بداية المتدي في فقه الإمام أبي حنيفة، لبرهان الدين علي بن أبي بكر المرغيناني، مكتبة ومطبعة محمد علي صبح، القاهرة.
٣٦١. مجاز القرآن، لأبي عبيدة، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٣٨١هـ].
٣٦٢. المجالس الوعظية، لشمس الدين محمد بن عمر السفيري الشافعي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٥هـ].
٣٦٣. المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي، دار ابن حزم، بيروت [١٤١٩هـ].
٣٦٤. مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، عبد الرحمن بن محمد شيخ زاده، المعروف بداماد أفندي، دار إحياء التراث العربي، بدون طبعة وبدون تاريخ.
٣٦٥. مجمل اللغة، لابن فارس، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٦هـ].
٣٦٦. مجموع الفتاوى، لابن تيمية، مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية [١٤١٦هـ].
٣٦٧. مجموع رسائل الحافظ ابن رجب، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر [١٤٢٥هـ].
٣٦٨. المجموع شرح المهذب، للإمام النووي، دار الفكر.
٣٦٩. المحبة صورها وأحكامها، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط: ٣، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].
٣٧٠. المحدث الفاصل، للرامهرمزي، دار الفكر، بيروت [١٤٠٤هـ].
٣٧١. المحرر الوجيز، لابن عطية، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٢هـ].
٣٧٢. المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن ابن سيده المرسي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ].
٣٧٣. المحلى بالآثار، لابن حزم، دار الفكر، بيروت.

المرشد إلى السبيل النجاة والوسائد التي اجتمعت حياطة طيبة نافعة

الجزء الثاني



٣٧٤. المختصر الفقهي، لابن عرفة، ط: ١، مؤسسة خلف أحمد الحبتور [١٤٣٥هـ].
٣٧٥. مختصر المزني (مطبوع ملحقاً بالألم للشافعي)، لإسماعيل بن يحيى بن إسماعيل، أبو إبراهيم المزني، دار المعرفة [١٤١٠هـ].
٣٧٦. مختصر المعاني (مختصر لشرح تلخيص المفتاح)، لسعد الدين التفتازاني، ط: ١، دار الفكر، قم [١٤١١هـ].
٣٧٧. مختصر قيام الليل للمروزي، لأبي عبد الله محمد بن نصر المروزي، ط: ١، حديث أكاديمي، فيصل آباد، باكستان [١٤٠٨هـ].
٣٧٨. مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي، مكتبة دار البيان، دمشق [١٣٩٨هـ].
٣٧٩. المخصص، لابن سيده، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤١٧هـ].
٣٨٠. المخلصيات وأجزاء أخرى، لأبي طاهر المخلص، ط: ١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر [١٤٢٩هـ].
٣٨١. مدارج السالكين، لابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤١٦هـ].
٣٨٢. المدخل، لابن الحاج، دار التراث، بدون طبعة وبدون تاريخ.
٣٨٣. مراقي الفلاح شرح متن نور الإيضاح، لحسن بن عمار بن علي الشرنبلالي، ط: ١، المكتبة العصرية، بيروت [١٤٢٥هـ].
٣٨٤. المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي القاسم شهاب الدين المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة، دار صادر، بيروت [١٣٩٥هـ].
٣٨٥. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان الملا الهروي القاري، ط: ١، دار الفكر، بيروت [١٤٢٢هـ].
٣٨٦. المسالك في شرح موطأ مالك، للقاضي أبي بكر بن العربي، ط: ١، دار الغرب الإسلامي [١٤٢٨هـ].
٣٨٧. المستصفى، لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية [١٤١٣هـ].
٣٨٨. مسند الموطأ، للجوهري، ط: ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٩٩٧م].
٣٨٩. المسودة في أصول الفقه، لآل تيمية، دار الكتاب العربي.

الدراسات والبحوث في اللغة

واللغة العربية

الجزء الثاني

٣٩٠. مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض، الطبعة القديمة، المكتبة العتيقة ودار التراث، تونس، القاهرة [١٣٣٣هـ].
٣٩١. مصابيح الجامع، لمحمد بن أبي بكر، بدر الدين الدماميني، ط: ١، دار النوادر، دمشق [١٤٣٠هـ].
٣٩٢. مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى بن سعد بن عبده السيوطي شهرة، الرحبياني مولدا، المكتب الإسلامي [١٤١٥هـ].
٣٩٣. المطمع على ألفاظ المقنع، لأبي عبد الله محمد بن أبي الفتح البعلي، ط: ١، مكتبة السوادى للتوزيع [١٤٢٣هـ].
٣٩٤. المطول في شرح تلخيص المفتاح، لسعد الدين التفتازاني، وبهامشه حاشية المير سيد شريف، ط: ١، المكتبة الأزهرية للتراث [١٣٣٠هـ].
٣٩٥. معارج القدس، لأبي حامد الغزالي، طبع دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٣٩٦. معالم السنن، لأبي سليمان الخطابي، المطبعة العلمية، حلب [١٣٥١هـ].
٣٩٧. معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، عالم الكتب، بيروت [١٤٠٨هـ].
٣٩٨. معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس، ط: ١، جامعة أم القرى، مكة المكرمة [١٤٠٩هـ].
٣٩٩. معاني القرآن، للأخفش، سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى [١٤٢٤هـ].
٤٠٠. معاني القرآن، للفراء، ط: ١، دار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.
٤٠١. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، لأبي الفتح العباسي، عالم الكتب، بيروت.
٤٠٢. معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، للسيوطي، مكتبة الآداب، القاهرة [١٤٢٤هـ].
٤٠٣. المعلم بفوائد مسلم، لأبي عبد الله المازري، ط: ٢، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، [١٩٩١م].
٤٠٤. مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، للخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية [١٤١٥هـ].
٤٠٥. المغني، لابن قدامة، مكتبة القاهرة، بدون طبعة [١٣٨٨هـ].
٤٠٦. المفاتيح في شرح المصابيح، للحسين بن محمود مظهر الدين بالمظهري، ط: ١، دار النوادر، وهو من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية، وزارة الأوقاف الكويتية [١٤٣٣هـ].

الدراسة والسبيل إلى النجاة

والوسائل التي تجتنب حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني



٤٠٧. مفتاح دار السعادة، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٠٨. المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، دار القلم، الدار الشامية، دمشق/بيروت [١٤١٢هـ].
٤٠٩. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت [١٤١٧هـ].
٤١٠. المقاصد الحسنة، لشمس الدين السخاوي، ط: ١، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٥هـ].
٤١١. مقاصد الرعاية لحقوق الله، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، ط: ١، دار الفكر، دمشق [١٤١٦هـ].
٤١٢. مقالات الإسلاميين في الصيام، د. محمد بن حسن عقيل موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، ط ١، جدة [١٤٢٢هـ].
٤١٣. مقالات الإسلاميين في الصيام، د. محمد بن حسن عقيل موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، ط ١، جدة [١٤٢٢هـ].
٤١٤. المقدمات الممهدة، لأبي الوليد ابن رشد، ط: ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٤٠٨هـ].
٤١٥. مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، مكتبة الحياة، بيروت [١٤٩٠هـ].
٤١٦. المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ط: ١، الجفان والجابي، قبرص [١٤٠٧هـ].
٤١٧. مكفرات الذنوب وموجبات الجنة، لعبد الرحمن بن علي الشيباني المعروف بابن الديع، دار الاعتصام.
٤١٨. من روائع حضارتنا، لمصطفى السباعي، ط: ١، دار الوراق، دار السلام، القاهرة [١٤١٨هـ].
٤١٩. منار السبيل منار السبيل في شرح الدليل، لابن ضويان، إبراهيم بن محمد بن سالم، ط: ٧، المكتب الإسلامي، بيروت [١٤٠٩هـ].
٤٢٠. منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، لحمزة محمد قاسم، مكتبة دار البيان، دمشق، والمؤيد، السعودية [١٤١٠هـ].
٤٢١. منازل السائرين، لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٢٢. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، لأبي الفرج جمال الدين ابن الجوزي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٢هـ].

الرسائل والأسبب النجاة

الجزء الثاني

٤٢٣. المنتقى شرح الموطأ، لأبي الوليد الباجي، مطبعة السعادة، مصر [١٣٣٢هـ].
٤٢٤. المنثور في القواعد الفقهية، للزركشي، ط: ٢، وزارة الأوقاف الكويتية [١٤٠٥هـ].
٤٢٥. منجد المقرئين، لابن الجزري، ط: ١، دار الكتب العلمية [١٤٢٠هـ].
٤٢٦. منحة الباري بشرح صحيح البخاري، المسمى، «تحفة الباري»، لزكريا الأنصاري، ط: ١، مكتبة الرشد، الرياض [١٤٢٦هـ].
٤٢٧. المنفرجتان، لزكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي، دار الفضيلة، القاهرة.
٤٢٨. منهاج السنة النبوية لابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية [١٤٠٦هـ].
٤٢٩. منهاج الطالبين وعمدة المفتين في الفقه، للإمام النووي، ط: ١، دار الفكر [١٤٢٥هـ].
٤٣٠. منهاج العابدين، لأبي حامد الغزالي، دار الطباعة الباهرة، القاهرة.
٤٣١. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٣٩٢هـ].
٤٣٢. المنهاج في شعب الإيمان، لأبي عبد الله الحلبي، ط: ١، دار الفكر [١٣٩٩هـ].
٤٣٣. المهذب في فقه الإمام الشافعي، لأبي اسحاق الشيرازي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٣٤. الموافقات، للشاطبي، دار ابن عفان، السعودية [١٤١٧هـ].
٤٣٥. مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، لشمس الدين الخطاب الرُّعيني المالكي، دار الفكر [١٤١٢هـ].
٤٣٦. موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلمه، عالم الكتب [١٤١٧هـ].
٤٣٧. موسوعة الأعمال الكاملة، للعلامة محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: ابن أخيه: المحامي علي الرضا الحسيني، الطبعة الأولى، دار النوادر [١٤٣١هـ].
٤٣٨. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت [١٤٢٧هـ].
٤٣٩. الميسر في شرح مصابيح السنة، لشهاب الدين التُّوريشتي، ط: ٢، مكتبة نزار مصطفى الباز [١٤٢٩هـ].
٤٤٠. الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النحاس، ط: ١، مكتبة الفلاح، الكويت [١٤٠٨هـ].
٤٤١. الناسخ والمنسوخ، لأبي عبيد القاسم بن سلام، مكتبة الرشد بالرياض [١٤١٨هـ].
٤٤٢. نتائج الأفكار في تخريج أحاديث، ط: ٢، دار ابن كثير [١٤٢٩هـ].
٤٤٣. نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٤هـ].

الرسالة السبب النجاة

الجزء الثاني

- ٤٤٤ . نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دار الوسيلة، جدة.
- ٤٤٥ . نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، للرملي، دار الفكر، بيروت [١٤٠٤هـ].
- ٤٤٦ . نهاية المطلب في دراية المذهب، لإمام الحرمين عبد الملك الجويني، ط: ١، دار المنهاج [١٤٢٨هـ].
- ٤٤٧ . النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، المكتبة العلمية، بيروت [١٣٩٩هـ].
- ٤٤٨ . نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط: ١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].
- ٤٤٩ . نوادر الأصول في أحاديث الرسول، لأبي عبد الله، الحكيم الترمذي، دار الجيل، بيروت.
- ٤٥٠ . نيل الأوطار، للشوكاني، ط: ١، دار الحديث، القاهرة [١٤١٣هـ].
- ٤٥١ . الهداية إلى بلوغ النهاية، لأبي محمد مكّي بن أبي طالب، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة [١٤٢٩هـ].
- ٤٥٢ . الهداية في شرح بداية المبتدي، لبرهان الدين علي بن أبي بكر المرغيناني، دار احياء التراث العربي، بيروت.
- ٤٥٣ . الواابل الصيب من الكلم الطيب، دار الحديث، القاهرة [١٩٩٩م].
- ٤٥٤ . وسائل الإقناع في القرآن الكريم، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].
- ٤٥٥ . الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن الواحددي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].

الدراسة والسبب النجاة

الجزء الثاني

فهرس موضوعات الجزء الثاني

- خامسًا: شروط التوبة..... ٥
- مسألة: هل الاعتراف بالذنب يكون توبة أم لا؟ ٨
- سادسًا: علامات قبول التوبة والأسباب التي تعين عليها..... ١٠
- سابعًا: حكم التوبة..... ٢٢
- ١ - التوبة واجبة على الفور..... ٢٢
- ٢ - التوبة من الذنب وإن تكرر..... ٢٦
- ٣ - الفرق بين التوبة والاستغفار..... ٣٠
- ٤ - الفرق بين الدعاء والاستغفار..... ٣٨
- ٥ - صلاة التوبة والاستغفار..... ٣٩
- ٦ - تجديد الندم عند ذكر الذنب..... ٤٣
- ٧ - التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره..... ٤٥
- ٨ - مسألة: من تاب من ذنب ثم عاد إليه..... ٤٨
- ٩ - توبة الكافر..... ٥٢
- ١٠ - توبة العاصي..... ٥٣
- ١١ - توبة القاتل..... ٥٥

الدُّرَرُ وَالرُّسَائِلُ إِلَى سَبِيلِ النِّجَاةِ وَالرُّسَائِلُ النَّاجِعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً نَافِعَةً

الجزء الثاني

- ١٢ - توبة السارق..... ٦٠
- ١٣ - توبة المحاربين وقطاع الطريق..... ٦٧
- ١٤ - التوبة الباطنة والظاهرة..... ٧٧
- ثامناً: إجمال ذكر فرائض التوبة، وآدابها، ومراتبها..... ٨٣
- تاسعاً: وقت التوبة..... ٨٥
- عاشراً: ثمرات الاستغفار..... ١١٢
- حادي عشر: إجمال ذكر ثمرات الاستغفار..... ١٢٣
- ثاني عشر: أفضل أنواع الاستغفار..... ١٣٣
- الثالث عشر: الأوقات التي يشرع فيها الاستغفار..... ١٣٧
- ١ - الاستغفار عند وقوع الذنب..... ١٣٨
- ٢ - الاستغفار عقب الصلوات وفيها، وعقب سائر العبادات..... ١٣٨
- أ. الاستغفار عقب الصلاة..... ١٣٩
- ب. الاستغفار في الصلاة وغيرها من العبادات..... ١٣٩
- ج. الاستغفار بعد الفراغ من الوضوء..... ١٤١
- د. الاستغفار في الحجّ وعقب إكمال أعماله..... ١٤٢
- ٣ - الاستغفار في نصف الليل وفي وقت الأسحار..... ١٤٣
- ٤ - الاستغفار في ختم المجالس..... ١٤٧
- ٥ - كثرة الاستغفار في ختام العمر وفي حالة الكبر والشيخوخة..... ١٤٩
- ٦ - الاستغفار للأموات..... ١٥٢

الدراسة السبب النجاة

الجزء الثاني

- المبحث التاسع: الصبر والشكر** ١٥٩.....
- أولاً: تعريف الصبر وبيان أركانه وأقسامه..... ١٦١.....
- ١ - تعريف الصبر..... ١٦١.....
- ٢ - أركان الصبر..... ١٦٦.....
- ٣ - أقسام الصبر ومقاماته..... ١٦٧.....
- ثانياً: بيان مكانة الصبر وأنه من أعظم المنجيات من سوء العاقبة..... ١٧٩.....
- ١ - الصبر من أعظم المنجيات من الفتن وسوء العاقبة..... ١٧٩.....
- ٢ - أفضل الصبر: ما كان عند الصدمة الأولى..... ١٩١.....
- ٣ - صور من الصبر على الشدة والبلاء والكوارث..... ١٩٣.....
- أ. الصبر على موت الولد..... ١٩٣.....
- ب. حمد الله عزَّ وجلَّ عند فقد الولد..... ١٩٧.....
- ج. الصبر والاحتساب على فقد الصفيِّ..... ١٩٧.....
- د. الصبر على تربية البنات، والإحسان إليهن..... ١٩٧.....
- هـ. الصبر على فقد البصر..... ١٩٩.....
- و. الصبر على الصرع..... ٢٠٢.....
- ز. الصبر على الحمى..... ٢٠٤.....
- ح. الصبر على ما يصيب العبد من مرض، ويكون سبباً في موته..... ٢٠٦.....
- ط. الصبر على الظلم..... ٢٠٦.....
- ي. الصبر على مشاقِّ التكليف..... ٢٠٧.....

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

- ٢٠٨..... ٤ - الصبر من خصال الإيمان وشعبه.
- ٢١٢..... ٥ - الصبر خير ما يستعان به عند النوازل والبلاء.
- ٢١٩..... ٦ - طلب الإعانة من الله عَزَّوَجَلَّ عند وقوع البلاء.
- ٢١٩..... ٧ - المعونة قدر المؤونة.
- ٢٢٣..... ٨ - صبر العبد دليل على محبة الله عَزَّوَجَلَّ له، ورضاه عنه أن وفقه للخير.
- ٢٢٩..... ٩ - المسلم يتعوذ من البلاء، ويحمد الله عَزَّوَجَلَّ على العافية.
- ٢٣٠..... ١٠ - مسألة: الغني الشاكر، والفقير الصابر.
- ٢٤٠..... ١١ - التعوذ بالله عَزَّوَجَلَّ من الغنى المطغي والفقير المنسي.
- ٢٤٩..... ١٢ - الوقاية من آفات الفقر المنسي والغنى المطغي والعلاج.
- ٢٥٢..... ١٣ - بيان عاقبة الصبر، وبيان أنه مفتاح الفرج.
- ٢٦٤..... ١٤ - التلازم بين الصبر والشكر.
- ٢٦٦..... **ثالثاً: تعريف الشكر وبيان مكانته ومنازله وأركانه وعاقبته.**
- ٢٦٦..... ١ - تعريف الشكر، وبيان الفرق بينه وبين الحمد، وذكر درجاته ومراتبه.
- ٢٦٦..... أ. بيان حقيقة الشكر.
- ٢٧٣..... ب. معنى شكر الله عَزَّوَجَلَّ للعبد.
- ٢٧٤..... ج. الفرق بين الشكر والحمد.
- ٢٨٢..... د. منازل الشكر ودرجاته.
- ٢٨٤..... هـ. أركان الشكر.
- ٢٨٥..... ٢ - الشكر من أعظم المنجيات من سوء العاقبة.

الدراسة والسبب النجاة



الجزء الثاني



- ٣ - كفران النعم من صور الكفر الأصغر..... ٣٠٠
- ٤ - شُكْرُ النَّاسِ..... ٣٠٤
- رابعًا: ذكر ما يعين العبد على الصبر والشكر..... ٣١٣
- المبحث العاشر: حياة البرزخ وأسباب الوقاية من العذاب فيه.** ٣٢٩
- أولًا: الإيمان بحياة البرزخ الخاصة..... ٣٣١
- ثانيًا: المراحل التي يمر بها الإنسان قبل ولادته وبعدها..... ٣٣٥
- ثالثًا: حقيقة الحياة في دار البرزخ والعذاب والنعيم فيه..... ٣٤٠
- رابعًا: النصوص الدالة على عذاب البرزخ ونعيمه..... ٣٤٥
- خامسًا: بشرى المؤمن بحسن العاقبة عند انتقاله إلى الدار الآخرة..... ٣٧٧
- سادسًا: حياة الشهداء في البرزخ..... ٣٨٨
- سابعًا: بيان المراد من الصّديّين وحياتهم في البرزخ..... ٣٩٩
- ١ - بيان المراد من الصّديّين..... ٣٩٩
- ٢ - حياة الصّديّين في البرزخ..... ٤٠٦
- ثامنًا: حياة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في البرزخ..... ٤٠٧
- تاسعًا: الأطفال في حياة البرزخ..... ٤٢١
- عاشرًا: أسباب النجاة والوقاية من عذاب البرزخ..... ٤٢٥
- ١ - الحذر من المعاصي المنصوص على أنها من أسباب عذاب البرزخ..... ٤٢٥
- ٢ - العلم بعاقبة كلّ ذنبٍ وأسباب النّجاة والوقاية منه..... ٤٢٦

الدراسة والسبيل إلى النجاة

والوسائد التي اجتمعت حياطة طيبة نافعة

الجزء الثاني

- ٣ - محاسبة النفس والتنقيب عن عيوبها، وتحديد التوبة..... ٤٢٦
- ٤ - الرباط في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ..... ٤٢٧
- ٥ - الشهادة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ..... ٤٣٤
- ٦ - من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة..... ٤٣٧
- ٧ - المحافظة على قراءة سورة الملك والعمل بها..... ٤٤٠
- ٨ - من أصيب بداء في بطنه فكان سبباً في موته..... ٤٤٢
- ٩ - المحافظة على أداء العبادات، وفعل الخيرات..... ٤٤٩
- ١٠ - تحقيق التقوى لله عَزَّوَجَلَّ..... ٤٥١
- ١١ - الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ من عذاب القبر..... ٤٥١
- ١٢ - خلاصة نافعة في ذكر أنواع الشهادة الحكمية..... ٤٥١
- المبحث الحادي عشر: أسباب السعادة وتفاوت مراتبها..... ٤٥٩**
- أولاً: الحياة الطيبة، والسعادة الرضية مطلبٌ ينشده كلُّ البشر..... ٤٦١
- ثانياً: السبيل الموصل إلى السعادة..... ٤٦٤
- ثالثاً: أسباب السعادة..... ٤٦٦
- ١ - أن يُعنى العاقل بسرورٍ لا ينقطع..... ٤٦٦
- ٢ - مخالفة النفس، والهوى، والشيطان، وإصلاح النفس..... ٤٦٧
- ٣ - تغذية الروح بالإيمان..... ٤٦٨
- ٤ - تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّوَجَلَّ..... ٤٦٩
- ٥ - رسوخ الإيمان بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره..... ٤٧٠

الدرر والاسباب النجاة

الجزء الثاني

- ٦ - أن يُثَمِّن العبد ما عنده من نعمٍ لا تعدُّ ولا تحصى..... ٤٧٢
- ٧ - أن يضع العبد نصب عينيه مصير من سلك طريق الشقاء، وعاقبة من سلك طريق السعادة والهناء..... ٤٧٣
- ٨ - إخلاصُ النية في طلب الحقِّ، والاهتداء بأنوار الوحي..... ٤٧٣
- ٩ - السعيُّ إلى تكميلِ النَّفْسِ بالعلمِ والمعرفة..... ٤٧٣
- ١٠ - السعي إلى المعالي في المجالات كافة..... ٤٧٤
- ١١ - اغتنام الوقت بما ينفع العبد..... ٤٧٤
- ١٢ - الإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ..... ٤٧٤
- ١٣ - ملازمة العلماء والصالحين وأصحاب الهمم العالية..... ٤٧٥
- ١٤ - الإكثار من ذكر الموت..... ٤٧٥
- ١٥ - أن يتجنب السلك المهلكات المتوعد عليها بالعذاب، والعقبات التي تحول دون الهداية..... ٤٧٥
- ١٦ - تحري أسباب المغفرة، والخصال المكفرة..... ٤٨٠
- رابعًا: التقوى تبلغ العبد أعلى درجات السعادة في الآخرة..... ٤٨٠
- خامسًا: الأسباب التي تعين على التلذذ بالأعمال الصالحة..... ٤٩٦
- ١ - مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ وإخلاص العمل له..... ٤٩٧
- ٢ - مجاهدة النفس..... ٤٩٨
- ٣ - تدبر آيات القرآن الكريم، ومعرفة أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته..... ٥٠٠
- ٤ - الإكثار من النوافل..... ٥٠١

الدراسة والسبيل إلى النجاة

والوسائل التي تجعل حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

٥ - مجالسة العلماء، ومصاحبة الصالحين من أرباب العزائم والهمم..... ٥٠١

٦ - التنوع في العبادات وفي صفاتها..... ٥٠٢

٧ - الذكر، والدعاء، والتضرع إلى الله عَزَّوَجَلَّ..... ٥٠٢

ملحق في بيان ما تقدم بسطه من المنجيات..... ٥٠٩

المبحث الثاني عشر: تحري أسباب المغفرة، والعافية، والخصال

المكفرة..... ٥١١

المبحث الثالث عشر: الابتلاء بالفتن وأسباب النجاة

منها..... ٥٤١

أولاً: وقوع الفتن من الابتلاء الذي يحص الصادق عن الكاذب..... ٥٤٣

ثانياً: أسباب الوقاية والنجاة من الفتن..... ٥٦٧

المبحث الرابع عشر: اجتناب أعمال أهل النار..... ٥٨٣

المبحث الخامس عشر: تجاوز العقبات التي تحول دون

الهداية..... ٥٩١

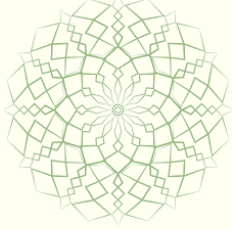
المبحث السادس عشر: التربية الوقائية..... ٦٠٣

المبحث السابع عشر: طلب العلم وتحري الحق والتلازم بين العلم

والعمل..... ٦١٣

الدراسة والسبيل إلى النجاة

الجزء الثاني



المؤلف في سطور:

الاسم: عبد القادر محمد المعتصم دهمان.

الميلاد: من مواليد مدينة حمص في سوريا.

محل الإقامة: الكويت، محافظة الفروانية، ضاحية عبد الله المبارك الصباح.

المؤهل والخبرات:

١ - حاصل على شهادة المعهد العلمي الشرعي التابع لجمعية العلماء في مدينة (حمص) بتاريخ (١٥/١٢/١٤١٣هـ)، بتقدير: (امتياز). وعلى شهادة الثانوية الأزهرية (القسم الأدبي) من (القاهرة).

٢ - حاصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر في (القاهرة)، بتاريخ (٢) من ربيع الآخر [١٤١٨هـ]، (٦/أغسطس/١٩٩٧م) بتقدير: جيد جداً، قسم التفسير وعلوم القرآن.

٣ - حاصل على درجة دبلوم الدراسات العليا (الماجستير) في التفسير وعلوم القرآن، وذلك بعد مناقشة رسالة بعنوان: (الإقناع بين طريقة القرآن وعرض المفسر)، وذلك يوم الأربعاء الواقع في (٧/ذي الحجة/١٤٢٤هـ)، الموافق (٢٩/١/٢٠٠٤م). وقد طبعت رسالة الماجستير مع تحقيقات وزيادات وتعديلات جديدة بعنوان (وسائل الإقناع في القرآن) في دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].

٤ - حاصل على درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، بعد مناقشة رسالة بعنوان: (أساليب الخطاب في القرآن الكريم). دراسة تحليلية شاملة لأساليب الخطاب والطلب في القرآن

الدراسات والبحوث في اللغة

الجزء الثاني

الكريم. وذلك يوم السبت الواقع في (٢٠١١/٧/٣٠)، الموافق (٢٩/شعبان/١٤٣٢هـ). وقد طبعت رسالة الدكتوراه في مجلدين مع تحقیقات وزيادات وتعديلات جديدة في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، قطاع الشؤون الثقافية، مجلة الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].

عمل إمامًا وخطيبًا ومدربًا في (سوريا)، وكذلك في (الكويت) ولا يزال. وعمل مؤخرًا فنيًا في المراقبة الثقافية في وزارة الأوقاف إدارة مساجد محافظة (الفروانية)، ثم باحثًا شرعيًا [١٦] عامًا في (المراقبة الثقافية في إدارة مساجد محافظة الفروانية)، وإمامًا وخطيبًا في محافظة (الفروانية) [٢٠] عامًا، ولا يزال.

ومدرسًا في كلية التربية الأساسية في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي، قسم الدراسات الإسلامية (الكويت - العارضية).

الكتب والمؤلفات:

١ - (تذكرة وبيان من علوم القرآن)، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى:

[١٤٤٣هـ، ٢٠٢١م].

٢ - (مَجَارِي الكِنَايَةِ فِي اللُّغَةِ وَعِلْمِ البَيَانِ وَالتَّفْسِيرِ وَالفِقهِ وَأُصُولِهِ).

جاء في مقدمة الكتاب: "وقد كنتُ قد بحثُ من مقاصدِ علم البيان كلاً من: (التشبيه، والاستعارة، والمجاز المرسل)، في كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن)، ووعدتُ بأن يكون مبحث الكناية في صدر الجزء الثاني من كتابي: (تذكرة وبيان من علوم القرآن).

ولما رأيت ما للكناية من تشعبات في علوم متنوعة رأيتُ أفرادها البحث؛ لحاجة طالب العلم، والباحث في علوم: (اللغة، والبلاغة، والتفسير، والفقهاء، وأصوله) لمعرفة مجاري الكناية في هذه العلوم".

الدراسات والبحوث في تفسير الآيات الكونية

الجزء الثاني

- ٣ - (الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية) (إضاءات على تعريف التفسير العلمي وضوابطه، ومبادئه العشرة)، العبيكان، [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].
- وقد طبع قسم منه في (جامعة النيلين)، السودان. بعنوان: (مبادئ التفسير العلمي لنصوص القرآن الكريم وضوابط التعريف)، كبحث (محكم).
- ٤ - (وسائل الإقناع في القرآن الكريم)، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].
- ٥ - (أساليب الخطاب في القرآن الكريم)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، قطاع الشؤون الثقافية، مجلة الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].
- ٦ - (التربية الوقائية من آفات التفكك الأسري)، وقد كان طبع في وزارة الأوقاف، في إدارة مساجد محافظة الفروانية، في دولة الكويت سنة [١٤٣٥هـ]، الموافق [٢٠١٤م]، رقم الإيداع ٤١/٢٠١٤م. www.islam.gov.kw. بعنوان: (أخطار تهدد الأسرة). وأعيد طبعه في (دار اللؤلؤة)، مع إضافات وبعض التعديلات.
- ٧ - (الحبة صورها وأحكامها، وزارة الأوقاف)، دولة الكويت، إدارة مساجد محافظة الفروانية، مطبعة النظائر [١٤٣٧هـ]. أعيد طبع الكتاب بإصلاحات وإضافات وتحقيقات جديدة في (دار اللؤلؤة)، المنصورة، مصر [١٤٣٩هـ]، الموافق [٢٠١٨م]، الإصدار الثالث بإصلاحات جديدة، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].
- ٨ - (عقبات في طريق الهداية، وسبل الوقاية منها)، والكتاب يتناول خمسة وخمسين موضوعاً من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية. طبع في (دار اللؤلؤة)، المنصورة، مصر

الدراسة إلى سبب النجاة

والوسائل الناجحة لحياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

[١٤٣٩هـ]، الموافق [٢٠١٨م]، الإصدار الثاني، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٩ - (دروس وعبر من رحلة سيد البشر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). كتيب. وزارة الأوقاف، دولة الكويت، إدارة مساجد محافظة الفروانية، الطبعة الأولى [١٤٣٩هـ]، [٢٠١٨م]، الإصدار الثاني، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

١٠ - (نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار). والكتاب يتناول موضوعات كثيرة من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية. العبيكان، [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

١١ - (سبيل الوصول إلى عنوان الأصول) (في الأصول)، وهو شرح وتحقيق ودراسة لعنوان الأصول في أصول الفقه، لأبي حامد المطرزي. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٢ - (الإرشاد إلى أسباب النجاة، والوسائل الناجحة لحياة طيبة نافعة).

١٣ - (أساليب النداء في القرآن الكريم)، دراسة تحليلية لآيات النداء تتناول (الأداة، والمنادى، والمنادي، وما ولي الأداة والمنادى)، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

١٤ - (تنوير المستبصر الفائز ببيان أحكام الجنائز)، شرح وتحقيق كتاب الجنائز للفقير إلى رحمة ربه العلي إبراهيم بن يوسف البولوي، توفي سنة [١٠٤١هـ]. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٥هـ].

١٥ - (آفات اللسان وسبل الوقاية والعلاج منها)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م]، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

الدراسة إلى سبيل النجاة

والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

١٦ - (كتب عليكم الصيام)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م].

١٧ - (ثلاث رسائل في الفقه)، للعلامة حسن الشرنبلالي المتوفى سنة [١٠٦٩هـ]، وهي على النحو التالي:

أ. (دُرُّ الكُنُوزِ فمن عمل بها بالسعادة يفوز). وهي منظومة في أحكام الصلاة.

ب. (سعادة الماجد بعمارة المساجد).

ج. (إتحاف ذوي الإتيقان بحكم الرهان). مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٨ - (عنوان الأصول)، لأبي حامد المطرزي. مع شرحنا له، مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٩ - (أحكام الجنائز)، لإبراهيم بن يوسف البولوي، توفي سنة [١٠٤١هـ]. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٥هـ].

٢٠ - (إتحاف المهتمين بمناقب أئمة الدين) مختصر (تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين) للعلامة الشيخ مرعي الحنبلي، للعلامة الشيخ أحمد الدمهوري المتوفى سنة [١١٠١هـ]، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٥هـ].

٢١ - تحقيق ودراسة وشرح منظومتي الشهداء:

أ. (داعي الهدى بشرح منظومة الشهداء)، للإمام أحمد بن عبد الرزاق المغربي الرشيدي.

ب. (شرح منظومة الشهداء)، للإمام علي بن محمد الأجهوري، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٤هـ].

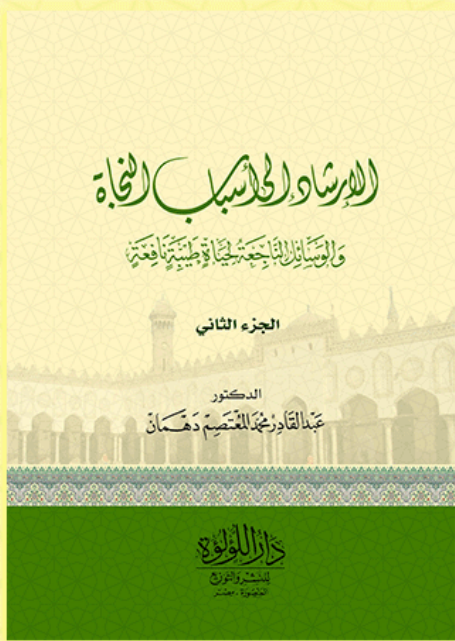
٢٢ - (تحقيق ودراسة رسالتان في الأصول)، لإسماعيل بن غنيم الجوهري المتوفى سنة [١١٦٥هـ]:

الدراسات والأساليب النحوية والوسائد الناجمة عن حياة طيبة نافعة

الجزء الثاني



- أ. (رسالة في جواز النسخ).
- ب. (الكلم الجوامع في مسألة الأصولي لجمع الجوامع)، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٤هـ].
- ٢٣ - دراسة وتحقيق (سورة الفاتحة) من التيسير في التفسير المسمى ببحر علوم التفسير، لنجم الدين عمر بن محمد النسفي [٥٣٧هـ]، لم يطبع.
- ٢٤ - تحقيق ودراسة وشرح لكتاب: (إتمام الدراية شرح نقاية العلوم)، وهي خلاصة مختارة من أربعة عشر علمًا، للإمام جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة [٩١١هـ]، دار الضياء، الكويت، طبع في مجلدين، وقد شارك في تحقيق (إتمام الدراية) الدكتور عبد الرقيب صالح الشامي، وفضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ.
- ٢٥ - (الإفساد في الأرض صورته وأسبابه وسبل الوقاية منه في ضوء الكتاب والسنة)، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].
- ٢٦ - (الخيانة صورها وأحكامها وآثارها في ضوء الكتاب والسنة)، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].
- ٢٧ - تحقيق ودراسة لكتاب: (تبيين المحارم)، لسنان الدين يوسف بن عبد الله الأماسي الرومي الحنفي، مقابل على سبع مخطوطات، بالاشتراك مع الدكتور عبد الرقيب صالح الشامي، وأ.د. إقبال المطوع،، لم يطبع بعد.
- ٢٨ - (مختارات من خطب الدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان)، لم يطبع.



لا بدّ لطالب النجاة والسعادة من سلوك سبيل الأبرار، من الصّالحين الأطهار، في اجتناب أعمال أهل النّار، والاحتراز عن نهج المفسدين الفجار، واتخاذ أسباب الوقاية من المزالق والمضلات، ومن الخوض في فتن عاتيات. ولزوم نهج المصلحين من أرباب البصائر والصلاح، في الاستقامة والثبات على صراط الله تعالى المستقيم، وشرعه الحكيم، من الفعل والتّرك، والتحلي والتخلي، والفقه والعمل، حتى يحيا في الدّنيا حياةً طيبةً نافعة، ويجازي في الآخرة بأحسن ما كان يعمل، فيكون من الفائزين بخيري الدنيا والآخرة. وقد حذرنا الشّارع من

أعمال أهل النّار، وأرشد العباد إلى أعمال تصلح أحوالهم، وتنجيهم من الأهوال والآفات، وسوء العاقبة، وتقيهم في الآخرة من عذاب النار. وقد كنت قد أفردت بالبحث: ما تُوعَد عليه بالنار مع بيان أسباب الوقاية والنجاة، كما أفردت ذكر العقبات التي تُصدُّ عن الهداية، مع بيان سبل الوقاية والعلاج منها. وجاء هذا الكتاب متمماً لأسباب النجاة العامة، ومذكراً بالأعمال الجليلة التي خصت بمزيد من الفضل، والتي هي من أسباب النجاة، وحسن العاقبة، ورفعة الدرجات في الآخرة. وقد كنت قد كتبت شيئاً من بعض موضوعاته قديماً، فرأيت أن أتمه: لما رأيت من كونه مكماً لتلك الأعمال السابقة، والله تعالى أسأل أن يكون نافعا، ومثمراً، وأن يكون أثراً باقياً.

وبناء على ما ذكرت فإن هذا المصنف يكون متقدماً ومتأخراً على اعتبار اللاحق مما أضيف. والسابق مما

تقدم..

د. عَبْد الْقَادِرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْغَزَالِيُّ

دار البحوث والنشر والتوزيع

@DarElollaa
Dar_Elollaa@hotmail.com

الأهر: شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر

01050144505 - 0225117747

المنصورة: عربة عقل - بجوار جامعة الأزهر

01007868983 - 0502357979